طَوَابِير الخَوْف

طَوَابِيــر الخَــوْف

(عِنْدَما يُسَاقُ النَّاس للمَنْطِقَةِ صِفْر)

مُصطفى يحــيى

ن للنشر والتوزيع

يقولُ تعالى:

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)

سورة النمل ٥٦.

صدق الله العظيم

أُحِلَّ لكم أن تعيشوا مطايا

وأن تزحفوا للمنايا

جياعاً عرايا

وأن تشحذوا من أيادي البغايا

بقايا الطعامْ .

أُحِـلَّ لكم أن تُميتوا

وأن تستميتوا

ليحيا النظام .

أُحِلَّ لكم أن تموتوا

ويبقى لنا وجهُ أمِ المعاركِ

وابن الحرامْ !

من لافتات أحمد مطر

إلى والديّ..

"رب ارحمهما كما ربياني صغيرا"

إلى شهداءِ الظلمِ، وضحايا القهرِ والفسادِ، ومعتقلي الرأي في كل مكانٍ وزمان.

إلى زوجتي ...

أول من أيّدتني في تمردي، وكشفت عني غُمامتي، ودفعتني إلى أبوابِ الحقيقة !

إلى صُهَيب...

كُن كما أمر الله، ولا تيأس.

تدور أحداث الرواية في العام ٢٠٥٠ وما حولهُ، لهذا فكل أحداثها بلا استثناء هي من وحي الخيال ولا تمتُّ للواقعِ بصلةٍ، وأي تشابه بين ما ورد في الرواية من أسماءٍ أو شخصياتٍ أو مؤسساتٍ أو دول أو أحداث للتاريخِ أو أي شيءٍ آخر، وبين الواقع؛ إنما هو من قُبيل المصادفة البحتة غير المقصودة.

ما لاقته مريَمَة كاريدجو

في رحلتها الأخيرة...

(١)

مرَت السيارةُ إلى جوارها في سرعةٍ، لم تفهم ما الداعي إليها.

وقفت على الناحية الأخرى من الطريق تنتظر الحافلة. عليها ألا تركب إلا حافلة تحمل شعار (أمان)، لهذا اضطرت للانتظار طويلاً، وهو شيءٌ غير محبب خاصةً مع السحب الحمراء الداكنة التي تحتشد في السماء.

بقيت ساعات قليلة على اقتراب الكسوف الكليّ للشمس، وهي لم تطق صبرًا على الانتظار.

الأطفال والمراهقون يمرون في الشارعِ رابطين حول رءوسهم الحبال السوداء المعقودة؛ التي تؤكد انتماءهم لرابطة (الجيل الأسود) يتضاحكون، يتضاربون بأسلحتهم البيضاء الغليظة، يتقافزون فوق بعضهم، ويحتشدون فوق كورنيش البحر أمامها والذي تحتشد في أفقهِ الغيوم، يصوّرون بكاميراتهم لحظات اقتراب الكسوف تدريجيًا، ويتابعون – بتحفزٍ- المارة الذين يتجنبونهم ويبتعدون عنهم.

في (أزواغ) - حيثُ نشأت - يعرف الناسُ جيدًا خطورة أن تعطي الطفل سلاحًا ليدافع بهِ عن نفسهِ، وأهمية أن يحقق أولا إرادته بالتخاطب والكلام، فيلمس الحق فيما يقول، والغث فيما يريد.

صغيرةً جدًا كانت؛ لدرجة أنها لا تذكر كم كان عمرها، عندما قرر أبوها أن يدربها على القتال بالسيف، لكنهُ وقر في قلبه مدى اتزانها، وأهمية أن تبدأ في الدفاع عن نفسها وعن أمها، فهو لا يعرف في أي طلعةٍ من طلعاتهِ في مناجم الشمال، أو في حماية (عولام) يمكن أن يُقتل.

لم يكن للقتل رهبةٌ، ولا للحياةِ رغبةٌ في نفسها، ولم يبق سوى الحزن والإصرار يتلاعبُ بخيالها بعد كل ما عاصرتهُ في تلك البلاد، بعيدًا عن (عولام) و(أزواغ).

عادت إلى الطريق ومتابعتهِ، الناس تسير بكثرةٍ في اتجاه الغرب، يبدو أنهم يبتعدون بذلك عن المظاهرة الضخمة – الأخيرة غالبًا- لثوار القمر، والتي يعلمون أنها على بعد عدة كيلومترات في اتجاه الشرق.

أتت حافلة تحمل شعار (أمان) بقبضتهِ المرفوعةِ الدامية، متجهةً إلى الشرق ولهذا ركابها قليلون، لكن هذا لم يمنع فرد الأمن في غرفة المراقبة بجوار السائق من أن يكون متحفزًا لكل راكبٍ جديد.

جلست في الطابقِ السفلي، ولاحظتْ كاميرات المراقبة فوق كل كرسيٍّ وبجوارها فوهة الطلق الناري المستعدة لإطلاق رصاصة في رأس كل راكبٍ لا يلتزم بتعليمات (أمان).

ربطت حزام المقعد حولها. وضعت أصبعها مستعدةً على زر النزول الذي تضغطه لاستئذان المراقب في فك حزام المقعد والقيام من جلستها للنزول في المحطة المخصصة.

جوارها كهلٌ، وأمامها مقعدان، يجلس فيهما متجاورين: امرأةٌ في منتصف الأربعينيات، ومراهقٌ رقيقُ القسمات يبدو عليه الهدوء وهو يتابع الطريق ويدير عينيه فيما حوله كل برهة.

من النادر أن تجد مثل هذا المراهق الهادئ، لم يبد في ملامحهِ شيء من السمات الخمسة للفريسة التي تعلمتها من مازن، ولا طباع الإجرام التي استخلصتها من وجوه المستأسدين.

الكهل الجالس جوارها بدا أن له رأيا مختلفًا، فهو يضم قدميه بعيدة حتى لا يصطدم صدفة بهِ، ويرفع عينيه عن هاتفهِ المحمول الملتصق بيدهِ فترتعش يده الأخرى الممسكة بريشة القلم ليتأكد من استمرار هدوء المراهق.

نظرت لما يفعله الكهلُ على هاتفهِ، فوجدت أنه يكتب رسالةً ما. لم يكن التلصص طابعها، لكنها قلقةً من جانبهِ، ربما لأنها وجدتُ فيهِ السمة الأولى للفريسة ؛ القلق.

حاولت أن تدقق فيما يكتبه، فقرأت:

(لقد عشتُ حياةً خاطئة، كل ....

شدَّها الإعتراف، وشعرت بشيءٍ من الأهمية نحو ما يكتبهُ. طريقته كذلك توحي بعمق ما يعانيه. يكتبُ كلمة، يحملقُ في الفراغِ وفي الطريق الذي لا ينتهي، ثم يعودُ فيكتبُ كلمةً أخرى.

(لقد عشتُ حياةً خاطئة، كل ما أردتهُ هو ......

أما المرأةُ فهي على قدرٍ من الجمالِ والأناقة، جيبتها طويلة ضيقة توحي بأنوثةٍ مزدهرة، عيناها تحملُ مزيجًا من المكر والعبث. تُخرجُ من حقيبتها قطعةً من البسكويت المحمص لتأكلها،وهي تتابع الطريق.

عيناها مقلقتان، تتفحص كل شيءٍ حولها بطريقةٍ مزعجة، وهو القانون الأول للصياد: المراقبة.

(كل ما أردتهُ هو الاستقرار والطمأنينة .....

الطريقُ شبه خالٍ، لكن الحافلة تسير ببطءٍ لوقوفها في كل إشارة مرور.

بالرغم من أن الوقت فعليًا منتصف الظهيرة، إلا أن الشمس المائلة للكسوف جعلت الأجواء تبدو كأنها على وشك الغروب.

بقيت حوالي ساعة على بداية الكسوف الذي سيستمر عدة ساعات، وعليها أن تنهي كل شيءٍ قبل هذه الساعة.

(مطلبُ صغيرٌ لإنسانٍ بسيطٍ لم يطلب كل الحياة، وزهد في مجدها....

المرأة تنظر من فترة لأخرى إلى المراهق الذي بدأ يلاحظ اهتمامها، فأخذ يتابعها على فتراتٍ متباعدة.

اقتربت من مول (ميامي) الذي احتشدت عنده مظاهرات ثوار القمر.

نوَّه المراقب عن ذلك في مكبر الصوت، وطلب من الجميع الهدوء، ثم أدار المذياع، فتسربت إلى أجواء الحافلة موسيقى هادئة رومانسية عالية، فعزلت الجميع عن الأجواء الخارجية.

بدأت ترى طلائع الثوار على جانب الطريق تقف رافعة لافتاتها الضوئية:

((لا للقتل))

((لا لاستغلال الشعب))

لم تفعل تلك الجموع شيئًا إلا الثبات والثقة، هي تحمل لهم احترامًا وتقديرًا يفوق الوصف، وتشعر بنقائهم ونبلهم.

تمرّ لافتةً أخرى:

((اعرضوا الحقيقة يا آلهة الأوليمب))

يقفون في سلاسلٍ بشرية، لا تعرف ما سبب تأخير تصفيتهم حتى الآن، إلا ظنها باقتراب وقوع الكارثة.

((أعلنوا عن مستعمرة القمر))

بدأت تشرأب أعناق الركّاب لمتابعة ما يحدث، بما في ذلك المرأة الأربعينية، والمراهق الشاب، إلا الكهل الجالس بجوارها بدا أنه غرق مع الموسيقى الهادئة، ورفع رأسه إلى السحاب، وأخذت يده الممسكة بريشة الهاتف ترتعش بشكلٍ متصل:

(تخيل ما يمكن أن تسفر عنهُ النهايةُ من ألمٍ وشقاء، ....

ملامحه جامدة، حاجبان مرتفعان كمحاولة لتدقيق النظر ليرى ما يكتبه بهذا الخط الصغير، حزنٌ بادٍ في عينيه تكسره هذه البسمة الحزينة المستسلمة.

يخرج نظارته الشمسية ليرتديها، فيبدو أنه يبذل جهدًا مضنيًا لحبس دمعةُ شامخة ترفض الخروج.

تمرًّ لا فتة أخرى:

((كفوا أياديكم عنا، لا للتدمير))

ثوار القمر هو الاسم الشائع الذي منحه الإعلام لمجموعة من الشباب الهائج الذي يتهم اللجنة الحاكمة ببناء مستعمرة على القمر، وإخفاء حقيقتها عن الشعب.

إلا أن الإعلام والناس قد أوسعوهم في البداية سخرية، وخرجت الأفلام الهزلية التي تسخر منهم فانتشرت حتى كادت تكون صناعة مستقلة بنفسها، هي تذكر أنها شاهدتُ فيلمًا من هذه الأفلام، يتناول الحياة في بُعدٍ موازٍ لنا، يسكنه المختارون من الناس فيرون الشعب دون أن يراهم، تذكر أن اسم الفيلم كان (عائلة شلبي) أو شيئًا كهذا، وهي عائلة أفرادها من الأغبياء والسذج الذين يسكن معهم في نفس البيت -ولكن في بُعدٍ آخر -هؤلاء المختارون، فيضربونهم على مؤخراتهم، أو يسرقون منهم أطعمتهم وأموالهم، أو يضاجعون نساءهم السذج الذين لا يفرقون في الظلام بين أزواجهن ورجال آخرين.

حاولالفيلم أن يسخر من فكرة ادعاء الثوار من أن يكون الشعب أشبه بهذه العائلة المضحكة والمضحوك عليها. كبرياء المجتمع وغروره كان يلخص الأمر بهذه السطحية ويترفع عنها. لم يعرفوا أن حالهم أكثر بؤسًا وشقاءًا.

لكن هذا لم يؤثر هذا في إصرار ثوار القمر. بدأوا في سوق الأدلة لتأكيد ما يقولون وكان أكبر أدلتهم فيلما كاملاً لأحد الجنرالات أثناء نزوله إلى المستعمرة على سطح القمر.

خطبة الشيخ عطية الله المسربة من احتفالات المدرسة العسكرية الدولية كان دليلا آخر في جعبة الثوار.

الأصوات المعادية للثوار تتهمهم بتشتيت مجهودات البلاد في قضايا وهمية. يقولون أن لا وجود لشيءٍ اسمه مستعمرة القمر، وأن الأهم هو الاهتمام بقضايا البلاد الحقيقية. كانوا يطالبون بإعدام عملاء المنطقة صفر.

الكهل لا زال غارقًا في رسالته، يلملم شتات عالمه البعيد الماضي، ليكتب كلمته النهائية عن حياتهِ:

(زرعتُ في أعماقي محبة لهذا الوجود، فلم يشفع لي شيء..

احتشاد المتظاهرين يغرق الأرصفة فلا تبدو مساحةً شاغرة لقدم، ولا زالت لافتاتهم تضيء على لوحاتهم الإلكترونية:

((الشعب هو السيد، لا سيد فوق السيد))

المرأة الأربعينية تبدأ في الابتسام للمراهق الشاب. تمد يدها لتبحث في حقيبتها عن شيءٍ ما. تُخرج قطعة بسكويت محمص تقدمها للمراهق الشاب، فينظر بشكٍ لها، ويمد يده متوجسًا. تُخرج واحدة أخرى من حقيبتها وتأكلها.

يضيءُ مصباحٌ أحمر بجوار نافذة الشاب، ويعلو صوت المراقب الغليظ:

- المقعدان ٣٩ و٣٧ ،إنذار لأي حركة فجائية أخرى، بعدها ستستخدم (أمان) حقها في حفظ الأمن.

تتوتر ملامح الشاب الصغير وهو يمضغ قطعة البسكويت، بينما تبتسم المرأة الأربعينية ابتسامة غريبة، والكهل ينظر حوله بقلق ويتأكد من رقم مقعده، فتلمح باقي ما كتبهُ:

(ولم انتبه للعصر الذي أعيشه، ولا للناس التي أعايشها، تركتُ في قلبي إرثًا من العذاب الذاتي.

تضغط المرأة الاربعينية زر الاستئذان في النزول، وتنتظر، فيضيء مصباحًا أخضر. ينفتح حزام المقعد، ويسقط على جسدها مجموعة من أشعة الليزر لتتابع حركتها، استعدادًا لتصفيتها مع أول حركة فجائية، لكن المرأة تسير في

هدوء حتى تصل إلى باب النزول، فتلقي نظرة على المراهق الذي توترت ملامحه وبدأ في التشنج.

(ووضعتُ نفسي وما أملك تحت قدم أول وآخر امرأة أحببتها وتزوجتها وأنجبتُ منها كل أولادي .....

تنزل المرأة.

الشاب يتشنج في قوة..

ينغلق باب الحافلة..

الشاب تخرج من فمه رغوة بيضاء، ويبدو أنه يموت..

المرأة تتجه إلى الحشود الواقفة على الرصيف، تلقي نظرة على الحافلة، وعلى الشاب الذي انقطعت أنفاسه، وتضحك بشغفٍ غير عادي.

المراقب:

- الجريمة رقم ١٣ لهذه الرحلة، جريمة مجانية مورست ضد المقعد رقم ٣٧، بعد إنذارٍ أحمر.

ينتبه الكهل لما يحدث، وتعلو ملامحة بسمة خفيفة فيها قدر من البؤس والألم:

(ولم انتبه في غمامة الحب إلى حقيقتها الصادمة، ولم أفهم قدرتها على خيانتي طيلة هذه السنوات الطويلة،

الشاب ارتكنت رأسه للوراء، وانعكست صورتهُ على زجاج النافذة الذي يُظهر مدينة توشكُ أن تغرق في الظلام بعد سويعاتٍ قليلة.

(لم أنتمِ يومًا لهذه الأرض ولا لهؤلاءِ البشر، ولا أعرفُ برغم ذلك كيف تخطيتُ الستين، ربما كانت الغفلةُ تطيلُ العمر الذي أوشك على الانفلات،

تنعكس ملامح الشاب الهامدة على لافتات الإعلانات التجارية التي تعدك بحياةٍ لم تكن تتصورها إن فعلت ما تمليهِ عليك. في سير الحافلةِ المهرول بين الزحامِ تنعكسُ ملامح الشابِ المتجمدة على أضواء المولات العملاقة، وعلى لافتات الاعتراض للشباب الغاضب الصامت، وعلى الجدران الخارجية لناطحات السحاب، وجوانبها الزجاجية الملتوية.

((لا لتفجير مول ميامي التجاري))

تنعكس صورة الشاب الصغير ورغوتهِ البيضاء التي تسيل من فمهِ على المدينة التي تقبع بالخارجِ في البرد، والظلام.

(اذهب إليها في مثواها الأخير ،

والتي ستخرجُ إليها، أو ستخرجُ منها بحثًا عن أملٍ –قد لا يوجد- في الفضاء.

يتملكها شعورٌ بالرهبةِ، وتسري في عروقِها قشعريرة طويلة.

الكهل يكمل قصتهُ.

(ستجدها محتضنة شمعتها السوداءُ مشتعلة، فلا أعرف هل أحرقت النار الدماء، أم أطفأت الدماء كل النيران الهائجة.

تبدو المدينةُ كشعلة ملتهبة، رجال الجاساك ونيرانهم الليزرية؛ تطول كل من يحملُ في أعماقهِ جملة اعتراضيةٍ، وقف يحاولُ أن يطلقها ضد تدفق النظام وسريانهِ المحموم عكس الطبيعة.

تضغط زر النزول. ينفتح حزام المقعد. تقرأ كلمة الكهل الأخيرة:

(ثم أدعو لنا بالرحمة)

يرسل الكهل رسالته.. يبتسم.. ينظر للكاميرا فوقه.. ينقل بصرهِ إلى السحب التي تبدو من تجويفات المباني الشاهقة. تتحرك شفتاه بتمتماتٍ غامضة.

تقوم من جلستها، فتبدأ العين المستديرة في مراقبتها بأشعة الليزر الحمراءو فوهات ثمانية تدور في اتجاهها استعدادًا للقنص.

الكهل يغمض عينيهِ، يمسك حزام المقعد ويشده في عنفٍ مفاجئ ليقوم من جلستهِ، فترده دفقة سريعة تنطلق من جوار الكاميرا؛ تترك ثقبًا ملتهبًا في جبهتهِ، وتخمد حركته.

تكمل طريقها إلى الباب:

- إحباط المحاولة رقم ٧ لهذه الرحلة، محاولة عنف من المقعد رقم ٣٥ بدون إنذار.

تخرجُ من الحافلة.

تختلطُ بالثوار ولافتاتهم المنتشرة على طول الرصيف.

((عطية الله فضحكم، أعلنوا عن المدهامتين))

أمامها حوالي مئة متر حتى تصل إلى مدخل الأنفاق. رجال الجاساك ينتشرون في كل مكان.

تنطلق حناجر الناسِ بالغضب من الثوار، ويدعون اللجنة لقتلهم، ويصفونها بالضعف والهشاشة؛ لأنها لا تستطيع توفير الأمان المناسب ضد كل من يؤرق استقرارهم مدعيًا حرية رأيه. ينطلقون في سب الحرية التي تسمح بسحب الناس لمتاهاتٍ كأسطورة مستعمرة القمر.

يقول البعض:

(لنفترض أن هناك مستعمرة في القمر، ما شأننا بهذا الهُراء)

تلمحُ صيدليةً على جانب الطريق، على جانبها شعار شركة (هرقل) للأمن، تضغط بأصبعها باستمرارٍ على زر الدخول الذي يأخذ بصمتها، وقطرةً من دمها لتحليلها وقياس مستوى الهرمونات.

ينفتحُ الباب وتنفتحُ معه فقاعة هرقل التي تحتويها وترفعها عن الأرض. تبدأ شاشة الاستقبال فيها عن سؤالها عن حاجتها، فتجيب:

- تنقية شاملة.

تتوجهُ بها الفقاعةُ إلى أعلى حيث قسم (ثانتوس). تخترق الفقاعة كرسي التحليلات، فتجلس عليهِ وفقاعةُ (هرقل) تحتويها. تخترق الوصلات الطبية ذراعها في أماكن مختلفة، ثم تخترق مؤخرة عنقها إبرةٌ أخرى.

- مستوى الغضب ٢٠%، مستوى الحزن ٩٠%، لا توجد رغبةٌ في العنف، احتمال القيام بجريمة كراهية ٥%.

تنفّضُ الفقاعةُ، فتشمّ رائحة المكان العطرية.

تغمض عينيها في هدوءٍ طلبًا للسكينة، بعد عدة دقائق تنسحب الوصلات الطبية من جسدها. يصدر التقرير الطبي:

- مستوى الغضب ٠%، مستوى الحزن ٣%، لا يوجد رغبةً في العنف، احتمال القيام بجريمة كراهية ٥%، سعر العملية ٥٠٠ دولار.

تضعُ أصبعها في تجويف كرسي التحليلات الذي ظهر، لخصم القيمة من حساب مازن البنكي.

- تم تحويل العملية للخصم من حساب (مازن إبراهيم على صالح) وفقًا للتعليمات المستديمة.

ثم:

- تم الخصم بنجاح.

تحيطها الفقاعةُ غير القابلة للاختراق من جديد لنقلها إلى بوابة الخروج.

تُكمل مسيرتها بين الحشود الغاضبة، يبدو لها غضبهم كأنه شيءٌ بعيدٌ جدًا، حتى أصواتهم كأنها من ماضٍ سحيق.

تتذكرُ وجهتها فتُكمل ناحيتها دون وعيٍ تقريبًا...

وصلت إلى بوابة مول ميامي، بعض المهندسين يقفون بأدواتٍ كثيرةٍ مع المتظاهرين، معظمهم من الشباب، إلا أنهم لم يملكوا جروحًا بالخدِّ أو الجبهة كما هي العادة. مناقشاتٌ حادة كثيرة مع رجال أمن البوابة ليدخلوا ويثبتوا

لهم أن هناك قنابل موقوتة بأساسات المبني، وهم قادرون على إيقاف مفعولها.

يزجرهم رجال الأمن، وزوار المول بعنفٍ على تضييعهم للوقت والمجهود، ويطلقون التحذير وراء التحذير.

يصرخ أحد الزوار بوجهٍ مجنونٍ في وجوههم:

- أيها المجانين، لماذا لا تموتوا ؟

ويصرخ آخرٌ بوجهٍ مشمئزٍ غاضب في رجال الأمن:

- اقتلوا هؤلاء الكلاب الخونة!

ويصرخ ثالث بوجهٍ قبيحٍ ممتلئًا بالطعنات:

- اقتلوا الشواذ ناعمي الوجوه!

تُكملُ طريقها مبتعدةً إلى بوابة الأنفاق.

تشعر بالغضب من غباء الناسِ ورجال الأمن، تشعرُ بالغضب من المتظاهرين، أعماقها تهيجُ والحنق يتصاعدُ في عروقها ويشتعل.

تعدو مسرعةً، تقلق من فكرة أن تعلو نسبة جرائم الكراهية بدمها فلا تجتازُ بوابة المكوك الذي يقترب وقت رحيله بسرعة، كما تلحظ استعدادت إغلاق الأنفاق تبدأُ على مرمى بصرها.

تُخرج من حقيبة مازن- التي تحتوى على كل أسراره التي قلبت مصيره - التذكرة الإليكترونية، تقدمها لرجال الأمن فيأخذون بصمتها وقطرةً دمٍ من أصبعها.

لحظات ويصدر التقرير الأمني:

- مستويات الأيروس والثانتوس في معدلاتها المقبولة، احتمالات القيام بجريمة مجانية ١%، احتمالات القيام بجريمة عنف ١% احتمالات القيام بجريمة كراهية ٧%. التصنيف الأمني: مقبول.

تخطو إلى داخل الأنفاق. السلم الحلزوني ينقلها بانسيابيةٍ شديدة إلى أسفل.

شعارات المدرسة العسكرية الدولية "IMS" في كل مكان، دليلٌ لايقبل الشك على أهمية المكان الفائقة.

المدرسة العسكرية الدولية، التي تخرَّج فيها مازن، والتي تتولى المهام الأمنية العليا بتكليفٍ مباشر من اللجنة فلا تتركها للشركات المختلفة مهما كان معدل انضباطها. الـ "IMS" هي المسئولة عن تأمين رحلتها الأخيرة التي أعطاها مازن إياها بعد أن باتت احتمالات عدم قدرتهم على إحباط المخطط "X" تتزايد.

يصل بها السلم الحلزوني إلى محطة الإقلاع. تمر بتفتيشٍ ذاتي سريعٍ، وكشفٍ على بصمة العين.

يحاول رجل الأمن تفتيش الحقيبة التي تحملها فيجد شعار الـ "IMS" على قفلها، فيتأكد من صحة الشعار ودقته ثم يسمح لها بالمرور إلى كبسولة الطاقة.

الكبسولةٍ عملاقة، تسافر في الأنفاق بسرعةٍ تتجاوز خمسة آلاف كيلومتر في الساعة تحت عمق البحر. تحاول أن تتخيل شكل المكوك الفضائي الذي سينقلها للقمر؛ فلا تستطيع.

داخل الكبسولة، تختلف الأجواء كثيرًا. ينتشر في فضائها تقسيماتٍ تشبه الكبائن الكبيرة، بين كل كابينةٍ وأخرى باب ضخم تستقر فوقه لوحة كمبيوتر كريستالية تعرض مشاهد من خطبة الشيخ عطية الله في احتفالات المدرسة العسكرية الدولية.

تسمع:

- فليحفظ الله وطننا الغالي، ويعين لجنة حكمائنا على ما تقدمهُ لنا من عطاءاتٍ فاضلة.

تجلس على المقعد الوثير، تلحظُ المجسات الحساسة التي تنتشر بنعومةٍ لتقيس المعدلات الحيوية للجالس، تحتاط لاحتمالية قيامه بأي بادرةٍ غير متوقعة.

تمرُّ مضيفةٌ أنيقة:

- ستبدأ الرحلة بعد ثلاثة دقائق، نصل المركز المصري لأبحاث الفضاء خلال نصف الساعة من الآن، بعدها استعدوا للخروج من كوكب الأرض.

تبتسم ابتسامةً واسعة. يبتسم لها الجالس في المقعد الأمامي. يقول عطية الله في ختام كلمتهِ:

- ما أروع هاتين الجنتين المدهامتين المحلقتين في عمق السماء.

تنغلقُ أبواب الكبسولة، وتنغلقُ النوافذ الكريستالية لتعرض كل ما يدور خلفها، بعد أن تحولت لشاشاتٍ عملاقة.

عطية الله يمط صوته:

- مدهاااامتان. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ بأي آلاءٍ تكذبون بروعة صُنع هاتين المدهامتين.

تضع على أذنيها سماعتين ضخمتين، تتسرب إلى أعماقها موسيقي هادئة. تشعر بحركةٍ انسيابيةٍ كأنها أرجحة خفيفة.

تنطلق الكبسولة.

* * *

أيامٌ في (جوثاي)!

ما حدث في النيجر قبل ثلاثة أعوام

قوانين الصيّاد الثلاثة:

المراقبة.

الهجوم.

الانتقام.

النصف الأول

الدفعة ٥٢

(الاسم الكودي: القنَّاصون)

(اللون المميِّز: الأسود)

ثقب F٨٧.

المنطقة صفر: مساحةٌ محفوفةٌ بالخطر في عقل أي مواطنٍ في دولة، تمثل لوحة القيادةِ التي إذا امتلكتها امتلكت قيادة المواطن. لتعريف المنطقة صفر بشكلٍ أكثر تحديدًا، يجب أن نتحدث عن التجليات الثلاثة لنظريةِ المنطقة صفر.

(من الأوراق السرّية للجنرال أدهم الجبليّ)

* * *

يقفُ على قمة الهضبةِ ملتحفًا بالسوادِ، بندقية القنص الليزرية بيدهِ، يشدُّ أنفاسًا عميقة، ينظرُ نحو الطريق الجبليّ الممتلئ بالترابِ أسفلهُ.

الهواء أقل سخونةٍ، أكثر جفافًا، يتلاعب ببدلتهُ الواسعة. في وقفتهِ هذه، يشعرُ بانتشاءٍ غير عاديّ وهو يتابعُ الأهداف الثلاثةَ تحتهِ تتحرك في أماكن مختلفة.

صديقه يقفُ على عدة كيلومترات يراقب كل شيءٍ ويسجله.

يفرد ذراعيهِ فينفتح الرداء الطائر المثبت بهِ ببندقيته. يقفزُ دون تردد.

أسفلهِ رجلٍ ملثمٍ بلثامٍ أزرقٍ داكن يدور في الأنحاء ممسكًا سلاحهُ.

فُححححححح..!

دفقة الليزر تُحول النقطة الزرقاء الداكنة في منظارهِ الليلي إلى نقطةٍ حمراءٍ ملتهبة.

يتنبهُ ملثمٌ أزرقٌ آخر، يلمحُ بحسٍ خارقٍ صوت الخفاش العملاق المحلق فوقه فيركضُ في خطٍ متعرجٍ ويتوارى تحت نتوءٍ في الجدار الصخري للهضبة.

فُحححححح..!

دفقة أخرى من الليزر تصيب الأرض وراء الملثم الراكض قبل أن يتوارى سريعًا.

يُشغل مضاد الجاذبية ليرتفع مرةً أخرى، يدور حول نفسه في دائرةٍ،

الملثم المختبئ يلمحه، يوجه سلاحه الناري تجاهه..

تراك..!

تصيب الطلقةُ جناحه الأيمن في المسافةِ بين ذراعه المنفردة وقدمه.

الملثمَ الثالث على مسافةٍ كبيرةٍ أثار انتباهه الصوت المكتوم لطلقة زميلهُ فيقوم من جلستهِ أمام النار.

يلمحهُ فيتوجه إليهِ سريعًا.

فُحححححح..!

يتحول الملثم الثالث إلى شعلة نارٍ متحركةً بجوار النار الثابتة التي كان جوارها من دقائق.

يلفُ في دورةٍ أخرى مع مضاد الجاذبية مرتفعًا لأعلى.

تراك..!

يسمعُ صوت الطلقة التي أخطأته، لم ير مصدرها جيدًا.

يشغل نظام التخفي، يتلاشى الخط المميز لحدود معالمه مع خلفية السماء المظلمة إلا من نجومٍ شديدة الخفوت.

يلقي قنبلة حارقةً ناحية الكتلة الحمراء، يمتزجُ وهجُ القنبلةِ الأحمر في منظارهِ بالوهج الداكن للكتلة الحمراء المتحركة، ويعلو صوتُ زمجرةٍ مكتومةٍ تملؤه رضًا.

يحوم بردائهِ الطائر المثقوب إلى عمق الصحراءِ مبتعدًا.

يهبط تدريجيًا إلى الأرض على بعد عدة كيلومترات بالقرب من سيارةٍ سوداءٍ يخرجُ منها شابٌ يرتدي البدلة العسكرية المميزة للمقاتلين، وشعارها "IMS" البارز بحوافهِ النارية.

يضحك الشاب وهو يرتعش من الانفعال:

- لك الحق يا مازن، لك الحق.

يخلع رداءه الطائر في سكونٍ وثقة، زميله يكمل:

- لم أصدقك حين قلت: إنك ستعود سالمًا.

يدخل السيارة ليجلس في مقعد القيادة بينما ينتقل رفيقهُ إلى المقعد المجاور:

- صورتُ كل شيءٍ بالأشعة تحت الحمراء بدقةٍ عالية، هذه المناورة يجب أن تُدرس للدفعات التالية.

أعجبتهُ الكلمة بشدة، ملأت كبرياءه، وملأته رضًا، ابتسم ابتسامةٍ باهتة، وقال في شيءٍ من الغضب وهو يشير للخلف حيث وضع رداءه المثقوب:

هذه الأشياء، لماذا لا تكون مضادة للرصاص؟

نظر زميلهُ له في دهشة:

- وما الداعي ؟

من مسافة خمسة كيلومترات لم يكن في إمكان أحد أن يرى بالأشعة تحت الحمراء الرصاصة التي أصابته، ولا أن يسمع صوتها.

مد مازن يده فالتقط الرداء بحركةٍ بدت تلقائية، حين مد رفيقه يده إلى الرداء.

مسك قطعة منه وأكمل:

- هذه الأقمشة المصقولة القوية، يمكن أن تعكس أو تمتص الليزر، لكن الرصاص يمكن أن يخترقها بسهولة.

ألقاها في إهمالٍ خلفة من جديد:

- يجب أن نحتاط لجميع الاحتمالات، لا أحد من هؤلاء الهمج يستخدم الليزر. لكنهم يستخدمون الرصاص كأنهم يستنشقونه.

ضحك رفيقه بانتشاء وهو يفرد ذراعيه حوله ويقول:

- هذا هو مازن قائد الصف، لا يشعر بالرضا حتى بعد هذه المهمة التي لم يكن يصدق أحد أن تتم بهذه السرعة والمهارة.

يهمه كثيرًا ألا يكتشف أحد الثقب في ردائهِ، الدليل المخجل على تحولهُ من قنّاصٍ إلى فريسة، تثير الكلمة شعورًا بالوضاعة داخلهُ.

لا زال رفيقه يكمل، في حديثٍ متصلٍ بين الانبهار والشغف:

ستكون هذه المغامرة هي أهم بند في قائمة إنجازاتك، سأسميها لك (عملية القنص الطائر).

لم يعرف هل يضم هذه المغامرة إلى قائمة إنجازاته ؟ أم يخبئها مع رداءه المثقوب في حقيبته السرية مع ما يخبئ من ذكرياتٍ سيئةٍ ابتداءً من مذكرات والده، والقميص الملون الذي أرغمه رفاق الفرقة الأعلى في المدرسة الابتدائية على ارتدائهِ بالعكس، حتى خطاب رفضه من الالتحاق بالكلية العسكرية بسبب وضاعة نسبه. هو يحمل الكثير في قائمة انتكاساتهِ.

يمكننا أن نجعلها برنامج طويل للتدريب أقترحهُ على باقي القادة في (تيرا) سيتحمسون كثيرًا، وسوف تكون لك الريادة في هذا.

الطريق أمامهُ لا زال طويلاً ضاريًا، لم يحتمل عبارات المدح التي يبحث عنها دائمًا، والتي شكّل بحثه المستمر عنها مصيره واختيارات حياته.

فكرة أن يحوّله هذا الهمجي الشرس من صيّادٍ لفريسة تحاول الهرب هو آخر ما توقعه، لدرجةٍ بخَّرت كل إحساسٍ لديه بزهوةِ النصر، أحرقت كل الإدرينالين الذي تسرب لدمه، أبدلته غضبًا عاتيًا يضايقه المجهود الذي يبذله ليسيطر عليه. لا بد أن يختفي الثقب.

نظر بطرفٍ خفيٍّ إلى رفيقه الذي توقف عن الكلام، وصار ينظر له بشكٍ:

ماذا بك يا مازن، كل هذا الضيق الذي يبدو عليك ؟

فكر سريعًا في الكذبة التي سيحتاجها. لا بد أن يستمر شعور العظمة الذي يحسه من رفيقه؛ بل ويتضاعف:

- الأمر لم يكن سهلاً يا(أمجد)، هذه هي المرة الأولى التي يمارس فيها أحد القنص الطائر الذي كنا نتدرب عليه سابقًا. هذه المرة الأهداف خطرة، ومتحركة وليست ثابتة، السيء في الأمر أن حواس هؤلاء الملثمين خارقة فعلا لدرجة جعلت أحدهم يشعر بحفيف الطيران فوقه على مسافة أكثر من ثلاثين مترًا، كذلك هذه البدلات ليست مضادة للرصاص كما قلتُ لك، مما يزيد احتمالات الخطر لأقصى درجة.

قال رفيقه بنبرةٍ خافتة:

- أنت تستحق أن تكون قائد صف حقيقي، لم تأخذك نشوة النصر من أن تدرك نقاط القصور.

رفيقه يشعر بالغيرة منه، وهو بالضبط الإحساس الذي ينقص مازن لتكتمل نشوته؛ أن يرغب الآخرون أن يحذوا حذوه ويحاولون فلا يستطيعون.

مرّ على (تيلابيرى) آتيًا من الشمال الشرقي، وكان عليه أن يتخذ الطريق الشرقي متوجهًا إلى (تيرا) حيث المعسكر الدولي واستراحات القادة، لكن مازن اتخذ الطريق الجنوبي متوجهًا إلى (جوثاي)، قال لرفيقه حينما سأله عن السبب:

- بقيت ساعتان على بداية دورتنا الحراسية، سأحتاج لمعمل الأبحاث هذه المدّة.

ضحك رفيقه في إعجابٍ شديدٍ:

- سنحتاجُ لمشورة بعض مهندسى الدفعة وبعض الكيميائيين، لن تستطيع أن تقوم بتعديل الزي وحدك.

قال مازن وهو يخفي توترًا عميقًا داخله:

- يمكنني أن أحاول على الأقل.

حينما وصلوا إلى منجم (زاريا) حيث معسكر الأمن، توجه مازن بعد أن أخذ الرداء المثقوب إلى مخزن الأسلحة في الدور الأرضي، انتقى بندقية قديمة تعمل بالطلقات النارية، توجه سريعًا لمعمل الأبحاث، فَرَدَ الزي على الحائط وابتعد عدة خطواتٍ للخلف، أفرغ خزانة الطلقات النارية في أنحاء الرداء، ثم وقف ينظر له بغضبٍ بعد أن تحول إلى مصفاةٍ مليئة بالثقوب.

دخل رفيقه الذي تأخر لإيداع السيارة في مكانها المخصص ليجد المشهد أمامه: مازن تحول إلى شعلةٍ من الغضب.

أخيرًا استطاع أن يخفي ثقب الثوب وسط الثقوب، لن يحتفظ بهِ في حقيبتهِ السرية، لقد انتهى الزمن الذي يحتفظ فيه بانتكاساتهِ وفشله حتى لا يصل لها الآخرون، ترك الثوب مفرودًا على الحائط كما هو، وترك المعمل، وصديقه ، وذهب يبحث عن الهدوء في أعماقهِ المضطربة.

بعد عدة ساعات.

في اجتماع قائد الحراسة معهم بدا مازن شديد الغضب، وهو يستمع إلى تعنيف القائد له:

هذه البدلات التي لا تعجبك، والتي أفسدت إحداها، هي ثورة العصر التكنولوجية، تمتص كل مصادر الطاقة من أشعة الشمس، لأشعة النجوم

والقمر وحتى أشعة الليزر فتحولها لطاقة تنتقل لجسدك عن طريق الخلايا الحيوية، وتسمح لك بالطيران من النيجر هنا لساحل المحيط الأطلنطي.

يرد مازن بصوتٍ حاول أن يجعله هادئًا:

- لكنها لا ترد طلقة ناريةٍ، أو سهمًا قويًا مسمومًا.

يرد القائد في برودٍ:

- الطوارق لا يستخدمون السهام المسمومة.

أطلقَ ضحكة ساخرة، صدها وجه القائد الصارم.

على أن النقاش الذي استمر عدة دقائق أخرى، انتهى بتكليف جديد لمازن:

المقاتل الذي أتى إلى هنا منذ عدة أشهر مكلفٌ بمهمة تطوير الزي الطائر F٨٧ إلى زي مضاد للرصاص كذلك خلال أسبوع من الآن.

كان هذا فوق قدرة مازن على الاحتمال، لقد أخفى الثقب بثقوبٍ أخرى كثيرة في الثوب، لكن الثقب النفسي الذي تركته رصاصة الملثم في روحه؛ اتسع الآن مع تكليف القائد له علنًا بهذه المهمة، كان قد قرر في أعماقهِ أنه سيقوم بهذا التطوير تفضلاً منه فيلقى المدح والثناء، لكنه الآن تحول إلى تكليف سيلقى اللوم والعقاب إن هو فشل فيه.

يعرف أن هذه المرحلة ستقوده إلى دوامة تمردٍ لا يعرف مداها، لم يكن في استطاعته أن يقوم بدور التلميذ النجيب؛ الذي يطيع الأوامر في سكوتٍ، ويلقى التقريع في أدب.

لم يُكتب له هذا الدوركما لم يكتب له دور الفريسة.

لا يشجعه إلا دور البطل الذي يُنظر إليه في إعجابٍ، فإن تعذر تمثيله لهذا الدور لم يجد سوى دور (المتمرّد الذي لا يُلوي عُنقهُ) ليمثل له إرضاءً داخليًا عميقًا، ولا يستطيع رفيقٌ له أن يحتمل عواقبه برغم أنه يثير إعجابه.

وهذا هو الدور الذي قرره في لا وعيه لهذه المرحلة.

بعد أسبوعٍ قدم اقتراح التعديل إلى قائده في وجود زملائه، اقتراحًا مختصرًا جدًا:

(يمكن ارتداء البدلة AX٠٠٦ المضادة للرصاص، تحت الزي الطائر F ٨٧ اتقاءً لرصاص الملثمين فقط، ولا خوف من سهامهم المسمومة لأنهم لا يستخدمونها)

تلقى القائد سخرية مازن بوجهٍ غاضبٍ، كتم رفاقه أنفاسهم انتظارًا لرد الفعل العنيف.

- لماذا لم تقم بتعديل الزي نفسه؟

رد مازن في هدوء:

- دراستى قتالية (قنّاص مقاتل) وليست كيميائية أو هندسية؛ فاقتراحي اقتراح مقاتل، وليس اقتراح كيميائي.

قال القائد بصوتٍ مكتوم من الغضب:

- لماذا لم تكوّن فريقًا من زملائك في الدفعة (القناصون الكيميائيون) و(القناصون المهندسون) ؟

ابتسم مازن في هدوء وهو يقول:

- لم يشمل الأمر بتكليف المهمة؛ السلطة بتكوين فريق.

كتم قائده غضبه، ثم وقع أقصى عقوبة في سلطتهِ:

يُمنع قائد الصف (مازن إبراهيم على صالح) من دخول المعسكر الدولي في (تيرا)، ومن دخول منجم (زاريا) في (جوثاي)، ومن مباشرة مهامه لمدة شهر ابتداءً من اليوم، وكذلك يمنع على مقاتلي الـ"IMS" التعامل معه خلال هذه الفترة، وذلك لعدم حرصه على الإتقان في تنفيذ الأوامر والتكليفات العسكرية.

ملأت ابتسامة مازن وجهه، هذا هو القرارالذي ينتظره لتعديل صورته أمام نفسهِ المثقوبة، وفي نفس الوقت هو مهمةً بطولية في نظر زملائه؛ الاصطدام المباشر بالطوارق والفولانيين.

حينما خرج من اجتماعه، ابتسم له فهد - زميل غرفتهِ القديم - وقال له:

سأنتظر طلبك لي حين تقرر البدء في تطوير F٨٧.

ابتسم مازن وهو يهز له رأسه تأكيدًا، فهد من (القناصين الكميائيين). وهو أكثر من يفهم طبيعة مازن وشخصيته، ويعرف أنه سيبدأ في تطوير الرداء حين يحلو له هذا، ويعرف أن شروع أي أحد آخر في الدفعة في هذا التطوير - حتى لو تكلف رسميًا به - يعني إهانةً لا يمكن غفرانها من قبل مازن.

آنذاك سيمكنه القيام بهذه الهمة، لينال التقدير والانبهار.

سأله مازن بصوتٍ خفيض:

- البندقية WP-١٧ من مخزن الأسلحة، أريدها.

أطلق فهد ضحكة عالية أتبعها بصرخةٍ قتالية ممطوطةٍ.

هذا السلاح الناري هو آخر تطور وصلت له أسلحة القنص النارية التي تستخدم الرصاص، ومداها يصل إلى ٥٥٠٠٠ متر، وعلى مدى ٥٠٠٠ متر يمكن أن تخترق عشرة أشخاص، وقطر طلقتها يصل إلى ثلاثة بوصات.

قال في حماس:

- لقن الهمج درسًا لا ينسونه.

ثم خفض صوته متابعًا وهو يمد له يده بهاتف S٧ الدقيق، وأكمل:

- إذا احتجت أي شيءٍ أبلغني.

قرار القائد بمنع التعامل مع مازن، يعني بالنسبةِ لهم، أن يوصم كل من ينفذه بالجبن والعار.

لهذا ضمن مازن مساعدة كل أفراد الدفعة له، وإن قرر في أعماقه أنه لن يطلب مساعدة أحد، وأن يواجه الصحراء العارية عاريًا من كل شيء.

بعد عدة دقائق كان يقف على بوابة المنجم الخارجية مرتديًا زي (القناص المقاتل) الأسود المميز لفرقتهِ حاملاً سلاح WP-١٧ مع ما يقرب من مائة رصاصةٍ ومسدس ليزري ومجموعة من الدروع الكهرومغناطيسية.

يأتيه من الوراء صوت العمال النيجريين وهم يديرون الآلات العملاقة لاستخراج الذهب الخام، ويدور في خلفيةِ أفكارهِ صوت رفاقهِ المشجعين وصرخاتهم القتالية الممطوطة، ويلفح وجهه لهيب الشمس وأشعتها، بينما هو يخطو خطوتهِ الأولى منتشيًا إلى عمق الصحراء.

* * *

الفريسة

التجلي الأول للمنطقة صفر: الرسالة الإعلامية الموجهة.

الأعداء؛ هم الذين يشدونكم للضلال في قضايا وهمية لا طائل من ورائها بعيدًا عن العمل المنتجِ الذي يساهم في نهضة بلادنا.

التجلّي الأول، هو النموذج المضاد للنظرية؛ لتأمينها.

(من الأوراق السرّية للجنرال أدهم الجبلي)

* * *

قائد الحراسة لمنجم (زاريا) هو المساعد أول سليم فخري، أحد أفضل قادة فرق الحراسات في وسط إفريقيا، وأفضل من تعامل مع دفعات المدرسة العسكرية الدولية"IMS" ، وهو أحد مطوري المنهج التدريبي للمدرسة كذلك.

المساعد أول سليم فخري يعرف أن مهمته الأولى هي السيطرة فكريًا على عقول المقاتلين المتدربين، وعلى عقول فريق حراسته، وتأجيج العداوة بينهم وبين جميع السكّان المحلّيين، قبل أن تكون مهمته حماية المنجم من هجمات الطوارق الشرسة.

يعرف أن هذا الدور يحتاج إلى الذكاء الشديد، للسيطرة على عقول متوهجة الذكاء، ويحتاج كذلك للصبر ولخبرة السنوات الكثيرة التي يمتلكها والتي تعلمها بأصعب الطرق.

قرر أن مهمته الأساسية هي منع الاختلاط مع الطوارق، ومع قبائل الفولانيين، أحيانًا يسمح لهم بالتعامل مع السكان المحليين، وأحيانًا مع رؤساء الأحياء من

قبائل الهوسا، حتى يشعر أفراد فريقه أو المقاتلون بأهميتهم وبرفعةِ شأنهم فوق الجميع.

لأسبابٍ كهذه بدأ القلق يعتريه حين عاد قائد الصف (مازن إبراهيم) من عقابه الذي قضاه شهرًا كاملاً في الصحراء ومعه أسيرة من الطوارق.

يقلقهُ أمران: الصعود المستمر لشعبية مازن وسط رفاقهِ، وتمثيلهُ لنموذجٍ يسعون لتقليدهُ خاصة من الرتب العسكرية الصغيرة.

الأمر الثاني هو التقرير السريّ الذي يقدمه له قائد الاتصال والمعلومات، والذي يؤكد فيه على معدل البحث العالي لقائد الصف عن تاريخ الطوارق وتاريخ الصحراء الكبرى، والمعاهدات القديمة التي أبرمت في هذا المكان.

يعرف جموح المقاتل الشاب الذي يسيطر عليه، وتمثّله بأدهم الجبلي، أحد مفوضي لجنة الحكماء في قدسليم ومؤسس المدرسة العسكرية الدولية، وإعجابه حد الوله بهذا القائد الكبير.

يعرف كذلك بأمر مغامراته القتالية ليلاً في قنص أفراد الحراسة الملثمين، ولم يكن الأمر يزعجه، بل يثير إعجابه، لكنه يعرف أن مازن تمادى كثيرًا حين استخدم الزي F٨٧ غير المخصص لهذه العمليات الانتحارية المباشرة.

يومها عاد له أمجد رشوان، رفيق مازن في مغامرته، بتقريره السريّ عن تفاصيل عملية القنص، وأرفق به الزي الذي أفسده مازن بطلقاتهِ النارية، فاكتشف القائد اختلاف أحد الثقوب في الجناح الأيمن عن شكل وحجم باقي الثقوب التي صنعها مازن لإخفاء أمر اصابته وهو معلقٌ بين السماءِ والأرض.

وقتها قرر أن يُخرج كل الغضب من أعماق مازن، ويصدمهُ بخطورة الأمر وشراسة الطوارق، ليكسبهُ شيئًا من الحكمة. لهذا قرر أن يرسله في مهمة لاكتشاف حقيقة الواقع والخطر الذي يواجهه لتهدأ عملياتهُ الانتحارية.

قام بخطتهِ الصغيرة حين أبدى الغضب من إفساد مازن للرداء، ثم حين لاقى تمرده وعناده كلفه بمهمةٍ يعرف جيدًا أنه لن يقوم بها، فيكون العقاب بمنحهِ

هذه الفرصة للاختلاء في الصحراء، ربما ليعرف مدى خطورة هؤلاء البدو الذين يظنهم مجموعة من الطيور الضالة يمكن قنصهم ببساطة، وكي يعرف كذلك حقيقته حين يواجههم وحيدًا وأعزلا من غرورهِ.

لكن هذا لم يكن رد فعل مازن، الذي يبدو أكثر شراسةٍ مما تصور، فقام بنصب الشراك للملثمين، وقنصهم ببندقيته المطورة التي لم يعرفوا بقدراتها من قبل.

يزيد هذا شعبيتهُ وسط المقاتلين الأصغر سنًا ورتبةً، بل وبين رفاقهِ كذلك، وهو ما لم يكن قائد الحرس يسمح بحدوثهُ في ثكنتهِ، خاصةً مع بداية الإتصال المباشر مع أفرادٍ من الطوارق دون متابعةٍ ومراقبة.

وقف قائد الحرس أمام نافذتهِ يفكر، هو لن يسمح بهذه السُّنَّة المحرّمة أن تُستن في عهدهِ، وبدا له أن مرحلة التخلص من مازن قد حانت، وعليهِ أن يبدأ في نصب الشراك وإعداد الحجر السحريّ الذي يضرب بهِ كل الطيور في آنٍ واحد.

* * *

حين خرج للصحراءِ الحارقةِ، بدأ مازن في إعداد عدة مخابئ حول المنجم على مسافاتٍ بعيدة، ثم بدأ في قنص بعض المشتركين في الهجمات المتتالية ضد المنجم.

معدل القتلى المتساقطين يوميًا يقترب من الخمسين قتيلا؛ ما بين صرعى برصاص القناصة، أو بالقنابل الحارقة.

مازن أعد المخابئ، وبدأ عمليات القنص بالتزامن مع رفاقه، ومن أماكن متعددة؛ مما جعل تحديد مكانه صعب تحت وابل الطلقات وأشعة الليزر التي تنهال من كل جانب، بهذا كسر أحد بنود العقاب الذي وقعه القائد عليه بالمنع من ممارسة مهامه، وكان هذا يثير حماسة زملائه.

في إحدى المرات وقبل انتهاء مده عقوبته، قام بنصب شركٍ ذكيٍّ اصطاد بهِ أحد المستطلعين الذين يسبقون فرقة الهجوم الملثمة.

حين سقط الملثمُ في الفخ وعاد له مازن وجد في انتظاره امرأةً ملثمة، وليس رجلاً.

فاقدة الوعي؛ بسبب الخنجر المنوم الذي أصابه بها. حملها مازن على كتفيه وذهب بها إلى إحدى مخابئه.

المرة الأولى التي يكشف فيها لثام أحدهم؛ لذا ظنَّ كل الملثمين نساء.

شعر بتبخر زهو كل انتصاراتهِ السابقة، وجلس ينتظرها أن تفيق.

حاملاً العديد من الأسئلة التي تحتاج للإجابة؛ بدأ في ربط وثاقها بين يديها وكاحليها إلى أوتادٍ في الأرض، جردها من بعض ملابسها الكثيرة التي تلفها حول نفسها من كل جانب، لاحظ بشرتها البيضاء الجميلة.

ظنَّ أن كلَّ الأفارقة زنوج سود البشرةِ يشبهون القرود، لم ير من قبل امرأةً إفريقية بيضاء، وعلى هذه الدرجة من الجمال الآخاذ.

أنفاسه تهتز إثارةً ورهبة، يشعرُ أنه على وشك اكتشافٍ كبير، لم يقترب من امرأةٍ شبه عاريةٍ إلى هذه الدرجة منذ فترةٍ طويلة، ربما منذ ترك (سمرة) تلملم شتات حياتها بعد التحاقهِ بال"IMS".

تبدو المرأةُ غامضةً وهي ملتحفةً بردائها الذي صار بسيطًا، تُمثل كونًا كاملاً مثيرًا وفائق البراءة والشراسة، الطبيعة الصماء البكر التي لم يخوض في أدغالها المتشابكة أحدٌ من قبل.

حين أفاقت وبدأت تعي ما حولها، نظرت له في ذهولٍ. حاولت أن تستر نفسها لكنها اكتشفت أنها موثقةٌ بشدة إلى الأرض. رجع مازن للخلف قليلاً وأسند ظهره على تبةٍ رمليةٍ منخفضة شاعرًا بأقصى درجات الاستمتاع، يشاهدها وهي ترتعش من الغضب وتحاول ستر نفسها وفك وثاقها.

الفريسة الضعيفة الساذجة التي سقطت في الشركِ وقد أصابها الجنون محاولة الإفلات، لا تعرف المصير البائس الذي ينتظرها، يتابعها شاعرًا بفتنةٍ لم يحسها من قبل. نظرت له بغضبٍ وصرخت في وجههِ بكلماتٍ لم يفهمها، فأثاره هذا أكثر، كان يشعر أنها جنسٌ بين البشر والحيوان، وقد أثاره جمالها ولغتها الأمازيغية الغريبة في تزكية هذا الإحساس.

توقفت عن الحركة، صرخت فيه فجأة بالعربية:

- فك هذه القيود.

تحجرت ملامحهُ، لم يعرف أنها تتكلم العربية، لكنه تخطى هذا سريعًا، وسألها أول سؤالٍ شعر به:

- هل أنتِ غبية ؟ هل أنتم أغبياء؟

نظرت له بعمقٍ صامتةٍ، وقد تكورت حول نفسها ضامةً يديها إلى صدرها، وركبتيها إلى يديها ولم ترد.

تابع مازن في فضول:

- لستم أغبياء فقط، أنتم مجرمون كذلك.!

ضحكت المرأة فجأة، مما أثار دهشة مازن.

سألتهُ:

- وأنتم ماذا تكونون؟

فكر في أنها تظن نفسها تماثله لتعيد له سؤاله، لهذا قرر أن يوضح لها من الذي له اليد العليا، ومن الذي يفرض شروطه ويقرر مصائر الأشياء.

أخرج سلاحه الليزري نحوها، قام من جلستهِ وتوجه نحوها فتكورت حول نفسها أكثر. وجه سلاحه نحوها وأطلق دفقات مستمرة من الليزر ليرسم به حدود جسدها على الأرض، قال في برودٍ:

- كل حركةٍ لكِ تخرج عن الحدود التي رسمتها، سأخلع معها قطعةً من ثيابكِ.

توترت ملامحها، فأكمل:

- أنتم تهتمون كثيرًا بجسد المرأة والشرف ككل الشعوب البدائية؛ أليس كذلك؟

لكنها قالت ساخرة:

- أهذا هو تعريفك عن ذاتك ؟

جذَب قطعة من ملابسها بحركةٍ مفاجئة، تعرى جانبًا من ساقها، أكمل في غضب:

-وكذلك كل كلمةٍ تصدر منك دون أن آذن لكِ.

رقد على قدميه حانيًا وجهه من أعلى ناحيتها، مشيرًا نحوها وناحيتهِ بسبابةٍ غاضبة ويقول بوجهٍ مفترس:

- أنتِ فريستي.

ثم صرخ في وجهها وهو يقترب أكثر:

- هل تفهمين ؟

لم تفهم سبب معاملته لها بهذه الطريقة التي لم تر رجلاً يعامل بها امرأةً في حياتها، لكنّها بالرغم منها شعرت بشيءٍ من سلوك الحيوان في فرض سيطرتهِ.

حاولت أن تستكشفه بعينيها ببطءٍ، كرر صرختهُ في عنفٍ:

- أجيبي، هل تفهمين ؟

قالت ببطءٍ:

- هل تنتظر إجابتي ؟

توقف من ردها غير المتوقع، هدأ قليلا، وهو يقول في صرامة وبرود:

- نعم، هل تفهمين؟

قالت مندهشة:

- أفهم ما تقوله، لكن لا أستوعبهُ، ولا أفهم أسبابه.

جذب قطعة أخرى من ردائها ورماها بعيدًا، وهو يقول في صرامة:

- إجابتك تكون على قدر سؤالي فقط.

حاولت أن تجذب باقي رداءها لتغطي بهِ ساقها الأخرى التي تعرت، كان ما يفعلهُ يغضبها قدر ما يثير دهشتها واشمئزازها.

و هذا يثيره بأكثر مما لو حاول اغتصابها.

بدأ في سؤالها:

- من أنتم ؟

تطلعت إليه، وهي تجيب باختصار:

- إيماجيجن.

قال في غضب:

- تحدثي بالعربية.

ردت في حيرة:

- لا يوجد مرادف للكلمة بالعربية إلا كلمة (أمازيغ) وهي تضمنا مع شعوبٍ أخرى، أنتم تطلقون علينا اسم (الطوارق) وهو اسمٌ لا يعبر عنّا.

أدهشهُ هذا الرد: مفصلاً، ومختصرًا؛ لكنه لا يفهم منه شيء.

قال بنبرةٍ أقل صرامةٍ، وهو يتراجع للخلف:

- من كل هؤلاء، وما الفرق بينهم.

يحمل داخلهُ الكثير من الأسئلةِ، والكثير من الرغبة في المعرفة، لكنَّ وضعهُ ووقائع حياتهِ لم تقدم أي إجاباتٍ وافية عن أي شيء.

قرر أن يفهم أولاً، قبل أن يبدأ مرحه معها وتكرار اصطياده لها:

- نحنُ قبائل الإيماجيجن، أو الطوارق كما تقولون، أول من سكن هذه الأراضي وبنى مملكة الأهقار، حضارتنا تصل لآلاف السنين.....

قاطعها بضحكةٍ عاليةٍ طويلةٍ ممطوطةٍ تعجبت لها:

- قبائل، وبنيتم حضارة، أنتم أفاقون كذلك؟

قالت بهدوءٍ وهي تضم ذراعيها حول ساقيها:

- لسنا كذلك! عدم معرفتك بالحقيقة لا يلغي وجودها.

احمر وجهه شططا، هب من جلستهِ فصفعها على وجهها بكل قوتهِ فارتد رأسها إلى الأرضِ في عنفٍ فاقدة الوعي.

وقف في الصمت الذي خلفهُ اختفاء صوتها وحيدًا.

صدى وجودها يتردد في وعيهِ بقوةٍ، وجودٌ مختلفٌ، مزعجٌ ومؤثر.

لكنّها أثارت فضولهُ بأكثر مما أثارت غضبهُ، سلوكهُ معها كان انعكاسًا للطريقة التي تعود أن يرى بها جميع السكّان المحليين، وللطريقة التي يرى بها محاربي الطوارق.

يشعرُ بالغضبِ، ويشعرُ بشكلٍ ما بالهزيمة أمامها، أزعجهُ أنهُ أثار دهشتها وحيرتها بأكثر مما أثار خوفها.

مم يخافُ هؤلاء القوم؟

أثاره السؤال، دار حولها يفكرُ ثم توجه بعيدًاعند التلال الرملية الصغيرة - التي صنعها للتخفي - يبحثُ عن إجابة سؤالهِ في عمقِ الصحراء.

مم تخافُ امرأةً ولدت وعاشت في هذا الخلاء الجهنمي؟

ربما يرافقون الجنَّ ويدعونهم على موائد العشاء، ربما يهزّهم الموتُ كأي بشرٍ، لكن هل يخافون على الصحبةِ والولد؟ لو كانوا يفعلون لما أرسلوا عشرات المحاربين كل يومٍ لحدود المنجم كي يجمعوا جثثهم في نهاية اليوم، كأنما يقدمون أرواحهم قرابين لأشياءٍ مجهولةٍ لا يعرفها ولا يفهمها.

الصحراء تتلألأ بالسراب المنتشر حتى الأفق من جميع الجوانب. الشمسُ تزهق روحهُ وتجعل صدره ضيقًا حَرَجًا كأنّما يصَّعَّدُ في السماء.

يتساءل هل قامت حضارةً هنا من قبل؟ وكيف قامت وسط هذا الجفاف. هل يمكن أن تحتضن الصحراء الموحشة حضارةً ممتدَّةً يتذكرها بنوها؟

يلمحُ منجم (زاريا) في الأفقِ أقصى يمينهُ، يتذكر ما قرأه عن الصعوبات التي واجهت الحكومات في بلده وفي فرنسا لتحويل المنجم البائس القديم إلى هذه الصورة الحضارية التكنولوجية وتزويده بكل هذه المعدات المتقدمة ليستخرج الذهب بسرعةٍ وكفاءةٍ أكبر.

يتذكر المحاضرة السريعة التي تلقاها في الـ "IMS" قبل أن يتم تكليفهُ بالعمل في النيجر في فترته التأهيلية تمهيدًا لتوزيعه إلى إحدى شركات الأمن والحراسة، أو اختيارهِ ضمن القلائل ليستمر في المدرسة، وهو ما يتمناهُ ويفعل كل ما يفعلهُ ليثبت جدارتهُ.

لقد درس تاريخ حياة أدهم الجبلي، وأعجب كثيرًا بالدور الذي لعبهُ في تأسيس المدرسة العسكرية الدولية "IMS" نفسها، وفي إدارتها حتى انتقالهِ إلى مفوضية قُدسليم.

يشعر أن كل هذا بعيدٌ جدًا عنه، وهو يقضي فترة عقوبته وحيدًا في هذه الصحراء المترامية، مع امرأةٍ همجيةٍ مجنونة ومزعجةٍ تدعى وجود حضارةٍ قديمة في هذا المكان.

عاد فتذكر من جديد المحاضرة المختصرة التي تلقاها للتعريف بالنيجر وبالمنجم، وبطبائع السكان المحليين.

يذكر أن ثمة تفاصيل مرهقة عن نسبة ملكية كل بلدٍ في هذا المنجم، ثمة نسبةٍ كبيرةٍ جدًا لبلدهِ ولفرنسا، ونسبة لا تذكر لحكومة النيجر بسبب أن البلدتين الأخرتين ستدفعان مبالغ طائلة للنيجر كثمن استغلالٍ للأرض.

ما خرج بهِ في النهاية من هذه المحاضرة أن النيجر بلد فقير جدًا، وسيحتاج لهذه المساهمات المالية للنهوض اقتصاديًا، وهو ما تقدمه له الدول الأخرى التي تقوم بتقديم الاستثمارات للبلاد، مساعدة لها على عدم قدرتها في إدارة مواردها بشكلٍ فعّال.

وهو ما يراهُ حماقةً من بلادهِ ومن فرنسا أن تقوم بمساعدة بلدٍ آخر كي ينهض، ويرى أنه من المفترض على حكومات النيجر أن تقدم خالص ولاءها وشكرها لهم بدلا من هذه الهجمات البدائية التي تثبت إنهم مجموعة من الهمج البدائيين غير الواعين.

قبائل بدوٍ تهجم – دون أدنى شعورٍ بالوطنية- على كل استثماراتٍ أخرى تقدمها الدول لمساعدة الحكومة النيجرية في النهوض، وأكثر هذه القبائل شراسة هي قبيلة ذات فكر انفصاليٍ متطرف تدعى الطوارق، تهاجم القبيلة كل محاولات الحكومة- التي تنتمي إلى قبائل الهوسا - في إصلاح البلاد رغبةً منها في إفشالها والاستيلاء على الحكم.

يذكر غضبهُ الشديد آنذاك من هذه القبيلة، لكنه حين أتى فعليًا عرف أن ثمة سبب آخر للهجمات الشرسة لهم، وهو الاستيلاء على الذهب كذلك.

رغب كثيرًا في أن يقوم بتقتيل وتعذيب كل أفراد قبيلة الطوارق، وهو ما فعلهُ لشهورٍ هنا قبل أن يُدهشهُ صمودهم وإصرارهم فأيقظ هذا فضولهُ بأكثر مما أثار وحشيته.

شرطت فرنسا آنذاك أن تتولى المدرسة العسكرية الدولية نفسها مهمة تأمين المنجم، حتى تستطيع أن تباشر إدارته، فكانت لها الإدارة، ولبلاده توفير الأمن، ولحكومة النيجر السماح بالتنقيب.

أفاق من أفكارهِ على حركةٍ خفيفةٍ خلفهُ، فوجد المرأة قد أفاقت وتحاول فك وثاقها، ذهب إليها، ورفع عنها قطعة أخرى من ملابسها، فلم تتبق سوى قطعة أخيرة طويلة جدًا تلتف حولها أكثر من مرة.

قال لها ببرودٍ وهو يضع يديهِ في جيب سترته العسكرية:

- تنسين الأوامر بسرعة..!

التفت له ورمته بنظرة كراهية، عاد لسؤالها من جديد:

- هل كل الملثمين نساءٌ مثلك؟

قالت له بصوتٍ يفيضُ بالغضب:

- كل الملثمين رجالٌ أفضل منك.

توقف مصدومًا لا يستوعب ما قالته، التفّ ليواجهها غير مصدقٍ، قال في ذهول:

- ماذا قلتِ ؟

قالت في غضبٍ وثباتٍ هزّه من الأعماق:

- أأنت أصمٌّ كذلك ؟

أخذته الدهشة لثوانٍ قليلة، قبل أن يهجم عليها يخلع عنها كل شيءٍ، ويضربها بصفعات متتالية:

- سأريكِ ما لن تجدي أفضل منهُ.

ساكنةٌ تنظرُ له في صمودٍ وتحدٍ، توقع أن يجد منها صراخا وعنفًا ومقاومة، لكنه حين نظر إليها، ردته نظرتها القويةَ الغاضبة المستاءة، وصوتها العميق القوي وهي تقول له في وجههِ:

- أنت لست رجلًا أخاف فحولته، أنت مجرد حيوانٌ ضالٌ حقيرٌ يأخذُ ما ليس له، لمجرد أنه يملك القدرة على هذا.

توقف مندهشًا، لم يقابل في حياتهِ أحدًا كهذه المرأة، صفعها عدة صفعاتٍ متتالية، وهي على صمتها وتحديها، ونظرتها المستاءة، بدأ ينهشها فبدت كحجرٍ لا يشعر بشيءٍ، كلما نظر لها لم يجد سوى نظرتها المتقززة.

توقف دون أن يُكمل شاعرًا بالمللِ فيما يفعله، لم يثره رد الفعل هذا، بل أصابه بالضجر، كان في حاجة لرفضها، وعنفها، وصراخها، وضربها له، ومحاولاتها المستمرة للإفلات منه، حتى تكتمل لذته، لكن شعوره بأنها حجرٌ أصم لايتفاعل كان يشعره بشيءٍ غريبٍ لم يفهمه أو يألفه من قبل.

قام ناظرًا لها محاولاً البحث عن أي دموعٍ مستترة أو صامتة لكنه لم يجد سوى صحراء قاسية وقاحلةٍ ترتد عن عينيها الحجريتين.

نظر إلى الصحراء المترامية، فلم يجد إلا اللهيب الذي يلفحه من كل جانبٍ.

مشى قليلاً وهو يفكر، يشعر أنه يفقد تدريجيًا كل أسلحته معها، لم يعرف ما الذي يمكن أن يخيف امرأة كهذه؟ وأي شيءٍ يستخدمهُ لمقايضتها على ما يريد.

لكن ما الذي يريدهُ ؟ لم يعرف تحديدًا.

هو في حاجةٍ لأن يشعر بتفوقهِ وتميزه. في حاجة لأن يثبت أشياءً كثيرة:

المقاتل الذي عاقبه قائده بالرمي في الصحراءِ مع أخطر قبائل في وسط إفريقيا، يعود لهم بامرأةٍ من هذه القبائل على كتفيهِ، امرأة اصطادها كما تصطاد الأسود فرائسها.

لكنه لا يشعر بزهو انتصارهِ هذا، تشعره هذه المرأةُ بكثيرٍ من الفشل والخواء، تؤجج شعورهُ بالثقب الذي يداريهِ.

دار حولها وحول المكان كثيرًا، ينظر ناحية المنجم في الأفقِ، ويفكر إنه يجب أن يدخلهُ غدًا حاملاً غنيمته ليستقبله رفاقه استقبال الأبطال.

اكتشف تدريجيًا أنه وإن كان حصل على وجودها ماديا وجسديًا باصطيادها، إلا أنه لم يحصل عليها نفسيًا، لم يملك فكرها بعد ولا روحها، ولا حتى خوفها.

قرر أن عليه أن يغير أسلوبهُ قليلاً، كي يكتمل له التفوق والنصر.

عاد إليها فوجدها تحاول استكشاف قيودها الإليكترونية، ضغط زرًا في حزام بدلتهِ العسكرية، فانفكت القيود عن معصميها.

لم تنظر له، بل لملمت أرديتها وارتدتها، ثم استكانت إلى تبةٍ رمليةٍ صغيرة.

جلس قبالتها، أشار ناحية المنجم البعيد وسألها:

- لماذا تحاولون سرقة المناجم في بلدكم؟ وترفضون مساعدات الدول الكبرى ؟

نظرت له باستخفافٍ شديدٍ ولم ترد.

كان هذا كافيًا كي يعود إليها فيشج رأسها نصفين، كتم غيظه، وعاد يسألها محاولاً أن يبدو وكأن الأمر لا يعنيه:

- تدعين أن لكم حضارةً طويلة، ثم لا تقومون سوى بسرقة حكوماتكم التي تحاول أن تنهض بحالكم، بحثًا عن سلطة وحكم في هذه الصحراء، أليس هذا غباءً ؟

بالرغم منها طفرت من عينيها نظرة دهشةٍ واستغراب، لكنها ظلت على صمتها، وعادت إلى نظرتها البعيدة الساهمة في الفراغ.

يُكمل، محاولاً أن يوضح لها غباء ما يفعلون، وعدم جدواه:

- وفي مقابل هذا تتركون المئات منكم يموتون، في مقابل ماذا ؟ هذا المنجم لن تستطيعوا دخوله ولو جئتم بكل جيوش العالم، يجب أن تعرفوا حجمكم الحقيقي.

وقرّب سبابته إلى إبهامهِ.

أكمل بصوتٍ حاول أن يجعلهُ أكثر هدوءًا ونعومة:

- لن تصلوا لحكم بلادكم لأن القائمين عليها يبحثون عن مصلحة الجميع، بينما أنتم تبحثون عن أنفسكم فقط..

لم يبد عليها أنها تسمعه من الأساس، بسمتها الساخرة متحجرة على شفتيها، نظرتها غارقة في عمق الفراغ، لكنهُ أكمل في إصرارٍ غريب:

- ضعوا أيديكم في أيدي الجميع، ولسوف تنهضون، وسيكون لكم نصيبٌ من كل شيءٍ، ألا تعرفين أن التفرق ضعف؟ لا أمل في انفصالكم وبحثكم عن مصالحٍ شخصية، ما الداعي لكل هذا الإرهاب الذي تنشرونهُ في بلادكم، وكل هذا القتل الذي تمارسونهُ؟

كانت ابتسامتها الساخرة تتسع ببطءٍ شديدٍ، وهو لايزال يكمل:

- هذه الحروب الأهلية التي تدور هنا، ومحاولاتكم المستمرة للانفصال، تزيد معاناة بلادكم ولن تنتهي بتحولكم إلى دولةٍ متقدمة.

كانت لا تزال على صمتها، لكنه اقترب منها قليلاً، ومد كفه المفتوحة إليها وقال:

- ضعي يدكِ في يدي لنكون حلقة السلام بين زعماء قبيلتكم، وبين قادتي، لننهي هذا العنف وهذا الموت الذي يتم كل يوم.

هدفه الأساسي هو محاولة السيطرة عليها فكريًا، لم يقصد ما قاله تمامًا، لكن بالرغمِ منهُ لمس صدقًا خفيًا في نفسهِ لهذا، ورغبة متوارية لأن يحدث هذا.

نظرت له المرأةُ باستخفافٍ، وغمغمت بصوتٍ خفيض:

- ببغاءٌ لا بأس به..!

احمر وجهه غضبًا، فكر أن يبدأ في صفعها من جديد، لكنه ضبط نفسه بصعوبةٍ، أخذ يتنفس بصوتٍ عالٍ.

قالت له وهي تواجهه بعينين كاسحتين:

- انظر لما تقولهُ، ولما كنت تفعله معي منذ دقائق، أنت مجرد أفّاقٌ لا دين لكَ.

بالرغم منه أفلتت يده لتصفع وجهها بغضبٍ عاتٍ، صرخ في وجهها:

- أنا لا دين لي، أيتها الوثنية!

آلمتها الصفعة بشدة، واحمر وجهها الأبيض فبدت أصابع يده محفورة عليه. رفعت رأسها بشموخٍ وهي تقول في إباءٍ:

- أنا مسلمةٌ، وكل أجدادي مسلمون.

لم يتوقع دينًا في هذا المكان، الأسئلة ترتج في رأسهِ بعنفٍ، لكن رغبته في المعرفة كانت تتصارع مع رغبتهُ في أن يكون سيد الموقف، وتكون هي جاريته المطيعة.

بدأت هي هجومها:

- أنت لم تسأل نفسك عن المرأة البيضاء المسلمة التي تتحدث العربية أفضل منك والتي تعيش في هذا المكان مع كل هؤلاء النيجريون، أنت لا تعرف شيئًا عن هذه الأرض، ولم تسمع عن تاريخها حرفًا، وكل ما تفعله أنك تردد أكاذيب صنعها قادتك الذين تتحدث عنهم.

أغمض عينيهِ محاولاً كبت انفعالاته الهائجة، لم تكن كرامته تسمح بكل هذه الإهانات المتتالية التي تكيلها له هذه المزعجة، لم يعرف كيف سيأخذها لرفاقهِ كغنيمةٍ وهي بهذا اللسان السليط.

بدأ يمشي قليلاً محاولاً أن يطرد كل هرمونات الغضب، فكّر في أنه ليس ثمة صيدليةٍ قريبةٍ تخلصه – بجلسةِ تنقيةٍ شاملة- من كل هذا الغضب والانزعاج والرغبة في قتلها خمسين مرةٍ كما كان يفعل بسهولةٍ في بلادهِ.

فكر في سبب يجعلهم لا يوفرون صيدلية في المنجم؟ ربما لأنهم في حاجةٍ لتفريغ كل شحنات الغضب والكراهية في هؤلاء القوم الذين يستحقون بجدارةٍ أن يُقتّلوا ويعذّبوا.

عاد فسألها محاولًا أن يكون صبورًا إلى أقصى درجةٍ:

- حسنا، أنا أسألكِ الآن، أخبريني عن تاريخ هذه الأرض.

صمتت وهي تنظر له بتمعن محاولةً استشفاف مدى صدقهُ، إلا أنه لم يطق صبرًا فبادرها بسؤالٍ غاضب:

- هل تعرفين أنتِ عن بلادي، وعن تاريخها شيء ؟

قالت بجديةٍ:

- أعرفُ أنكم طيلة تاريخكم لم تحكموا أنفسكم لعامٍ واحد، وقبلتم هذا بنفسٍ راضية ....

قاطعها ساخرًا:

- أنتِ حمقاء لا تعرفين شيئًا.

عادت إلى سكوتها من جديد.

انتظر أن تكمل حديثها إلا أنها لم تفعل، طلب منها أن تستمر في قول ما تعرفهُ، إلا أنها صمتت، وعادت إلى جمودها.

لم يستطع الصبر أكثر من هذا.

تركها وابتعد قليلاً نحو الصحراء.

يشعرُ أن روحهُ تنسحب منهُ، كما تسحبها حرارة الشمس الحارقة، برغم أن زيهُ كان عازلاً للحرارةِ والبرودة إلا أنه كان يشعر بلهيب الهواء على وجههِ يتسلل إلى كل خلاياه.

يتملكه شعور خفي بالتعري، فكأنما ترفع هذه الطوارقية عنه أغطية كرامته واعتزازه بذاته كما كان يرفع عنها قطع ملابسها، ينظر ناحية المنجم ويسألها وهو على حالته هذه:

- لماذا تهاجمون المنجم وتسعون لإضعاف حكوماتكم.

تقول باختصار شديد:

-حكوماتنا فاسدة وأنتم مغتصبون، أما أنت فتنتظر للنهاية دون أن تعي أسباب البداية.

يسألها وهو يلتفت لها:

- وماهي البداية؟

تصمت مجددًا.

تدير رأسها بعيدًا، تقول سارحةً في عمق الفراغ وابتسامتها تتكون تدريجيًا:

- البداية قديمةٌ جدًا، البداية كانت عند (تينهينان).

حكت له القصة القديمة لهذه الأرض، حكاية خمسة آلاف عامٍ من تاريخ صحراء إفريقيا الكبرى، سلبتهُ بحكيها المنمق ونبرة صوتها الشجية التي تنساب مع صوتِ الصحراءِ، والحزنُ الذي يفيضُ منها وعيهُ، شعر أنهُ يُلقى تدريجيًا في عالمٍ آخر لم يدركه من قبلُ، وتكسر حاجز الجليد مؤقتًا في أعماقهِ، بينما هي كانت تتذكرَ الماضي وتذكِّر بهِ نفسها، تشعرُ أن ثمة مغزىً من كل ما يحدث، وتنشدُ بين لحظةٍ وأخرى أبياتًا من التيسواي؛ فن الشعر الذي يؤلفونهُ ويؤرخون بهِ لتاريخهم.

الممالك السبعة القديمة التي أسستها قبائل الطوارق، بعد أن جمعت الملكة الأسطورية (تينهينان) شملهم في القرن الخامس الميلادي في مملكةٍ واحدةٍ أسمتها مملكة الأهقار.

قالت بين ما قالت:

- النهايةُ كانت منذ أقل من مائة عام عندما قامت حركتنا الوطنية لتحرير (أزواغ)، مملكتنا الأخيرة التي أسسناها في المنطقةِ بين الجزائر والنيجر وبوركينا فاسو ومالي وموريتانيا، أسسناها بعد ثورة ليبيا الأخيرة، لكنها انتهكت كالعادة بعد تجمع الاتحاد الأوروبي والمجتمع الدولي ضدنا، وتقسيمنا بين عدة دولٍ ليغرقونا في صراعاتٍ داخليةٍ مع جيراننا.

كانت الدموع تبدأ في السقوط من عينيها وهي توضح:

- كانت لقبائل الهوسا والسونجاي ممالكُ قرب مملكتنا (أزواغ) حين أتى المستعمرون الفرنسيون ليأخذوا خيرات بلادنا. كل ما فعلوه بعد تفرقة القبائل وإضعاف الممالك هو أن صدَّروا لهم فيروسهم الذي يطلقوه في أجساد أعدائهم: مفاهيمهم المستحدثةُ عن الدولةِ والديمقراطية فقسموا الصحراء الكبرى إلى دولٍ تفصلها حدودٌ سياسية ورموا في كلِ دولةٍ شعوبا متفرقةً من الأمازيغ والطوارق والهوسا والسنوجاي والفولانيين، ووضعوا على رءوس هذه الدول الخونةُ الذين يوالونهم. جمعوا الأضداد في بوتقةٍ واحدةٍ وتركوهم يتصارعون ويقضون على بعضهم البعض تدريجيًا، حتى يكون لهم الولاءُ الأخير في النهاية. ما كان لهذه الدول أن تتقدم أبدًا؛ لأن أمثالك من المرتزقة المغيبين يتحركون ضدنا وفقًا لتعاليم المستعمر القديم الذي كوّن فِرَقٌ وجماعاتٌ ومؤسساتٌ من المستفيدين وأَصحاب المصالحِ. نظام كامل لن يسمح بعودةِ الأمورِ لنصابها الطبيعيّ.

يستمعُ لها بنصفِ أذنٍ وينظرُ لها بنصف عينٍ، لا يكادُ أن يصدقها، ولا يستسيغ نظريةِ المؤامرة التي تربى على السخريةِ منها.

كانت في نظرهِ واحدةٌ من ضحايا البارانويا الجماعية التي كونها الانعزالُ في هذه الصحراء الشاسعة، والانغلاق الروحي على أنفسهم بعيدًا عن العالم المتطورِ والمتقدمِ في الناحيةِ الأخرى من العالم.

وجدها بعد دقائقٍ من الصمت الذي خيّم عليهما، تنشدُ من خفوتٍ:

فيا عجبا والدهر جم عجائب وأنـــى ترى العمى الشموس التي تعلــــو

و للدهر أيام لهن تقلــــــــــــب يساعد أطوارا وأخرى لـــه عطــــلُ

له دولة كالمجنون تقلّبـــــــــا فطورا له أهل وطورا له أهــــلُ

وبايع جل الناس يوسف جدنـــــا وأجدادكم من بيعة الجد لم تخـلُ

وفك بدفع الروم عنهم رقابهم من أن يسترقوا أو يعمهم القتـلُ

شدَّه ذكرها ليوسفَ، فسألها هل تقصدين النبي ؟ وحين أجابت بالإيجابِ وبدا عليه الدهشةَ وعدم التصديق قالت:

- يعودُ نسبنا إلى حام بن نوحٍ عليهِ السلام، نحنُ ساميون مثلك.

نظر إليها غير مصدقٍ ثم انفجر في الضحكِ، لم يكن يصدقُ كل هذا الهذيان الذي تلقيهِ هذه المرأة الغريبة المزعجة إلا أنه عاد للصمتِ والتفكير عندما قالت لهُ:

- حين ترجعُ إلى الداخلِ، حاول أن تعيد النظر فيما حولك بنظرةٍ جديدة، وستكتشفُ حجم الكذبة الكبرى التي تعيشها في رضًا، بل وتدافع عنها في استماتة.

حين حلّ مساء هذا اليوم؛ كان يرفعها على كتفيهِ وسط تقززها، ويركض بها الكيلومترات الخمسةِ التي تفصلهُ عن منجم (زاريا) فقد كان موعد رجوعهِ قد حان.

يركضُ في حماسةٍ بحملهِ الثمين الذي تنتظر عروقه تدفق البهجة التي ستنفجر أنهارًا حين يرى الانبهار في عين رفاقهِ وصراخهم غير المصدقِ لبطولتهِ.

ووسط هذا كان ثمة شعورٌ خفيٌّ يتسللُ إليه برغبتهِ في الاحتماء برفاقهِ من الوهج الذي يصطادهُ وجودها المزعج. ثمةُ ضيقٍ يشعرُ بهِ ويفسد عليه زهو انتصاره، ضيقٌ يشبه ذلك الذي شعر بهِ يوم تم اصطيادهُ من ملثمٍ أزرقٍ حوَّله من صيادٍ لفريسةٍ.

لم يعرف وهو يحملها ويركضُ بها إن كان يحمل صَيْدهُ أم صيَّادهُ.

وصل المنجم، وفتحت له أبوابه، وتجمعَ حولهُ الجمع الصارخ، وحين ألقاها عن كتفيه بقسوةٍ إلى الأرضِ، لمح على طرفٍ من ردائها لأول مرةٍ، أسمها منقوشٌ عليهِ:

(مريّمّة).

* * *

(٣) المكيدة !

التجلّي الأول هو الصورة الوحيدة التي يجب أن تذاع حول المنطقة صفر، على أن تكون أكبر الأمثلة لها ما يقوم بهِ ثوار القمر من جهودٍ لإلهاء الشعب في قضايا غير حقيقية.

(من الأوراق السرّية للجنرال أدهم الجبليّ)

* * *

يتدرّب مع فهد، زميل غرفتهِ القديم، في ساحة الرمايةِ القديمة حين يسألهُ أحد زملائهِ في خفوتٍ إن كان يمكن أن يرشحهُ قائد المعسكر لرحلةٍ إلى القمر كنوعٍ من المكافأة.

انتشت أوداج مازن وأجاب:

- العمل مع سليم فخري يقلل هذا الاحتمال، سليم فخرى لا يملك هذه السلطة لترشيحي للجنة الحكماء.

ضحك فهد، فهو أكثر من يعرف مازن بحكم قربهما، وهو يقول:

- لكن العمل مع أدهم الجبلي يزيد هذا الاحتمال، أليس كذلك ؟

ابتسم مازن:

- عندما أعمل مع أدهم الجبلي، لن أحتاج لهذا، سيكون هو مستعمرة القمر الخاصة بي.

الحديثُ عن مستعمرة القمر محظورٌ بشكلٍ رسميّ في جميع الساحات السياسية، وحتى في الأحاديث العادية، المتحدثون عن الأمر ينسبون بشكلٍ ما

إلى ثوارِ القمر الخائنين، بل ويقتلون مباشرةً في أحيانٍ كثيرة بدعوى إثارة الشغب، وتوجيه الرأي العام إلى المنطقة صفر.

(المنطقة صفر) هي أحد المصطلحات التي أطلقها الجنرال أدهم الجبلي عن المنطقة السياسية والإعلامية التي يتم توجيه الرأي العام إعلاميًا إليها لشغلهُ عن أمورٍ أكثر أهميةٍ وإغراقهِ بأمورٍ غير حقيقية لإشاعة الفوضى بهدف التضليل.

التضليل هو أكثر الأمور خطورةً في نظر النظام، لأنهُ يهدر موارد الدولة البشرية والفكرية في أمورٍ فرعية لا طائل من ورائها.

يكفي أن تتهم أي أحدٍ، بلا أدلةٍ تقريبًا، بأنه يعمل لصالح المنطقة صفر، ليتم اعتباره من أعداء الدولة.

لقد جعلت المكارثية ثوار القمر هم أكثر أعداء الدولةِ شراسةً، لا يكفون عن رفع شعارات الحرية، والشفافية في كل مظاهراتهم التي تنبثق في كل مكان، ومهما قتلت منهم اللجنة أو اعتقلت يظلون يتكاثرون بلا توقف.

الأمر يختلفُ قليلا مع فئة العسكريين وكذلك فئة المقاتلين التي ينتمي لها مازن ورفاق دفعته، ثمةُ معرفةٌ غير مؤكدة عن وجود ما يسمى بالفعل مستعمرة القمر، وأنها أكثر ما صنع الإنسان جمالا وترفًا وروعة، وهي تمثلُ الثواب الأعظم الذي تمنحه اللجنةُ وكبار القادة من أمثال أدهم الجبلي إلى المتميزين والمتفوقين، وأصحاب الخدمات الطويلة للدولةِ ولجنتها الحاكمة، وهي أمرٌ محظورٌ على العامة.

لكن معرفة مكانها الحقيقيّ كان لغزًا لا يمكن حلّهُ، البعض يؤكدُ أنها على القمرِ فعلا، البعضُ الآخر يقول إنها على جزيرةٍ في وسط المحيط، والأكثرون يؤكدون أن معناها معنوي أكثر منهُ مادي، بمعني أنها تمثل كلمةً سريةٍ عن المكافأة التي يمكن أن تمنحها لجنة الحكماء الحاكمة لمن يثبت ولاؤه وتميزه.

حين كان رفاقُ مازن يضحكون ابتهاجًا بما قاله في (جوثاي)؛ كان أمجد رشوان، رفيق مازن في مغامرتهِ بالرداء الطائر والذي أوشى بهِ لقائد الحرس، يتسللُ إلى غرفة مازن الخاصة في المعسكر الدولي في (تيرا)، حيث يقيد مريمة بالأغلال.

وجلت المرأةُ حين رأتهُ، إلا أنه بادرها قائلاً:

- اهدئي يا مريمة، أنا لستُ من الأشرار.

بدا لها من الغريب أن يناديها أحدٌ من هؤلاء المقاتلين باسمها مجرد، وأن تجد معه اعترافًا بوجود الأشرار في هذا المكان.

قال أمجد:

- أودُّ أن أعلمكِ أنني حزينٌ لما فعلهُ مازن معكِ، وبرغم أنه صديقي إلا أنني على عكسهِ تمامًا.

حاولت مريمة أن تتذكر ملامحهُ بين من تناوبون العبث معها والسخرية منها، حين ألقاها مازن تحت أقدامهم فلم تتذكر وجهه.

قال لها:

- لو كان الأمرُ بيدي لقطعتُ كلَّ يدٍ امتدت لكِ بالسوء.

قالت ساخرةً:

-وفّر كلامك، وأخبرني ما تريد مباشرةً، أتريدُ عبثًا من نوعٍ آخر.

مدَّ أمجد يديهِ عن آخرها نافيًا وقال لها:

- أبدًا، أنا لا أريد شيئًا كهذا. أنا أحملُ احترامًا عميقًا للمرأةِ في داخلي، وأرفضُ المعاملة التي يعاملونها لها حتى في بلادي، والتي تراها على أنها أنثى فقط، وليست إنسانةً أكثر رقيًا من الرجل.

ما يقولهُ غريب عليها أن تجدهُ في مكانٍ كهذا. أكثر مما يمكن تصديقهُ بهذه البساطة، هي لم تعرف من قبل مقاتلاً نبيلاً.

قال أمجد كأنه يقرأ أفكارها:

- أعرفُ أنكِ لا تصدقينني، وتظنين أني أفعل هذا رغبةً فيكِ، أو في شيءٍ لديكِ، لكني أخبركِ بكل صدقٍ أني لا أريد شيئًا سوى نجاتكِ، وسوى عودتكِ سالمةً لقبيلتكِ.

جحظت عيناها في دهشةٍ، تسألهُ غير مصدقةٍ:

- أحقًا ؟

قال وهو يقتربُ منها ويقول في خفوتٍ:

- نعم حقًا، أعرف أن هذا الأمر يمكن أن تكون فيهِ نهايتي، لكنني أأبى أن تكوني في وضعٍ مهينٍ كهذا.

ثم مدَّ يدهُ بجهازٍ دقيقٍ إلى أذنها فثبته بدقةٍ وهو يقول لها:

- ستسمعين تعليماتي من هنا، حاولي أن تنفذيها بدقةٍ شديدة، مازن سيذهبُ غدًا في الصباحِ كعادتهِ إلى (جوثاي)، ستحاولين أن تختبئي في الحقيبة الخلفيةِ لسيارتهِ، وسأكون معكِ كل لحظة.

حزت رأسها فانسدل غطاءُ رأسها حول أذنيها، ثم أعطاها الكود السريّ التي تفتح بهِ أصفادها، وعلمها كيف تستخدمه.

لم تجد مريمة شيئًا لتشكره بهِ على كرمهِ البالغ ،وإن كانت لا تزال غير مصدقةٍ لما يقول.

حين خرج أمجد من غرفة مازن، كان الأخير يجلسُ في وسط رفاقهِ يحكي لهم عن بطولات أدهم الجبلي للمرة المائة تقريبًا.

من الأشياء التي يفعلونها باستمرارٍ دون مللٍ، هو سرد المواقف المتميزة للقادة العسكريين، أو لبعضهم البعض، أو مناقشةً للتاريخ، والقرارات التي غيّرت مسار الأمة.

كالعادة يتحدث مازن عن أدهم الجبليّ:

- الجنرال أدهم حوّل بعبقريةٍ فذة وضعًا هدد الدولة بمزيدٍ من الشغب إلى أكبر ميزة اقتصادية وسياسية لها على مستوى العالم، من يملك قدرة كهذه بين جميع الجنرالات؟

بعد انتفاضة الجياع في ٢٠٢٠، واجهت الدولة مشكلةً مجتمعية كبرى، بسبب الأعداد المهولة للشباب الذي يتقدم للانضمام للمؤسسةِ العسكرية الرسمية، بعد أن تساقطت الكيانات الاقتصادية وفرغت الدولة من الاستثمار، وبقيت وظائف العسكر هي أكثر الوظائف سمعةً وسموًّا، وأكثرها عائدًا ماليًا.

كان هذا هو العصر الذهبي للقادة العسكريين القدماء، وكان الجميع يرغب في الانتساب إليهم بأي شكلٍ. بدأت الاعتصامات، والامتناع عن الدخول لكلياتٍ أخرى، وبدأت معها بشائر انهيار الدولة تمامًا بسبب التعلق الشغوف بالعسكر والرغبة في الاحتذاء بهم.

الانتساب إلى المؤسسة العسكرية في هذا التوقيت كان قمة السلم الاجتماعي والفخر لكل شباب الأمة. المؤسسة التي خلّصت الشعب من خونة الطابور الخامس - الذين تسلموا حكم البلاد وحوّلوها إلى خراب- في عام ٢٠١٨ بعزل رئيسها المنتخب وتولي أمور البلاد.

وخلصت البلاد كذلك من ثورة الجياع في ٢٠٢٠ ضد الفريق سامي، رئيس البلاد في هذا الوقت وأحد رموز العسكرية.

استمرت آثار ثورة الجياع لمدة ثلاث سنوات تكتسب فيها منتسبين جدد من أصحاب المصالح الخاصة، أو بقايا الطابور الخامس الممول من الخارج والذي يسعى لإشاعة الفوضى والفساد، أو بقايا تيار الإسلام السياسي الذين استولوا على السلطة لمدةِ عامٍ واحدٍ حولوا فيه البلاد إلى كتلة مشتعلة من الفوضى والانقسامات.

بعد إنقاذ الدولة، تم إلغاء مفاهيم الرجعية بوجود رئيس دولة ومجلس شعب، وتم دمج السلطتين في سلطةٍ واحدة هي سلطة لجنة الحكماء التي تمثل

قمة السلطة التنفيذية والتشريعية والتي لا تتعارض كما كان يحدث فيما سبق.

مثَّلت هذه الخطوة في نظر القيادة العسكرية وفي نظر الشعب آنذاك قمة التقدم الحضاري، وهو الخروج من فكر الفرد وحُكم الفرد إلى مبدأ التشاور كما أكّد الإسلام في وجوب المشاورة في الأمر وحكم المجموعة.

ما لم يعرفهُ مازن، أن هذا الاقتراح أيضًا هو اقتراح مفكر العسكرية المصرية؛ الجنرال أدهم الجبلي؛ الذي أكد نجاح فكرة دمج النماذج والسلطات جميعها في نموذج لجنة الحكماء، فمنح اللجنة الشكل العسكري والشكل الديني، والشكل العصري فأسقط كل أشكال تيارات المعارضة.

يرى بعض رفاق مازن أن خطوةً كهذه تأخرت كثيرًا وكان يجب أن تتم قبل عشر سنواتٍ من تنفيذها.

حاول البعض استيعاب المتقدمين للمؤسسة الرسمية في مدرسة الشرطة، إلا أن الشرطة لم تكن تحمل نفس الصورة في عيون هؤلاء الشباب.

أخيرًا اقترح الجنرال أدهم، فتح المدرسة العسكرية الدولية كمدرسة خاصة على أن تكون تحت رعاية المؤسسة الرسمية؛ لمساعدة شركات الأمن، على أن يتم إصدار قانون لها فيما بعد.

في هذه الأثناء كانت شركات الأمن والحراسة في بداية تكوينها ونشأتها، ولم يكن يحكمها قانونٌ بعد، وفي غضون سنواتٍ قليلة انتهت كل المشاكل، وقامت شركات الأمن تحت رعاية المدرسة العسكرية الدولية بقيادة الجنرال أدهم نفسه برفع درجات النمو الاقتصادى إلى أعلى مستوياتهِ.

تدريجيًا بدأ نظام المفوضين في التكوّن، والذي يرعى مصالح الشركات المصرية وفروعها في الخارج، وفي البلدان المختلفة، خاصةً بعد تحول المدرسة إلى شركة كبرى يساهم فيها كثيرٌ من البلدان، مما ضمن لمصر الريادة في قطاع خدمات الأمن والحراسة عالميًا.

قال أحد الجالسين في شكٍ:

- كيف لا تزال تؤمن بهِ بعد كل ما تكشَّف أخيرًا عن خيانة الجنرال أدهم كونهُ عميلاً للبنتاجون، نفَّذ كل تعليماتهم في المدرسة العسكرية الدولية؟

انفعل مازن بشدةٍ وهو يصرخ في وجههِ قائلاً:

- كُفَّ عن ترديد هذه الشائعات الأمريكية، هؤلاء الحمقى يروجون الأكاذيبِ من أجل جنرالهم بايدن الذي سيتولى إدارة المدرسة.

الجنرال أدهم قدّم استقالتهِ أو تم فصلهُ من المدرسة لا أحد يعرف على وجه اليقين، وتم تعيين الجنرال بايدن الأمريكي بديلاً عنهُ، ومسيطرًا على المدرسة وحتى على الفريق"أ" نفسهُ، لأسبابٍ غير مقنعةٍ في نظر مازن، منها أن الولايات المتحدة اشترت نسبةً كبيرة من أسهم المدرسة، ودفعت الجمعية العمومية لأن تختار الجنرال بايدن.

تضايق زميلهُ -وكان أقل رتبةٍ منه -وهو يقول:

- مع تقديري أيها القائد، لكننا تعلمنا ألا نستمع لنظريات المؤامرة، ما يشاع الآن هو نشر للحقائق العسكرية بعد مرور أكثر من ثلاثين عاما عليها، وبعد أن تستر عليها الجنرال القائد.

اصفر وجهُ مازن للحظاتٍ، تذكّر حديثا مشابها منذ أيامٍ قليلة مع المرأة الطوارقية واتهامهُ لها بذاتِ الاتهام.

شيءٌ ما ارتج عليه في أعماقهِ جعله يتوقف عن النقاشِ الدائرِ ويغوص في داخلهِ أكثر.

كان يقولُ لها شيئًا مماثلا عن نظريات المؤامرة التي يهواها المنغلقون على أنفسهم في الصحراءِ يعانون البارانويا الجماعية، ولم يظّن وقتها أنه بعد أيامٍ قليلةٍ سيتهمهُ أحدٌ بذات الاتهام.

لم يثر ويغضب كعادتهِ، بل انفتحت طاقة فضولية في عقلهِ.

هو يعرفُ الحقيقة أكثر من أي أحدٍ آخر، لقد قضى عمرهُ بالكامل يقرأ ويبحث في تاريخ آل الجبلي، ويحفظ نظريات أدهم عن الخيانةِ، وكيف يستخدم الخونة والجهلة المنطقة صفر كي يحاربوا الدولة في الخفاء.

تضاربت الرؤية عنده لأيامٍ تاليةٍ وقضى ليالٍ كثيرةٍ يبحثُ على شبكتى المعلومات التاريخيةِ والإخبارية، بحث في كل ما يقال عن آل الجبليّ وكل ما ينسبُ إلى أفعالهم.

حجم الهجوم الشرس -إعلاميًا -على أدهم الجبلي أوصله لمراحل متقدمةٍ من الغضب والدهشةِ وعدم التصديق.

وبدأ يظنُ أن الأمر يتعدى مجرد تغيير لإدارة مدرسة تمثل أقوى مؤسسة أمنية في الشرق الاوسط.

بحث كذلك عن تاريخ الصحراء الكبرى، ثمّة تشابهٌ بدأ يلقاهُ في سلوك وسائل الإعلام والتأريخ ينتشرُ على مدار الزمن، وجد تشابهًا مع ما قالته الطوارقية المزعجة التي علم أن لها اسمًا مسلمًا بالفعل.

التناقضات تتراءى أمامهُ إلا أن شيئًا من الكِبر يمنعهُ عن الاعتراف، هل يمكن أن تكون الكذبة بهذا الحجم الذي لا يمكن استيعاب حدوثه؟

بعد أيامٍ - أثناء عودتهِ إلى المعسكر الدولي- سمع أخبارًا عن تعيينه كقائم بأعمال قائد الحرس خلال فترة سفر القائد إلى أوروبا لبعض الأعمال الهامة.

لم تكن علاقتهُ بقائد الحرس جيدة على الإطلاق حتى يكلفهُ بهذا التكليف المشرف، لهذا لم يصدق ما يشاع حتى رأى المنشور الإلكتروني على لوحة القرارات الرسمية حين وصل إلى المعسكر الدولي.

تلقى تهنئات رفاقهِ وسط دهشتهِ، يعرفُ أن هناك من هم أكثر منهُ خبرةً ورتبةً عسكرية داخل فرقتهِ وداخل الفريق الرسمى للحراسة.

قضى ليلتهِ في هذه الدهشة، حتى أنه لم ينتبه إلى أسيرته التي كانت تتابعهُ من بين أصفادها متعجبةً، سألته وهي لا تنتظر إجابةً:

- هل ستقضي عقوبةً أخرى؟

نظر ناحيتها وهو لا يزال على صمتهِ، قالت:

- لماذا يعاقبونك وأنت مثلهم، لا تختلف في شيءٍ ؟

سألها وكأنما لم يسمع ما قالتهُ:

- هل تحتفظون بتاريخكم هذا مكتوب في مكانٍ ما ؟

أدهشها سؤاله، لكنها أجابت في بساطة:

- نحفظه في كل مكان، مكتوبا، ومدونا بالشعر، ومحفورا في قلوبنا.

- هل يتغير كل فترةٍ؟ وتنكشفُ حقائق كانت غائبة؟

تذكره لطريقة جلبه إياها من أكثر الأراضي بدائية؛ يشعره بالخجل من لجوئه إليها بالسؤال.

- لا يوجد لدينا حقائق غائبةً. الحقيقة تحدث مرة واحدة وتدرجُ في الأذهان والكتب مرةً واحدة، وتحفر داخلنا مع حكايات الطفولةِ ونشب بها وعليها.

قال من بين شروده:

أنتم لا تتطورون، ولا تطورون نظرتكم للحياة.

قالت متضايقة:

- تظل الحقائق لا تتغير.

في هذا المساء لم ينم، كان يشغلهُ هذا التاريخ الجديد الذي يُكشفُ عن أدهم الجبلي، إذا كان التاريخ الذي شبَّ عليه وصنع تكوينهُ وكيانهُ ،صنعهُ رجلٌ في مركزِ قوةٍ ما ومنع الحقيقة من الوصول إليهِ. ما المانع من أن تكون هذه هي قاعدة الحياة، وأن يكون كل ما يعيشهُ من حقائق هي أكاذيب يصنعها رجالٌ في مراكزِ قوة.

حين تسللت أشعةُ الفجرِ إلى الأفق كان في طريقه إلى (زاريا) استوقفه في الطريق صديقه أمجد رشوان ووضع سيارتهُ لتقطع عليهِ الطريق بعد مناورةٍ مرحة.

خرج مازن من سيارتهِ منزعجًا، لم يكن في مزاجٍ رائقٍ لهذا اللهو، إلا أن أمجد خرج من سيارتهِ ليستقبل رفيقهُ مهنئا ومازحًا، وضاربًا كتفيهِ بقوةٍ تعبيرًا عن سعادتهِ، مُشغِّلا في سيارتهِ أغنيةً عسكريةٍ حماسيةٍ يعرفُ حب مازن لها.

تلقى مازن تهنئتهُ بفتورٍ، وحين عاد فركب سيارتهُ وانطلق بها، لاحظ أمجد آثار أقدامٍ على الرمال تتوجه ناحية تبةٍ رمليةٍ منخفضة. توجه إليها بسيارتهِ ليلتقط مريَمَة بسرعةٍ، قال لها وهو يقود سيارتهِ ناحية الشمال الشرقي إلى (تيلابيري):

- أرجو أن تسامحينني على تأخري كل هذه الأيام حتى أستطيع تحريركِ.

تنظرُ له بذهولٍ غير مصدقةٍ، وتحمل له في قلبها عرفانًا بجميلٍ لن تنساهُ أبدًا، قالت له:

- تمن ما تشاء سأفعلهُ لك.

قال بابتسامةٍ بعد أن وصل إلى أطراف المدينةِ:

- فقط تذكري أن لكِ صديقًا في (زاريا)، سيسعده أن يقدم لكِ خدماتهِ.

ترجلت من السيارةِ، وتوجهت سريعًا إلى بوابةِ المدينة لتختفى عن أنظارهِ.

عاد إلى المنجم، وتوجه إلى مكتب القائد سليم الذي كان يعدُّ عدته للسفر، طرق الباب ودخل، كان القائد يقولُ لمازن:

- لهذا أمنحكُ هذه الفرصة الذهبية لقيادة المنجم.

نظر القائدُ لأمجد الذي أشار له برأسهِ إشارةً خاصّة، قال له:

- تعال يا أمجد، أعرفُ أنك أحد أصدقاء مازن المقربين، وأكثر من يعرف بشجاعتهِ وتميزه وتفوقهُ، كنتُ أقولُ له إنني بالرغم من غضبي أحيانًا من

تسرعهُ ومن الشجاعة المفرطة التي يبدها حد الانتحار إلا أنني - كما تعلم - شديد الإعجاب بهِ، لهذا أمنحهُ هذه الفرصة للقيادةِ كي يكتسب الحكمة والخبرة.

أكدَّ أمجد على كلام قائدهِ.

حين خرج مازن شاعرًا بعدم الاتزان من كل ما يحدث، قال أمجد للقائد بخبثٍ:

- تمت عملية تحرير الطوارقيةِ بنجاحٍ، وهي تحملُ امتنانًا لا ينتهي.

قال القائد بابتسامة:

- ممتاز، بقى أن تثير غضبهُ كي يتزل عليك عقابًا مشابهًا لما عوقب بهِ.

قال أمجد موضحًا ضيقهُ:

- سيقولون إنهُ خرج للصحراءِ وعاد بجاريةٍ، بينما خرجتُ أنا وذهبتُ أسيرًا بإرادتي لهم.

ضحك القائد وهو يطمئنهُ:

- لا تقلق، لن يتواجد أحد ليقول هذا، بل سيقولون إنك ساهمت بشجاعةٍ في اقتحام أكبر حصنٍ للذهب، ستعطينا المبرر الوحيد لاقتحام (عولام).

* * *

في طابور تسليم القيادةِ إلى مازن - كما هو العرف العسكريّ- كان سهلاً على المساعد أول سليم فخري أن يلحظ غضب القادة الأعلى رتبةً من مازن من هذا القرار، يعرفُ أنهم سيسعون لهدمهِ ومحاربتهِ بكل ما أوتوا من قوةٍ، وكان هذا بالضبط هو الهدف الأول الذي يسعى إليهِ قائد الحرس.

في نهاية اليوم، وحين عاد قائد الصف إلى استراحتهِ لم يجد مريمة. بحث عنها في كلِ مكانٍ، ثم حين اكتشف اخفاءها التام عَلم أن لقائد الحرس دورًا في هذا.

لقد حدثّه من قبلُ أنه لا يرغب في وجود أسرى من الطوارق في ثكنتهِ، خاصةً مع رسل الرجال الزرق الذين يأتون رافعي الراية البيضاء يبحثون عن التفاوضِ، وهو تقليد شائعٌ في الصحراء يرفضهُ قائد الحرس، ثم أوعز إليهِ برغبتهِ في قتل الأسيرة أو إطلاق سراحها، لكن مازن رفض آنذاك كل هذا.

ما أقلق القائد هو دخول أفكار جديدة لمعسكره عن طريق الطوارقية، يمكن أن تُحدث نوعًا من الزعزعة الثقافية أو الفكرية إن طال بقاؤها.

أما مازن – في موقفهِ هذا – كان عليهِ أن يخفى أمر اختفائها سريعًا، لن يكون مقبولاً أن تهرب منهُ الأسيرة في نفس اليوم الذي يتلقى تكليفهُ بقيادة المنجم أمنيًا، سيقولون أن القائم بأعمال القائد لحماية المنجم لم يستطع أن يحافظ أمنيًا على أسيرتهِ.

في الاجتماع الأول الذي عقده في اليوم التالي مع قادة الوحدات، أذاع قراره الأول بإطلاقهِ لسراح أسيرتهِ تنفيذًا للقانون العسكري الأول القائل بعدم التفاوض أو التواصل مع العدو.

تابع وجوه القادة وهو يلقى القرار، فلمح ابتسامةً خبيثةً على شفتي أمجد لم يستطع أن يخفيها، بينما باقي القادة لمعت السخريةُ على وجوههم.

لم يتوقع أن تأتي الخيانة من أمجد، توقع أن تأتي من شخصٍ أكثر قربًا مثل فهد، يبدو أن قائد الحرس لا يحسن اختيار جواسيسهُ.

أخذَ يُفكِّر في عقوبةٍ مناسبةٍ للجاسوس، ترضيهِ وتشبع غضبهُ، طلبهُ بعد نهاية الاجتماع، كلفهُ بمهامٍ كثيرةٍ بأسلوبٍ متغطرسٍ لكن أمجد لم يحتمل أسلوبهُ المتعجرف، فرفضها لعدم اتفاقها مع مهامهِ الأساسية، بهذا أصدر القائم بأعمال القائد قراره بطرد أمجد رشوان من المعسكر لمدة شهرٍ بدون سلاحٍ من أي نوعٍ على أن يتلقى المساعدة التي يريدها من رفاقهِ داخل المنجم حتى لا يلقى نحبهُ.

كان هذا إمعانًا في الإهانةِ لأمجد، ستكون النتيجة أن يوصم بالعار والجبن إذا تلقى أي مساعدةٍ من أحد.

هنا بدت المخالب الشرسة للقائم بأعمال القائد، وقراره الأخير هذا كفيل بقلب باقي قادة الوحدات الأكثر منه رتبةً عليه، كانوا يقولون أن قائد الصف قد نسى نفسه وظنّ أنه قائد الحرس بالفعل

إلا أن مازن كان يحتفظ بصداقتهِ لفهد كما هي، ويشركهُ في قراراتهِ لضمان ولائهِ، وولاء من يوالونهُ، وقد قام كذلك بتكريم العريف عادل عمارة - أقدم الرتب العسكرية في المنجم- وطلب منه أن يقوم بتقييم إدارتهِ للمعسكر ليستفيد من خبرتهِ، وهو ما أثار دهشة الجميع وإعجابهم.

بعد عدة أيامٍ أتاه فهد ممتقع الوجه، بلوحة الأخبار الإليكترونية - يخبره الحادثة التي ستغير حياة مازن ابتداءً من هذه اللحظة.

حادثة الهجوم على موكب مفوّض (قُدسليم) الجنرال أدهم الجبلي، واختفاءه بعدها، مع أنباءٍ غير مؤكدةٍ عن وفاتهِ.

* * *

النصف الثاني

إيموهاغ

(أو: الرجال الشرفاء الأحرار)

(١) ناصبة الخيام.

قومٌ لهم شرف العُلا من حِميَّرٍ وإذا دُعوا لمتونة فهم همُ

لما حووا عليـــــاء كل فضيلةٍ غلبَ الحياءُ عليهمُ فتلثموا

(من أشعار الطوارق)

* * *

لأيامٍ كثيرةٍ اعتكفت مريمة في غرفتها بعد عودتها من معسكرِ الشيطان، لم تُصدق وجود بشرٍ كهذه، برغم ما سمعتهُ كثيرًا عنهم وما رأتهُ منهم، لكن الأمر يختلف تمامًا حين تقترب حد الاحتراق من نيران الشياطين.

بدا لها كل ما حدث هناك بعيدًا جدًا، مرعبًا جدًا، لا تكاد تصدق حدوثهُ. برغم أنها كانت تكتشفُ النظرة التي يرونهم بها الآخرون، إلا أنها أبدت صمودًا وشجاعةً أدهشتها هي ذاتها.

اكتشفت جوانبَ مجهولة من ذاتها، ولمست عملاقًا بداخلها يمكنهُ تغيير الكثير، وبرغم هذا تشعر بألمٍ في روحها.

زارها المُطيب ليداوي جراح رأسها ووجها وأقدامها، لكن جراح نفسها لم يعد يداويها سوى عودةُ المجدِ التليد.

تحدثت بعدها مع الأمنوكال -القاضي والحكيم- لقد كانت إرادةُ الله لإخراجها من هذا السجن رحيمةٌ وعظيمة، قالت للأمنوكال بألمٍ أن أكثر ما ساءها اكتشافها أنهم تحوّلوا من دائرة المكذَبين-كما كانوا في الماضي- إلى دائرة المنسيين.

لقد صاروا إلى لاشيء، انتهى أحفادُ المرابطين ودولتهم، كما انتهت ممالكُ غرناطة وقشتالة وليون إلى الأبد، وخانت أحفادهم تاريخهم المشرّف، وصاروا أطيافًا تسكنُ على هامشِ التاريخِ المهجور.

كيف انتهى الحالُ بهم على يدِ غزاةِ الشمالِ إلى ما هم فيه؟

لم يحاربوهم بالأسلحةِ والعتاد، بل حاربوهم بنفوسِ بعضهم المريضةَ، وقلوبهم الطمّاعةُ المتسرعةُ الباحثةَ عن المجد السريع، حاربوهم كما تحارب الشياطين بني البشر، وسكنوا نفوسهم وعقولهم وأرضهم.

حاول الأمنوكال أن يطيب نفسها، ذكّرها بما لم تنسهُ أبدا عن النبوءةِ التي تقول بأن إعادة فتح الأندلس سيكون على أيديهم، وبقيادتهم.

ذكّرها بمحاولات نشر حقيقتهم وتاريخهم، وهويتهم في بلدان الشمال من خلال المهاجرين الذين سافروا قديمًا وكونوا فرقًا تعاونت مع الجهات المعارضة للحكومات الحاكمة، والتي تحولت تدريجيًا من فرط الديكتاتورية الممارسة ضدهم إلى ميليشيات منظمة تحاولُ التغيير في كثيرٍ من البلدان.

لكنها في الأيام السابقة تبين لها عدم جدوى كل هذا، وما كان يمثِّلُ لهم الأمل الأخير أدركت بعد طول عناء أنه النفس الأخير.

لقد رأت بعينيها أنه لا زالت لحكومات الظلم، ولمرتزقتهم اليدُ العليا، أيًا ما كان ما فعلوه سابقًا فلم يعد لهُ أثر ولم يجن أي نتائجٍ.

قضت في حضرتهِ وقتا طويلا، وتحول الأمرُ إلى اجتماعٍ لكبار زعماء القبائل الذين دعاهم الأمنوكال ليكونوا على علمٍ بآخر أحوال ما وصل إليه المرتزقة وبغيهم.

تشعرُ بإحباطٍ لم يتمكن منها هكذا من قبلُ، تعرفُ ألا جدوى مما يفعلون، وألا جدوى من الهجوم المستمر كل يومٍ على معاقل الظلم التي تسرق مواردهم وتستغلهم وتسلب أرواحهم وأرزاقهم وتترك لهم الفُتات، تعرفُ أن المستفيدين

في النهاية هم الشركات التي تمتلك المنجم وتنتمي لفرنسا وأمريكا ومصر التي تقومُ بوضع الحائط المنيع بينهم وبين استرداد حقوقهم.

يأخذون ذهبهم وخيراتهم. وكل ما يفعلوه بتمردهم وهجماتهم الزائدة هو رفع قيمة العائد الذي تحصل عليهِ شركات الأمن.

يقومون بدور الإرهابيين في نظر دول شمال إفريقيا ودول أوروبا وامريكا، بينما معسكر الشيطان يقوم بدور من يقر الحق لأصحابهِ، ولابد أن تختلف زوايا النظر وتعتدل.

لم يعد الخطر الذي يحيق بمريمةِ وقبيلتها هو دول أوروبا وأمريكا كما كان في الماضي قبل عدة قرونٍ، بل صار الخطر أكثر ضراوةً ويأتي ممن ينتسبون إليهم بشكلٍ ما ويتصفون بالجهلِ لتاريخ بلادهِم وجيرانهِم، ويتعصبون للخرافات التي يصدرها الأفاقون على مدار الزمن.

لم يعد أحدٌ يتبع مبادئًا كي يُطلب عونهُ، ولا جدوى من أن التعامل بمفاهيم الديمقراطية – فيروس الغرب السريّ- فلن يرتد عليهم سحرهم أبدًا، هم يغيرون الحقائق، ويبدلون الواقع، ويلوون عنق الحقيقة لتناسب أطماعهم.

لا زالت تذكرُ أسرها المهين مع المرتزق وهو يضحكُ على كل ما تقول، ولا يفهمهُ، لغتهم مختلفةً أشدّ الاختلاف، لا زالت تستشعر إحساس القمع الذي أحستهُ لأول مرةٍ في حياتها بهذه الدرجة من القرب، والتوحش.

هل هم حقًا أغبياء كونهم لم يعوا هذا منذ البداية؟

تحكي للأمنوكال، وتسيل دموعها في غضبٍ وفي ألمٍ تستشعرُ الجُرح العميق الذي نال كرامتها وشعورها بأنوثتها وشرفها.

لو تركت لنفسها العنان لكرهت تواجدها وسط زعماء عشيرتها لمجرد أنهم رجالٌ مثل مازن، لكنها تتلمسُ الطريق إلى قلبها بضراوةٍ كي لا تفقد ما بقى لها من تعقلٍ.

هجومها على كلِّ شيءٍ يفعلوه كان عنيفًا، وقد تلقاهُ الزعماء في هدوءٍ وحزن، يعرفون جيدًا أن بإمكانهم مواصلة القتال في شجاعةٍ إلى الأبد، لكنهم في نفسِ الوقتِ صاروا يعلمون الآن أن هذا لم يعُد مجدٍ.

فضّل الأمنوكال أن يمنحها نصف ساعةٍ كي تهدأ أعصابها الثائرة، وليتدبروا فيما قالت، خرجت من الخيمةِ إلى الشمسِ المزدهرةَ في السماء، نظرت ناحية الخيم المنصوبةِ في الصحراءِ، وللبيوت الطينية التي تفترش الأفق، وأحست عمق حنينها وحُبها لهذه الأرض التي يمارس المرتزقةَ الإرهاب الحقيقي ضد وجودهم الطبيعي في كونهم المستقل.

شكلُ الخيمةِ المنصوبة متفردة في مساحةٍ واسعةٍ من الرمال دائمًا ما يذكرُها بناصبة الخيام صاحبة المجد التليد (تينهينان) المرأةُ الأسطورة التي قدمت من (تافيلالت) جنوب المغرب إلى عمق الصحراء لتقيم مملكتهم القديمةِ.

كلما فكرت في الأم الروحية التي أتت وحدها مع خادمتها راحلةً في الصحراءِ، ناصبةً للخيامِ في كلِّ وادي، تتبع حدسُها الأنثوي، وسلوك الطبيعةِ، وفطرتها، لتقيم هذه الحضارة التي تشتَّت آثارها وأثرياتها بين متاحف فرنسا وأمريكا؛ شعرت بالإلهامِ والحماس، وتفتحت طاقاتٌ من فكرها كانت موصدةٌ تحت ركام الحزن واليأس.

ماذا كانت ستفعل (تينهينان) لو كانت هنا ؟

المرأةُ التي نصبت خيامها لتبنى الحضارةَ في الصحراءِ، وفي عقولِ العالم لتعرّفهم من هم أمازيغ الصحراء، وسادةُ العالمِ القديم.

استكشافها لحقيقةِ العالم الذي عاشت فيهِ هو منبعُ حكمتها، ووفاءها لأهلها وقبيلتها هو منبعُ مجدها. لهذا كانت هواية مريمة الدائمة هي استكشاف الآخر، والبحثُ في أعماقهِ.

من النادر أن تحارب المرأة، وكانت من هؤلاء النادرات اللاتي ينطلقن قبل الصفوفِ الأولى يستكشفن خطوط العدو، وتسليحهُ بحثًا عن نقطةِ الضعف التي يلجون منها إليهم.

مع المرتزقة القادمين من مصر كان الأمر عسيرًا؛ لأنهم يحيطون تسليحهم بالغدر، والبوابات الموصدة.

لكن لم يعد كل هذا ذا جدوى الآن، لقد صار هذا واضحًا جليًا.

ماذا يمكن أن تفعل (تينهينان) لو كانت هنا ؟

تفكرُ هل يمكن أن يتطور سلوك استكشاف الآخر من استكشاف تسليحهُ إلى استكشافهِ هو ذاته بحثًا عن نقاط ضعفهِ الشخصية؟ أم من الأفضل التواصل بشكلٍ رسميّ متحضرٍ مع الآخر بحثًا عن نقاط التلاقي؟

حين عادت إلى الاجتماع عرضت هذه الفكرة، يجب اكتشاف الآخر بحثًا عن نقاط التلاقي، وهي مهمةٌ يمكن أن تستمر لسنواتٍ قبل أن تجني ثمارًا.

كان يصدمها السلوك الفكري الذي يتبعه مازن المرتزق، والاتهامات التي يكيلها لها ولتاريخ الصحراء، هو لم يظن لحظة أن ثمة حضارة قامت هنا في عمقِ الصحراء، يتصور أن الحضارة هي مبانٍ شاهقةٍ وسياراتٍ فارهةٍ ونساء عارية.

قرروا أن يستمر التشاور في الأمر في الأيام التالية حتى يصلوا لقرارٍ. وحينما أوشك الاجتماع على الفض، جاءهم ريسا بولا - أحد حرّاس القبيلة من فئة المحاربين - بجنديٍ من المرتزقةِ شبه مغمى عليهِ.

ملابسه ممزقةٌ، ولحيتهُ نصف ناميةٍ، تعرفت مريمة عليهِ بصعوبةٍ، وعرفت أنه أمجد رشوان، المرتزق الذي ساعدها في الهرب من معسكر الشيطان.

قال ريسا بولا: إنه ردد اسم مريمة كثيرًا فأتى بهِ إلى هنا بعد أن فتشهُ وقيدهُ وأحكم وثاقهُ، وكان في حالةٍ يرثى لها، أكثر نحولاً مما تركتهُ.

قضوا عدة أيامٍ يمرّضونهُ بعد أن شعرت ناحيتهُ بكثيرٍ من الواجب والرغبة في رد الجميل، الأمنوكال كان يبدى تحذيراتهُ المستمرة من خطورة هذا، بدا قلقًا منهُ جدًا.

علمت مريمة بما فعلهُ معهُ زميلهُ غريب الأطوار الذي أسرها، وتعلمت على يديهِ الكثير من الدروس، ورأت فيهِ صنفًا من البشرِ لم تعرف بوجود أمثالهِ ممن انمحى لديهم الخط الفاصل بين الإنسانيةِ والحيوانية.

طردهُ مازن إلى الصحراء دون معونةٍ أو سلاحٍ، فكاد يموت من الجفاف والعطش، وعرفت مريمة أن هذا هو العقاب الذي حلّ على أمجد بسبب منحهُ حريتها التي سُلبت!

في اجتماعهم التالي مع الأمنوكال، عرض أحدهم أن يتم ضمَّ هذا المرتزق إلى الاجتماع ليستشفوا منهُ طبيعة هذه الحياة التي صارت إليها بلادُ الشمال، فيقتربون بهذا من عمقِ التجربة التي عانتها مريمة.

أبدى أمجد استعداده لهذا، ورحب بهِ كثيرًا، وبدا في ملامحهِ الغضب والرغبة في الانتقام ممن فُعل بهِ هذا، وهو ما خدعهم بهِ ببساطة.

بعد أربعةِ أيامٍ من الحوار مع المرتزق أمجد، اكتشف الزعماء فائدة الاقتراح الأول بمحاولة الذهاب إلى الشمالِ في رحلات استكشافية مهمتها تقديم صورة كاملة للحياة هناك بحثًا عن أسلوبٍ أكثر فعالية للحوارِ، ولفهم ثقافة بلاد الشمال، وخاصةً مصر، وسلوكيات أفرادها الاجتماعية، لم يرغبوا في الاستعانة بالدراسات النظرية التي يقدمونها عن أنفسهم فلابد أنها تنافي الحقيقةَ، وتصدِّر رؤيةً مختلفةً عنهم، كما يفعلون معهم.

أما مريمة فكانت ترغبُ في فهمهم أكثر، والبحث في معاناتهم، واستخدام نفس أسلوبهم في حربهم؛ كانت ترجو أن تقلب المظلومين فيهم على الظالمين، وتقلب الظالمين على الظالمين، ليتزن ميزان العدل، كما قلبوا هم الفاسدين على عموم الناس.

كانت الفكرة تتبلور على مدار الأيام ومع استمرار النقاش، وبقى أن يتم عرضها على باقي الزعماء ليكونوا الفرق الاستطلاعية التي ستسافر لهناك.

لهذا قرروا السفر إلى (عولام)، مدينةُ الذهب، للاجتماع بكبار القادة، وقرر الأمنوكال أن يصحب مريمة لهذه الرحلة، على أن يبقى أمجد في (جوثاي) كما هو.

(عولام)، هي الطرف الآخر لحزام الذهب الذي يبدأ في (جوثاي) وهي المدينةُ التي تصارعت عليها فرنسا وأمريكا ودول أوروبا للحصول عليها والتنقيب في ما تبقى في أرضها، ولهذا أبقاها صراعهم آمنةً من البطش، فكل دولةٍ تعرف أن بطش الدول الأخرى بها سيكون مُكلفًا إن هي استأثرت بالمدينةِ وحدها دون مبرر قوي يخرسهم.

يعيش الطوارق - أو الإيموهاغ- في (عولام) بعد أن سيطرت عليها قبائلهم منذ عدة عقود، الصراع تم مع حكومات النيجر المتعاقبة التي تنتمي إلى الهوسا أو الدجيرما.

الهوسا مسلمون مثل الطوارق، لكنهم أقل تنظيمًا، وأقل إرادةً وقوة، ويكثر تصارعهم على السلطة الرسمية، ويرتبط هذا الصراع ويُحسم في الغالب بعلاقتهم بأوروبا، وانصياعهم لتعليمات المجتمع الدولي ومؤسساتهم التي يمنحونها جلدًا برّاقًا يختلفُ كثيرًا عن حقيقتها الملوثة التي تختفي تحت الصورة الرسمية المستمدة من الخارج.

يسيطر الإيموهاغ على (عولام) منذ الانقلاب الأخير الذي قام به بعضُ القادة العسكريون من قبائل الهوسا ضد رئيس الدولة المنتمي لقبائل الدجيرما، وتكوينهم للجمهورية الثالثة والثمانين بعد المائة.

في خضم الاضطرابات التي نشأت من صراع القبيلتين على الحكم المشوه الذي تمنحه أوروبا لمن يواليها أكثر، استطاع الإيموهاغ فرض سيطرتهم على مدينة الذهب.

كان المجتمع الدولي مختلفًا هو الآخر، ويهذي بكلامه عن الديمقراطية، والحريات، وحق الشعوب في حكم نفسها، وواجب الدول الكبرى في مد يد العون إلى الدول الفقيرة ومساعدتها اقتصاديًا للنهوض والتطور.

هذه هي أخلاق الحقارة – في نظر الإيموهاغ - التي تحكم هذا العالم، وتحوّل القاتل إلى ملاكٍ أنهى عذاب قتيله من فرط إنسانيتهِ ورقتهِ، هم يساعدون النيجر وجيرانها - وفق المنطق الأوروبي - منذ عشرات السنين، ولهذا تحديدًا لا ينهضون.

فرنسا وأمريكا هما أكبر متصارعتين على امتلاك أراضي (عولام)، وهذا الصراع بينهما هو الذي منع كل واحدةٍ منهما من اقتحامها. تصارع المصالح هو الذي حمى هذه المدينة حتى الآن، وهو الذي استوجب خطة المساعد أول سليم فخري، كمبرر لاقتحام المدينة وإخراس الجميع وسحبهم إلى مائدة المفاوضات برعاية مصر التي سيكون للجنتها نصيب الأسد، هكذا قدم المساعد أول الحل للجنة الحكماء: رفع راية الحرب لاستعادة الأمن، ورد كرامة الـ" IMS" المختطف رجلها المسجون بالمدينة.

حاول المساعد أول سليم فخري كثيرًا من قبل تجنيد بعض شباب الطوارقِ، لكنّ كل المحاولات انقلبت على صانعها.

لم يكن لدى الطوارق استعدادٌ أبدًا لفقد هذه الأرض التي ينتشرُ الخير تحتها، وكانوا يعدُّون العدة لاستخراج الذهب بأنفسهم، تمهيدًا للمشاركة في إعلان مدينة الذهب مستقلةً وتابعةً لجمهوريتهم المسلوبة (أزواد) أو (أزواغ) كما يفضلون تسميتها.

تقرر استبقاء أمجد على أطراف (جوثاي) بعيدًا، والذهاب خلال يومين إلى (عولام) متجهين إلى الجنوب الشرقي أولاً للمرور بـ (نيامي) العاصمة، وقيام الأمنوكال ببعض الأعمال وطلب المزيد من التسليح للمدينة، قبل استكمال الرحلة إلى الشمال الشرقي متجهين إلى (عولام).

استغرق هذا أقل من يومٍ باستخدام سيارةٍ نوويةٍ حديثةٍ، وحين دخلوا المدينة وعبروا أسوارها القوية، كانت مريمة تشعرُ ببعض الأمل، لكن نازعها الخوف من أن يكون الأمل سرابًا منتشرًا في صحراء نفوسِهم التي ما كلَّت تتبعُ الآثار إلى مجدهم التليد.

* * *

(٢) تيمزكيدا (عولام)
أو: مسجد (عولام) الكبير.

(الصحراءُ لا تنتهي، وأنا كذلك!)

(من أغاني الطوارق)

* * *

لا شيء يشبهُ (عولام).

المدينةُ التي ترسو فوق بحيرةٍ من الذهب مسالمة، مغرّدة بالأناشيد والقصائد، بينما تنتشرُ أبراج المراقبة على طول أسوارها.

جنّةٌ وسط الجحيم؛ أفرد لها الأمنوكال الخاص بها اثنى عشر ألف محاربًا على قلبِ رجلٍ واحدٍ فلا يهزمون أبدًا، ولهذا فلأهلها ذات السمات في الترابط والتراحم.

جاءوا من مختلف البقاع في الصحراء كما جاءت مريمة من (أغاديس) تاركةً صديقتها خولة - أحب صديقاتها لنفسها- بعد موت والدها، للمشاركة في نهضة الحُلم، واستخراج ذهبهم ومواردهم بأيديهم، بعيدًا عن الطامعين من أوروبا، والخائنين من حكوماتهم.

تكثر الأنشطة في (عولام)، في كلِّ ساعةٍ نشاطٌ مفيدٌ، ما بين إنشاد (التيسيواي)– الأشعار- من مؤلفيهِ الموهوبين في الشعرِ وسرد حوادث القدر

والتاريخ، وبين حلقات مناقشة (التينفوسين) للمبدعين القصصين وقرائهم النقاد، وأكثر الأنشطة انتشارًا هي حفلات الغناء التي يسمونها (الأساهاج) والتي تنظمها فرق (تيناروين) و(تاراكفة) حيث يشترك الجميع في الغناء والرقص.

في (عولام)، تجد الإيموهاغ الحقيقيون: الرجال الشرفاء الأحرار الذين يحملون قلوبهم على كفوفهم بحثًا عن الشهادة أو العيش بكرامة ونبل، تجد في لباسهم الأزرق وعيونهم الصارمة التي تخترق الوجود من خلف لثامهم: المعنى الحقيقي للصمود والتحدي.

تجمعت هنا البيوت، والأهل، والعشائر، واحتواهم الإيمانُ والاتصالُ بجذورهم الضاربة في عمق الماضي لتنير أفق المستقبل، واحتوت (عولام) كل هذا وصهرتهُ، لينتج ترابطًا كأنهم روحٌ وحيد يملك آلاف الأجساد.

تتألقُ في فضائها قباب المساجد، وتلالُ الرمال، وأبراجُ المراقبةِ، وتنتشرُ في مساحاتها الشاسعة الرمالُ والأطفالُ التي تزينت بأحسنِ لباسٍ لها، تتفاخر بمصاحفها وأوراقها، وتتوجه إلى (تيمزكيدا) – المسجد الكبير- لحضور احتفالية (السلوكت).

تستشعرُ مريمة البهجة في شكل الأطفال، وقد تأنقت رءوسهم ووجوههم بـ (التاكلموست) الذين يلفونهُ لتغطية أفواههم الصغيرة كعادة الرجال، ألوانهم مزدهرة تتدرج بين درجات الأزرق، حتى بعض الفتيات الصغيرات تأنقن باللثام (التاكلموست) كنوعٍ من المرح، وبعضهن لم يختلفن عن باقي الصبية إلا بحركاتهن الطفولية المائعة.

هي تذكر حضورها هذا الاحتفال كثيرًا في طفولتها في (أزواغ) وحتى في مراهقتها في (أغاديس)، حفظت فيهِ القرآن الكريم، وقصيدة البردة في مدح رسول الله.

تتدرب الصبية في العادة بعد هذه المرحلة على فهم الفلسفات المختلفة، ودراسة التاريخ المفصّل، قبل أن تتعلم حمل السلاح.

لكنَّ أباها دربها على حمل السلاح باكرًا، رحلاتهُ كانت كثيرة، وكان ممن يحمون (عولام)، لهذا أتت كثيرًا في رحلاتٍ - حين بلغت- لهذه المدينةُ لترافقه وتتعلم منه فنون القتال، لكن قلبها كان معلقا دومًا باحتفالات (الكلوست)، وبهمزية البصيري - رحمهُ الله -.

(السلوكت) هو احتفالٌ تراثيٍ، وتقليدٌ قديمٌ موغلٌ في عمقِ وجودهم، يبدأُ بإنشاد قصيدة البردة أو الهمزية، ثم ترتيل القرآن الكريم بصوتٍ عالٍ وجماعيٍ، وهو احتفالٌ مخصصٌ للأطفال والشباب وطلبة العلم؛ لهذا امتلأت الساحات بالشباب الصغير، والأطفال التي تسعى لأن تكون رجالًا بكل طاقاتها.

اتُفق على أن يبدأ الاجتماع بعد أن صلاة العصر في (تيمزكيدا)، كما كان يجتمع الرسول الكريم - صلوات الله عليهِ - في المسجد ليدبّر شئون الأمة.

بعد الصلاه بدأت أصوات الشباب الصغير في إنشاد الهمزية. للإنشادِ فعلُ السحر في العروق، مختلطٌ بألأصواتِ الغضةِ لأطفالٍ لا تتكلم إلا (التاماهيقِ)، وتتعلمُ العربيةُ حديثًا وتحاولُ ألا تخطئ بها:

ويحَ قـومٍ جَفَـوا نبيَاً بـأرضٍ	ألِـفَتْهُ ضِبابُها الظِباءُ
وسَلَـوْهُ وحـنّ جـذعٌ إلـيـهِ	وقَـلَـوْهُ ووَدَّهُ الغربـاءُ

مع شعور الاحتفالِ، وذكريات الطفولةِ التي تتابع في داخلها، وعلى خلفية الإنشادِ بدأ الاجتماع المهم.

تحدث الأمنوكال في عجالةٍ عما حدث في الأيامِ السابقة، وعن الاقتراح الذي توصّوا إليهِ، وتساءل باقي الزعماءُ عن تفاصيلٍ أكثر، وصور لهذا المرتزق الذي تركوه خلفهم في (جوثاي) في محاولةٍ لقراءة ملامحه، التي لم يرتح إليها أغلب الرجال في النهاية.

كانت مريمة تفكرُ في شيءٍ مختلفٍ.

الاقتراح الذي يقدموه طويل الأجل، ربما لن يجنوا ثمارهُ في هذا الجيل، وهي تتمنى أن يفعلوا شيئًا يمكن أن يروا لهُ نتائج سريعة.

وتفكّر كذلك في أن تهاجر في سبيلِ فهم عدوهم وإيجاد وسيلة من خلال هذا لتحقيق هدفًا وحيدًا.

أيمكنُ اعتبار هذا شكلاً من أشكالِ الهجرة؟

تحملُ الهجرةُ في نفسها معنىً عميقًا؛ أن تترك كل ما هو لك؛ مالك وبيتك وولدك وحلمك وجيرانك بحثًا عن الله في نفسك، وتأكيدًا لحضورهُ في روحك.

أخرجوه منها وآواه غارٌ   وحَمَتْهُ حمامةٌ وَرقاءُ

وكَفَتْهُ بنسجِها عنكبوتٌ   ما كفتْهُ الحمامةُ الحَصْداءُ

ستكون أنت وربك فقط في هذا السفر؛ ولسوف يدبرُ لك أمرك، ويجعل لك من بعدِ عسرٍ يسرا، ومن بعدِ مشقةٍ فرجًا، هكذا تؤمن مريمة بالله!

عرضت حين انتهى التصويت على تنفيذ المخطط، أن تنفرد بجانبٍ من المهمة بعيدًا عن الفريق، حتى لا يلقوا البيض كلهُ في سلةٍ واحدة، وقد أقلق هذا الزعماء، غير أنهم في النهاية أوكلوا لها مهمة تحديد أفراد الفريق .

وقف الأمنوكال يؤكد على شروط المنضمين لهذه الخطة، وهما شرطان فقط هما معيارا حياتهم ومقياس كل شيء: قوة الإيمان بالفكرة وتصديقها والعمل عليها، والقودة المادية الجسدية وامتلاك مهارة القتال ؛ قوة الروح والجسد.

وقد اشتركوا في ترشيح الأسماء التي ستشاركها هذه الرحلة الطويلة.

في النهاية، انتحى بها الأمنوكال ينظرُ لها بعمقٍ، كان يعرفُ أنها ترمي بنفسها بين أفواه السباع، قال لها بحزنٍ:

- تعرفين أنكِ ستذهبين للبحث عن ذرّةٍ وسط غبارٍ كثيف، وتعرفين استحالة نجاح مهمةٍ كهذهِ، أليس كذلك؟

نظرت مريمة للأرضِ مبتسمةً قبل أن ترفع عينًا شامخة وتقول:

- أنا أؤمن بكم، وأؤمن بهذه الأرض، وبتاريخنا.

عاد الأمنوكال يؤكد لها:

- تعرفين أن هذا القرار هو الأكثر جموحًا وأملا وجنونًا، وبرغم هذا سيسمح به مجلسنا في سابقةٍ أولى عبر تاريخهُ كله.

عادت مريمة لتؤكد:

- أعرفُ أن أحوالنا أكثر جنونًا من قرارنا، وأننا لا ينبغي أن نظل في جلستنا هنا نقاومُ أذرع الأخطبوط، وندع رأسهُ تنعم في سلام بعيدًا.

هزّ رأسهُ مبتسمًا:

- أنتِ كنتِ نواة هذه الفكرةَ، وألهمتينا للخروج من بوتقة التفكير ببعدٍ واحدٍ.

ابتسمت لمجاملتهِ الأخيرة، فأومأ لها بتحيةِ تقديرٍ واحترام.

انفض الجمعُ سريعًا، وانتهى كذلك إنشاد الهمزية، فعلا صوتٌ لطلبةٍ أكثر غلظةٍ في قراءة سورة الفَجْر.

خرجت على صوت الترتيل الذي يسري كروحٍ مبهرٍ تلفُّ الأجواء وتمنحُ الحياة نشوةً لا تُنسى.

تنظرُ مريمة للأفقِ في أمل، لا تعرفُ ما هي آتيةٌ عليه في أيامها القادمة، وعليها أن تكون أكثر مرونةً في تفكيرها وقدرةً على احتواء الأحداث ومواجهتها في نفس الوقت.

تعرفُ أنها ستواجه مجتمعًا كاملاً من مازن وأشباههِ، وهي لم تحتمله وحدها من قبل.

انتبهت لما يدور حولها ببطءٍ لتجد بعض التوتر حولها، ثمّةُ صوتٌ خفيضٌ غير معتاد لطائراتٍ تحوم في السماء.

يعلو صوت الشباب فيطغى على ما تتلصصهُ أذنها.

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥))

ينطلقُ نفير المراقبون الأرضيون عاليًا، وتدوي الضربةَ القوية لقذيفةٍ ترج البوابة وترميها لعدة أمتارٍ ملطخةٌ بدماءٍ كثيرة.

هل هو حقًا هجومٌ على (عولام) ؟

في البدايةِ لم يع أحدٌ حقيقة الموقف، لكن الأمور بدأت في الوضوح حين ظهرت الطائرات المقاتلة في السماء تلقي قنابلاً على المدينةِ.

الأطفالُ في الطرقات الرمليةِ تهرع مختبئةً، والأكبر سنًا انضموا سريعًا للمراقبين، وركض المحاربون من كل الأمكنةِ إلى مواقعهم في خليات القتال المنتشرة على طول سورِ المدينة.

المحاربون والمراقبون الجويون بدأوا في إطلاق صواريخ الضبع الأسود التي تقفو أثر الطائرات حتى تصيبها، بينما تصيب ضربات القذائف جوانب سور المدينة.

مريمة تقفُ مصدومةٌ، لم تع بعد حقيقة ما يحدث.

الطلقاتُ ودفقاتُ الليزر تأتي من كل مكانٍ، لم تهتز في عنفٍ إلا حينما شاهدت جثث الأطفال تتناثر في الطرقاتِ وساحات المدينةِ، ويحملها الرجالُ والنساءُ في جزعٍ وراء المسجد.

استفاقت من ذهولها وهرعت تنضمُّ إلى المستشفىَ الميداني الذي تم نصبهُ سريعا، أتى المصابون محمولين على الأعناق والأكتاف مصابين بحروقٍ غريبةٍ لا تفعلها حتى قذائف الليزر الحارقة، بعض الجثث كانت تأتي وقد احترقت دماؤها داخلها حتى تحولت الجثة إلى اللون الأزرق الفاحم، لم يعرف أحدٌ أكثر الجثث التي تعرى لثامها، فكانوا يحتاجُون لإعادة اللثام إلى مكانهِ حتى يعرفوا هوية من مات.

ساعاتٌ كثيرةٌ مرّت وهم على هذا الوضع، يعم الهدوء للحظاتٍ، ثم يعود الشيطانُ إلى عبثهِ القائم، لم تشعر بالوقت ولا بالتعب، كانت غمامةٌ بيضاء

أمام عينها تفصلها عن هذا الواقع الذي تعيشهُ ولا تصدقهُ وتتفاعلُ معهُ كأنها واحدةٌ أخرى.

لمحت وهي على هذه الحالة مرتزقا يرتدي بدلة المقاتلين التي حفظت معالمها أثناء وجودها في (زاريا)، كان يقفُ داخل المدينةِ وراء إحدى المباني ببندقيةِ قنصٍ وظهرهُ موجهًا إليها، بحثت سريعًا عن سلاحٍ وتوجهت بسرعةٍ إليه من بين رعشتها الغاضبة لاحظت جانب وجهه الأسمر وارتعش جسدها في انتفاضةٍ قوية.

لم تُصدق ما رأتهُ، لقد كان هذا هو مازن؛ المرتزق الذي أسرها.

توقفت فجأة وسقطت دموع القهرِ من عينيها مجددًا، لم يكن باستطاعتها مواجهة الأمر بمفردها الآن، وجودهُ يشعرها بعجزٍ لا تستطيع مقاومته، لكنها وسط دهشتها لاحظت أنه يوجه طلقاتهِ إلى طائرات الهيلوكوبتر الحربية غريبة الشكل، يقنص القافزين منها على حبالٍ لإنزالهم داخل المدينة.

هذا أغرب من أن تصدقهُ، لاحظت كذلك أن برفقتهِ مجموعةٌ أخرى من رفاقهِ انتشروا في مساحةٍ ضيقةٍ يفعلون ذات الفعل الغريب.

التقت أعينهما للحظاتٍ فنطقت ملامحه بالدهشةِ، إلا أنه عاد لما كان يفعل، بل واستخدم أسلحةً أخرى غريبةً كانت تساعدُ بقوةٍ في رد العدوان.

بعد ساعاتٍ طويلةٍ هدأت الأجواء، وتساقطت أكثر بقاع السورِ قوةً وصلابة، وتساقط شهداءٌ كثيرون وصلت حصيلتهم كما عرفوا فيما بعد إلى أربعة آلاف شهيدٍ.

الدهشةُ تملأ نفوسهم كما يملؤها الحزن والألم، وتفور في عروقِهم نيران الثورةِ والغضب، ومريمة تتساءل في أعماقها عن سبب التغير الذي حدث ليتم هذا الهجوم العنيف؟

بحثت عن مازن كثيرًا حتى وجدتهُ جالسًا في بقعةٍ خفيةٍ من المسجدِ يعلو صوت أنفاسهِ كزمجرةِ حيوانٍ ضاري.

نظر نحوها، قبل أن يخرج من الظلِّ فتجد جروحًا كثيرة انتشرت في وجهه، طال صمتهُ وصمتها ولم يقل شيئا، ثم أشاح بوجههِ بعيدًا.

قال ورائحة الشواءِ والحريق تعلقُ بأنفها:

- أنتِ كنتِ على حق.

* * *

لم يكتشف مازن حقيقة الخديعة، ولم يقرر الانضمام إلى جانب الخير كما ظنّت لوهلةٍ خاطفة.

ما فعلهُ من قتالٍ إلى جوارهم كان انتقامًا لنفسهِ وليس دفاعًا نبيلاً عن المدينة.

وقف يصرخ بعبارات الغضب والانتقام والثورة، ويزمجر في دقائق الصمتِ التي يسكتُ فيها متأملاً.

هم حاولوا اصطيادهِ كفريسةٍ سهلةٍ يتم التضحية بها من أجل الحصول على المدينة، قال إن قادتهُ يسخرون منهُ ويحاربونهُ ويخشون جنونهُ وتطرفهُ أحيانًا.

إلقاء اللوم دوليًا على قائد الأمن المؤقت في المنجم الذي أمر بالهجوم المسلح على عولام لتحرير أحد جنودهُ، سيشل أي رد فعل من فرنسا أو الولايات المتحدة المتصارعتين على المدينة، وكذلك سيكون مبررًا ومثارًا للرفض والقبول في المجتمع الدولي، فلا يمكن إدانتهُ تمامًا ولا قبولهُ بشكل نهائي، وستستهلك مخابرات الدول أيامًا كثيرة- للتأكد من الحقيقة - يقضيها الإعلام والديبلوماسيين في الشد والجذب.

استخدامٌ مكرر لفزاعة الإرهاب، وفتنةٌ جديدة ألقاها المساعد أول سليم فخري في جوف المجتمع الدولي، ليفتح من خلالها مدينة الذهب التي استعصت عليهم زمنًا طويلا.

هذى بكثيرٍ من الكلام في لحظاتٍ من الغضب العاتية، وتساءلت مريمة في نفسها عن هذه الطاقة العنيفة للغضب المستمر على مدار عمرهِ؟ لم تره إلا غاضبًا أو ساخرًا!

يسير فيما تبقى من مدخلِ المدينةِ التي لم تسقط بفضلِ الله - رغم ما كِيد لها- فلا يرى سوى نفسهُ والمؤامرات المحاكة ضدهُ، ولا يتنبه إلى كل من ماتوا في عدة ساعاتٍ قليلة.

قال إنه في حاجةٍ لأن يرد هذه الصفعة التي يوجهونها له، بمحاولة إسقاطه في شركٍ هزيلٍ استطاع كشفهُ بفضل زبانيتهِ، ثار وهو يؤكد انهُ وُلد فارسًا وصيادًا وليس فريسةٍ هزيلةٍ، قضى عمره في تجنب صفاتها الخمس التي يحفظها منذ نعومةِ أظفارهِ.

حينما هدأ قليلاً، كانوا قد قابلوا بعض المحاربين وكبار القبيلةِ، وبدأ مازن في سرد تفاصيل ما حدث، حتى قال:

- حين تم تعييني كقائم بأعمال قائد الحرس، لم أستطع استيعاب هذا القرار، ولم يكن باستطاعتي أن آمن جانب المساعد أول سليم فخري أو أظن أنه يشجعني ويسعى لمصلحتي هذا هو القانون الثاني للفريسة، وهو يعلمُ كيف يفكر الصيادُ.

لاحظ انقلاب بعض رفاقهِ عليهِ بعد أن أصدر قراره الغاضب ضد أمجد رشوان جاسوس المساعد أول سليم فخري والذي ساعد في تهريب مريمة، حتى يضمن ثقتها وثقة قبيلتها حينما يأتيهم ضعيفًا ومصابًا بالجفاف فيما بعد، وهو الفعل الذي توقع قائد الحرس حدوثهُ، أو كان سيعمل على حدوثه.

لقد اتبع القانون الأول للصياد، واتبعت مريمة وقبيلتها قوانين الفريسةِ الأخرى وأهمها أنهم لم يعرفوا حقيقة هؤلاء المرتزقة، وأمنوا جانب أمجد حين أتاهم ضعيفًا.

يتابع مازن كلامهُ قائلا بأنه يدرك حقيقة موازين القوة والضعف المنتشرة في المعسكر؛ لهذا تخطى قانون الفريسة الثالث. يعرفُ أن القائد قد نزع فتيل القنبلةِ ووضعها بين يديه ومكث يشاهده عن بُعد منتظرًا لحظة الانفجار.

مازن يعرف تحديدًا أنه لحظة عودة القائد سينقلب المعسكر بالكاملِ عليهِ، وسيفقد صورتهُ التي سعى جاهدًا لتكوينها؛ لهذا أعاد القنبلةَ إلى قائدهِ بهدوء، وقام بتكريم أقدم مقاتلي المعسكر - وهو العريف عادل عمارة - في إحدى الاجتماعات التي دعى لها لتأكيد احترامهُ لموازين القوة الحقيقية، بل جعل العريف عادل عمارة يقوم بتقييم أدائهِ في قيادة الحرس، وهو ما حمل ضمنيًا اعترافًا من مازن بتفوّق العريف عادل عسكريًا وقياديًا على المساعد أول سليم فخري.

بعدها بدأ عمليات الاستكشاف، ليعرف حقيقة الواقع الجديد الذي يعيشهُ كقائم بأعمال القيادة ويتلافى السمة الثانية للفريسة، وهي الجهل بحقيقة العالم الخارجي.

عرف من العريف عادل قيمة حزام الذهب الذي تقع (جوثاي) على آخر طرفٍ منهُ، فأخذ يبحثُ عن تاريخه وحقيقتهُ، بعدها بدأت الأحداثُ تدورُ في سرعةٍ، وانقلب عليهِ الكثيرون مجددًا دون أن يعرف السبب.

شعر أن هناك اتصالاتٍ سريةٍ بين قائد الحرس وبين رجالهِ هنا، وكان في حاجةٍ لأن يعرفهم، نشر رفاقهِ الذين لا يأمن جانبهم، فأتوه بأخبارٍ لا يعرفُ مدى صدقها ودقتها، لقد أحكم المساعد أول سليم فخري قبضتهُ عليهِ، ومنحه السلطة دون القوة ودون الخبرة ودون التأييد لتنقلب سلطتهُ عليه.

بدأت تحركات غريبة في المعسكر وتجهيزاتٍ كبيرةٍ لم يعلم عنها شيئًا، وشعر أن ثمة انقلابٍ سيحدث.

في غرفة التحكم والمتابعة فهم المؤامرة كاملة.

شاهد اجتماعات الطوارق وحديثهم عن فهم الأعداء، لقد كان أمجد يقوم بدورهُ الدائم في التجسس، لكنه هذه المرة يقوم بالتجسس على الطوارق

الذين آووه ليعرف أماكن تواجد زعمائهم لتنفيذ عمليات اغتيال سريعة لهم، كعملية فرعية لخطة اقتحام عولام.

لكن يبدو أن الطوارق قدّموا لهُ فرصةً سريعة بتجميع الزعماء كلهم في مكانٍ واحدٍ ،وكان هذا المكان هو عولام نفسها، هكذا كان قرار العريف عادل عمارة الذي يتلقى أوامره من قائد الحرس منذ البداية ببدء مهاجمة (عولام) والاستيلاء عليها والتخلص من الرؤوس الكبيرة كذلك.

يعترف مازن في غضبٍ أنهُ سقط في فخ الفريسة الرابع حينما أمن جانب العريف، ولم يهتم بالخطر الذي يمكن أن يأتي منه.

هكذا يقوم المساعد أول سليم فخري بمهمتهِ في فتح (عولام) وتقديم مازن كخسارةٍ وحيدة مقابل هذا الفتح المجيد، باعتبار أنّه قائد قليل الخبرة أعطى أمرًا بفتح المدينةِ، ويمكن أن يُقدم للمحاكمةِ أو يُقتل أو يُصلب أو أي عذابٍ أليم.

لكن مازن لم يكن ليسمح بهذا، وكان عليه اتباع قانون الصياد الثالث: الانتقام.

ساد الصمت طويلا بعد أن أنهى كلامهُ، ليتملك الجميع سؤالٌ وحيدٌ، ما موقف المجتمع الدولي، وموقف أمريكا تجاه هذه الإبادة التي تمّت؟

ضحك مازن بعصبيةٍ لفترةٍ طويلة، أخبرهم أنهم أدمنوا دور الفريسة، وأدمنوا الائتمان بأشياءٍ هى آخر ما يمكن الاحتماء بهِ.

موقف الدول تجاه ما حدث، هو اختطاف ما يمكن اختطافهُ من مدينة الذهب عن طريق المؤتمرات، والولائم، والمعاهدات التي يوقعونها في الغرف المكيّفة، ويدخنون.

في بلادهُ تعتبر هذه المذبحة شيئا مقبولا جدًا على المستوى الشعبي ويدعو للفخر، وعلى المستوى الدولي فما فعلوه هو أنهم قاموا بتحرير الأسير الذي أسره الإرهابيين حينما أرسلهُ قائد الحرس للتفاوض مع الطوارق من أجل أن يوقف إرهابهم في مهاجمة المنجم.

لقد تم تصدير صورة مخالفة للواقع، قيادة المعسكر أرسلت أحد رجالها للتفاوض مع الطوارق كي يوقفوا إرهابه، لكن الطوارق أسروه، فأرسلت القيادة حملة للمدينةِ التي تم أسره بها كي يحرروه.

قال أن هجومهم علي الطوارق الآن تحول إلى بطولةٍ وليس إلى جريمة. هكذا تتحول الجرائم إلى بطولات.

ذُهل الجميع من الرد، ومن ليّ عنق الحقيقةِ إلى هذه الدرجة، وذُهل مازن نفسه من فهمه للخديعة أخيرًا.

صرخت مريمة بأن هذا لم يحدث، وأنهم لم يأسروا أحدًا وإنما حموهُ وطيبوهُ. بل والأكثر من هذا أن أمجد ليس هنا في (عولام)، إنه في (جوثاي) على بُعد اكثر من مائة وأربعين كيلوا مترا.

سألهم مازن إن كانوا يستطيعون إثبات هذا ؟ أو يستطيعون أن يصلوا بأصواتهم الضعيفة فوق الضجيج الذي سيحدث؟

ثم تركهم يكتشفون ببطءٍ حقيقة حجمهم الذي يواجهونه كثيرًا دون أن يدركوه إدراكًا تامًا.

* * *

مرّ الوقتُ ثقيلاً مؤلمًا.

تتجمع جُثث الشهداء في الخارجِ بالأيدي والعيون الدامعة، ودماؤهم تفترش الطرقات، ونحيب البعض يملأ الآذان، بينما تملأ الحقيقةُ أفق الوعي والوجود.

لم يكن الوقت كافيًا للحزن، وكانوا يعلمون أن انسحاب المعتدين بسبب صمود المدينةِ ودفاعها غير المتوقع، ليس إلا استعدادًا لهجومٍ أكثر ضراوةً وعنفًا.

مازن اختفى في طرقات المدينة، وبحثت مريمة عن الأمنوكال الذي اكتشفت أنهُ علم بكل التفاصيل الأخيرة.

بادرها الزعيمُ قائلاً إنهُ لم يعد مناسبًا أن يبدأوا مخططًا طويل الأمد لهذه الدرجة، وهم ينتظرون هجومًا آخر على (عولام) خلال ساعاتٍ أو أيام.

أخبرها أن الأفضل تحويل مهمة الفريق إلى مهمةٍ رسمية، سيرسلونهُ كبعثةٍ طوارقية لعرض حقيقة الامر في اجتماعٍ رسميٍّ في مصر فتصل عبر إعلامهم إلى العالم .

على أن يتم التفاوض مع حكومتي مصر وفرنسا من أجل إيقاف الهجوم على (عولام)، والنظر في طبيعة الطلبات التي سيطلبونها مقابل هذا.

لكنها أصرت على أن تكون المهمة الاستكشافية طويلة الأجل من نصيبها وحدها.

على أنهُ حين تناقش مع كبار الزعماء، ذكر أحدهم اسم الدكتور علي البريمي، أحد الطوارق الذين ولدوا في مصروينتمون فكريًا وثقافيًا للصحراء ولحُلم الطوارق الأكبر، واقترحوا أن تذهب له ليساعدها في تلك المهمةِ مؤقتًا.

ثم قرروا أن يحتجزوا مازن وباقي المرتزقة لديهم لحين استقرار موقفهم والتأكد من نواياهم.

مفككة الأوصال والأفكار خرجت مريمة بعد النقاش الطويل إلى الساحة تفكر. صدمها صورة المرتزقة وقد افترشوا الأرض قتلى، فزعت وظنّت أن هجومًا آخر قد بدأ في الخفاء، لكنها فطنت إلى مازن الذي وقف بالقرب منهم متجمدًا سارحًا في عمق الأفق.

سألتهُ عما حدث، فأخبرها أن هذا أفضل للجميع.

ارتدت مذهولة لا تريد أن تفهم.

قال بلا شعورٍ إنه لم يعد يأمن جانبهُم، قال بلا شرفٍ إنهم يمكن أن يكونوا خلايا نائمة لقائد الحرس ،وهو يخشي من تبليغهِ بحركاتهِ تمهيدًا لتصفيتهِ، هو لن يسقط في فخ الفريسة الرابع مجددًا.

لم يحتج لدليلٍ دامغٍ حتى يقتل أقرب أصدقائهِ إليه، قتلهُم من باب الاحتياط، ولأنهُ يتبع قاعدةً ما لا يحيدُ عنها.

ألا سُحقًا لكل قواعد الدنيا التي تجيز قتل الأصدقاء.

في الأيامُ التاليةِ احتجزوا فيها مازن وحده وسط دهشتهِ، ووسط استجواب كبار رجال القبيلة له بطرقهم الخاصة.

لم يحدث استئنافٌ للهجوم، وقضت المدينة وقتًا في دفن شهدائها، وفي استقبالِ المحاربين القادمين من مختلف الشعاب لاستئناف الدفاع عن (عولام)، وفي التحضير للسفر الذي تم التجهيز له.

أتت نتائج استجواب مازن لأيامٍ كثيرةٍ تدعوا للاطمئنان، قيل إنه أدرك فساد ما كان، وناله الكفر بكل ما آمن بهِ مع المرتزقة.

أتت التوصية بتعليم مازن تاريخهم وقضيتهم ومنحهُ قدرًا من معرفةِ الحقيقة كي يتشبث بإيمانٍ جديد، أو يتلمس طريق الحق، ويبحث عنه في نفسهِ.

في المقابل طلب مازن من القبيلة أن تمنحهُ إمكانات السفر إلى قدسليم، على أن يعين مريمة على السفر لبلاده ويؤمن لها دخولها عبر المرور بعدة بلدانٍ بأوراق هويةٍ مختلفة، كما يحكي لها كذلك عن تاريخ البلاد كما عاصره.

بينما تم إعداد الفريق الرسمي للسفر رسميًا إلى مصر، للتفاوض مع الحكومة المصرية والفرنسية، كان علي مريمة مهمةً شاقة، وهي - بلغة مازن وبلادهِ - تفادي العقبة الثانية للفريسة: الجهل بحقيقة العالم الخارجي، أو الجهل بحقيقة العدو، ولم يكن عليها - في ذات الوقت - السقوط في فخ الفريسة الرابع؛ الائتمان لمن لا يستحق الثقة.

بعد يومين توجهت مع مازن إلى العاصمة (نيامي)، وركبت الطائرة معه متوجهين إلى ليبيا، ومنها إلى السعودية فالإمارات، ثم أخيرًا إلى مصر.

لم تكن تعرف وهي تخطو أولى خطواتها في البلاد أن حياتها قد تغيرت تمامًا، وإلى الأبد.

* * *

مصر / قُدسَليم

ما حدث قبل عامينِ من رحلتها الأخيرة.

قوانين الفريسة الخمسة:

التوتر والقلق.

منح الثقة والأمان.

الغرق في واقع وهمي مُلَقَّن.

السمع والطاعة.

لعب دور الشهيد.

مريمة

(١)

مرّاتٌ قليلةٌ في عمري تلك التي بكيتُ فيها بحرقةٍ لا أعرفُ لها انتهاءً، لطالما كنتُ أقدرُ على إيقافها خوفًا من ملاحظةِ أحدٍ لها فيُهان كبريائي وتُجرحُ كرامتي.

هُنا في الاسكندريةِ يتجاوز الأمرُ حدود الهوان إلى احتمالية القتلِ غير المبرر. وبرغمِ هذا أدورُ في الطرقاتِ بعينينِ مغرورقتينِ حد الجنونِ وحد الألم.

لم أصدق عمليات الاغتيال التي تعرّض لها أعضاء الوفد الرسمي بالقاهرة، في برودٍ تم الهجوم على الفندق الذي استضافتهم فيهِ الحكومة. ثم بعد ساعةٍ أتت فرق المرتزقة فأتوا على كل من بهِ.

في نشرات الأخبار، عُرض الخبر على أنه أحد عمليات الخوارج، ولم يدين الحادثة أي أحد، ومر الأمر كأن شيئًا لم يكن.

في أرضِ المواتِ يصير الكلُّ موتى، لا حديث عن شركات الأمن المسئولة ولا عن اعتذارٍ مقدم من الحكومة المصرية، ولا استهجانٍ من الحكومة الفرنسية، فقط لا شيء.

وكما أن الموتى تصدر عنهم بعد أيامٍ روائحٌ نتنة، فقد بدأت تعلو في البرامج الإخبارية أصوات تستهجن أن يكون للأمر أي قيمة، إذ لماذا يتضايق الإرهابيون حين يمارس ضدهم إرهابٌ مماثل؟

منذ أيامي الأولى في تلك البلادِ، بدأتُ أحمل في قلبي ضغينة لا تنتهي، وغضبًا عاصفًا ينتظرُ اللحظة التي يخرج فيها هادمًا كل شيء.

منذ أن عرّفني مازن على (سمرة) -وهي إحدى فتيات مراهقتهِ الفائتة، لا زالت علاقاتها واسعة فلم يتخل عنها بسهولة- علمتُ أن هذه الأرض أصابتها لعنة سيحتاج الشفاء منها عقودًا طويلة.

بعد رحلة سفرٍ استمرت عدة أيامٍ بين عدة دول مختلفة قابلتُ سمرة. كانت المرأة الأولى التي أقابلها في مصر؛ بيضاءٌ فارعة لها عينان واسعتان مليئتان بالأصباغ وشفاهٌ غليظة تتغير ألوانها بتغير ألوان ملابسها التي تعري من جسدها أضعاف ما تستر.

كنتُ أحملُ جسدًا متهاويٍ من طولِ الترحال، استلقيتُ على أول فراشٍ قدمتهُ لي سمرة لأغيب في رحلةٍ بعيدةٍ إلى (عولام): الجرحُ المتقرح في عمقِ أرواحنا.

طاردتني مشاهدُ أشلاءِ الأطفال التي تناثرت على نافذة روحي وطرقاتِ المدينة، وامتلأ العالمُ بصوت القرآن المرتل الممزوج بالصراخِ والنحيب، وملمس الدماء اللزجة التي غاصت فيها قدماي العاريتان الموغلتانِ بإجلالٍ في قدسيةٍ يخر لها القلبُ رهبةً وفزعًا.

استيقظت غارقةً في الفِراشِ الوثير والأضواء الملونة الخافتة، موجودات الحجرةِ تتألقُ بين الضوءِ والظلام في مساحةٍ كبيرةٍ هي فراغ الغرفة التي أنامُ فيها، أقوم باحثةً عن أزرار الإضاءة، أفتحُ الباب لأجد مازن يضاجع سمرة على الحائط.

ارتدتتُ مذهولةً مما رأيتُ، لم يبد أنهما قد شعرا بشيءٍ، توقفتُ لدقائق لا أستوعب ما يحدث من صراعهما المستعر، تلاشت الأشياءُ والرؤية أمامي، وأصبتُ بعمىً مؤقت ونصف إغماءة.

تراجعتُ بعد دقائقٍ للوراء، فلاحظت سمرة وجودي، مدت يدها تجاهي، لم أفهم شيئًا من يدها الممدودة لكن مازن نظر ناحيتي وضحك ،رد لها يدها قبل أن يتواريا في حجرة ويُغلَق الباب بعنفٍ وضجيج.

قررتُ أني لن أمكثُ دقيقة أخرى في هذا البيت.

أشدُّ حقيبتي التي لم أفرغْ شيئًا من محتوياتها، وأبدل ملابسي، وحين هممتُ بالرحيل وجدتُ مازن في أثري.

مرتديًا بنطالهُ فقط قال كلامًا كثيرًا عن عدم أهمية ما سأفعله بالنسبة له، وعن أنني لو رحلتُ عن كل مكانٍ أجد فيه ما لا يروقني فالأفضل أن أعود لبلدي وأنسى ما جئتُ من أجلهِ.

أسمعهُ بنصف أذنٍ فقط، وأتابعُ بدهشةٍ ملامحه التي تتغير، تتحول النظرة المستهترة في عينيه إلى نظرة ضبعٍ مقززٍ، نصفهُ العاري تفوحُ منهُ رائحة عرقٍ رطبٍ كريهٍ وعلى فمهِ آثار ألوانٍ تلطخ ما حولهُ كخنزيرٍ نهش لتوهِ في العفن.

لم أعرف هل طريقُ الحق مفروشٌ بقبولِ الضلالِ لهذه الدرجة؟

وليتهُ ظهري، فسمعت ما تبقى من ضحكةٍ ممزوجة بزفيرٍ طويل، سألني أن أنتظر لحظة واحدة فقط، فأدرتُ رأسي مع اختفائهِ السريع، تساءلتُ إن كان حقًا يحاول مساعدتي أم يتلاعب - بطريقةٍ مختلفةٍ - لاصطيادي نفسيًا؟

عاد بجهازٍ صغيرٍ أخبرني أنهُ تليفونٍ محمولٍ من النوعِ القديم الذي لا يلتصق باليد، قدمهُ لي وسألني أن أبقيه معي كمحاولةٍ أخيرةٍ لإنقاذي.

أخذتهُ وخرجتُ من باب البناية الضخمة بحقيبةٍ صغيرةٍ أجرُها خلفي، وأتلفتُ حولي باحثة عن أملٍ لا أعرفُ بحقيقة وجودهِ.

أسيرُ على قدميّ مسافات ممتدة في شوارعٍ جئتها في سيارةٍ طويلةٍ كالرمحِ تمرقُ في جنونٍ.

على جانب الشارعِ؛ لحظتُ سيارة تقترب ويقفز منها رجلٌ تجاهي فأتراجع مسرعة. لم أعرف ما الذي يريده، لكن ابتسامتهُ وعينه التي يشع منها نظرة الحيوان كانت كافية لي كي أركض. عاد لسيارتهِ وانطلق بها ليدور حولي في دوائر متصلة.

نظرتُ حولي فوجدتُ الناس تتحاشى حركة السيارة وتمضي في هدوء، والبعض وقف يشاهد ما يحدث بين الصياد والفريسة باستمتاعٍ، ولم يكلف أحدٌ نفسه بمحاولة إغاثتي.

أول محاولة اعتداء عليّ؛ تستدعي قلب المحاربةِ التي حملت السيف والمسئولية منذ طفولتها.

توقفتُ عن الركض، ونظرتُ له عاقدةً يدي حول صدري، فتح باب سيارتهِ ونزل منها مبتسمًا متحفزًا من التغير المفاجئ.

يدورُ حولي على مسافةٍ بعيدةٍ،يقيس موازين القوة والضعف. أعرفُ أن انقضاضتهِ ستأتي من الخلف، الجبناء وفاقدو الرجولة لا يفعلون سوى هذا. حين صار خلفي التفتُ بوثبةٍ مسرعةٍ تجاوزت المتر لأغرس سبابتي ووسطاي في عينيهِ ليطلق خوارًا ويلوح بيديهِ يمنةً ويسرة، أمسكتُ رأسهِ بكلتا يدي ودرتُ بجسدي كله حوله فدارت رأسهُ معي مطلقة صوت التهشيم ومعلنةً انفصال عنقهِ عن عمودهِ الفقري.

في داخلي غضبٌ تراكم من كل ما يحدث حولي من ظُلمٍ وتجبّر.

حين تنبهتُ لما حولي وجدت مجموعة من الرجال والنساء تحيطني وتقتربُ في تحفزٍ كزومبي -بلا وعيٍّ- يبحثُ عن فريسة. النظرات ذاتها في عيونهم، إلا أن البحثُ المحمومِ عن الأدرينالين يبدو من أنفاسهمِ المنتشية، اصطياد الصيادين – كما عرفتُ فيما بعد - هو الشبق الذي لا يستطيعون مقاومتهُ وتتجاوز متعتهُ المتعة الجنسية.

يطلقون صرخات قتالية تعبرُ عن استمتاعٍ فائق، رجالٌ متأنقون ونساءٌ أشباه عاريات يرتدين كعوبًا عالية، ويضعون الأصباغ بكثرةٍ.

درتُ وانطلقتُ راكضةً؛ فانطلقت الجموع ورائي تركض في جنون.

سمعت دوي الطلقاتِ يأتي من خلفي، فانطلقتُ في مساراتٍ متعرجةٍ حتى لا يتم اصطيادي، ثم توقفتُ فجأة. ليس من المعتاد أن يستخدم الناس أسلحة

الرصاص، وإنما من المفترض أن يستخدموا أسلحة الليزر، الوحيد الذي رأيتهُ يستخدمها هو مازن.

التفتُ ورائي فوجدتهُ في سيارتهِ يقفو أثري.

أخبرني أنه صُدم من قدرتي على القتال بطريقةٍ لم يتوقعها، لاحظتُ الجثث تمتدُ على طول الطريقِ ورائهِ، قال: إنه توقع أن هذا سيحدث لأنهُ المعتاد، أخبرتهُ أنني لا أصدق نواياه المعلنة في أن يقوم بحمايتي لأن هذه ليست من شيمهِ.

قال بضحكةٍ أنه لا زال في حاجةٍ إلى وجودي في خطتهِ. ثم أوضح: إنه سيحاول خلال أسبوعٍ على الأكثر أن يوفر لي سكنًا منفردًا بعيدًا عن سمرة وإعجابها بي.

صدمت الكلمة أذني، في أي شيءٍ أعجبُ سمرة وهي لم تعرفني بعد، وتعجبتُ كذلك من ظنّهِ أن مشكلتي في سمرة وحدها، وليست فيه هو كذلك.

سألتهُ عن خطتهِ التي يحتاجُني فيها، قال بجديةٍ فجأة: إن وقتها لم يأت بعد، ثم قال:

- الهاتف الذي معكِ سيكون وسيلة تواصلنا، حاولي ألا تثقي في سمرة حتى لا تتحولي لفريسةٍ لها.

أخبرتهُ ساخرةً أنني لا أثق فيهِ شخصيًا، ضحك وقال: إن هذا جيد.

أكمل وهو يتلفت حولهُ:

- سمرة ستمنحكِ كل شيء وتجعلكِ تتساءلين عن السبب، بعدها ستطلب منكِ أمرًا أو عدة أمور وتضيق عليكِ الخناق لتنفذيها، أريد أن أعرف هذه المطالب.

شعرتُ ببعض التوتر، فقال مازن:

- أنا سأكون خط دفاعكِ النهائي، وقت الخطر أخبريني، وثقى أنني لا أهيئ لكِ مصيدةً ما.

حيرةٍ بالغةٍ تجعلُ الأمور تتداخلُ في عقلي. أحتاجُ مساحةً من الوقتِ أفكرُ فيها، وشخص جدير بالثقةِ أستشيرهُ وأفكرُ معه. حاولتُ تذكُّر اللحظات بيني وبينهُ منذُ رحلنا حتى الآن؛ لم أذكر لهُ سوءًا سوى استمتاعهُ باكتشاف سذاجتى وجهلي بهذا العالم.

أكمل:

- ثقي أنني لن أضرَّكِ في شيءٍ، لأن هذا لم يعد رغبتي، ولم أعد أجد فيه أي متعة. ثقي أن رحلتي هذه في البحث عن الحقيقة تشبهُ بدرجةٍ ما رحلتكِ، وأن أهدافنا لا تتعارض؛ فلماذا لا نتعاون؟

ومنح الثقة يعني السقوط في فخ الفريسة الرابع.

حين ركبتُ معه عائدة، سألتهُ أن يتوقف عند جثة أول من هاجمني، نزلتُ بفضولٍ أبحث في جيوبهِ عن هويتهِ.

ما عمل رجلٍ كهذا يحاول الاعتداء على النساء في الشوارعِ علانيةً؟ أخرجتُ أوراقهِ ووجدتُ بطاقة له عليها اسمهُ وصورتهِ، ثم موقع إليكتروني على الشبكة الرابعة للإنترنت، ووظيفتهُ: (استشاري رسوم هندسية وتصميمات) بدون اسمٍ لأي شركةٍ.

حين عدتُ إلى السيارة، فسر لي مازن أنه لا يوجد في البلاد إلا شركات الأمن والحراسة فقط وشركات أزميرالد للمقاولات، باقي الشركات والمصانع لا يتعامل معها العامة؛ لأنها مملوكةٌ للمؤسسة العسكرية الدولية، وللمستثمرين الأجانب، الوظائف والمهن تعتمد على احترافكِ مهارة أو عمل معينٍ، ومدى قدرتكِ على إقناع أحد استشاريي العلاقات العامة لإيصالك بأحدى الشركات للعمل بالقطعة أو بالمهمة.

على باب البنايةِ لاحظتُ للمرةِ الأولى الشعار الكبير الذي يملأ المدخل، للنصف العلوي لرجلٍ مفتول العضلات بشكل مبالغ فيه، وكلمة (هرقل) تحته، سألتُ مازن عنه فأخبرني أنه شعار الشركة المسئولة عن تأمين البناية، لم أجد أحدا للتفتيش ولا للتأمين ،فقال مازن: إنها شركة تعمل بلا أفراد ،ثم

أشار إلى فتحات منتشرة على طول الحوائط مثبتٌ فيها كاميرات مراقبة وفوهات ليزرية، قال إنها وسيلتهم المباشرة في القضاء على من يتجاوز تعليمات الأمن.

استقبلتنا سمرة بعينين برَّاقتين، وابتسامةٍ عريضةٍ، ثم نصفُ معانقةٍ ودعوة على الطعام وأخذ حمام استحمامٍ لأفض عني مضايقات السفر وباقي ما حدث.

لاحظتُ داخل شقتها كذلك فوهات الليزر وكاميرات المراقبة، وتساءلتُ إن كانت الحياة الشخصية منتهكة إلى هذا الحد. سمرة قالت: أن هذه الكاميرات غير متصلة بشاشاتِ متابعة، فلا بشر يتابعها، هي مجرد أدوات استشعار لوجود الأسلحة وللحركات المفاجئة التي تنم عن هجومٍ ما، ويتم التعامل تلقائيًا معها باستخدام الكمبيوتر الذكي.

أضافت بابتسامةٍ ودودة:

- يمكن إعتبارها حارسكِ الإليكتروني الخاص.

حين رحل مازن وانهيتُ طعامي، جهزت لي سمرة الحمام للاستحمام. أخبرتني كيف أستخدم كل شيءٍ، ثم وقفت على الباب تخبرني أن أناديها إن احتجتُها، وأغلقت الباب.

من وراءِ الباب أتاني صوتها تتحدث. ترغبُ في أن نكون صديقتين، تتكلم عن حياتها وعن عملها، علاقاتها بالمؤسسات العسكرية والشركات، تكلمت عن أحلامها بالسفر إلى مستعمرة القمر والعيش هناك.

كانت المرة الأولى التي أسمعُ فيها عن هذا المكان، سألتني أن أعمل معها ووعدتني أن تحجز لي تذكرة في الرحلة ذاتها التي ستذهبُ بها إلى هناك.

خرجتُ ملتفةً في منشفةٍ طويلة، فضحكت سمرة، وهي تكمل كلامها.

ثمة خدرٍ لذيذٍ يطيحُ بوعيي، أخبرتها أنني لم آتي لأعمل وأستقر في هذه البلاد، وأنني سأعود إلى (أزواغ). ضحكت وسألتني كيف سأعود إلى هناك، إذا كان مازن سيسافر خلال يومين إلى قُدسليم.

تنبهتُ من بين خمولي لما تقول، وأنا أتوجه ناحية غرفتي.

مازن وعدني بمأوى منفردٍ خلال أسبوع، فكيف سيسافر سريعًا هكذا؟

قالت سمرة وهي تتابعني إلى غرفتي بخطى متثاقلة:

- بغض النظر عن كل شيء، في كل الأحوال ستحتاجين لأن تعملي وتكوّني علاقات جيدة.

سمرة تعمل استشارية علاقات عامة، لهذا تصير الحياة في نظرها بدون علاقاتٍ كسجنٍ كبيرٍ:

- لا يمكن أن تتوقف علاقاتك عند حدود مازن فقط.

تمتدُّ علاقاتها لتشمل كل شيء، كمحاولاتٍ ممتدةٍ للهروب، أو البحث عن منافذ للضوء.

ثمة موسيقى هادئة تنسابُ عبر روحي لتُسكرني، ورائحة عطرة لازالت تتسلل إلى خلاياي، لا ينبهني إلا لمسات مزعجة من سمرة تمررها عبر خصال شعر وأنا أتوجهُ كالمنومةُ إلى غرفتي.

مدت يدًا - شعرتُ بنفورٍ غير عاديٍ منها - حول كتفي تساندني، لكني بلا وعيٍ سحبتُ نفسي محاولة إغلاق باب الغرفة:

قالت بابتسامةٍ خافتةٍ:

- لا تخجلي مني، أنا مثلكِ، ونحن صرنا صديقتين الآن.

نظرتها المنخفضة إلى الأرض -وهي تحاول مساعدتي- منعتني من اكتشاف نوع المكائد التي تدبرها لي، أعرف من بين خدري وإرهاقي ورغبتي في التحليقِ بعيدًا

عن هذه الأرض أنها تحاول أن تكسب ثقتي. لكن من خبرتي السابقة مع مازن، أعرفُ كذلك أنني في اللحظة التي أمنحها تلك الثقة سأتلقى ضربتها القاضية.

أوصدتُ الباب بإحكام، شعرتُ بشيءٍ ما خطأ لا أعرف كنهه. كنتُ قد قررتُ أن أترك كل ما أراه بعيدًا عن عمق ذاتي وهويتي.

في اليوم التالي؛ سألتُ مازن عن السكن الجديد فأخبرني أنه صار متاحًا لكنه مكلف قليلاً، أعطاني رقمًا للاتصال به لحظة أن أكون جاهزةً، أخبرني بالمبلغ الشهري لإيجار السكن فشهقتُ من هول قيمته، إيجارٌ كهذا سيجعلني أقضى ثلاثة أشهرٍ فقط بما في حوزتي من مال، دون أن أفعل شيئًا آخر.

ودَّعنا مازن وبقيت سمرة لعدة ساعاتٍ في غرفة مكتبها تعمل، وحرصَت ألا أُلقى نظرةً بالداخل وهي تغلق الباب عليها بإحكامٍ.

جلستُ أتابع غروب الشمسِ في الشرفة الواسعة المطلةِ على البحر، حواف السحب البرتقالية قريبةٌ مني أكثر من اقترابي من الأرض، يبدو الأمر جنونيًا فعلا؛ أن أكون حرفيًا قريبة من السحب مزيجٌ من الدوار والنشوةِ يلفني مع كل ما أمر بهِ من أحداثٍ.

كل حياتي الفائتة تبدو بعيدةً جدًا؛ وأنا أقتربُ من عمقِ روحي ومعني وجودي أكثر.

ساعدتني هذه الساعات في منحى بعض الاسترخاء واستيعاب ما حولي.

تركت أثرًا جميلًا في روحي. وقعها على نفسي هذَّب ما بداخلي ورتبهُ وترك مساحةً فارغة قادرةً على تلقي المزيد.

قبل أن يجثم المساء قمتُ لصلاة المغربِ في الشرفةِ، ثم تابعتُ جلستي. لم أفق إلا مع يد سمرة على كتفي تنزعني نزعًا من استغراقي الطويل في التأمل، برغم أنها كانت لمسةٌ خفيفةٌ إلا أنها جعلتني أنتفضُ كمن مسّه الشيطانُ بسوءٍ.

سألتني ضاحكةً إن كنتُ أفكرُ فيها كما تفكرُ فيّ، فابتسمتُ لسخافتها، تداركّت الموقف ،ثم قالت:

- أما زلتِ ترفضين العمل؟

فكرتُ أن العمل مع سمرة سيمنحني مساحة واسعة للمعرفة، وعلاقاتٍ لا بأس بها ربما تساعدني في مهمتي.

قلتُ:

- ربما كنتُ لا أناسب المهارات المطلوبة للعمل معكِ.

كذلك سيمنحني العمل مواردًا مالية لمستويات المعيشة الغالية جدًا هاهنا.

ضحكت:

- كلُّ شيءٍ سأكون قارةً على تعليمهُ لكِ، وكل ما أريده منكِ هو الطاعة العمياء.

ضحكتُ في سري، وأنا أتذكرُ قوانين الفريسة التي حدثني عنها مازن، أذكرُ أن أحدها كان السمع والطاعة. لم يهدني تفكيري بعد إلى المنطق الذي تتحرك سمرة من ورائه، ولا إلى طلباتها الجديرة بكل هذا الكرم.

- سأحاولُ، لكنني لا أعدكِ بشيء.

أتت خادمة سمرة ترتدي تنورة وتحملُ فنجانين قهوة، ووضعتهما على المائدة بيننا.

- يوم العمل الطبيعي يبدأ في العاشرة مساءً، وليومين في الأسبوع. ثم نظرت في ساعتها وهي تكمل:

- سيكون ثمة احتفالٍ بعد ثلاثة أيامٍ هنا في القاعة العلوية، سأُعدُّكِ كي تحضريه.

استلقت في كرسيها، وهي تمسك فنجان قهوتها بكلتا يديها وتنظر في عينيّ:

- الآن حدثيني عن مواهبكِ.

أخبرتها أن موهبتي القديمة كانت في القتال بالسيف وهو شيءٌ لا اعتقد بإمكانيةٍ ممارستهُ الآن، واهتمامي الآن بأن أكشف حقائق الناس وأسبرُ أغوارهم.

التفتت نحوي ضاحكةً:

- أتظنين نفسكِ المسيح.

ثم قالت بين الضحك المتقطع:

- سأحاولُ أن أقرّب لكِ الموضوع، عملنا يعتمد على السرية التامة، وعلى صناعة العلاقات مع كل أنواع البشر والمؤسسات وأصحاب الحرف، هدفنا هو أن نكون همزة الوصل بين كل هؤلاء.

أكملت ونظرة استمتاعٍ تتألق في عينيها:

- نحنُ نقوم بدور الأعصاب في الجسد، إذا احتاج مهندسٌ لطبيبٍ كي يداوي عمّالهُ فهو يلجأ لنا، وإن احتاج مستثمر أجنبي لمحلل مالي لدراسة سوق معين، فهو يأتي إلينا، وإن احتاج رجلٌ لأن يتزوج امرأةً بمواصفاتٍ محددة فهو يستشيرنا، نحن ندير الناس من خلال العلاقات التي يراقبها الجاساك. نحنُ نحرك قطع الشطرنج ونقرر مصائرها.

جاءتها خادمتها بوجهٍ شاحبٍ تهمسُ في أذنها بشيءٍ، فهبت سمرة من جلستها.

نظرَت سريعًا ناحية الطرقة الطويلة ونظرتُ معها فرأيتُ رجلا طويلا ممتلئ الجسد في عقده السادس تقريبًا يأتي نحوها بخطواتٍ واثقةٍ. أطلقت ضحكة عالية وتوجهت ناحيته تمدُّ يدها مرحبةً قائلةً بنبرةٍ مختلفة:

- أهلا يا جنرال.

سحبها الرجل إليه بقوةٍ، ثم ضمها إليهِ بعنفٍ، فأطلقت سمرة المزيد من الضحكات، قال الرجل بصوتٍ غليظٍ:

-هل يجب أن نحتاج إليكِ لنراكِ؟

توجها إلى غرفة الاستقبال ودخل وراءهم فريقٌ من الخادمات.

انسحبتُ في هدوءٍ وحاولتُ أن أتسلل وراءهما. ثمة غرفة مجاورةٍ جلستُ فيها ذات مرة، لكني حين دخلتها لم أسمع إلا ضحكاتهما وصوتُ قرع الكئوس، وكلمة (القيادة) تتردد كثيرًا دون أن أفسر ما حولها من كلمات.

صوت خطواتٍ بالخارجِ، أتت وراءه سمرة وأنا أتوجه للخارجِ متلصصة، نظرت لي باستغرابٍ، سألتني ضاحكة:

- ماذا تفعلين هنا؟

ثم اقتادتني إلى غرفتي وقالت لي: إنها ستحبُ أن ألزم غرفتي حين يأتيها أيُّ ضيفٍ.

في اليومين التاليين علمتني سمرة طريقة الحركة والمشي التي تدل على شموخ المرأة ورقيها، وهي طريقة تعتمدُ في أساسها على ترك الأرداف تهتز في حركاتٍ مفتعلة.

منحتني سيارةٍ خاصة بي، وعلمتني قيادتها من خلال برامج التعليم المباشر.

برامج كمبيوترية تعرض على شاشات هولوجرامية يكفي أن تضغط بإصبعك لثانيةٍ واحدة على اسم البرنامج ليتم تحميلهُ مباشرةً إلى رأسك.

تعرفتُ كذلك على خرائط المدينةِ، والأماكن الخالية من البشر للاستجمام النفسي، وطرق الدفاع عن النفس، وتحليل ملامح الوجه لتفسير الشخصيات وتوقع أفعالها اللحظية.

منحتني سمرة كذلك عقدًا ماسيًا يحيط وجهي بصورةٍ هولوجراميةٍ كأنها مطبوعة عليه، وهويةً جديدةً من خلال عدساتٍ تلتصق بالعينِ لتمنح بصمةً جديدةً لها توافقُ الهوية الجديدة: ريناد.

في يوم الاحتفال أخذتني إلى غرفة الملابس الخاصة بها، قالت لي إنني يجب أن أكون جاهزةً لأبدأ العمل، ثم طلبت مني أن أختار شيئًا من ملابسها لأرتديهِ.

أنا أطول من سمرة، وأكثرُ منها نحافةً. لم أظن أن شيئًا من ملابسها سيناسبني حجمًا فضلاً عن أن يناسبني أخلاقيًا.

وقفت سمرة لدقائق تبحثُ في فساتينها، قبل أن تخرج واحدًا أسودا وطويلاً وتقول:

أرشح لكِ هذا، فهو أكثر ما يناسبكِ.

رداءٌ طويلٌ وواسعٌ من أسفل وإن ضاق قليلاً من أعلى، وأكمامهُ ضيقةٍ وطويلة مليئةٍ بالرسومات المجوفة، راقني كثيرًا.

هي ترتدي فستانًا متموج الألوان عار الصدر، يظهر ركبتيها وما فوقهما بقليل وإن كان يلتفُ لينزل بذيلٍ طويلٍ على الأرض، اقتربت مني وهي تقول:

- اليوم سترين ما لم تريهِ في حياتك، كفِ عن الدهشة، ولا تفعلي شيئًا قبل استشارتي.

تركتني لأرتدي الفستان، وقبل أن تخرج التفتت إليّ مؤكدةً:

- اسمكِ هو ريناد، لا تنسي.

حين صرتُ جاهزةً جاءتني خادمتها الخاصة تسألني: إن كنتُ جاهزةً للخروج.

اقتادتني إلى الدور العلوي، مساحةً كبيرةً تماثل مساحة شقتها السفلي دون حوائط، وبجدارنٍ زجاجيةٍ من الأرض للسقفِ تطل مباشرة على البحر الذي يبدو قريبًا جدًا، مهيبًا جدًا، ثمّة أضواءٌ ملونةٌ تخفت وتعلو مع إيقاع الموسيقى العالية.

الأمر أشبه باحتفالٍ كبيرٍ لكنني لم أفهم سببه، مجموعاتٌ متفرقةٌ من الحضور؛ الرجال متأنقون والنساءُ تنافسن في تعرية مساحات أكبر من أجسادهن، أجواء ماجنة جهنمية لا أفهمها، ولا أقدرُ على استيعابها بسرعة.

ثمَّ جاءتني سمرة تصحبني لعمق الحضور.

الموسيقى وارتباطها بحدة الإضاءة وخفوتها كان كافيًا لأن أفقد تركيزي، والأجساد الراقصة والمحتكة والضحكات الرنانة العالية تشعرني أنني في حمَّي وأعاني من الهذيانِ والمسّ.

تقول سمرة هامسةً بحزمٍ وهي تبتسم في وجوه الحاضرين:

- كل اسمٍ أقدمهُ لكِ يجب أن تحفظيهِ وتحفظي شكلهُ تمامًا.

تسحبني من ذراعي كأنها تتأبطه، تتجهُ إلى الرجل الأشيب الذي قابلها قبل أيامٍ ونحن في الشرفةِ، تقول بابتسامةٍ قبل أن نصل إليهِ:

- هذا هو الجنرال، لا يجب أن تتحركي في أي مكانٍ يتواجد فيه قبل أن ترحبي بهِ أولاً.

الرجل واقفٌ عند بارٍ طويلٍ يقدمون فيهِ الخمور، يبتسمُ لنا حين نقبل عليهِ، تصافحهُ:

- هذه هي ريناد، التي حدثتك عنها يا جنرال. هي متحمسةٌ للعمل معي، لكنها لم تعتد هذه الأجواء بعد.

يلوحُ الرجل بيدهِ أمام وجهي في حركةٍ مسرحية قبل أن يتناول يدي ويقبلها، وهو ينظرُ لي ويقول:

- سأحاكم سمرة بتهمة تعطيل مصالح البلاد العليا.

أتجمد من الدهشة، تضحك سمرة بميوعة:

- أنا يا جنرال.

يقولُ الرجلُ وهو يضحك مخاطبًا عينيّ:

- بالتأكيد، حين تقدمين لنا جمالاً بهذه الصورة، لن نفكر في شيءٍ سواه.

تواصل ضحكتها، تسحبني من يدي المتحجرة، أسألها بدهشة:

- أهذه كانت مغازلة فقط؟

تقول بصوتٍ مكتومٍ من الغيظ:

- أنتِ كنتِ صنمًا لا يتحرك، يجب أن تضحكي، اضحكي يا ريناد، لن يكلفكِ الأمرُ شيئًا.

أكددت لي أن الرجل كشف عليّ بحركة يدهِ فالتقط خاتمه الأسود بصمة عيني، وهو الآن يتابع تاريخ ريناد الحقيقية التي أؤدي دورها، تقول بصرامة:

-لا يجب أن تتحدثي معه اليوم أبدًا.

تشيرُ ناحية الشرفة حيثُ مائدةٍ مستديرةٍ ضخمة ومختلفة عن كل ما حولها، ثمة رجلانِ أحدهما بدين بدانة مفرطة يجلسُ على كرسيٍ مختلف عن كل ما حولهُ، خفيف الشعرِ، لهُ شاربٌ غليظ، بجوارهِ امرأةٌ أربعينية فائقة الجمالِ، والآخرُ في عقدهِ الخامس تقريبًا أشيب الشعرِ قليلاً قاس الملامح، بجواره امرأةٌ شابة رقيقة الملامحِ ترتدي عقدًا من الماس تتألقُ أحجارهُ تحت الإضاءةِ المتذبذبة، حولهم مجموعة من الشباب رجالاً ونساءً يتضاحكون ويشربون الخمر ويشاغبون كل من حولهم

تقولُ وهي على ذات ابتسامتها التي حُفرت على ملامحها:

هذا الركنُ يحوي أقوى الشخصيات في البلاد، هؤلاء هم من يحمون الشوارع والشركات والمباني وكل حارةٍ منزوية لا يعرفها أحد.

الرجل البدين يضحكُ بصوتٍ كالخرتيت، تقولُ سمرة:

هذا هو مأمون عاكف، صاحب شركة أمان، إحدى الكبار الثلاثة في مجال الأمن والحراسة، وذو العلاقات العميقة مع المؤسسة العسكرية الرسمية، هذا رجلٌ مرعب يا صغيرتي.

يبدو فظًا في حركاتهِ، يرمي نظرات مستحقرةً لكل ما حولهُ، ويتابع عن بعدٍ حركة الجنرال الأشيب الذي قدمتهُ لي سمرة منذ قليل، ثم ينقل عينيهِ إلى الأشيب قاس الملامح الجالس بجوارهِ، تنظرُ له المرأة الأربعينية وتلمس يده لتنبههُ لما حولهُ وهي تضحكُ فجأة على كلمةٍ قالها أحدهم، فيضحك من جديد.

تتابعُ سمرة:

- الجميلة هي زوجتهُ نوال المهدي ابنة الجنرال أحمد المهدي، تحاول أن تبدأ خطواتها في مجال المقاولات والبناء، تريد أن تنافس أزميرالد إمبراطورة المقاولات.

أمامهما فاتنةُ متوهجة الجمال يتألقُ جسدها الأبيضُ شبه العاري بالألوان المختلفة للإضاءة، ممتلئةً بالحماسِ والحيوية، تفرطُ في الشراب، وتتضاحك مع كل من حولها وتتحاشى النظر للمرأة الشابة رقيقة الملامح، التي تجلسُ أمامها، عيناها تبدوان مخترقتي الحواجز والأشياء، ابتسامتها واثقةٌ، وعقد الماس المتألق بالغ الروعة واستكانتها التامة في مقعدها يشيان بأمرأةٍ حديدية.

تتابعُ سمرة:

- أما هذه فهي فجر مشهور ابنة الجنرال محمود سالم، وزير الطيران، متقدة الذكاء والسبب الأساسي في نجاح زوجها.

الجالسِ بجوارها الأشيب قليلاً قاس الملامح كأنما فُطرت ملامحه -حادة القسمات والانحناءات- على الصرامة والغضب. جسدهُ يبدو قويًا، وأناقتهُ متميزةً خاصة مع اختيارهِ الأسود اللامع الغالب على ملابسه،

تواصل سمرة:

- الأشيب هو صفوت مشهور، زوج فجر، وصاحب شركة هرقل، ثاني الكبار الثلاثة في مجال الأمن والحراسة، أصر على أن تدعي زوجتهُ باسمهِ، نكاية في مأمون عاكف، يعتمد في علاقاتهِ على والد زوجتهِ، وفي تطوير شركتهِ على زوجتهِ، أما هو فأداة كافية للعقاب لكل من يشعر أنه قادر على التجاوز في محيطه.

الشباب حولهما متقدو الحماس وبالغو الصخب، رجلان وثلاثة نساء عارياتٍ تقريبًا.

تُكمل سمرة:

- من كل هؤلاء أريدكِ أن تركزي على الواقف دائمًا بجوار مأمون عاكف، الوسيم المتأنق كثير الضحك، اسمهُ عاصم عبد الفتاح وهو الذراع اليمني لمأمون في كل ما يفعله هو أكثر من مدير أعماله، ولديه القدرة على فعل أي شيء تقريبًا.

حضورهُ كان قويًا، له ابتسامةٌ مميزةٌ وفكٌ عريض، وشعرٌ أسود طويل.

تقترب منهم سمرة وهي تمسكُ ذراعي فيبدو الإنتباه على وجه مأمون عاكف البدين، بينما الباقون يضحكون لها.

تصرخ بعبارات الترحيب الزائد ليتضح صوتها تحت وقع الموسيقى الصاخبة، تقبل الجميع، يمسكها مأمون قائلاً:

- يجب أن تجلسي قليلاً معنا.

يضحكُ مأمون، وتجلس سمرة إلى جوارهم.

يقترب عاصم وهو يمدُّ يده ناحيتي:

- عاصم عبد الفتاح، المدير التنفيذي لأمان.

أحاولُ الابتسام:

- ريناد، أعمل مع مدام سمرة.

يقتربُ مني، يقول:

- اسم جميل، وستصيرين أفضل منها.

يقول وهو يشير ناحية الأضواء، ويسد أذنهُ بيدهِ في حركةٍ طفولية:

- لا أحتمل هذه الموسيقى.

أقولُ، وقد وجدتُ أخيرًا شيئًا أتحدثُ فيه:

- أتفق معك، لم أحب يومًا هذا الجنون.

يبتسم وينظر مباشرةً في عينيّ:

- أنتِ مختلفةٌ عن كل ما حولكِ.. ماذا أتى بكِ لهذه الإعصارات؟

شيءٌ في عينيهِ مختلفٌ، كأنني ألمسُ عمق روحهِ التي تترقرق على صفحة عينيهِ:

- يحركُنا القدرُ أحيانًا، وهو أمرٌ لا مفر منهُ!

يبتسمُ وهو يشربُ من كأسهِ:

- وبماذا ينبؤكِ القدر الآن ؟

أنظرُ لكأسهِ والخمر الذي جرعهُ حالاً، وللأجواء التي تفيض بالهذيان:

- ينبؤني أنك لست بالسذاجة التي تُظهرها هذه.

يطلقُ ضحكةً عالية.

تمسني يدُ سمرة، أنظر لها فأجد بجوارها المرأة الذكية متقدة الجمال، ماذا كان اسمها ؟

تجذبني ذات الجذبة الرقيقة الحازمة:

- أُحدِّثُ مدام فجر عنكِ، هي أيضًا معجبةٌ بفستانكِ كثيرًا.

أنظرُ لفجر، أحاولُ أن أحفظ الاسم:

- أشكركِ كثيرًا.

تقول فجر وهي تشير بطرفٍ خفيّ إلى عاصم:

- وددتُ أن أحذركِ منه، لو امتدت صداقة بينكما ربما يؤثر هذا على علاقتنا مع مدام سمرة.

تضحكُ سمرة وهي تقول:

- لا تقلقي يا مدام فجر، ريناد تمتلكُ قدرة فائقة على كشف الحقيقة وزيف الناس، وهي قادرةٌ على التلاعب بعشرةٍ مثله، أنتِ فقط لم تعرفينها بشكلٍ تامٍ بعد.

أحاولُ أن أبتسم ابتسامة واثقة، تواصل سمرة:

- هي تعرفُ مثلاً أنه وسيط روحي، يستغل موهبتهُ ودراستهُ في التأثير المغناطيسي على من حوله، لهذا درست في الأيام السابقة هذا الموضوع كثيرًا.

تلتفت فجر إلي سمرة، يبدو التناقض واضحًا، فجر شابةٌ لا تلحظُ فيها سوى جمالُ عينيها المتقدتين ذكاءً وقسوة، مثالٌ صغيرٌ على من وُلد أميرًا يتلقى العلم ويلقى الأوامر، أما سمرة برغم ملامحها الجميلة، إلا أن معالم الزمن والكفاح تُطل من عينيها، وترتسمُ على ملامحها سمات الحزم الذي تحاولُ أن تُخفيهِ بشيءٍ من الضحك والمرح، تقول فجر:

- حسنا، أنا أثقُ فيكِ يا سمرة.

تلتفت حولها:

- أرجو أن تنهي أعمالي سريعًا

تبسط سمرة يدها في حيرة وترد:

- كما تريدين، لكن هذا سيحتاجُ ترتيباتٍ وتكاليفٍ أكثر.

تبتسم فجر ببرود وهي تومئ برأسها، ثم تتركها بلا كلمة إضافية.

لا أفهمُ شيئًا، تسحبني من جديد إلى ركن البار، تشير للعامل أن يبتعد تمامًا، تقول:

- حذارِ أن تتحدثي على انفرادٍ مع أي أحدٍ آخر.

أخبرها أنني لم أتحدث إلا عن الموسيقى العالية، وعن القدر، تخبرني أن عاصم لا يعترف بالأديان ويؤمن بتناسخ الأرواح، وأنه قادر من خلال هاتين الكلمتين أن يقوم تحليل شخصيتي.

وفهمتُ أن هذه كارثة لو حدثت لأنني تحدثت على طبيعتي ولم أُصَدِّر له صفات شخصية أخرى مما يعني أنني صرتُ كارتا محترقًا بالنسبة لسمرة في مؤسسة مأمون عاكف بأكملها ،ولا يجب أن أقترب من هناك.

السبب أنه سيكتشف أي محاولةٍ مني للكذب أو إقناعهُ بشيءٍ ما، ولهذا فدراسة الطب النفسي محظورةٌ على العامة.

أوضحت كذلك أنه قام بالكشف على بصمة عيني، وصار لديهِ تاريخ ريناد بأكمله.

لم أصدق أن كل هذا حدث في الدقائق القليلة التي وقفتها معه.

أخبرها أنني لا أفهم شيئًا، وأنها لو كانت تريد أن تفقدني عقلي باصطحابها لي هنا فقد حققت هذا بجدارة.

تشربُ من كأسها وتحاولُ أن تهدأ قليلاً، تتابعُ من حولها بابتسامتها المطبوعة على وجهها ونظرة عينها المتألقة التي لا زالت قادرة على الاحتفاظ بها.

تتجاوز الأمر وهي تشيرُ لامرأة تقفُ بجوار صفوت مشهور – الذي سأعرفُ فيما بعد أن شهرتهُ هي (الهرقل)- ناحية باب الخروج، يحتسي كل منهما خمرهُ، تقول:

- هذه هي أزميرالد، أسطورة المقاولات والهندسة، والوحيدة التي استطاعت أن تحافظُ على شركتها بعد انهيار كل شركات هذا القطاع بفضل علاقتها بلجنة الحُكماء، يمكن أن نقول إن هذه المرأة الجميلة صغيرة الجسد هي ذراع اللجنة في تحجيم قطاع الأمن والحراسة الذي بدأ يستوحش ويمد أنيابهُ ناحية اللجنة نفسها.

أزميرالد هي معشوقة مأمون عاكف صاحب أمان، الرجلُ البدين ثقيل الروح الذي يُرجعُ كل شيءٍ للعضلات برغم أنه لا يملكها، لكن أزميرالد لا تطيقهُ بسبب تاريخهُ الأسود القديم وما فعلهُ إبان ثورة الجياع في ٢٠٢٠ وما قبلها في ثورة ٢٠١٨ من محاولاتٍ للبطش بحكومة المجلس العسكري القديم التي كان

والدها رئيسها، قبل أن يعرف ابنة رئيس الوزراء المراهقة الصغيرة ويفقد صوابهُ بسببها.

مأمون سعى منذ البداية لأن يحصل عليها، لكنها فضلت عليهِ الهرقل صفوت مشهور، في أغلب الأحوال بسبب إيعاز من اللجنة، وصارت شركة هرقل هي المسئول الأمني لمجموعة شركاتها ولكل مشاريعها الهندسية المتميزة.

أبحث بعيني عن مأمون عاكف فأجده في ذاتِ جلستهِ لا يتحرك، لا أحد جوارهِ سوى عاصم ذراعه اليمني وانفض الباقون من حولهِ، لا يزال بنظرتهِ المتأففة الحانقة، بينما عاصم يشاغب كل من حولهُ.

تُكمل سمرة:

- كان هذا كافيًا لبدء ثورة مأمون الذي لا يعترف بانتصار أحد عليه، في البداية قام بتنفيذ هذه العمليات بنفسه من خلال شركتهِ؛ تفجيرات وهجوم على مواقع مشاريع أزميرالد وخسائر كبيرة تلقتها شركات التأمين الأجنبية بكثيرٍ من الغضب، وحين ثبت تورطهُ في الأمر تحمل غرامات هائلة؛ لأن شركتهُ مهمتها الحماية فقط، وليس مرخصا لها الهجوم.

تقولُ سمرة ساخرة:

- هُنا؛ كل شيءٍ يحتاجُ إلى ترخيص، حتى عملي هذا لا أستطيع استكمالهُ إذا لم يجددوا رخصتي، الشيء الوحيد الذي لا يحتاج إلى ترخيص هو الاشتراك في برنامج (القناص).

تعود لتكمل ما حدث بين مأمون عاكف وأزميرالد بعد أن خسر مبالغ طائلة دفعها كغرامةٍ لها:

- ذهبت له أزميرالد وكانت ضحكتها الساخرة كافية لقتلهِ،عندها لجأ مأمون إليّ، كان يبحثُ عن وسيلةٍ لإثبات أن شركة هرقل لا تستطيع حماية أكبر مشارع البناء والهندسة في البلاد، ويريد أزميرالد أن تأتيهِ خاضعة تطلب منه أن يحميها، بالتأكيد وجدتُ لهُ الوسيلة المناسبة لإبعادهِ عن الصورة وتنفيذ

مخططاتهُ في نفس الوقت، لكن صفوت لا يُهزَم بسهولة، كان يكيلُ لهُ الضربات من كل جانب، تزوج المرأة التي كان يريدها مأمون، فجر سالم ابنة وزير الطيران محمود سالم صاحب العلاقة الرائعة مع مأمون الذي كان على وشك ان يُصدر خدماتهُ الأمنية لكل بقاع العالم آنذاك، لكن فجر اختارت صفوت الوسيم قاسي الملامح والذي يحترم عقليتها وعلمها، والذي أصر على أن يتم مناداتها فجر مشهور إمعانًا في إذلال مأمون.

تغيرت العلاقات الودودة بسبب هذه الزيجة إلى أن وصل الأمر أن قام وزير الطيران بمنع أي رجل أمن في أمان من السفر خارج البلاد، بل ومنع مأمون نفسهُ من الخروج وحبس شركتهُ بأكملها في مصر. عندها بدأ تكسير العظام بين مأمون وصفوت، كلاهما لجأ لي كي أبحثُ عن وسيلة لمهاجمة أهم الأماكن التي يحميها الآخر لإثبات فشلهُ، لكن يبدو أن الوضع تغير كثيرًا الآن.

ألحظُ عن بعدٍ بعض التوتر عند البار المقابل بين عاصم وامرأة أربعينية أخرى غاضبة، تُكمل سمرة حديثها كأنما لا يعنيها ما تلحظه هي الأخرى:

- الوضع الآن صار أكثر خطورة.

تصمتُ فأسألها أن تُكمل، فتقول:

- هناك تزامن غير عادي، ولم يحدث بينهما من قبل، مأمون طلب مني أن أقوم بتفجير البلازا، وهي المقر الرئيسي لشركة هرقل واختراقها شبه مستحيل.

تتابعُ:

- فجر كذلك طلبت تدمير الكريستالة - المقر الرئيسي لشركة أمان- قبل ليلة الكريسماس؛ واختراقها شبه مستحيلٍ أيضًا.

حدة التوتر عند البار المقابل ازدادت، وجهُ عاصم بارد، والمرأة الغاضبة تمسكُ بكأسها وتفرغُ محتوياتهِ في وجه عاصم وترحل، فيسبها عاصم وينعتها بالعاهرة الرخيصة.

تقولُ سمرة:

- لقد سأمتُ هذه المسرحيات الرخيصة التي يصدقها هؤلاء الحمقى.

تخبرني أنها مديرة مكتب صفوت مشهور، وأنها عشيقة عاصم – مدير مكتب مأمون عاكف- كذلك،

عاصم يقفُ في وسط القاعةِ يسب المرأة، يقول:

- أنتِ عاهرة، تعملين كجاريةٍ عند رجلٍ رفضكِ وتزوج امرأة أفضل منكِ.

يبدو أن عاصم مخمورٌ شبه فاقدٍ للوعي، ولم يكن أحدٌ ينظر ناحيتهُ تقريبًا، لكنهُ يُكمل بصوتٍ عالٍ وغاضب:

- لو جئتيني فسأستطيعُ إشباعكِ بدلاً من إشباعكِ لنفسكِ سرًا.

تغضب المرأةُ أكثر فتصرخ وهي تستدير ناحيتهُ:

- المرة القادمة سأحرصُ على أن تصيب رصاصتي وجهك الكريه.

أسألُ سمرة إن كانت حاولت قتلهُ فعليا، فتجيبني نعم، أسألها كيف تحبهُ إذن؟

تتوجه سمرة ناحيتهما وهي تقول لي:

- لا شيء اسمهُ الحب!

تحتضن عاصم لتهدئهُ، تسحبهُ برفقٍ بعيدًا وتقدم له كأسًا آخر، تقول لي وهي تسيرُ معي من جديد:

- حين شك صفوت فيها أتى بسلاحهِ، وطلب منها أن تطلقهُ عليهِ وكانا في عشاء عملٍ عادي، فلم تتردد شيري لحظة في إطلاق النار وإصابته، لو لم تطلق الرصاصة ناحيتهُ لأطلقها صفوت في رأسها، عاصم نجا بمعجزةٍ، وكان هذا إنذارًا ببدء الكراهية علنًا بينهما، لكن الحقيقة أن شيري تكره ما فعلهُ صفوت معها بعد أن تزوج فجر، وسقطت في براثن عاصم منذ بدأ محاولاتهِ السرية معها؛ لهذا لا زال مأمون يقفُ على قدميهِ ويردُ هجمات صفوت، إن كل نفسٍ يتردد في مكتب الهرقل يصير في مكتب عاصم بعد ثوانٍ قليلة.

أقولُ باستغرابٍ مستنكرة وأنا أتابع كل النساء أشباه العراةِ:

- هل يجب أن تتحول أردية النساءِ إلى لا شيء هكذا.

تضحكُ وهي تقول:

- كلما ازدادت أنوثتهن، كلما صار كلامهن أكثر أهميةً وتداولاً بين الناس.

ثم تتركني وهي تتوجه ناحية شيري.

تتوقفُ فجأة. ثمةُ قدم تقفُ على ذيل فستانها تمنعها من الحركة: قدمٌ لرجلٍ نحيفٍ طويلٍ يرتدي سترة رمادية طويلة. تقولُ سمرة ضاحكةً ومرحبة:

- عادل بك!

يقولُ الرجل وهو ينحني ببطءٍ ليلتقط ذيل فستانها:

- تَمُّرِينَ على كل ضيوفكِ، ولم تنظري نحوي.

تطقطق سمرة بدلالٍ وهي تقتربُ منه:

- الجنرال غاضبٌ مني؟ كيف سأستطيعُ التنفس الآن.

يداعب الرجل ذيل فستانها بين يديهِ وهو ينظر له:

- ستتنفسين وترقصين كذلك.

تتوقف الموسيقى الصاخبة، ويبدأ إيقاعٌ راقصٌ تتمايل معهُ سمرة، وتخفت الأضواء ثم تزداد حدة فجأة وتتموج بين درجات الأحمر ثم يتكرر من جديدٍ مع إيقاعِ الرقص.

ينتبه الجميع لما يحدث ويتابعه، أبدأُ في الشعور بالدماء تنسحبُ من رأسي، وبزغللةٍ تحيط كل شيءٍ، أشعرُ بالرفض والمقتِ لكل ما حولي، أشعرُ أن قدرتي على التحمل والاستيعاب تتلاشى.

أتوجهُ ناحية باب الخروج، أنزل الطابق السفلي حيث مسكن سمرة، أفتحُ الباب لأجلسُ على الأرض.

أبكي دون أن أعرف السبب، صدري يضيقُ، ينتابني حنينٌ مجهولٌ إلى أرضي، إلى أهلي وقبيلتي، وصوتُ عزف الناي ودق الدفوف والرق.

أحتاجُ لأن أكسر شيئًا، يتصاعدُ من داخلي الغضب، وأبقى على حالتي هذه لوقتٍ أشعرُ أنهُ دهر كامل، يأتيني صوتُ الموسيقى الراقصة. أحتاجُ لأن أبتعد عنهم قدر استطاعتي، أغلقُ باب المدخل، أتوجّهُ إلى الغرفة المخصصة لي، لكن شيئًا جذبني إلى غرفة مكتب سمرة، الغرفة التي لم تسمح لي بالاطلاع عليها؛ بابها غير موصد بإحكام أدفعهُ فيفُتح أمامي وتضيء الحجرة.

ثمة شاشة عرضٍ هولوجرامية صغيرة جدًا، أدقق النظر فيها، تعرضُ لقطاتٍ من الاحتفال بالطابقِ العلويّ، تتمدد وتتعدد فجأة في شاشاتٍ متتاليةٍ حين ألمسها، تعرض المشاهد بحجمها الطبيعي مكونة دائرة أفقية حولي، أدققُ النظر فيها فأجدها تعرض كل تفاصيل الاحتفال.

ألفُ بين الشاشات أتابعُ ما تعرضهُ، سمرة تُسجلُ تفاصيل الاحتفال بدقةٍ لتعرف ما يدور من اتفاقاتٍ ومؤامراتٍ في بيتها بعيدًا عن عينيها، ربما لهذا تفضل إدارة عملها هنا من هذا المكان؛ حتى تستطيع أن تسجل كل شيء.

ألحظُ إحدى اللقطات تعرضُ صورة مأمون، وقد تخلى عن مقعدهِ ويسيرُ كبطريقٍ عجوزٍ يتأرجحُ ذات اليمين وذات الشمالِ في رفقة الجنرال ذي السترةِ الرمادية الذي راقص سمرة- عادل بك كما نادتهُ والذي سأعرف فيما بعد أنه مدير الجاساك- ويختفون داخل الشرفةِ.

أبحثُ بين الشاشاتِ عنهما من جديد، وجهُ مأمون المحتقن وهو يسير كان يشعلني بالفضول، ألف الشاشات وراء بعضهم حتى أجدهما من جديدٍ.

مأمون يقولُ بعصبيةٍ:

- أهذه هي مكافأة نهاية خدمتي لكم.

يقول الجنرال ذو السترةِ الرمادية:

- خدمتك لنا أوصلتك لكل ما أنت فيهِ يا زعزوع.

تنفرُ العروق من وجه مأمون وهو يصرخُ منخفض الصوت:

- زعزوع هو الذي حماكم وقت أن هاج الشعب ضدكم وكاد يفتك بكم، كنتم تحتمون برجالهِ، أم نسيتم ما فعلهُ من أجلكم المواطنون الشرفاء؟

ينظرُ له الجنرال بعمقٍ، ينفث دخان البايب في وجهه، يقولُ لهُ:

-وماذا فعل أيضًا زعزوع.

يحاولُ مأمون أن يتمالك نفسهُ:

- أنا عشتُ عمري كله في خدمتكم، وساهمتُ كثيرًا في إنجاح النظام، وفي مواجهة غضب الجياع، العالم الذي نعيشه اليوم أنا جزءٌ منهُ، هل تريدون تنحيتي الآن؟

يقول الجنرال مختفي الوجه وراء سحب البايب:

- أسألك ماذا فعلت أيضًا يا مأمون؟ أنا أخبرك ماذا فعلت أيضًا: فشلت في إسقاط سد إثيوبيا، وأحرجتنا في الأوساط الدولية، وتسببت في الأموال الطائلة التي ندفعها سنويًا لشراء حصة المياه حتى الآن.

تتوتر ملامح مأمون ويهتز وجههُ المنتفخ، يتابعُ الجنرال:

- فشلت في حماية انسحاب سفارتنا من تركيا وفرنسا وأمريكا، وتركت أفراد الطاقم بأكمله بين أنياب المصريين الغاضبين بعد عملياتنا التطهيرية في ٢٠٢٠، وأسأت لصورتنا، مما اضطر اللجنة لألغاء نظام السفارات بعد المشكلات السياسية التي نتجت عن هذا.

تشحب ملامح مأمون والجنرال يُكمل بصوتٍ قاسٍ:

- حتى بداية مشروعاتنا في وسط أفريقيا فشلت في حمايتها وصارت نهبًا للأفارقة البيض، ولولا رجلاً عظيمًا مثل أدهم الجبلي لفشلت بسببك كل مهماتنا الخارجية.

يتمتمُ مأمون بصوتٍ غاضبٍ وخفيضٍ كأنه يحاولُ أن يمنع نفسهُ من الكلام:

- وبرغم هذا تنالون من أدهم الجبلي في كل إذاعاتكم، بعد أن نفيتموه لقدسليم.

ينظر له الجنرال بعينين متقدتين تهديدًا:

- لقد كنّا عطوفين جدًا معك، وبرغم كل ما فعلت منحناك جلدًا جديدًا كرجل أعمال، ومحونا كل سوابق إجرامك، وقدمناك للعالم بهويةٍ جديدةٍ لتقود شركةً كبيرةً ضمن أكبر قطاعات الاقتصاد في البلد؛ لأننا كنّا نشعرُ بولائك لنا.

تعود لمأمون نبرتهِ المهادنة وهو يقول:

- وولائي لكم لا يتغير؛ الأخطاء القديمة هذه كنتُ وقتها شابًا صغيرًا بسيط الخبرة، أما الآن فالوضع مختلف، لم أعد صغيرًا ولا بسيط الخبرة.

يرد الجنرال ببرود:

- هل هذا تهديدًا يا زعزوع؟

يصمت مأمون للحظاتٍ ثم يقول:

- لم أقصدهُ تهديدًا، لكني أرجوكم أن توقفوا حملات التشوية التي بدأت، والتي تعرف –كما أعرف- معناها ونهايتها.

يبتسم الجنرال مشفقًا:

- وماذا تريد أيضًا؟

يندفعُ مأمون قائلاً:

- لا داعي لإجباري على طرح أسهم جديدة في أمان للاكتتاب العام، تعرف أن هذا يصب في مصلحة صفوت مباشرةً، تكفيهِ نسبتهُ من ذهب إفريقيا.

يسألهُ الجنرال وهو على ذات ابتسامتهِ المشفقة:

- في مقابل ماذا؟

يقول مأمون سريعًا:

- في مقابل الابتعاد عن الجنرال محمود سالم، وتنفيذي لكل ما تطلبون.

تنفلتُ ضحكةٌ صاخبة من الجنرال، يحاول أن يكبت جماحها دون أن يستطيع:

- علا صوتك كثيرًا يا زعزوع.

يشحب وجه مأمون، يطيلُ الجنرال النظر لهُ، يربت علي كتفهِ وقد تحولت ضحكتهُ لابتسامةٍ مستهترة، يتركهُ ويخرج من الشرفة.

يبهت وجه مأمون بشدة.

أتنقلُ بين الشاشات بحثًا عن الجنرال، ألمحُ في إحداها سمرة وهي تدور كأنها تبحثُ عن شيءٍ ما، أخيرًا أجد الجنرال يمر بجوار عاصم مدير مكتب مأمون ويربت على كتفهِ ذات التربيتة فعلها على كتف مأمون، يتابعهُ عاصم وهو يتوجه ناحية البار، يذهب عاصم ناحية الشرفة التي يتواجد فيها مأمون.

أقلّب الشاشات مرة أخرى، بحثًا عن الشاشة التي تُعرضُ الشرفة، ألمح في إحدى الشاشات سمرة وهي تتوجهُ ناحية باب الخروج، توزع ابتساماتها على الحضور، أحاولُ أن أنتهي سريعًا قبل أن تأتي سمرة باحثةً عني، عاصم يقفُ بلا حراك وراء مأمون، مأمون يوليهِ ظهرهُ ينظرُ ناحية البحر الذي يبدو شديد السواد، أحاولُ أن أعيد الشاشة إلى حجمها الصغير، أضغطُ على جانبي الشاشة لتصغيرهم كما كانوا. عاصم يرفعُ سلاحًا ليزرياً إلى رأس مأمون. تتقلص مساحة الشاشاتِ فجأة. ينطلقُ وهجٌ يصيب مؤخرة رأس مأمون، تعود الشاشاتُ كما كانت شاشة هولوجرامية صغيرة، أهرول خارج الحجرةِ مفككة المفاصل متفرقة الأنفاس، أترك الباب كما وجدتهُ نصف مغلق، أركضُ ناحية غرفتي، أتكور بجوارِ الفراشِ لا أكادُ أصدقُ ما حدث؟

هل قتل عاصم مديرهُ حقًا؟

أرتجفُ من الصدمة، أحاولُ أن أسترجع ما حدث، أكان هذا السلاحُ يقتلُ؟

طرقاتٌ على الباب..

أرفعُ عيني حين ينفتحُ لأجد سمرة تنظرُ لي بدهشةٍ، تهرولُ حين تراني على هذه الحالة، تجلسُ بجواري لتحتضنني، تسألني عما بي، فلا أجيب.

صوتُ نحيبي يرتفعُ، يدها تحيطني وتربتُ عليّ، تتحسسُ ظهري بأكملهِ وتهمسُ في أذني أنها جواري فلن يصيبني أذي.

أشعرُ بأشياءٍ متضاربة كثيرة، حاجتي للأمانِ تمنعني من رفض مواساة سمرة، حاجتي لحضنٍ أفرغُ فيه كل ما أشعرُ به من مشاعرٍ لا أفهمها وحنينٌ طاغٍ إلى براءةٍ أفتقدها؛ يُصحّر جدران روحي ويقتلني.

تُقبلني سمرة على جبهتي، أحاولُ أن أفيق، تقول لي أن أفضي لها بكل ما أشعرُ بهِ، أخبرها إنني لا أعرفُ بماذا أشعرُ، تضحكُ في حنانٍ، أقول إنني لا أحتمل ما أراهُ، أسألها وأنا بين ذراعيها:

- لماذا قبلتي الرقص بهذه الطريقة؟

تضمني إليها أكثر، تقول بصوتٍ رقيقٍ وخفيض:

- ولماذا أرفض؟

أسألها:

- لماذا ينتشرُ القتلُ بهذه الصورة؟

تقبلني على وجنتي:

- هذه طبيعة الحياة وطبيعة البشر يا صغيرتي.

تصدمُني ردودها، تقولُ وهي تربتُ على رأسي:

- القتل يحدث بحججٍ وادعاءاتٍ مختلفة، لكنهُ يحدث منذ وُجد الإنسان على الأرض. أعرفُ أنكِ عشتِ منغلقة في بيئةٍ لا تناسبكِ لكنني سأعلمكِ كيف تهزمين كل هؤلاء، وكيف سنصنع معًا قوةً لن يواجهها أحد، لقد كنتُ أنتظرُ فتاةً مثلكِ منذ فترةٍ طويلة.

أنتبه من غفلتي، أسحبُني من بين يديها، أنظرُ لعينيها لأجدُ المرأةُ المستباحةُ على الحائط تبتسمُ لي.

أنهضُ، أرتكنُ إلى حافة الفراشِ، أقولُ لها أنني سأعودُ إلى الحفلةِ من جديد، فتخبرني بذات الصوت أن الاحتفال أوشك على الانتهاء، تطلب مني أن أغير ملابسي وأخلع العقد الماسي وأحتفظُ بهِ.

لم أستطع أن أسألها عن الحادثة.

حين آويتُ للفراشِ غبتُ في نومٍ عميقٍ، كأنني كنتُ في حاجةٍ للهروب.

* * *

كنتُ في حاجةٍ لأرى الصحراء؛ لأري مساحة ممتدة من الفراغ بعيدًا عن الاختناق الذي يقتلني بين طرقات المدينةِ وبناياتها الشاهقة التي تحجب رؤية السماء من حولي.

أخذتُ السيارة التي منحتنيها سمرة، وعند حافةِ الفراغ نزلتُ. سرتُ قدر استطاعتي في عمق الخلاء، جلستُ على الأرضِ ومسكتُ ترابها بكلتا يديّ، نظرتُ ناحية السماء وغرقتُ في دعواتٍ كثيرةٍ للهِ أن يساعدني ويريني طريق الحق، ويثبت خطاي على صراطهِ، ويمنعُ عني كل ما حولي من فتنٍ.

قضيتُ وقتًا طويلاً في صحبةِ نفسي، وفي رفقة الله تعالي، عرفتُ أن مثل لحظات الاختلاء هذه هي التي تمنحني قدرةً على التواصل، أن أعيد وعودي لنفسي، وأتذكرُ من أنا، ولماذا جئتُ لهذه الأرض غير الطيبة؟

للحظاتٍ شعرتُ بالانبهارِ مما رأيتهُ في الحفلةِ، جمالُ النساء العارياتِ أشعرني بحاجتي لأن أعرف إن كنتُ أماثلهن جمالاً وإثارة، كنتُ أطردُ هذه الأفكار من عقلي. أُخذتُ كذلك بتأنق الرجال الغربي وروائحهم النفاذة وأفواههم المكشوفةِ التي تابعتها بكثيرٍ من الاستغرابِ والدهشة وقارنتُ في أعماقي بين مظهرهم ومظهر رجالنا الملثمين بالأزرق.

بدت لي سمرة في هذه اللحظة هي المقياس المناسب الذي ينبهني للصواب والخطأ، رقصها المهين لأنوثتها وكرامتها، احتضانها لكل رجلٍ تقابلهُ، صورتها مع مازن كلها أشياءٌ تؤكد لي أن الصواب في جانبي، وأن الحق لا يمكن أن يكون في العُري ولا في الروائح النفّاذّة العَطِرة.

وأن كل ما يمسّ القلب فيطمس براءتهُ ويعلقهُ بمتعِ الدنيا الزائلة، هو من أعمال الشيطان. بطريقةٍ ما كانت تُعيدني إلى صوابي ورشدي، تجعلني أؤكد لنفسي أن لا شيء في حياتها يغريني أو يستهويني.

رن هاتفي، ووجدتُ صورة مازن على شاشتهِ، تلفتُ حولي وأنا أجيبهُ، فقال:

- لا تقلقي، الهاتف معكِ له خصائص فريدة في التأكد من الابتعادِ بدرجةٍ كافيةٍ عن كل أجهزة التجسس.

سألني عن حالتي النفسية وإن كنتُ قادرة على الصمود والمواصلة ،أخبرتهُ ما حدث في الاحتفالِ وظنّي في قتل عاصم لمأمون، فأكد لي احتمالية حدوث هذا فعلاً خاصة مع الدعايات التي بدأت تنال منه في الفترة الأخيرة، وسرد تاريخه الحقيقي منذ كان بلطجيًا عاون رجال العسكرية في الماضي حين كان مشتهرًا بزعزوع، فكافؤوه بشركة الأمن التي يديرها هو وعشرات مثله. لكنه استطاع أن ينجح حتى وصل لما هو عليه.

أخبرني أن كل أصحاب شركات الأمن يشبهون زعزوع أو مأمون عاكف في مسيرتهِ من البلطجة إلى مصاف رجال الأعمال الذي يعتمد عليهم اقتصاد البلاد.

لكنّ صوتهُ العالي وتصريحاتهِ النارية التي تنال من الجنرال محمود سالم، جعلتهم يبدءون في التشهير بهِ.

قال مازن إن هذا هو نفس الأسلوب الذي اتبعتهُ لجنة الحكماء مع رجلٍ مثل أدهم الجبلي الذي قاد هذه الأمة فكريًا من خلال منصبهُ، قبل أن يقود الـ"IMS" ويُخرج منها أعظم رجال الأمن.

سألتهُ عما إذا كان استطاع أن يصل إلى الدكتور على البريمي، أو يعرف أحدًا من الطوارق الذين قدموا إلى هنا قديمًا، لكنهُ اخبرني أنه سيحتاجُ وقتًا أطول.

ثم طلب مني أن أفتح الشاشة الهولوجرامية وقناة النقل الآني.

بالرغمِ مني أشعرُ أحيانًا بالسلام النفسي تجاه مازن، وأحيانًا تجاه سمرة كذلك، برغم كل ما فعلهُ مازن معي من قبل، وما رأيتهُ في سمرة، وبرغم معرفتي أن حاجتهم لي هي التي تدفعهم للتعامل معي بهذه الطريقة، وأنه لولا هذه الحاجة لقضيا عليّ دون أن يطرف لهما رمش.

أخرجتُ اللؤلؤة الإلكترونية من جانب الهاتف، وهي كرةٌ صغيرة تشبه اللؤلؤة في لونها وحجمها ولها وظائف كثيرة لم أتخيلها حين رأيتها لأولِ مرة، ألقيتها فتعلقت بالهواء، فتحت كاميرتها الهولوجرامية لتنقل صورتي ثلاثية الأبعاد، وعرضت في الفراغ أمامي صورة مازن كذلك، ثم خرج منها ذراعٌ بآخرهِ كرةٌ بلاستيكية تتلقى داخلها ما يتم نقلهُ آنيًا من المتصل.

طلب مني مازن أن ألتقط البلورة الصغيرة من كرة الاتصال، ثم قال:

- هذه هي أداة SPY ١، من أحدث أدوات التجسس التي تتفوق فيها قدسليم، حصولي عليها كان مرهقًا.

سألتهُ عن سبب إرسالهُ لها، ابتسم وهو يقول:

- الآن يمكنني أن أوضح لكِ بعض الأمور.

كان يريدني أن أتجسس على سمرة:

لايمكننا أن نأمن جانبها، ومعرفتنا بتحركاتها سيمنحنا القدرة على استباقها بخطوةٍ إن هي أرادت بكِ سوءًا.

لكني عرفتُ ضمنيًا كذلك بأهمية هذا لهُ، في بحثهِ عن الحقيقة التي ينشدها.

طلب مني في النهاية أن أُلصق SPY ١ برقبة سمرة.

الجهاز له قدرة غريبة على الالتصاق بالجسد الآدمي فيأخذ شكله ولونهُ ويتحول إلى طبقةٍ رقيقةٍ لا تُرى فوق الجلد، يسجل كل شيءٍ ويتصل بالقمر الصناعي لينقل الصورة كذلك ويعرضها مباشرةً على هاتفي وهاتف مازن، ولا تنزعهُ عن الجسد إلا ذات الأصابع التي وضعتهُ.

يكادُ قلبي يخرجُ من فمي من فرط الإثارة، بينما يؤكد لي مازن أن سمرة لن تشعر بشيءٍ وأن هذا الجهاز نادرٌ وغير معروفٍ بعد حتى في قدسليم نفسها.

بعدها عرض عليّ صور بعض الجنرالات لأتعرف من خلالها على الجنرال ذو السترة الرمادية الذي تكلم مع مأمون عاكف طويلاً، حين تعرفتُ عليهِ عرفتُ أنه الجنرال عادل السعيد مدير الجاساك.

أخبرني مازن أن الجاساك (Gasac: General Authority of Security And Communications) هو الجهاز الأمني الرهيب والخاص بمراقبة العلاقات والاتصالات، ومتابعة المتطرفين سياسيًا على مستوى البلاد.

أما أهم مهام الجهاز على الإطلاق فهي متابعة الاتصالات الداخلية بين الأفراد، للقضاء على احتمالية نشأة الجواسيس، أو التكتلات المدنية التي يمكن أن تحدث وتسعى لقلب النظام.

تعرفتُ كذلك على الجنرال الأشيب الذي زار سمرة قبل يومين، والذي تهتم بهِ اهتمامًا خاصًا؛ صُعق مازن دهشةً، طلب مني أن أكون متأكدةً تمامًا، ثم قال:

- لم أعرف أن علاقات سمرة وصلت إلى هذا الحد،هذا هو الجنرال عبد العظيم عامر وزير لجنة الحكماء الأول، وأكثرهم غموضًا وخطورة، هو المسئول عن عمليات التنقيب عن الذهب واليورانيوم في إفريقيا.

سألتهُ مستفسرةً وقد انتبهتُ لدورهِ هذا:

- مسئول عن الذهب في إفريقيا بمعني الإدارة أم ماذا؟

تمعن مازن قليلاً قبل أن يقول:

- لا يوجد جرام ذهب أو يورانيوم يتم التنقيب عنهُ في إفريقيا إلا بعلمهِ ولا يخرجُ لأي مكانٍ إلا بموافقتهِ، ولا تتحرك شركات التنقيب الأوروبية أو العربية إلا بكلمةٍ منهُ، يضخم البعض من قدراتهِ، وتتساءل الصحافة الغربية أحيانًا عن مصير الذهب الذي يخرج بآلاف الأطنان من إفريقيا ويصل أقل من ربعهُ للشركات الأوروبية المنقبة عنهُ، ولا يتسبب في تقليل سعر الذهب بل على العكس يزداد سعره ولا يتواجد بالأسواق العربية إلا فيما ندر. يؤكد البعض أنهُ لا يبقى على الكوكب أصلا، لكن هذه الأقوال ضاربةٌ في الخيال في رأي الصحافة الغربية.

أسألهُ باستغراب:

- لا يبقى على الكوكب ؟ كيف.

يشير لأعلى بابتسامةٍ متوترة:

- يصعد إلى القمر.

عدتُ أنظرُ لملامح الجنرال الصخرية، وعيناه المتحجرتانِ في تساؤل: هل يستخدم هؤلاء القوم ذهبنا لبناء مستعمرةً فوق القمر؟

قلتُ له:

- وكيف نتأكد من هذا.

ضحك وقال:

- يمكنكِ أن تسألي الجنرال بنفسك.

و لم تكن دعابة جيدة.

أنهينا الاتصال على وعدٍ بأن نتبادل الرسائل كل فترةٍ صغيرة لنتابع المستجدات لما يحدث للطرفين، ظللتُ واجمةً بعض الشيء، صورةُ الجنرال الأشيب هذا لا زالت في خيالي، شعرتُ بغضبٍ شديدٍ من دولة المرتزقة التي تسرقُ دون أدنى شعورٍ بالخزي؛ نظامٌ أقيم لإفساد الأرض.

تعجبتُ كذلك عن مصير الذهب واليورانيوم الذي يغضُّ العالم كله الطرف عن سرقتهِ وتهريبه.

عدتُ بخطواتٍ متكاسلةٍ، وبعقلٍ سارحٍ إلى سيارتي، ثمة شعورٍ بالثقةِ يغزوني تجاه مازن، أحاولُ أن أنفيهِ وأطردهُ، لكن ودًا ما يطوفُ على استحياءٍ، وشعورٌ خافتٌ بالراحةِ من وجودهِ معي.

تساءلت طيلة طريق عودتي عن الأسباب التي لا أعرفها والتي تجعل مازن وسمرة يفعلون معي ما يفعلون!

لم يكن من طريقٍ آخر لديّ، إما الهروب مرةً أخرى إلى بلدي لأحارب أذرع الأخطبوط؛ لينمو مكان كل ذراعٍ مقطوعٍ ذراعين، وإما أن أسير إلى نهايتي بحثًا عن سبيلٍ أفتحهُ للتواصل بين أهلي، وبين أهل هذه الأرض المظلمة.

* * *

مازن !

(١)

عندما خرجتُ أخيرًا من سفينة (شارون) عرفت قيمة ما قدمتهُ لي سمرة.

الخروج من مصر أو دخولها دون علم الجاساك هو الانتحار بأبشع الوسائل الممكنة، حاولتُ مرارًا أن أجد سبيلاً إلى معرفة الجنرال عادل السعيد – مدير الجاساك - معرفةً شخصية لكن الأمر بدا كأنني أحاولُ الاتصال بالشياطين دون أن أتعلم فنون السحر، والسحر الذي يصلك إلى مدير الجاساك هو أن تكون امرأةً قادرة، أو أن تترك مؤخرتك وقفًا لإدارتهِ.

سمرة تستخدم أبلغ فنون السحرِ وأكثرها تكنولوجيةً وتقدمًا منذ أن أجرت عملية اللوب الحديثة (New Loop Surgery) وتركت الأنشوطة الصغيرة في فرجها تقدم أعتى درجات السحرِ لكل من يعتليها.

لهذا كانت سمرة هي نفقي الصغير لكل ما أريدهُ، وقد ظل إجراءها لهذه العملية هو سرّها الذي لا يعرفهُ سواي لأنني كنتُ ملاذها الوحيد في هذه المرحلة المبكرة من عمرها.

لم أعرفُ بعد أنني لازلتُ أحتفظُ بمكانتي في قلب سمرة حتى اتصلتُ بها من النيجر، كنتُ بالنسبةِ لها حُبها الأول وهي بعد في بدايات مراهقتها، وقد ظل الحبُ طويلاً ربما إلى الآن.

تقولُ سمرة إن هذا لم يكن برغبتها، ثمة أشياءٍ تحدث في نفوسنا نعجزُ تمامًا عن فهمها أو محاربتها أو حتى رفضها، ثمةُ أمورٍ لا نملك أمامها إلا الاستسلام التام والخنوع، تقولُ سمرة أن وجودي في حياتها من هذه الأشياء التي كلما حادثتها نفسها بمحاربتها عجزت عن تنفيذ مخططاتها.

لم تكن سمرة فتاةً ضعيفة أو مستكينة، على العكس، حياتها مع والدتها وأخواتها دون رعايةٍ من أحدٍ بعد أن هجرهم أبوها كانت تشبه الحياة في سقر، وقد جعلها هذا تملك روحًا صلبة وقلبًا غاضبًا على الدوام.

أمها لم تمتلك المال الكافي لتشترى أمنًا من أحدٍ أو تؤجر مكانًا يحظى برعاية إحدى شركات الأمن، لهذا كانت تعيش في البيت القديم الذي تركهُ لهم جدها والد أمها في منطقةٍ ريفيةٍ بسيطةٍ في دمنهور، وقد حمتها أمها وأخواتها من الاغتصاب حتى سن العاشرة، بعدها حدث التحول غير العادي في حياة وجسد سمرة.

وبرغم أنها استمتعت - كما تقول لي - بأول مرةٍ، بعد كل تجاربها المثلية مع أخواتها، إلا أنها شعرت بأكثر المشاعر كراهيةً في حياتها وهو ما لم تستطيع تفسيره، هنا بدأت مخزوناتها الشيطانية في الظهور.

أمها اعتادت أن تمنح نفسها كل مرةٍ لرجلٍ جديدٍ يعيش معهم ويتولى شيئًا من الحفاظ عليهم، لهذا حينما بدأت سمرة في اقتراح نصب الكمائن لكل معتدٍ يدخل البيت، وأعدت خططًا استلهمتها من مشاهدتها المتلصصة لبرنامج (القنّاص) في تلفزيون الجيران، صُدمت المرأة في ابنتها وبدأت تعاملها باحترامٍ وتعتبرها رجلها الخاص.

برنامج (القنّاص) هو أكبر وأشهر البرامج التلفزيونية التي بدأت ربما قبل مولدي بعدة أعوام، وقد استمر على مدى سنواتٍ طويلة إلى الآن.

يدور البرنامج باختصارٍ شديد حول الواجب الوطني الذي يقع على عاتق أفراد المجتمع من أجل تنظيف البلاد من الخونة وبقايا النظم السابقة الفاسدة.

كان قد وقر في قلب النظام الحالي بعد الثورة أو الثورات القديمة التي انتهت بالتطهير الشامل في يناير ٢٠٢٠، أن ثمة بقايا للنظم السابقة التي تولت الحكم خلال الفترة من ٢٠١١ إلى ٢٠٢٠، أكثر ما يقلق النظام الحالي هو بقايا تيار الإسلام السياسي ذو الفكر الانفصالي، وكذلك بقايا الطابور الخامس

الذي يمثل الخيانة الصريحة والعمالة لصالح دولٍ أجنبيةٍ أخرى لتنفيذ مخططات وأجندات في أرض الوطن.

من هنا جاءت فكرة البرنامج الذي تبناهُ رجل أعمال قديم لا أذكر اسمهُ، خاصةً مع الضعف الذي أصاب جهاز الشرطة والأبواق الإعلامية التي كانت تنادي بدور الأمة في معاونة الشرطة من أجل أن تقوم بواجبها العظيم، كان هذا قبل أن تتألق شركاتُ الأمن وتتولى هذا الدور بكفاءةٍ تامة.

في مواسمهِ الأولى خصص البرنامج حلقاتهِ لتعليم المشاهدين كيف يكتشفون أعداء النظام والخونة من أسلوبهم وطريقة تفكيرهم والتزامهم الدينيّ أو شعرهم المنكوش وثقافتهم الغربية العالية، قدم صورة الوطني الشجاع ابن البلد الذي يثق في حكومتهُ ويؤيد وليّ الأمر، وصنّف كل ما عدا ذلك النموذج على أنه إما تابع للتيارِ الإسلامي، أو عميلٌ في الطابور الخامس.

ثم قدم بعد ذلك الأساليب المختلفة للقنص، ونصب الشراك، والحيل الدفاعية، وهي الحيل التي تعلمتها سمرة وهي ابنة العاشرة وطبقتها مع أسرتها الصغيرة.

منذ تلك اللحظة، ومع أول جثةٍ علقتها أمها على الباب وكتبت على صدرها تهديدًا واضحًا لأي معتدٍ، بدأت الهجمات تقل، وتحولت حياتهم إلى شيءٍ من الراحة، وقد ظل هذا لعدة أعوامٍ حتى ظهر نوعٌ جديدٌ من المغتصبين.

أؤكد هنا أنني كنتُ أول ظهورٍ لهذا النوعِ وهو (قانص القنّاصين) أو (صائد الصيادين) ،وقد بدأتهُ في الإسكندرية قبل أن ينتشر مع الموسم الثالث من برنامج (القنّاص) التليفزيوني بعدة أعوام.

بطبيعتي الخاصة لم أكن أشعرُ بأي لذةٍ في أن أهاجم رجل خائفٌ لديهِ الاستعداد التام للخنوع والموت، وكنتُ أفضِّل عليه الصائد الذي يظنَ أنه قوي، ذكي بما يكفي، قتلهُ كان يثير نشوة غير عاديةٍ في عروقي.

في الموسم الثالث – والذي استمر خمسة أعوامٍ أخرى ككل موسم - اكتشف الناس أن بعضًا من الخونة وفلول النظم السابقة قد تعلم ما قدمهُ البرنامج

في موسميهِ الأول والثاني خلال عشرة أعوام، وبدأوا في استهداف المواطنين الشرفاء، لهذا قدموا حيلاً جديدة لقنص هؤلاء القناصين، باستخدام ما يُسمى بالأساليب المضادة، وقد نجح هذا الموسم من البرنامج نجاحًا ساحقًا، وتسبب كذلك في تغيير حياة سمرة إلى الأبد.

لقد صار بيتهم الصغير هو الهدف الأساسي لكل الراغبين في تطبيق حيل البرنامج الجديدة، وقد ماتت إحدى أخواتها أثناء محاولتها الدفاع باستخدام الطرق القديمة للصدّ.

في هذا التوقيت تقريبًا كانت سمرة في بدايات مراهقتها، وباقي أخواتها قد انهين مراهقتهن، لهذا قررن جميعًا الهروب، واتجهت كل فتاةٍ في صوبٍ مع رجلٍ ما يتولى جسدها وحياتها، وبقيت هي مع أمها لعدة أيامٍ أخرى.

تخبرني سمرة أن هذه الأيام هي أكثر ما ترك أثرًا لا يُمحى في نفسها،

لم تتوقع أن تعاملها أمها بعنفٍ وغضبٍ وكأنها تعنفها على عدم هروبها مع أخواتها، في نفس الوقت كانت تشتهيها بأكثر من أخواتها جميعًا، وحين طلب رجلها أن يستمتع باثنتيهما ولم تمانع أمها، قررت سمرة الهروب.

تقول أن مواصفاتها لهذه اللحظات تحملُ شروطًا دقيقة جدًا من الصعب توافرها، وهي لم تجد هذه الشروط حتى الآن إلا معي، برغم كل ما مر عليها من رجال.

اللحظة التي رأتني فيها أقوم بإحدى مغامراتي الخاصة في اصطياد الصيادين هي لحظة تشكلت حولها روحها بالكامل، وكوّنت من خلالها فلسفتها وأراءها، وأهداف حياتها.

تمنت سمرة أن نظل معًا ونواجه العالم معًا بأسلوبنا في حماية أنفسنا بدرء المخاطر قبل وقوعها، وقد ظللنا هكذا ما يقرب من عامين، حتى بدأتُ أولى خطواتي للالتحاق بالـ"IMS ".

أعترفُ أننا قضينا معًا أوقاتً رائعة لا زالت سمرة تتذكرها وتُذَكِّرني بها، أعترفُ كذلك أنها أحبتني وهو شعورٌ لم أعرفهُ من قبل، ولم أقابلهُ في حياتي، ولم أشعرهُ إلا منها وإن لم أبادلها إياه، خاصةً بعد أن قبلت أن تتحمل خطر إجراء عملية اللوب الحديثة - التي تقل احتمالات نجاحها كثيرًا وتزداد مخاطر فشلها - من أجل أن تمنحني متعٌ لا تقاوم.

العملية تقوم على تركيب جهازٍ إسطوانيٍ بسيطٍ يمنع الحمل أما الجديد فهو الحلقة الإلكترونية الساحرة التي تتولى أمر الزائر الجديد لتقدم خريطة مدروسة بعنايةٍ للانقباضات والسحب لتقدم أشهى درجات التألق.

وبرغم هذا لم يكن في استطاعتي أن أربط نفسي بأحدٍ، ولا أن أمنح جزءًا من داخلي لشخصٍ يمكن أن يستغلهُ ضدى.

افترقنا لسنواتٍ عديدة خلال التحاقي بالمدرسةِ، وحين خرجتُ وجدتُ سمرة قد تغيّرت كثيرًا وتحولت إلى المرأة الخارقة التي صارت إليها.

لأسبابٍ كهذه، ولأسبابٍ أخرى كثيرة لم أخبرها بالكثير عن رحلتي إلى هنا في قُدسليم، بالفعل مثّلت لي طوق النجاة حين اكتشفت المصيدة التي أعدها لي المساعد أول سليم فخري: قائد فريق الحراسة لمنجم (زاريا) بمساعدة العريف عادل عمارة، لكني فضلتُ أن أتعاملُ معها بالطريقةِ نفسها التي صارت تتعامل بها والتي تمثلُ حياتها.

سمرة لا تعرف أنها ساعدتني إلا متأخرًا جدًا، هي عرفت وقتها ما أخبرتها به: لديّ كَنزٌ ثمينٌ لكِ يمكنني إحضارهُ من وسط طوارق إفريقيا لتفعلي بهِ ما تشاءين.

هي تعرفُ بالتأكيد أهمية الطوارق وخطورتهم، وعرفتُ منها - فيما بعد - الاهتمام الخاص الذي توليهِ لجنة الحكماء لهؤلاءِ الأمازيغ ورغبة اللجنة في أن يقضوا عليهم تمامًا.

لا يمكن أن تتواجد عدة قوى في إفريقيا، يجب أن تظل القوة الإقتصادية الكبرى في إفريقيا هي مصر بكل اعتمادها الاقتصادي على الغرب بتكتلاتهِ الاقتصاددية المتناحرة معًا.

لم يكن الإقتصاد أو الأوضاع الاقتصادية في العالم من اهتماماتي لأفهم تفاصيل ما حاولت سمرة توضيحهُ لي، لكنني كنتُ أعرف أن مبدأ البقاء للأقوي والقيادة للأكثر قوة وكل مبادئ داروين التي قالها عن الطبيعة، تعمل أيضًا في عالم السياسة ولا تختلف كثيرًا.

لأسبابٍ كهذه لم يكن ممكنًا السماح لدولة (أزواد) الكبرى بالنهوض، ولهذا ينالها ما ينالها من الصدمات والحروب الخفية التي تنهالُ عليها من فرنسا ومن مختلف الدول، وبرغم هذا تسير حثيثًا في اتجاه الصعود برغم تذبذب موازين القوى العالمية كل عدة عقود.

لم يكن من الممكن السماح لقوةٍ كهذه أن تنهض، لأنها ذات مبادئ انفصاليةٍ عن المجتمع الدولي والعالمي، وتحمل أجنداتٍ خاصةً بها تتحدث عن الإسلام السياسي، والمبادئ والأخلاق وهي أمورٌ مضحكةٌ خاصةً عند مزجها بالسياسة.

لم تستطع سمرة أن تخفي لهفتها حين أبلغتها بالكنز الذي أستطيع إحضارهُ معي من النيجر، وقد استغللتُ الفرصة كي أطلب كل شيءٍ أريده: لا أحد يعرف بقدومي إلى مصر، لا أحد يعرف بتوجهي إلى قُدسليم، أحتاجُ إلى سريةٍ تامة في الدخول والخروج دون علم الجاساك، وأتلقى كل المساعدات الممكنة خلال فترة قيامي.

وجدتُ ترحيبًا غير عاديٍ من سمرة، وشعرتُ أنها تذكرُ شيئًا من أيامنا القديمة، إلا أنني تأكدتُ فيما بعد بعظم ما تمثلهُ مريمة بالنسبةِ لها.

هي تعرفُ كما أعرف استحالة الحصول على أحدٍ من الأفارقة البيض على قيد الحياةِ، لأنه سيظل يقاوم بكل الطرق حتى يقتلك أو تقتله.

على أنني لم أكن أنوي ترك مريمة في كل هذا وحدها بشكلٍ تام، لازالت تمثل لي ورقةٍ رابحة في التلصص على سمرة ومعرفة إلى أين وصلت علاقاتها وخطواتها،

كنتُ في حاجةٍ لأن أستقي منها المعلومات حول حقيقة أدهم الجبلي، وعن تفاصيل ما حدث وما جعلهم يتخلون عن رجلٍ في حجمه كان يمثل ضلعًا محوريًا في هيكلِ حكمهم.

أبحثُ عن الحقيقة، ولم تكن بي رغبة أن أكون فريسةً لشركٍ فكريٍ أو معنويٍ يتركوه لنا جميعًا ويخلصون هم لما هو أهم، بداخلي اشتعلت الرغبة القديمة بقنص القناصين، وتخمين طرقهم الهجومية قبل الانقضاض عليهم بأسلوبٍ مضاد.

أما سمرة، فكنتُ أعرفُ كذلك أنها ستستغل مريمة بطريقتها الخاصة، وقد استنتجتُ فيما بعد حينما غضبت من كشف الجنرال عبد العظيم أمام مريمة عن رغبتهِ في قراءة عقلها وتشريح ذاكرتها ليكشف خطط الطوارق وأساليبهم: أنها كانت تنوي أن تزرع مريمة لتكون عينها وأذنها لديه.

سمرة – التي سقطت مسحورةً بجسد مريمة القوي الزاخر بالعضلات الأنثوية الرقيقة – فكرت بالتأكيد في أن تجعل مريمة رفيقتها ومحبوبتها وأن تمنحها الثقة والحب حتى تسقط في براثنها وتنفذ كل ما تريدهُ.

أما أنا فكنتُ أنتظرُ النتيجة، هل يمكن تلويث الطهر؟ هل يمكن تحويل النقاء إلى عفنٍ؟ كنتُ في حاجةٍ لهذه الإجابات، وأشعرُ أن النتيجة لا بد أن تغيّر شيئًا مما جُبلتُ عليه.

تركتُ مريمة مسحورةً بكل ما تقدمهُ لها من مساعدات ومعلوماتٍ وفرصٍ، وهي في الحقيقة يتم إعدادها لأن تكون جاسوستها الخاصة، لهذا تُعدها سمرة لتكون على درايةٍ بكل ما يحدث.

أما مريمة فلم تكن على علمٍ بأي شيءٍ من هذا، ظلّت تؤكد أنها لا تثق فيّ، برغم أن كل أفعالها تؤكد عكس هذا؛ أخذت مني أعتى أجهزة التجسس، جهاز (MS ١٣)، على أنه تليفون قديم لمجرد أن بهِ خاصية الاتصال ولم تحاول البحث عنه، ثم نفذت كل تعليماتي دون أن تفهم. كيف تكون بهذه السذاجة؟

أما هُنا؛ فالأمر يختلفُ كثيرًا عن مِصر، هناك قدر أكبر من الفوضى وشركات الأمن المصرية لا تهتم إلا بالمؤسسات المصرية التي تتولى حمايتها برغم انخفاض درجات الخطر إلى أدنى درجة، رجال الجاساك كذلك يقبعون في المفوضية المصرية وتقل درجات اهتمامهم بالوافدين الجدد من مصر، بعكس الوضع في دول إفريقيا مثلا.

توجهتُ أول الأمر إلى الجالية المصرية بحثًا عن أخبار أدهم الجبلي، وانطباعات الناس عنه. ثمّة منطقةٌ في ضواحي أورشليم تمتلئُ بالمقاهي الفاخرة وخدمات الاتصالات وشبكاتهِ المختلفة.

كان لا بد أن يستقر المصريون في منطقةٍ كهذه لا وجود لمثلها في مصر في ظل القبضة الحديدية للجاساك ومراقباته الأسطورية للاتصالات بين الأفراد داخل وخارج البلاد.

ترددتُ على المكان عدة مراتٍ، وحاولتُ أن أصنع بعض العلاقات معهم، إلا أنني لاحظتُ حذرهم البالغ لكل وافدٍ جديد، بالكادِ استطعتُ أن أفتح مع أحدهم ذات مرةٍ حوارًا عن مصر فانهال عليّ سيلٌ من السب واللعن لكل ما يمت للبلادِ بصلةٍ.

ثمة غضبٍ لحظتهُ كذلك على كل ما يتصل بالمفوضية، وفهمتُ أن الأمر يرجع إلى اهتمام المفوضين عمومًا بالأعمال الاقتصادية والتجارية لرجال الأعمال الكبار، وبمتابعة تنفيذ الاتفاقات الدولية بين البلدين، دون أي اهتمامٍ بأحوال المغتربين المصريين.

وعرفتُ أن ثمة كراهيةٍ أخرى لفندق "الفرات" حيث يقيم المفوضين بشكلٍ شبه دائم، وخاصة أدهم الجبلي، حيث يلعب الشطرنج.

يبدو أن الأخبار هنا أكثر انتشارًا، وإتاحةً للجميع.

هكذا لممتُ أغراضي وتوجهتُ رأسًا إلى فندق "الفرات" في وسط أورشليم.

كان فندقًا شديد الرقيّ مهيب البنيان، يفترش مساحةً شاسعةٍ ومصممُ بالكامل بمبنييهِ وملحقاتهِ على شكل نهريّ دجلة والفرات ووسط المبنيين حمامات السباحة الشاسعة وقاعات القمار والمسارح والسينما.

حجزتُ غرفةً، وسألتُ موظف الاستقبال عن الأنشطة التي يمكن لرجل أمن أن يقوم بها في هذا الفندق.

ضحك الرجل وعدد لي الأنشطة من ساحات الرماية، إلى رحلات الصيد التي يُعدها الفندق. ضحكتُ بتوددٍ ثم سألتهُ عن السبب؛ هل يأتيكم رجال أمنٍ كثيرًا للفندق؟ رد بابتسامةٍ متوددة أن الأنشطة متاحة للجميع.

فكرتُ قليلاً وأنا انظر حولي بضيقٍ ثم ملتُ عليهِ:

- اسمعني جيدًا، لا أريدُ أنشطة يقومُ بها الجميع، أنا رجل أمن خاص، وجئتُ لفندقكم لما سمعتهُ عنكم من تميزٍ وتفوق، أعرفُ أن ثمة رجال أمنٍ كبارٌ يأتون هنا، لا تقنعني أنهم يقضون أوقاتهم في ساحات الرماية أم تريد أن تُطفش زبائن الفندق؟

ثم سكتُّ للحظةٍ أنظر في عينيهِ بحثًا عن التأثير المطلوب:

- أرجو ألا تعاملني كالجميع لأن هذا سيثير استيائي.

ضحك ضحكةٍ متوترةٍ وهو يؤكد لي أنه لم يقصد هذا أبدًا، وأنه هنا في خدمتي، مررتُ له عملةً ذهبيةٍ وهو يتكلم، فبدا أكثر حماسةٍ.

قال إن ثمة ملاعب للشطرنج لا يؤمها إلا كبار القادة والمفكرين، وغير متاحةٌ للجميع وأن بإمكانهِ أن يتيحها لي.

هذا هو أقربُ شيءٍ لما أريدهُ، شكرتهُ بابتسامةٍ وأخبرتهُ أن يعتبرني صديقهُ إن احتاج لشيءٍ.

استرخيتُ في هذا اليوم، وزرتُ معظم أماكن الترفيه ولعبتُ البوكر في إحدى القاعات، وعقدتُ عدة علاقاتٍ سريعة مع بعض اللاعبين من مختلف الجنسيات.

تعجبوا كثيرًا من كوني مصريّ، وأضحك كثيرًا دون أن أغضب، بل وأتقبل الهزيمة بروحٍ رياضيّ.

بدا لي أنهم في حاجةٍ إلى نوعٍ من المصريين مثل الذي أجاهد لتمثيله، ليعقدوا صداقاتهم معهُ ويتعرّفون عبره على البلد الشرس.

أكثرهم من الإنجليز والماسون والعبرانيين والمسيحيين والدروز وجميعهم "سابرا" ولدوا في قدسليم إلا أنني لحظتُ اختلافات شديدة في هوياتهم وأراءهم.

يتحدثون عن الاسم الذي يجب أن تتحول إليه البلاد بعد أن صار اسم "قُدسليم" لا يناسب ثقافاتهم ولا تاريخ هذه الأرض.

حاولتُ أن أجاريهم فيما يقولون، يرشح بعضهم عودة اسم "إيرتس يسرائيل"، والبعض يقول أن اسم " عيبر " هو الأنسب فيهاجمهُ الآخرون ويتهمونه بالسعى لفصل البلاد من أجل فصيلٍ سياسيٍ علمانيّ.

بدأتُ أضيقُ بهذه الحوارات السخيفة. أبحث بين كلماتهم عن أي شيءٍ له علاقة بما جئتُ لأجلهِ، وعرفتُ أن اهتمامهم بالإسم الجديد سببهُ أنه سيعطي للدولة هويتها ولفئةٍ من الشعب شرعيتها دون غيرها.

أما ملاعب الشطرنج؛ فقد أدهشتني حقًا.

ساحاتٌ عملاقة لعرض أرض المعركة بشكلٍ هولوجراميّ متعدد الأبعاد، حين دخلتُ وجدتُ رجلين استقرّا على طرفي أرض المعركةِ، كل منهما على كرسيٍ يهتزُّ بشدةٍ كأنهُ أرجوحةٌ، ويضعا على رأسيهما خوذة زجاجيةٍ وتتصل بيده بعض المجسات الإلكترونية. كِلا الرجلين يقوم بحركاتٍ غريبةٍ مضحكةٍ وكأنهُ في ساحةِ قتالٍ.

حين جرّبتُها، وجلستُ على الكرسيّ الأرجوحة ووضعتُ ألعاب الفضاء هذه حول جسدي؛ شهقتُ انبهارًا وسحرًا، لم أتخيل أن اللعبة القديمة التي لعبتها على لوحٍ خشبيٍ، يمكن أن تصير إلى هذه الملاعب الجنونية.

ساحة المعركةِ تبدو حيّة. اتنقلُ - بمناوراتٍ ضد خصمي - بين جنودي وأسلحتى لأحركها، المتعة كلها ليست في تحريك جيشك، وإنما في الوصول إليهِ لتحريكهِ عبر ساحات القتال التي تتحرك فيها حرًا وكأنك تقف بينها.

الخصم أيضًا يتواجد على أرض المعركةِ مثلي يحمل أسلحةً مثل التي أحملها، ويمنعني – كما امنعه- من الوصول إلى قادة الجيش لتحريكهم،

الأمر يشبهُ مزج لعبتين بشكلٍ دراميٍ مثير، لعبة الحرب التقليدية، ولعبة الشطرنج وقوانينها.

أعترفُ أنني أُخذتُ بهذه اللعبة، ولقد قمتُ لعدة أيامٍ تالية بالاشتراك في دوري بين مجموعة من رواد الفندق. تمنيتُ أن يكون أحدٌ منهم قد لعب مع أدهم الجبلي، أو تكلم معهُ على الأقل، لهذا كنتُ احاول عقد العلاقات مع الجميع والتودد إليهم.

في إحدى المرات، جاءني اللاعب الآخر مازحًا متسائلاً عن مستوى العنف في اللعب الذي لا يظهر على شخصيتي التي يراها.

كان كهلاً درزيًا من بني معروف، اسمهُ حمزة أبو تميم، أبيض الشعر والبشرة، وفي ملامحهِ تنعكس آثار حياةٍ لم تكن مسالمةً ولا هينة. دعاني لشرب القهوة بالخارجِ بعيدًا عن جو الحروب هذا.

نزلنا عبر المصعد إلى أحد الكافيتريات التي تطلّ من طابقها السابع والثلاثين على مساحاتٍ خضراء شاسعة، ويبدو بيت المقدس جليًا في الأفق.

كان يتحدث بسرعةٍ في أمورٍ كثيرةٍ، وله قدرة عجيبة على الانتقال بين المواضيع وربطها جميعًا بعضها ببعض، وقد أعجبتُ بهذه الطريقة في التفكير.

وضع حقيبتهُ الخاصة المفتوحة على المنضدة، وبدا بداخلها مجلدٌ ضخمٌ عرفتُ أنهُ (رسائل الحكمة)، زعق للنادل بنوعِ القهوةِ التي يريدها وسألني عن نوعي، نظر ناحية الأفق حيث بيت المقدس وبدت على ملامحهِ آثار الألم:

-لم أكن ممن يجيدوا المقدمات يا مازن، باختصارٍ أنا أريدك معي.

كان رجل أعمالٍ ارتبط اسمهُ بتهريبات السلاح والانتماء لجبهة المعارضة السياسية، شديد التعصب لبلادهِ ويحترم التاريخ وثقافة. قال لي:

- إن تميُّز قدسليم بصورتها الحديثة يأتي من تمايز سكانها واتحادهم معًا، وليس من مصلحة أحد أن يتفوق أو يُصَّعِّد فريقٌ على حساب فريقٍ آخر.

يصمت كثيرًا حتى أظن أنه نسى وجودي قبل أن يقول فجأة:

- لقد تخطينا آلام الماضي وحروبهُ، ومحاربة اليهود للمسلمين، وسقوط المسيحيين في النصف بين بين، ليس من مصلحة أحدٍ أن يعود كل هذا.

قال لي وهو ينظرُ بكثيرٍ من الحزن ناحية بيت المقدس:

- هل تعرف ما يريدون فعلهُ هناك ؟

أجاب دون أن ينتظرني وقد بدت على وجههِ علامات التألم والصراع كأنهُ يعاني مرضًا أو ألما داخليًا عنيفًا.

- إنهم يصنعون أكذوبة أخرى تنضم إلى دفتر أكاذيبهم، تمهيدًا للحرب القادمة.

سألته عن أي حربٍ يتحدث، فضحك:

- بناء معبد تحت المسجد، حتى يسقط المسجد فيبدو من تحته الهيكل، تخيل كمّ الملايين التي ستؤمن بهذا المشهد؟

ثم أكدّ أنني لازلتُ صغيرًا لن أتصور هذا برغم مهارتي في الشطرنج.

استفزني الرُّد فهممتُ بأن أقوم وأتركهُ، فقال لي أن هذا ليس وقت تغليب النفوس، وإنما وقت تغليب المصلحة العامة.

سألتهُ بدهشةٍ لم يظن أنني أهتمُّ بالمصلحةِ العامة أكثر من المصلحةِ الخاصة، سألتهُ لم يظن أنني أهتمُّ بعودة الوحدة الوطنية لبلادهِ، ولماذا أغلب هذه المصلحة على كرامتي؟

دعاني لأن أعاود الجلوس ثم قال لي باقتناعٍ تام: أن كل الأمور مرتبطةٌ معًا في خيطٍ واحدٍ يقودُ للنهايةِ المفجعة.

قال:

- لقد توسمتُ فيك الذكاء والقوة والشجاعة، وهي صفات لا يمكنني أن أتخطاها أو أتجاهلها، كل ما ينقصك فقط هو أن ترى الحقيقة بعينيك. لست من هذه الفيلة التي يأخذونها لهدم السدود والمعابد.

قال لي بنظرةٍ مخبولةٍ تقتربُ من الجنون وهو ينظرُ ناحية المسجد الأقصى: أن موازين القوى الاقتصادية في العالم تتذبذب وتتغير منذ فترةٍ طويلة، وأن لديهِ من الشكوك والدلائل ما يؤكد أن التوترات على وشك الانفجار، وأن الحرب النووية قادمة.

تعجبتُ من كلامهِ، فعاد يؤكد وهو يتلفت حولهُ ويتلصص كأنما ينتظرُ ضربةً خفيّة، أنه سعى بكل طريقةٍ ممكنة لوقف هذه الحرب، وأنه أنشأ مؤسسةٍ سريّةٍ – يريدني أن أنضم إليها – لتخفيض حدة التوتر بين الدول الكبرى ومن ضمنها مصر التي تزيد الاحتقان بتصديرها للعنف في شكل الأمن.

قال أنه شيّد جناحًا عسكريًا في مؤسستهُ هذه للعمل على زراعة الجواسيس في المؤسسات العسكرية كي يقوموا بإتلاف القنابل النووية في هذه الدول المتصارعة، أكد لي أنه لا يمكن أن يترك العالم ينجرُّ إلى حربٍ نوويةٍ تزيل كل شيءٍ ويقف ساكنًا.

لكنهُ قال في النهاية إن المشكلة الكبري أن الاتصالات بينهُ وبين مؤسستهِ هذه انقطعت منذُ فترة.

لا ريب أن نظرة عينيّ له كانت تفضح موقفي، لأن النادل الذي كان يمر بجواري نظر ناحيتي وضحك بطريقة أنه يفهم ما يحدث، وحتى رواد المكان لاحظوا رجوعي في كرسيّ وإسناد ظهري للخلف، إلا أنني بعد كل هذا لم أتمالك نفسي من الضحك، هذا أكثر مجنون مقنع قابلتهُ في حياتي.

نظر الرجل ناحيتي، وبدأ نوبة هيستريا ومحاولة هجوم ضدي لم أردها إلا بمزيدٍ من الضحك والتراجع للوراء، أتى بعض رجال الأمن يردوهُ بهدوءٍ ثم طبيب صغير السن حقنهُ بشيءٍ ما وحمله الرجالُ باحترامٍ للخارج.

اعتذر النادل، وجاء مدير المكان ليعتذر من جديدٍ، إلا أنني لم أرد على أي شيءٍ من هذا إلا بالضحك الهستيري.

ثم حين هدأتُ، وليتُ ناظريّ ناحية الأفق حيث المسجد الأقصى، وأخذتُ أبحثُ عما ومض للحظةٍ في ذاكرتي.

* * *

أتذكرُ وجهُ أبي وأنا في السابعة من عمري حينما شاهدتُهُ يحرقُ كتبًا كثيرة فوق سطح المنزل.

فزع حين رآني، ورأيتُ في ملامحهِ نظرةً شبيهةً بالنظرة التي رأيتها على وجه الدرزي حمزة أبو تميم: مزيجٌ من الدهشةِ والشعور بالاضطهاد والرغبة الخفيةِ في معاداة العالم من أجل ما يريد.

أخذ يسبني لأنني لازلتُ متيقظًا حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل. ركلني ركلاً متتاليًا حتى وصلتُ إلى فراشي وأخذ يصرخُ بجنونٍ في وجهي أن أنام حالاً أو أن أموت، فيما بعد عرفتُ أن ما حرقهُ كان كتبًا تاريخية، هى آخر ما تبقى تقريبًا، عن مصر في العقود الأولى من القرن الحادي والعشرين، وكان معها كذلك مذكراته الخاصة التي كان يكتبها في هذه الفترات.

أبي عمل صحافيًا بإحدى الجرائد المعارضة، درس الإعلام وتخصص فيهِ، وقرأ كل كتابٍ وقع بين يديهِ، ثم كتب مجموعةٍ من الكتب عن مصر قبل انتفاضة الخونة في يناير ٢٠١١، والتي كان يقول عنها في تلك الكتب أنها أعظم ثورة في تاريخ العالم قبل أن يتحول ويؤكد بعد ذلك أنها أسوأ ما حدث في التاريخ، برغم انه شارك فيها، وكتب عنها كثيرًا في كتبٍ تاليةٍ لهُ.

بعد ثورة التصحيح الأولى في ٢٠١٣ تحول أبي تمامًا بعد أن اعتقل لثلاثة أشهرٍ بتهمة ارتداء اللون الأصفر(!!!)، وتقديم مساعداتٍ مالية لجهاتٍ مجهولة، أتى بعدها بعينينِ وملامح مختلفة كما حكت لي أمي.

حكي أبي - عن هذه الاتهامات – مؤكدًا أنهُ أخطأ كثيرًا واستحق ما حدث له، اللون الأصفر يتخذه أعداء النظام والخونة رمزًا لهم وليوم فض اعتصامهم الإرهابي في ١٤ أغسطس، كما أنه لم يكن من الذكاء أن يمنح بعض الأموال لشحاذين لا يعرف عنهم شيء لمجرد أنهم أثاروا شفقتهِ. منذ ذلك اليوم لم يعد شيء يثير شفقتهُ أو إحساسهِ.

تحدث عن أن الضباط في المعتقل كانوا رحماء بهِ فلم يطيلوا عذابهُ، إن عقاب ارتداء اللون الأصفر هو خمس سنواتٍ لكن لأنه كان مطيعًا وكانوا هم رحماء فقد قلّ إلى ثلاثة أشهرٍ.

ظلّ أبي يقولُ أن الإرهابيين يمكن أن يتمثلوا في كل شيء؛ في جيرانك الذين يمكن أن يتغيروا في لحظةٍ دون أن تعرف عنهم شيئًا، في أصدقائك الذين لا تعرف شيئًا عن أهاليهم، في إعلانٍ بسيطٍ في التليفزيون يغيّر من عقلك ومن رؤيتك للأمور، في مسلسل كارتوني للأطفال يحث على العنف وكراهية البلاد، في محادثةٍ على برامج الدردشة مع طرفٍ آخر لا تعرف عنهُ شيئًا، في ابتسامةٍ يمنحها لك عابر طريق دون أن تعرف السبب.

الإرهابيون يمكن أن تراهم في الشوارع والطرقات، في حافلات النقل، وفي إعلانات الطعام التي يمتلكها رجالهم. الإرهابيون في كل مكان لكن أحد لا يعرف تحديدًا مكانهم لأننا بسطاء لا نعرف مخططاتهم الرهيبة للإستيلاء على كلِّ شيء، لذا يجب أن نكون مستعدين ومسلحين بالكراهيةِ لكلِ مستجدٍ يجد.

ثلاثة أشهر بتهمة ارتداء اللون الأصفر، يمكن أن تغيّر كل شيء.

حين بدأ أخي الأكبر في النزول للصلاة في المسجد في مواقيتها، وبدأ يقبل يديهِ ويدعو لهُ بالتوفيق والسدد، ظلّ أبي يعنفهُ بوجهٍ شبيهٍ بوجه الدرزي حمزة أبو تميم كي يكف عما يفعلهُ، يسألهُ بعينينِ متسعتينِ عما إذا كان الإرهابيون

قد استولوا على عقلهِ. بعد ذلك بدأ أبي في تهديده أنهُ سيبلغ عنهُ السلطات، كي يريح ضميرهُ الوطني.

حين قُتل أخي تحت عجلات سيارة شرطة في أحداث يناير التي قامت رفضًا للحكم في ٢٠١٥ تمنى أبي ألا يجدوا بطاقتهُ وألا يعرفوا هويتهُ أبدًا حتى لا يتهموه بإعاقة الأمن العام ويبحثوا عن عائلتهِ. وحين أبلغوه بمكان جثته وطلبوا منهُ استلامها رفض الذهاب خشية ان يتهموه بالتستر على إرهابي وعدم الإبلاغ عنهُ، وذهبت أمي وحدها بعد أن أقسم عليها أبي ألا تذهب.

ثلاثة أشهر بتهمة ارتداء اللون الأصفر، يمكن أن تفعل كلَّ شيء.

تحول أبي إلى الكتابة في الصحف القومية، وفي تأييد النظام حتى صار صحافيًا عسكريًا ينقل قرارات وأخبار المؤسسة العسكرية الرسمية. وكان أول من أعلن في مقالٍ لهُ عن نشأة جهاز الجاساك Gasac وهو نظام مؤسسي عام أشبه بالمخابرات، أنشئ عقب ثورة التصحيح الثانية في ٢٠٢٠ ضد الجياع.

يحكي أبي عن عبقرية الضباط الكبار بعد ذلك بأعوامٍ حين بدأتُ أعي ما يحدث وكنتُ أرى ملامحهُ بنفسي – دون أن يحكي لي أحد – شبيهةٌ بملامح الدرزي المجنون: العينان المتسعتان الناظرتانِ لأعلى في خوف، والرأس الغارقةُ بين الكتفين وقد تقلص حجم الرقبة، الرعشات الخفية بين الفم والأنف.

يقول أن ما فعلتهُ المؤسسةُ العسكرية ينم عن عبقريةٍ بالغةٍ لا يمكن أن تتواجد في أحد من السابقين أو اللاحقين. وقد بدأ أبي في تولي نشر إنجازات جهاز الجاساك: إعدام مجموعة الملحدين الذين يتولون تمويلات خارجية لنقل أدق الأسرار المجتمعية عن آراء الناس في الحياة وقد صارت أخبار الناس من دقائق أسرار الدولة، تعذيب مجموعة الشعراء الذين تقدموا للفوز في مسابقة عالمية وتلقوا الجوائز المالية في محاولةٍ لاستغباء النظام وتلقي تمويلات لقلب نظام الحكم.

لقد صار الجاساك هو عصب الدولةِ.

كنتُ أرى تعبيرات وجه أبي غير المستقرةِ هذه وقد صارت جزءًا منه وتعبيرًا عنه. أقرر في داخلي أنني لن أكون كذلك أبدًا. لن أتحول إلى فأرٍ صغيرٍ كلما وجدتُ اسم ضابطٍ يطلبني على هاتفي، لن أعنف من حولي حتى أكلمهُ بمنتهى الرعب والتبجيل، ثم أعود لمن حولي لأطيح الضرب فيهم من كل جانب.

ثلاثة أشهر بتهمة ارتداء اللون الأصفر، تفعل الكثير جدًا.

حين كبرتُ أكثر، بدأتُ في كراهيتهِ وفي كراهية ثقافة الخنوع والانبطاح أمام الآخر التي تتمحور حولها شخصيتهً بالكامل، وبدأتُ في التخلص من كل هذا بمشاهدة برنامج القناص، قبل أن أبدأ في تطبيق أساليبهُ في الشارع.

حين اكتشف أبي هذا، عُدتُ مجددًا لرؤية تعبيرات وجه الدرزي حمزة على وجههِ وهو يصيح بي أن أكفّ عن أي شيءٍ أفعله، وقد تجاهلتهُ تمامًا كأنه لا أحد. بعدها بعدة أيام بدأ يتأكد أن الشرطة بالفعل لم تعد موجودةً كما كانت، وأن أذرعها قد قُطعت كما كانت المطالبُ دائمًا، وقتها هدأ قليلاً وأكد لي أن برغم كل شيء سيظل المكوث في المنزل هو الأفضل والأكثر أمنًا.

مفاهيمُ أبي عن الأمن تعني أن تعيش في رعبٍ أكثر وتبتعد عن كلِّ شيءٍ، الأكثرُ أمنًا هو أن تكون أكثر إبخاسًا لحق نفسك من أجل الآخر، وأكثر تخليًا عن نفسك وما تملك، الأكثر أمنًا هو أن تتوهم مؤامرةً سرّية لا تعرفُ أطرافها، ولا أهدافهم، لكنك محورها على الدوام ومطالبٌ بأن تلبي جميع الأطراف، الأكثرُ أمنًا عند أبي هو الأكثر موتًا وتخليًا عن الحياة، من أجل أن تموت في سلام.

كنتُ أراهُ دومًا يحرقُ نفسهُ من أجل إشباع طغي الطواغيت وإزكاء نيرانهم.

لكم كرهتُ خنوع أبي وأشفقتُ عليهِ، وكرهتُ انبطاح كل فريسةٍ تمنح نفسها لأي أحدٍ خوفًا من أن تفعل أي شيء من أجلِ ذاتها، الفرائس الخانعة التي تكوّن حولها الطغاة، والتي كلما ازداد خنوعها ازداد معهُ الطغيان الذي تتعرض لهُ.

دائرةٌ مفرغةٌ عاشها أبي، يزداد خوفهُ فيزداد طمع الآخرين فيه، فيزداد انغلاقًا على ذاتهِ. تنفضُ الدائرة عند الخانع حين لا يزداد خنوعًا، لأن الطاغي لن يتوقف طغيانه بهدايةٍ مفاجئة، كالنارِ إذا أوقفت تلقيمها أكلت نفسها وانتهت.

لأسبابٍ كهذه قررتُ الالتحاق بالمدرسة العسكرية الدولية، لارتقاء سلم الشموخ والقوة، لم يعنيني كثيرًا أن أتخلى عن سمرة في هذا الوقت، ولم يعنيني كذلك أن يمنح أبي مؤخرتهُ للضباط كي أحصل على فرصةٍ جيدةٍ للالتحاق بالمدرسة، كل ما أردتهُ هو أن أكون صيادًا يفترس الصيادين.

ولأسبابٍ كهذه لن أسمح أبدًا أن أصير فريسةً، حتى لو لمجموعةٍ من الشراك الإعلامية أو النفسية أو الفكرية.

لأسبابٍ كهذه، تركت كل شيءٍ بحثًا عن الحقيقة في قُدسليم.

* * *

من بينِ من قابلتهم في فندق "الفرات" قابلتُ أيضًا ديفيد شامير، عجوزٌ ساميٌّ كما يدّعي، من آخر الأفواج التي قدمت إلى هنا؛ "عليا" كما يقولون، عرفتهُ في ساحة الشطرنجِ التي صارت ملجأي في الأسبوع الأخير.

نظر لي بعينينِ عجوزتينِ تفيضانِ مكرًا وخبثًا وقال:

- هل تعرف أدهم الجبلي؟

حاولتُ أن أتصنع الانشغال بشيءٍ آخر، وأنا أبتسمُ وأسألهُ عن سبب السؤال.

أكد لي أن أسلوبي في الشطرنج يشبههُ كثيرًا؛ التسرع في فرض القوةِ بحثًا عن انتصارٍ سريعٍ.

جلسنا على أحد المقاعد وأنا أسألهُ بهدوءٍ أن يوضح أكثر، قال:

- أنت مثلاً تنشر أدواتك القوية أولاً للسيطرة على ساحة المعركة قبل أن تبني خطة الهجوم، محاولة جيدة لشلّ الخصم ودفعهُ لليأس. في حين أن الخصم يمكن أن يشل كل هذه الأدوات إذا استطاع أن ينشر جنودهُ بكفاءةٍ على حدود

الهجمات المتوقعة منك، ويضرب بأدواتهِ القوية في عمق أرضك حيث يبقى الملك وحيدًا.

صُدمتُ من قدرتهِ على تحليل طريقتي في اللعب بهذا الشكل، كان يلخصني ببساطةٍ أغضبتني. قال وهو يبتسم إن هذا الأسلوب هو ذاتهُ أسلوب أدهم الجبلي، غير أن أدهم كان أكثر حنكةً في تطبيقهِ وكان يستهويهِ ترك شراكٍ خادعةٍ في الطريق تُطمع المحاربين السذج.

تذكرتُ في لحظاتٍ قليلة حياتي في الـ"IMS" وتدريبات الجنرال الجبلي لنا، والخطط التدريبية التي كان يشرفُ على تطبيق الضباط لها. أكد لنا دومًا أن مبدأ "الدهاء في المباغتة" هو نصف الانتصار.

أحببتُ هذه الطريقة، وشعرتُ أنها تفصيلٌ وتوضيحٌ أكثر علميةً ووضوحًا من الطريقة التي اتبعتها مرارًا في قنص القناصين.

عاد ديفيد شامير العجوز ينتزعني من شرودي وهو يكرر سؤاله:

- هل تعرف أدهم الجبلي؟

هززتُ رأسي أن نعم، قبل أن أسألهُ إن كان يعرفهُ من ساحة الشطرنجِ فقط فقال:

- كانت البداية فقط هنا.

هو وأدهم يتقاربانِ كثيرًا في السن. ديفيد عمل بالجيش الإسرائيلي وهو في العشريناتِ من عمرهِ قبل أن يتقاعد في نفس العمرِ تقريبًا بسبب إصابةٍ في قدمهِ في أحداث جامعة نيفي في ٢٠٢٢.

جامعة نيفي تقع بالقرب من رفح وخان يونس على الحدود مع مصر، وقتها كان الصراع لايزال قائمًا بين الدولتين غير المتحدتين، وقد تسببت الحادثة في خروج ديفيد من الجيش، وفي سلسلة من الأحداث أدت في النهاية إلى اتحاد الدولتين تحت رعاية دولية لمدة خمس سنوات.

ديفيد كان يعرف أن المصريين هم وراء الحادث، والمعارضة الإسرائيلية كانت تؤكد أنها إحدى عمليات جيوش الإرهاب في سوريا والعراق، وقدد بدأت في الالتفاف إلى إسرائيل، وهو ما نفتهُ تمامًا حكومتهُ الإسرائيلية التي أكدت أنها تخليصات حسابات بين حركة حماس آنذاك، وبين حركات الإسلام السياسي في مصروهو ما لم يقتنع بهِ ديفيد:

- حين أخلص حساباتي معك سآتيك في دارك لأهاجمك أو تأتيني في داري لتهاجمني. لن أذهب لأكبر جامعة اسرائيلية للدراسات اليهودية لأصفي حساباتي معك بتفجيرها.

على أن ديفيد اقتنع مؤخرًا – بفضل أدهم الجبليّ- أن أحداث جامعة نيفي هي إحدى عمليات (تصدير الإرهاب) التي خطط لها ونفّذها العسكر في مصر، ضمن مخططٍ أكبر يسعى أدهم لاكتشافهِ. وقد لاقى هذا التفسير هوىً في نفس شامير السامريّ.

اهتم الرجل بعد هذه الحادثة بالشأن المصري، وسافر لدولٍ كثيرةٍ للعالم. قبل أن يقرر أن يتخلى عن كل شيءٍ ويهنأ بالحياة المستقرة مع زوجتهِ الجديدة التي قابلها في برلين.

امتدت علاقةٌ أشبه بالصداقةِ بينهُ وبين أدهم، الذي حكى لهُ عن الاضطهاد والمكائد التي تدبرها له القيادة في مصر.

قال فجأة وهو يواجهني بذات العنينين المشتعلتينِ خبثًا:

- أنت تبحث عن أدهم الجبلي، أليس كذلك؟

تجمدت ملامحي فجأة، ثم رفعتُ حاجبيّ استهزاءً، فأكمل:

- برغم أنك ممثلٌ لا بأس بك، إلا أنك لن تخدع عجوزًا مثلي. عيناك تفضحانك كلما أتيتُ على ذكرهِ، ومحاولتك تصّنُّع اللامبالاة لم تدخل عليّ. هلم، أخبرني بقصتك، ستجدني أمينًا معك.

كانت إنجليزيته لها لكنةٌ ألمانية غريبة تظهرُ أكثر كلما انفعل، ابتسمتُ ولم أحاولُ أن أتمادى في الإخفاء:

-ولمَ تهتم إن كنتُ أبحثُ عنه أم لا ؟

- أووه.. أدهم صديقي.

و أكمل بشيءٍ من الألم:

- ثم إنني أبحثُ عن أي شيءٍ يحوِّلُ ساحة الشطرنج هذه إلى معركةٍ حقيقيةٍ في الواقع، لم أعد أطيقُ الفراغ.

أخبرتهُ:

- ثمة معركةٍ بالفعل تدور الآن يمكنك أن تخوضها، الجميع يتصارع على الاسم الجديد الذي سيمنحوه للبلاد بدلاً من قدسليم.

ضحك حتى فاضت عيناهُ بالدموع، ثم قال:

- بالتأكيد سيسمونها "تسيون". لقد اقترحوا الاسم قديمًا منذ أيام هرتزل ولم يستطيعوا وقتها أن يجهروا بميولهم الصهيونيةِ إلى درجة تسمية البلاد "صهيون" بالعبرية. أما الآن فالأمر يختلف.

أوضح لي أن دمج الهويتين الفلسطينية والاسرائيلية معًا، والتنازل عن بعض حقوق إسرائيل في الأرض والسياسة آنذاك، أدى في النهاية إلى ابتلاع الهوية الفلسطينة داخل الهوية الإسرائيلية تدريجيًا عبر سنواتٍ طويلة تم فيها امتصاص كل المجهودات الفلسطينية، وإبعادها عن الإعلام فذبلت مع الوقت، بالضبط كما تمنع المياه عن الأشجار.

ثم عاد يطلب مني أن أحكي له قصتي.

أخبرتهُ أقل القليل عن أني أحاولُ أن أعرف حقيقة ما حدث لأستاذي القديم، ولأنه يحب الحكايات الطويلة، فقد تماديتُ في حكي بعض القصص الملفقة

عن تدريباتهُ لنا في المدرسة، وعن أفكارهُ التي نشرها في كتبهِ وشكلت جانبًا من تفكيري ووعيي.

قال وهو يستكينُ في كرسيهِ:

- أنا أيضًا لا أصدق أنه مات في حادثة السيارةِ هذه!

قلتُ أنه أكثر دهاءً من أن يقع في فخٍ كهذا، فقال:

- لكنهُ وقع.

طال الصمتُ لدقائق قبل أن يقول بهدوءٍ وروية:

- اسمع مازن، لقد فكرتُ كثيرًا، ولأني أتوسم فيك الصدق فسأخبرك أمرًا.

أخذ نفسًا عميقًا:

- لا يمكن لأدهم أن يقع في حادث سيارةٍ سخيفٍ كهذا، إلا لو خطط هو له ليقع فيهِ.

قال أنه توقع أن أدهم يحاول أن يهرب ويُخفي عنهُ الأنظار من أجل شيءٍ ما. في الفترة الأخيرة تحدث عن مقابلاتهُ مع البروفيسور داود عزت- أحد عمالقة القانون الدولي في العالم- لكنهُ لم يخبرهُ عما كان يحدث فيها.

ثم سرد عليّ مجموعة من أسماءِ رفاقهِ، وأماكن كان يذهبُ إليها كثيرًا. طلب مني فقط بعد كل هذا، أن أشركهُ في الأمر، ولسوف يمنحنى المزيد من المعلومات القيّمة.

ببساطةٍ متناهيةٍ، أعطاني العجوز ديفيد شامير أطرافًا لخيوطٍ كنتُ أبحثُ عن إحداها، وكان عليّ أن أبدأ بالطرف الأكثر وضوحًا وقوة: البروفيسور داود عزت، أستاذ القانون الدولي بجامعة القدس.

* * *

مريمة

(٢)

حينما جئتُ إلى مصر مع مازن، مررنا عبر دولٍ أخرى، ظننتُ في البداية أنها طريقةٌ ما يقوم بها للفرار من مديريهِ وقادتهِ بعد أن ضيّقوا عليه الخناق، لكني اكتشفتُ فيما بعد شيئًا آخر.

ببساطةٍ لا توجد خطوط جوية مباشرةً للركاب العاديين والمسافرين بين مصر والنيجر، ولا بين مصر وأي بلدٍ إفريقي آخر، ثم عرفتُ أنني لا يجب أن أظهر هويتي الحقيقية في مصر كمواطنة نيجيرية أو تنتمي فعليًا إلى دولة (أزواغ) الكبرى، أو (أزواد) كما يقولون عنها؛ لأن الإرهاب والعمالة هي أول تهمة ستوجه إليّ، وبسببها قد يُحكم عليّ بالإعدام، هذا إن حظيتُ بقاضٍ رحيمٍ لم يحكم بالتعذيبِ حتى الموت!

في ليبيا - ذات الصلة المعقولة مع مصر - استخدم مازن بعض علاقاتهِ ليستخرج لي هويةٍ ليبية وجواز سفرٍ ليبيّ. استخدمتهما للسفر إلى السعودية بتأشيرةٍ لأداء العمرة، استغللتُ فيها الفرصة الرائعة لأداء مناسك العمرة وقضيتُ بعض الوقت في رحاب مسجد النبيّ - عليهِ الصلاةُ والسلام- وسط تأفف مازن وسخطهِ.

مازن مسلم، لكن إسلامهُ هشٌ خارجيّ لا يمس هويتهُ الحقيقية ولا قلبهُ. سافرنا بعدها بتأشيرة سياحية إلى الإمارات. قال لي وقتها أن أفضل طريقةٍ لدخول مصر هي عبر الإمارات التي تملك علاقات رائعة مع الحكومة المصرية ولجنة الحكماء.

علمتُ كذلك – خاصة بعد الحفلة – أن الجنرال محمود سالم وزير الطيران وضع نظامًا خاصًا للدخول والخروج من البلاد يتفق مع مبادئ الدولة.

حضرتُ مع سمرة حفلاتٌ أخرى، ومؤتمراتُ، ودعواتٌ لعشاء العمل التي تكثر كثيرًا في جدولها وتقتصر على عدة أفراد قليلة، على عكس الحفلات والمؤتمرات التي تتخطى المئات.

أكثر ما أثار انتباهي في هذه المؤتمرات وحفلات العشاء بالخارج هو الندلاء والخدم وموظفو استقبال الفنادق، يبدون تقديرًا واحترامًا مبالغًا فيهِ، ما جعلني أشعرُ أن الناس في طبيعتها شديدة الرقي وجميلةُ الأخلاق.

المباني الجميلة للفنادق والمطاعم شديدة البهاء كانت تبهرني، شعرتُ كثيرًا أن هذه الأبنية تتفقُ أكثر مع أخلاق ورقي العاملين بها، أكثر مما تتفقُ مع أخلاق روادها المخدومين.

من متابعتي لما تقوم بهِ سمرة؛ عرفتُ أنها تقوم بلعبة أقرب إلى البازل، لكنه بازل دولي أو مجتمعي يقوم على إعادة ترتيب علاقات المجتمع المتفكك والذي لا يثق فيهِ فردٌ بآخر؛ وهو ترتيب يصب في صالح لجنة الحكماء ورجالها.

تُفكِك جميع التكتلات الاقتصادية والإجتماعية حتى الصغير منها وتعيد ربطهُ بالمشروعات العسكرية مثل شركات الأمن والفنادق والمصانع.

هكذا يتكون المجتمع تدريجيًا بعد ذلك من رأس أخطبوط جبار يخرج منه المجتمع كله بجميع طوائفهِ في شكل أذرعٍ لهذا الأخطبوط الهائل.

ما كنتُ أعرفهُ يومًا بعد يوم كان يزيد رُعبي، ويشعرني باستحالة الوصول إلى المهمة الكبرى التي سعيتُ إليها في البداية مع قادة قبيلتي.

لا وجود لرأيٍّ عامٍ منفردٍ خاص بالناس، ولا وجود لمعارضةٍ سياسيةٍ من أي نوعٍ، الجميع يتعلق ويركعُ أمام الوجود العسكريّ ويبحثُ عن رضاه وعن الانتماء إليهِ بأي شكلٍ.

المظلومون راضون حد الموت بظالميهم، ويقدمون لهم فروض الولاءِ والبذل من أرواحهم، فكيف سأحاولُ قلب المظلومين على الظالمين كما تمنيتُ من قبل؟

لم أعثر بعد على الدكتور على البريمي، كان مازن يبذل كل ما يستطيع من جهدٍ كما أكّد لي.

أما سمرة، فقد استطعتُ أن أترك برقبتها جهاز التجسس أخيرًا، برغم صدمتي المهولة مما حاولت فعلهُ.

في هذه الليلة؛ ارتدت لا شيء كعادتها بعد أن خرجت من الحمام. كنتُ واقفةً بالقربِ من مكانِ مرورها حين لاحظت شرودي في الفراغ. اقتربت مني بحذرٍ ثم طبعت قبلةً على رقبتي من الخلف.

انتفضتُ كمن لسعته عقربةٌ سامة، فوجدتها تبتسم، ثم عادت لتقرّب وجهها من وجهي فتعجبتُ مما تريد، كأنها تود تقبيلي، مددتُ يدي الممسكة بالجهاز إلى رقبتها لأوقف زحف وجهها إليّ وتركتُ الجهاز:

- ما هذا يا سمرة.

مبتسمةً، بنظرةٍ حالمةٍ أجابت:

- ألم تفهمي بعدُ يا مريمة؟

- أفهم ماذا ؟

- أني أحبكِ..!

ارتددتُ مصدومةً لا أقوى على الحركة.

- ما الذي يعنيهِ هذا ؟

أحاطت خصري بيديها واقتربت بعريها الفاضح مني تقول:

- أنا لا أفعلُ معكِ ما أفعلهُ إلا حبًا فيكِ. ما أقدمهُ لكِ، وكل مساعداتي لم أقدمها إلا تقرّبًا من قلبكِ علّه يشعر بي يا حبيبتي.

مصدومة، غير قادرةٍ على الفهم وجدتها تقتربُ أكثر وتحتضنني وتلفّ يدها حول خصري كذراعيّ أخطبوط، ثم تقبل رقبتي بشفتينِ لزجتين.

شعورٌ عجيبٌ بالتقزز والنفور طفا على كل جلدي وأصابني بالغثيان.

لم أستطع التحمل، هرولتُ إلى الحمام سريعًا وأفرغتُ معدتي.

وقفت سمرة ورائي بعينين غاضبتين شاعرتين بالإهانة.

قضيتُ وقتًا طويلاً أحاولُ استيعاب ما تفعله أو سببهُ، أو الداعي إليهِ. حاولتُ أن اهدأ قليلاً، شربتُ جرعة ماءٍ من الصنبور. ثم هرولتُ دون أن أنظر إليها إلى غرفتي فأغلقتها جيدًا وجلستُ أرتعش ويتملكني أغرب شعورٍ شعرتهُ في حياتي.

وقفت سمرة تدق الباب من الخارج بعنفٍ وتصرخ وتسبني. أشبه بلبؤةٍ مفترسةٍ حين صرخت بمنتهى الشراسة أن أجهز نفسي غدًا لعشاء عملٍ جديد. وابتعدت بخطواتٍ غليظةٍ، تصرخُ في كل خادماتها.

وعرفتُ أن منحنىً جديدًا في التعامل سيبدأ بيننا.

* * *

لم أرَ فنادقًا طائرةً من قبل بهذا السحر.

بنايةٌ دائرية من طابقٍ واحدٍ تقريبًا تفترشُ مساحةً هائلةً فوق عمق البحرِ متعلقةً في الهواء يصلُ إليها طريقٌ غير مرئيٍ مرت فوقهُ سيارةُ سمرة - وأنا محتبسةُ الأنفاسِ - كأنها تطير في الهواء.

تقولُ وهي تاركةً مقود القيادةِ ليتولى السائق الآلي المهمة، أن فندق (التيتانيوم) هذا من أكبر وأهم فنادق العالم، تخبرني أنه مصنوعٌ من هذا المعدن الخفيف، ثم تشير إلى أعلاهُ فألحظُ شعار (هرقل) ضخمًا في شكل بالونة عملاقةٍ مجسمةٍ تأخذ نصف مساحة الفندق تقريبًا تمتدُ منه خيوطًا كثيرةً تربطه بالفندق أو تربط الفندق بهِ.

توضح لي سمرة وهي ترى دهشتي الهائلة أن الشعار هو الذي يحتفظ بالمبني المصنوع فعليًا من التيتانيوم معلقًا عبر حبائل النانوتيتانيوم. تضحك وهي تقول أن ميزة صفوت الوحيدة أنه لا يفعل شيئًا، ويترك الأمور لزوجتهِ.

نَصِلُ إلى الساحة الخارجية حيث تنتشرُ الأبواب التي يفصل بينها أمتارٌ قليلة. ألوانُ المبني وديكوراتهُ هي فنًا مستقلاً بحد ذاتهِ، وثمة نظامٍ للإضاءة الخارجية كان يُظهر الفندق من بعيدٍ كأنهُ لؤلؤةٌ تتألقُ بألوانٍ شتى، أما من هذا القرب فتبدو اللؤلؤة ضخمةً بشكلٍ تشعر معه بضآلتك جوارها.

قادنا إلى الداخل أحد موظفي الإستقبال؛ موليًا وجههُ لنا وسائرًا بظهرهِ لنتبعه إلى القاعة الملكية حيثُ نجد الجنرال الأشيب عبد العظيم في انتظارنا وحدهُ بالقاعة يدخن الغليون.

نفث الدخان وهو يقهقه بصوتٍ عالٍ مرحبًا بنا.

يجلسُ ويتحدث في أشياءٍ سخيفة مثل ثوب سمرة الذي يزيدها فتنة، أو ملامحي التي تزدادُ براءةً وغموضًا، بعد فترة تتركنا سمرة معتذرةً لاختيار أصناف الطعام، فأبقى وحدي مع الجنرال الأشيب.

ينظر تجاهي، وأنا أتشاغل عنهُ بمتابعة ما حولي، تفيضُ من عينيهِ نظراتُ الخبث والتصيد والاستمتاع والاستهزاء؛ توليفةٌ غريبة من النظرات والمشاعر حاولتُ تجاهلها قدر استطاعتي ومتابعة ما يحدث بداخل القاعةِ الملكية. ثمةُ شاشةٍ هولوجراميةٍ ضخمة بحجم جدارٍ بأكمله تعرض اشتباكاتٍ مع بعض ثوار القمر وتقارير الحكومة الخاصة بالأمن.

العاملون هنا يبدون في اصطفافهم وزيهم الموحد – المختلف عن الخدم على الأبواب الخارجية- في قمة الدقة والرقي والإنسانية التي لم أتخيل بوجودها في أرضٍ كهذه.

احترامٌ وتقديرٌ للضيوف ولرغباتهم، ونظافةٍ فائقةٍ. أتابعهم، واتابع ابتساماتهم البشوشةِ باستمرارٍ وأشعرُ أن هذا المكان لا ينتمي لهذه الأرض.

يقولُ الجنرال أخيرًا:

- ما الذي يروقكِ أكثر هنا ؟

أضطر للنظرِ إليهِ، لم يكن بداخلي أي خوفٍ منه، بل احتقار لا يوصف، ورغبة طفوليةٍ في النيل منهُ لم اعرف لها سبيلا.

أقولُ وأنا أشيرُ ناحية شاشة الأخبار:

- هؤلاء الثوار.

يقطب حاجبيهِ فجأة، ثم يفرجهما ببطءٍ محاولاً استكشاف المزيد:

- ما الذي يروقكِ فيهم ؟

- يحملون فكرةً، ومصرون على البحث عن حقيقتها.

يتعصّب الجنرال قليلاً وهو يقول:

- هؤلاء الخونة لا يحملون أفكارًا، ولا يضمرون إلا الشر لبلادنا، هؤلاء هم صُناع الوهم وعملاء الأكاذيب، ومحاربتهم وإبادتهم واجبٌ على الدولة ولجنتها.

أقولُ باستغراب:

- إذا كان ما يقولوه وهمًا، لماذا لا تتركوا الناس تحكم، وينْفَضُّون عن أكاذيبهم، دون أن ترهق الدولة نفسها ومواردها معهم.

يقهقه ضاحكًا وهو ينظر لي بسخريةٍ:

- نترك الناس تحكم ؟

ثم يقهقه من جديدٍ.

يقولُ وهو يقتربُ مني:

- ألا تنظري حولكِ ؟ من ترين من الناس لهُ القدرة على الحكم على أي شيء؟ هؤلاء الخدم بالخارج، أم النوادل التي تحضر لنا الطعام والشراب ثم تنظف

الأرض وأحذيتنا ؟ هؤلاء الناس يسمعون فيطيعون، وإذا استمعوا لأي شيءٍ صدّقوه، فإذا جاء لهم مجموعة من الحقراء يقودونهم مباشرةً إلى المنطقة صفر، انقادوا وهاجوا.

أستشعرُ غضبًا داخليًا:

- المنطقة صفر ؟

يلوحُ بيدهِ:

- لن يصل عقلكِ لفلسفتنا بعد.

أقولُ محاولةً كبح الغضب الداخلي:

- فلسفتكم التي تسبون صاحبها الذي صنعها لكم.

يشعرُ الرجلُ بانزعاجٍ أراهُ في نظرة عينيهِ الغريبة، تأتي سمرة، ويأتي نادلاً معها، يمسحُ المنضدة امامنا برغم نظافتها الفائقة. يضعُ بعض صحف الطعام عليها، ابتسامتهُ لا تغادر شفتيهِ، وملامحه وسيمةٌ هادئة، صغير السن نوعًا وعلى صدرهِ علامة +A لم أفهمها.

يقول الجنرال بعد انصراف النادل وهو ينظر ناحية سمرة :

- رفيقتكِ مزعجةٌ فعلا.

حركة رأسهِ مزعجةٌ قليلاً، تذكرني بالبومة التي تنظر في جميع الاتجاهات، تقول سمرة مصدومة:

- هل ترفض لك أمرًا يا جنرال؟

تطوفُ ابتسامةً ساخرة على شفتيه ويعودُ للنظر لي بنفس الحركة المزعجة، أقولُ:

- لا، مجرد اختلاف في الرأي.

تقول سمرة بشراسة:

- رأي ؟؟ أي رأيٍ لكِ بعد رأي صاحب العلم والخبرة.

سمرة تغيرت كثيرًا في أسلوبها معي منذ عناقها الطويلُ. يشير لها الجنرال بطرفٍ خفيفٍ أن تصمت.

أثق في أنها لا تخفي حقيقتي عنهُ، وأنه على علمٍ بكل شيء.

يقول الجنرال:

- أنتِ سمعتي عن أدهم الجبلي إذن!!

أومئ برأسي، فيسألني عمّا سمعتهُ، أقولُ بطريقةٍ ساخرة:

- قاتل في المؤسسة العسكرية الرسمية، أسس المدرسة العسكرية الدولية لإخراج مزيد من القتلة ليوزعهم على العالم، ثم نظَّر للجرائم كي يصدرها للخارج، ويصنع منها حضارة سوداء. بعدها عمل في جباية الأموال من الدول الأخري في نظام ماذا تسمونهُ... آه.. المفوضيّة، لكن الإعلام والصحافة لم يعد يذكر هذا وتحول فجأة ضده يتهمهُ بكل التهم الممكنة، وكأنه عدو الدولة الوحيد.

لم أكن أنا التي تتكلم. ولم أعي ما قلتُ إلا بعد أن قلتهُ. لكن رغبة مدمرة داخلي ترفض الإنصياع لأي لجامٍ أو خوف.

تتحجر عينا الجنرال وتتسع غضبًا.

يتوجه بالكلام إلى سمرة قائلاً في شراسة ومشيرًا ناحيتي:

- لقد قضينا عمرنا كلّه نستأصل مثل هذه النوعية ونحارب وجودها، فتأتين بها ببساطةٍ من الخارج يا سمرة؟

تردُّ سمرة كأنها تدفعُ عنها تهمة باطلة:

- لقد جئتُ بها لهدفٍ واحد تعرفه يا جنرال: القضاء على الإرهاب في وسط إفريقيا. وليس لتجلس وتتناقش.

يهبطُ قلبي في قدمي فجأة. لم أعِ ما قالتهُ جيدًا. القضاء على الإرهاب .. أين؟

يعودُ لي بضحكةٍ عصبية:

- لهذا سنخضعها لقراءة الأفكار ونُشّرِح هذا الرأس الجميل بحثًا عما بداخلهِ.

أصعقُ من كلمتهِ، لا أعرف هل يقصد ما عناهُ حرفيًا أم مجازيًا؟ أقولُ محاولةً أن أفهم المزيد:

- أهذه طريقتك في الحوار مع المختلفين معك، أن تتخلص منهم؟

تعود نظرتهُ المستهترة والساخرة، يقول:

- لن اتخلص منكِ، لكنكِ ستكتشفين طريقتي في التعامل مع الأعداء، والعملاء، والإرهابيين، أنتِ جئتي لتتجسسين علينا، هل تنكرين هذا ؟

أنظرُ لسمرة، فترفع لي يديها وكتفيها كأن الأمر لم يعد بيدها، قالت:

- حاولتُ ان أصنع منكِ شيئًا لكنكِ صرتِ كارتًا محترقًا.

كنتُ أعرف أنها كشفت حقيقتي لهم منذ أول يومٍ، وأنها تخدعني بكل تمثيلها ومحاولتها إقناعي أنها تحميني، لكني لم أكن أصدق نفسي.

هل كنتُ أعيش في وهم الأمان، مثلما كنا نعيش في أزواد ؟

أقول وقد أتى بعضُ النوادل يضعون بعض صحف الطعامِ الأخرى:

- جئتُ بحثًا عن طرق للتواصل تفيدنا وتفيدكم.

يعود الجنرال للقهقهة:

- إذا كانت ستفيدنا، فكيف تفيدكم؟

يأتي بعض الضيوف، الجنرال يقول بصرامةٍ وقد توقف عن الضحك كمجنونٍ غير متزن الأفعال:

- أنتم خلقتم من أجل أن نحيا نحنُ، أنتم الركام الذي ندوسُ عليهِ لنصعد إلى المجد والعلاء.

لم أكن أصدق لغتهُ، ولا حوارهُ. لم أصدق أنه كشف عن حقيقتهُ بهذه البساطة البشعة المقززة الواضحة. يقبلُ علينا رجلٌ عجوزٌ وامرأةٌ شابة، تصافحهم سمرة، والجنرال يكملُ كأنه لا يراهم:

- انظري حولكِ، لن تجدي غير أناسٍ ما بين عبيدٍ لنا أو خدمٍ أو مأمورين طائعين، هذه هي قاعدة العالم إذا طبقت على هؤلاء الناس، فهي تطبق على دولٍ مثل دولتك.

يعود فجأة إلى جلستهِ المستكينة واضعًا قدمًا فوق أخرى كأنهُ قد فرغ من الإدلاء بحكمته. مدخنًا غليونهً يجلس كأن شيئًا لم يعد يعنيه. تقدم سمرة ضيوفها إليّ - كأن شيئًا لم يكن – بابتسامةٍ مرحبةٍ:

- الدكتور صدقي صالح، وزوجتهُ مدام جودي.

أصافحهما، وحين تقدمهما للجنرال يهز رأسهُ في برود وينظر الناحية الأخرى، أفكرُ في عذرٍ لأخرج بهِ من هذا المكان، دخول الحمام الآن سيبدو سخيفًا بهذه الطريقة المكشوفة.

تقول سمرة:

- تأتي في مواعيدك تمامًا يا دكتور صدقي.

يرفع الرجل رأسهُ في كبرياءٍ ويقول:

- الانضباط سمة النجاح يا مدام سمرة، تعودتُ عليهِ منذ دراستي في كلية الشرطة.

أفكرُ في أخذ رأي مازن، أريد أن أعرف ما يقصدهُ الجنرال بالضبط. تسأل سمرة الدكتورعما يريد أن يأكل، وتجامل زوجته في ذوقها الرفيع في اختياراتها، تقول سمرة في النهاية موجهةُ حديثها للجنرال:

- الدكتور صدقي ترك أعمالهُ في أمريكا من أجل أن يحظى بمقابلتك يا جنرال.

يستمر الجنرال على ابتسامتهِ الباردة السخيفة.

أرسل رسالة باستخدام قارئ الفكرة الموجود بالسماعات في أذني، أحاولُ أن أجعل الفكرة بسيطة ومختصرة قدر إمكاني ليفسرها قارئ الأفكار بالشكل المناسب:

" مع الجنرال عبد العظيم وسمرة في عشاء. يهددني إنه سيقرأ فكري، ويشرّحِ ذاكرتي، ماذا يعني هذا؟"

يقول الدكتور متفاديًا حالة اللا رد:

- مقابلة جنرال عبد العظيم شرفٌ تمنيتهُ منذ فترة طويلة...

يقاطعهُ الرجل وهو يهمهمُ ساخرًا:

- نعم، منذ قرار التجميد.

يحاول الدكتور أن يستوضح ما يقولهُ الجنرال الذي يبقى على صمتهِ ورأسه الموجهه للناحية الأخرى.

يأتيني رد مازن سريعًا:

" اهربي كأن شياطين العالم وراءك، سيقتلكِ في النهاية "

يستطرد الدكتور:

- لكني أعرفُ مسئوليات الجنرال الكبيرة، وأشكرهُ كثيرًا على قبوله مقابلتي.

يجيبهُ صمت الرجل ولا مبالاتهُ، تتدخل مدام جودي زوجة الدكتور محاولةً تلطيف الأجواء:

- نعم، كنتُ أطلب كثيرًا منهُ أن آتي إلى مصر لأري أساطير العسكرية المصرية التي تدير هذا البلد العملاق بهذه العبقرية، وقد...

يقاطعها الجنرال عابثًا، وملتفتًا إليها بجسدهِ كلهِ

-وما رأيك ؟؟

تصمت للحظةٍ.

أرسل لمازن:

" هل سيقرأ أفكاري فعلاً، حتى بدون رغبتي كما هو معتاد كما يعمل قارئ الأفكار "

يكمل الجنرال عبثهُ قائلا:

- هل أعجبتُكِ ؟ أعرفُ أن الفتيات العابثات يحببن الرجل الأشيب ذو الخبرة، أليس كذلك؟

مازن لا يرد!

تظل على صمتها، ويُصدم الدكتور من إجاباتهِ.

انتبهُ للحوارٍ أكثر وأتعجبُ من ردود الجنرال وأتابعُ رد فعل الدكتور. مازن لا يرد.

يعود الجنرال لجلستهِ من جديد موليًا لنا ظهره، ويأتي مدير القاعةِ الملكية يسألنا عن رأينا في جودة الطعام، يعرّف نفسهُ بتواضعٍ شديد ويتحدث بلباقةٍ ورقيّ. كيف يحكم هؤلاء الشباب، حيوانات مثل هذا الشرس.

رأيتُ سمرة تصافحهُ وتضع ورقةً مالية في يدهِ أخذها واحمر وجهه قليلاً ومضى.

أتضايقُ قليلًا من تصرف سمرة، وأشعرُ بالإهانة وسط حالة التوتر التي أعيشها.

يأتي رد مازن صادمًا:

" نعم "

أشعرُ بحالةٍ من الاختناق، فأسعلُ وأحاولُ أن أتناول كوب المياه، يقول الجنرالُ وهو على جلستهِ:

- أنا كذلك جئتُ من أجلكِ يا جودي.

انتبهُ لما يقولهُ من استفزازٍ للدكتور الذي يحتقن وجههُ فيبدو مع تغضن ملامحهِ أنه على وشكِ نوبةٍ قلبية. يكمل الجنرال:

- شابةٌ صغيرةٌ وطموحةٌ، بالتأكيد ستفهم العرض الذي سأقدمهُ لها.

يقول الدكتور فجأة:

- أيُّ عرضٍ يا جنرال ؟

يلتفتُ الجنرال بغضبٍ لا أفهم سببه، يقول:

- العرض ليس لأصحاب العقول المتحجرة أمثالك.

يحاول الدكتور صدقي أن يتحكم في انفعالاتهِ، يأخذُ شهيقًا قويًا ويحاولُ أن يُدخل سمرة في الحوار وهو يقول:

- حين طلبتُ من المدام سمرة مصدرًا أتواصل معهُ لحل مشكلتي، أخبرتني أن أفضل جهه هي الحكومة ذاتها، وليس أي مستثمرٍ داخليٍّ، وقد سعدتُ حينما سمعتُ اسمك لما لنا من تاريخٍ مشتركٍ في العسكرية المصرية.

يقهقه الجنرال عاليًا بطريقتهِ المستفزة ثم يقول:

- تاريخ مشترك في العسكرية؟ أي تاريخٍ بعد خيانتك العسكرية ورفضك لتنفيذ الأوامر التي جاءتك وهروبك من البلاد كلها.

يحاولُ الدكتور أن يتمالك أعصابه:

- هذا خلافٌ قديمٌ في الرأي لا داعي لفتحهِ، لم أستطع أن أوجِّه سلاحي لجيراني وبعضُ أقاربي وأقتلهم أثناء فض مسيرات الجوع لمجرد مطالبهم الطبيعية في الحصول على طعام.

يردُ الجنرال بغضبٍ:

- هؤلاء كانوا خونةً استحقوا الموت كما حدث لهم، لم يستطيعوا أن يتكاتفوا مع الدولة التي كانت تمر بفترةٍ صعبة في تاريخها، وكانوا يهاجمون مخازنها ويستهدفونها، أنت تواطأت معهم.

يقول الكتور وصفي:

- حسنٌ هذا خلافٌ قديمٌ يا جنرال...

يقاطعهُ الجنرال ثائرًا:

- هذا ليس خلافًا قديمًا، الخيانة ليست خلافًا. هذه جريمة لا تسقط بالتقادم. هل تظن أنك ستأتينا بعد كل هذه السنوات تقول لنا إنه خلافٌ قديم وتطالبنا بأن نرد لك ذهبك ؟

يقولُ الدكتور في توسل:

- هذا حقي.

استوقفني ذكر الذهب في الموضوع.

جاءتني فجأة رسالة من مازن:

" الجنرال لا يرى بعينهِ اليسرى، هذا سر لا يعرفهُ الكثيرون؛ تصرّفي بسرعة"

اتسعت عيناي دهشةً وأنا أتذكرُ حركة رأسهِ في كل الاتجاهات، ونظرتُ للجنرال الذي يُكمل:

- لا حقوق لك في البلد الذي خنتهُ.

يقول الدكتور بغضبٍ:

- الموضوع ليس خيانة، الموضوع الحقيقي ثلاثة أطنانٍ من الذهب، تريدون أن تسرقونها.

يرد الجنرال ضاحكًا:

- بل في خيانتك في هذا الأمر كذلك.

أتابعُ الجنرال وأتأكد أن هذه الحركة لا تأتي إلا مع عيبٍ في الرؤية، يوجهُ حديثهُ لمدام جودي:

- تخيلي أن يظن أحدٌ أنه قادر على السيطرة على سوق الذهب في مصر بشرائهِ ثلاثة أطنانٍ دفعة واحدة. أليس هذا غباءً ؟

تقولُ الزوجة بهدوءٍ ولباقة:

- كما تعرف يا جنرال، فزوجي هو صاحب ورئيس مجلس إدارة مجموعة "جلوري" وهي أشهر ماركة للذهب في الولايات كما تعرف، وله أكبر مصانع ومولات الذهب كذلك. محاولتهُ لدخول السوق المصري كمستثمر أجنبي هي محاولة صادقة لإفادة بلده باستثماراتهِ الهائلة.

يقول الجنرال:

- بل محاولة صادقة للتأثير على مشروعنا الأكبر.

ويشيرُ ناحية القمر الذي توسط السماء في ليلةٍ صافية، يتابعُ بنبرة عتابٍ:

- أنتِ لبقةٌ يا جودي، ولهذا سأقدمُ لكِ عرضًا لن تستطيعي رفضهُ. فلا تضيعي مجهوداتكِ في الدفاعِ عن رجلٍ ميت.

يهتزُ الدكتور صدقي في عنفٍ، أكادُ لا أصدقُ ما فهمتهُ، تتراجع الزوجة بابتسامةٍ غريبة، يقول الدكتور محاولا أن يبدو متماسكًا:

- هي لن تقبل أي عروضٍ دون إذني، وأجلي لم يحن بعد يا جنرال.

يقول الجنرال بهدوءٍ:

- بل حان يا صدقي، أنا أعرفُ أنه حان.

يبتلع لعابهُ في رعبٍ وهو يقول:

- أنا مستثمر أمريكي، ومتعاقدٌ مع هرقل، هذه الشركة التي تؤمن هذا المكان.

يلحظ السخرية والاستهتار في عيني الجنرال، فيصرخ:

- الاقتصاد الأمريكي يعتمد على وجودي، الحكومة الأمريكية لن تتهاون في...

تقاطعه ضحكة الجنرال من جديد:

- هل تصدق أن كل هذا لم يكلفنا نصف ما يكلفهُ رأسك المتحجر؟

تتسع عينا الرجل، ويشحبُ وجههُ كالموتى. تتابع زوجتهُ ما يحدث بأعصابٍ باردة، أشعرُ باقترابِ إغماءةٍ، الجنرال يقوم من جلستهِ بهدوءٍ، يقفُ وينظرُ حولهُ: شاشة العرض العملاقة لا زالت تبث أحداث فض التظاهر ظهر اليوم وتعليقاتٌ حول حجم الإرهاب الذي يتزايد يومًا بعد يوم، مدير القاعة يقف في نهايتها يتابع عمل موظفيهِ، وبالقربِ منّا يقفُ نادلاً متحجرًا في مكانهِ بانتظارِ أي طلبٍ من أحدنا. يشيرُ له الجنرال فيأتي سريعًا، يقول الدكتور صدقي:

- أعدك ألا يكون رأسي متحجرًا، أعطني عرضك.

يقولُ الجنرال للنادل أن يحضر كرسيًا متحركًا فينصرف سريعًا لتنفيذ الطلب. يدور الجنرال حول مقعد الدكتور وهو يقول:

- تريدُ عرضًا ؟ حسنٌ، لدينا تاريخٌ طويلٌ يا دكتور فهل ستستطيع الوفاء بواجباتك؟

يضع يدهُ على كتفهِ وهو يقف وراء الدكتور الذي تمنعه يد الجنرال عن الالتفاف له:

- أولاً ستنسي أمر ذهبك الذي اشتريته من السوق المصرية.

يحاول الرجل أن يتحرك أو يعترض فيقول الجنرال وهو يثبتهُ في مقعده:

- نعم، نعم، أعرف أنه يمثل ثلاثة أرباع ثروتك.

يتركهُ، ويتراجع للوراء فيلتفت له الدكتور، حركاتهُ مسرحيةٍ تبدو مفتعلة بشكل واضح:

- سيكون هذا لتأكيد حسن نيتك تجاه الاقتصاد المصري، ورغبتك في إفادة بلادك كما تقول زوجتك الجميلة.

يحتقن وجهُ الدكتور وهو ينظر بعينٍ غاضبةٍ تجاه الرجل الذي ولاهُ ظهره وأخذ يفعل شيءٌ ما بيديهِ لا يتضح من زاوية رؤيتي، يقول:

- لكن سيبقى مشكلة خيانتك القديمة لنا، فكيف سنحلّها ؟

يدور ناحيتنا من جديدٍ واضعًا يده خلف ظهرِهِ. يقولُ مفكرًا وعلامات الجدية تبدو على ملامحهُ:

- ستحتاجُ أن تُقدم لنا ما يجعلنا نتجاوز عن هذه الجريمة القديمة.

يدخل النادل بالكرسي المتحرك.

- يمكنني أن أقنع لجنة الحكماء بأن يتجاوزوا عن هذا إذا قدمتَ لهم نصف استثماراتك في جلوري مثلاً كترضيةٍ، ما رأيك؟

يزعقُ الدكتور وهو ينهض فجأة متجاهلاً يدا الجنرال، يقول وهو يضغط على زرٍ في هاتفهِ الملتصق بيدهِ:

- ماذا تظنون أنفسكم ؟ لقد صبرتُ على هرائك كثيرًا، لكن هذا سيتوقف الآن.

يصفق الجنرال بيدهِ ويقول في حماسٍ مفاجئٍ وبطريقتهِ المسرحية المفتعلة:

- نعم، بعض الغضب يا دكتور، اغضب، الغضب جميل، اغضب لآخر مرةٍ في حياتك. حتى يقولون مات غاضبًا ولم يمت مذعورًا.

يقتحم المكان فجأة ثلاثة رجالٍ ضخام الجثةٍ يقفون ويشهرون أسلحتهم الليزرية في وجه الجميع، يقول الدكتور صدقي وهو يشير ناحية السماء فتبدو الأضواء الخافتة لطائرةٍ خاصة تقفُ محلّقةً فوق الفندق:

- سنرحلُ الآن يا جنرال، وقد أخطأتُ حين لجأتُ لأحد مديري علاقاتكم العامّة الذين لا يعملون إلا لصالحكم، كان يجب أن أهتم بمصادري الخاصة وعلاقاتي.

يقول الجنرال ساخرًا وهو يضع يديه خلف ظهرهِ ويبدو الاستهتار في قسماتهِ المغضَنَة، يقتربُ منه بهدوء ويقرِّب وجههُ منهُ:

- هل تتصور أن تخرج من هنا بهذه الطريقة أيها الرائد القديم؟ لقد نسيت كل شيء عنا في هجرتك الطويلة.

يأخذُ خطوةً سريعةً تجاه الدكتور صدقي ويمسك بكلتا يديهِ جانبيّ رأسهُ. ثمة قفازين غريبي اللون في يدهِ، يهتز الدكتور بعنفٍ ويأخذ لونهُ في التدرج للون الأزرق ويصدر زمجرةً متصلةً ويضرب بيديهِ وقدميهِ في كل مكان، يطقطقُ الجنرال بفمهِ، يطالبهُ بالهدوء، يشدهُ تدريجيًا ناحية الكرسي المتحرك البدائي وقد تحولت زمجرة الدكتور إلى أنينٍ متصل ورفسات من يديهِ وقدميه محاولاً أن يمسك الجنرال الذي أحكم قبضتهُ عليهِ وابتعد بجسدهِ عن مدى حركات الرجل.

أخيرًا؛ يلقيهِ على الكرسي المتحرك ويطرقع بإصبعهِ فيأتي أحد هؤلاء الثلاثة ضخام الجثةِ لمساعدتهِ.

لم أفهم هل يعمل هؤلاء الضخام من أجل الدكتور؟ أم من أجل الجنرال؟

يقفَ جوار الجنرال الذي يخرج مبضعًا من جيبهِ. يأتي رجلٌ غريبٌ من الخارج ببعض الصناديق البلاستيكية ويضعها جوار ضخم الجثة الذي يشمّر يد الدكتور اليسرى فيغرس الجنرال المبضع في يده ويحركهُ. يخرجُ شريحةً صغيرةٍ من يدهِ.

يلتف ناحيتنا بطريقتهِ المزعجة في الحركة، ممسكًا بالشريحة يقول بطريقتهِ المسرحية:

- لا يمكن أن تثق في هؤلاء الدبلوماسيين الأمريكيين، مهما فعلت من أجلهم يصرون على حشر أنوفهم في كل شيءٍ، ما الداعي لأن يزرعوا هذه بهِ ليعرفوا مكانهُ ويتلصصون؟

يعود بالمبضع مرةً أخرى للدكتور ليغرسهُ في عينيهِ، أصرخُ غير مصدقةً.

يحرك الجنرال المبضع في تجويف عينيّ الدكتور، فتسقط العين غارقةً في دمائها بين يديّ الجنرال.

أشعرُ بالغثيانِ، أصرخُ وأخرجُ ما بمعدتي دون تحكمٍ، أحاولُ أن أتجه للحمام فأجد يد النادل تساعدني على التحرك.

في الحمام أفقد توازني وصمودي، أبكي بغزارةٍ لا أقدرُ على الصمود.

أنظرُ حولي بحثًا عن أي منفذٍ للهرب حين تدخل سمرة من الباب.

مبتسمةً تسألني عن سبب غثياني. فلا أصدق ما تسأل عنهُ.

تقولي لي أن الدكتور استحق هذا:

- لقد كان فريسةً منذ اللحظة التي قرر أن يدخل فيها مصر من جديد. يتعامل بأمانٍ في مجتمعٍ لا يجب أن تأمن فيهِ بهذه البساطة، مثلما فعلتِ أنتِ أيضًا يا صغيرتي، لم تتساءلي لحظةً عن السبب الذي أفعل من أجلهُ ما أفعلهُ لكِ، رغم أنكِ رفضتِ الشيء الوحيد الذي طلبتهُ منكِ ولم تجاريني برغم كل شيء، ألم يحدثكِ مازن عن قواعد الحياة وسمات الفريسة التي وضعها أدهم، ألم يحدثكِ عن برنامج القنّاص الذي يعشقه الشعب بأكملهِ ويمارسهُ في الشارع ؟

أحاولُ أن أتوازن، فتتلقفني يدُ سمرة وهي تُكمل:

- لا تقلقي، سيكون الجنرالُ رحيمًا بكِ أكثر من رحمتهِ بصدقي.

تفتحُ الباب لأجد الجنرال في وجهي، يوجهُ شيءٌ ما إلى رقبتي فأشعرُ برعشةٍ خفيفة ولا أقدرُ بعدها على التحرك، أسقطُ على كرسيٍ متحركٍ شبيهٍ بكرسي الدكتور الذي يجره ضخم الجثةِ ويحمل الدكتور صدقي ودمائه بعيدًا. أسمعُ الجنرال يقول:

- أنتِ سخيفةٌ يا مريمة، والدكتور كان أسخف، لأنه يضع بصمة عينيهِ كشرط مرور إلى كل ملفاتهِ وحساباتهِ بدلا من بصمة الإصبع كما هو متبع.

يبتسم وسمرة تجر الكرسي، ويكمل:

- أنتِ ستشعرين بكل شيءٍ وستسمعين كل شيءٍ غير أن جسدكِ لن يقدر على المقاومة، شللٌ مؤقتٌ يا حمقاءُ فلا تنزعجي وتبكي مجددًا.

نخرجُ من القاعةِ الملكية، النادل ومدير القاعة ينحنيانِ للجنرالِ ويتمنيانِ له أن يكون قضي وقتًا ممتعًا في صحبتهم، نخرج إلى الساحةِ الخارجية. الطائرة الصغيرة بالخارجِ تحلق بالقربِ من ساحة الفندق، نتوجهُ إليها دون أدني قدرةٍ مني على الاعتراض.

يمتدُ بساطٌ بين الساحةِ وبين الطائرة، أُحْمَلُ عَبْرَه إلى مساحةٍ من الظلام المضاء بالأحمر الناري كأنها أجواءٌ شيطانية.

الظلال تلعبُ دورًا أصابني برعبٍ على رعبٍ. يغفو بداخلي شبحٌ قديمٌ من الخوفِ من الشلل، يجلسُ الجنرال وسط ظلالِ وجههِ الحمراء بجوارِ سمرة، التي تخلت عن المزيد من ملابسها وجلست عن يمينهِ أمامي.

لم أتخيل أن تتحول الأمور سريعًا إلى هذه الدرجة.

كُشفت الأقنعة بغلظةٍ وتغيرت الوجوه في لحظةٍ، فقدي لقدرتي على الحركة يُشعرني بخوفٍ يشلُّ تفكيري ويُعْجِّز قدرتي على الهدوء فأصابُ برعشةٍ مستمرةٍ لا اقدر على التحكم بها.

الجنرال وسمرة يتحدثان بصوتٍ غير خفيضٍ، يصلني على بُعد مترين تقريبًا هما ما يفصلاني عنهما، صوتهما يحملُ رنّة مختلفةً عما سمعتهُ من قبل، يضحكانِ بصوتٍ عالٍ.

أفكرُ في كل تدريباتي السابقة على يد أبي، لم يكن من بين تدريباته لي أن أتحرك تحت تأثير الشلل المؤقت.

تعلمتُ منهُ أن الحق لا يُهزم أبدًا، وأن تأخر انتصاره يأتي حين لا نخلص النية للهِ بقدرٍ كافٍ.

تذكرتُ مازن في هذه اللحظة ولقائهِ الأول بي، بدا لي أكثر رقةً من هذا الغول الجالس على بُعد مترين، مازن حاول أن يفرض سلطانهُ عليّ بطريقةٍ بدائيةٍ

وحيوانية، وحين لم يعرف قرر أن يلعب لعبة المصالح وقد كان هذا يتطلب موافقتي أولا.

يضحكُ مجددًا وأسمع صوت سمرة:

- حصيلتنا اليوم جيدة جدًا، أكثر من ثمانين بالمائة من ثروة صدقي صالح صاحب أسطورة الذهب الأمريكي، بالإضافةِ إلى ثروةٍ صغيرة عن مخططات الطوارق وخطط هجومهم وأسماء وأشكال قادتهم، سنحصل عليها حالا. هذا توفير لنصف نفقاتنا هناك، وضربةٌ أخرى لبايدن ومدرسته.

يتحول وجهُ الجنرالِ إلى الغضب الكاسح فيبدو وجههُ متغضن الملامح مرعبًا وكريهًا:

- ليست مدرستهُ يا سمرة، إنها مدرستنا وسنستعيدها قريبًا فقط نحصل على مساعداتهم في بناء اللؤلؤة في مستعمرة القمر وسيندمون ألف مرة على ما جعلونا نفعلهُ.

يهدأ الجنرال وهو يقول:

- لكن ظفرنا بمريمة هو أكبر مكسب للجنة.

تطلق سمرة ضحكة رقيعة عالية، ثم تميلُ عليهِ، يقول:

- ولا تقلقي. سأحاولُ أن أقنع اللجنة بمدى فائدتك لنا، وسنحاول أن نخفي أمر أسرتك ونسبك الضارب في العار.

الآن أفهم، وأفهمُ أكثر مدى سذاجتي وحمق طويتي التي لم تتوقع أو تعرف شرًا بهذه الدرجة. مازن اخبرني بقدرة الجنرال على قراءة عقلي واقتحامه دون إرادتي، وإن كان الهدف من وراء هذا هو كشف كل ما أعرفهُ عن (أزواد) وعن أساليب الإيموهاغ وقادتهم وأماكنهم وأدواتهم في القتال وكل شيءٍ فستكون النتائج كارثيةٍ، سيمحون البلاد في لحظة وسيقتحمون (عولام) وما عداها.

تتطرفُ مشاعرى بين الغضب اليائس وبين الرغبة العميقة في الانتقام، أحاولُ أن أرتب أي أحداثٍ في داخلي لأتوقع أسوأ ما يمكن أن يفعلهُ معي بعد أن ينتهي من عقلي وجسدي ؟

قامت سمرة تستعد للنزول، وسحبني ضخمٌ من ضخام الجثة الذين اشتراهم الدكتور صدقي فتحولوا – مع هذه الطائرة وسائقها – إلى حوزة الجنرال في البلد التي تبيع كل شيءٍ بالمال أو بالخوف.

محمولةً كجثةٍ هامدةٍ أتأرجحُ في الهواءِ حتى أسير على الأرضِ لأرى قصرًا مهيبًا تترامى أطرافهُ لأنحاءٍ لا يصل إليها بصري، استخدام الإضاءة التحتيةِ تحت جدران القصر تعطيهِ إيحاءً أسطوريًا كأنه قلعةً من قلاع الشياطين في العصور الوسطى.

أوضَع في سيارةٍ ضخمةٍ في حجم دبابةٍ مكشوفة السقف يسوقها الجنرال وحدهُ وقد اختفت سمرة.

نصلُ إلى مبنى القصر الضخم. الجنرال يضعُ يدًا في جيبهِ ويدًا يدخن بها الغليون ويدفعني أحد ضخام الجثث. بالداخلِ تُغلقُ الأبواب وتضاء الأنوار، يدفعني إلى غرفةٍ بها كرسي ضخم داخل حجرةٍ زجاجيةٍ تحتويهِ وتتصل به عشرات الأجهزة. يضعني ويفتح الغرفة الزجاجية، يفرد الكرسي حتى يتحول إلى سريرٍ مستويٍ يحملني بنظرةٍ جائعةٍ ويضعني عليهِ، يدندن بلحنٍ يبدو أنه عسكريٍ لما بهِ من حماسةٍ وقوة، حركاتهُ هادئةً ونظرةُ عينيهِ تشي بأنهُ يتلذذ بكل تفصيلةٍ يقوم بها، يقولُ لي وهو يمّدُ بعض الأجهزة ويربطها بيدي وجبهتي:

- أيهما تفضلين البدء بهِ، جسدكِ أم عقلكِ؟

ثم يضحكُ باستمتاعٍ، يحضرُ بعض السكاكين والسيوف والخناجر مختلفة الأحجام والأشكال، يمسكُ أحد الأدوات ويقربها من وجهي:

- سنبدأُ المرح بتشريح هذا الجسد الجميل حيًا.

ترتعشُ أطرافي، وهو يكمل:

- لكننا مضطرون أولاً أن نستخلص ما بعقلك حتى لا نكون بحاجةٍ له

لا أكادُ أصدقُ ما يقول، ظننتهُ يبحثُ عن اغتصابي، لا عن تشريحي حيّة، يخبط أحد السلاحين معًا فيصدر عنها شرر كهربي، يصدر صوت إليكتروني كأنه صوتُ آلةٍ يقول:

- التحذير الأول لوقف أعمال العنف.

يضحكُ وهو يقول:

- نسيت برنامج الأمن يعمل حتى الآن.

يقول بنبرةٍ هادئة يشع منها الخبث والاستمتاع:

- اوقف عمل البرنامج الأمني، كلمة السر: ماركيز دي ساد.

ثم وجهُ كلامه لي وهو يربط بعض الأجهزة بيدي:

- في الغالب لا أوقف البرنامج تمامًا هذا يجعل القصر عاريًا في الصحراء. لكني انتظرُ الكثير منكِ يا بدوية.

يبدو لي غريبًا، طفلا عابثًا لا تتفق صورتهُ مع شكله البشع الذي رأيتهُ عليهِ من قبل. دموعي بدأت في النزول وشعرتُ بها على وجنتيّ. لم أكن قادرةً على التحرك أو الابتعاد. يميلُ بوجههِ الكريه عليّ وبجانبهِ الأيمن ليراني جيدًا، يثبت خوذةً صغيرة الحجم غريبة الشكل فوق رأسي، أحاولُ أن أتملص منها وأبذل كل ما أستطيعُ من طاقةٍ فأشعرُ شعور المكبلةُ التي يجثم الكونُ فوق صدرها ولا تتحرك.

يتوجه إلى لوحة المفاتيح وهو يلقي نظرةً غريبةٍ ناحيتي ويتفحصني جيدًا.

فجأة تومض الغرفة بلونٍ أحمرٍ ينيرُ ويخفت سريعًا جدًا، فيهرعُ للخارجِ دون كلمة، أسمعُ صوتهُ في مكانٍ قريبٍ يتحدث:

- نضال، ماذا حدث ؟

يأتي صوتٍ من مكانٍ ما يقولُ بسرعةٍ وتوتر:

- التحالف الدولي لإقرار الأمن أصدر قرارًا بالتدخل في شأننا الداخلي منذ أقل من دقيقة.

أنظرُ حولي بحثًا عن أي مهرب:

- كيف لم يُعلمنا كيجن بهذا مسبقًا ؟

- الدكتور كيفن كيجن مختفي منذ عدة ساعات ولا يعرف أحد مكانهُ حتى زوجته.

تمرُ لحظة من الصمت، أفكرُ فيما يحدث؛ اتصال مفاجئ وطارئ للجنرال عن تدخل بالشأن الداخلي ؟ ألم يكن الشأن الداخلي متدخل فيه؟ وما هذا التحالف الدولي لإقرار الأمن ؟ كيف يتدخل ومصر أكبر مصدر لرجال وخدمات الأمن على مستوى العالم؟

يعود الصوت:

- حيثيات القرار تتحدث عن اختفاء مأمون عاكف واحتمالية مقتلهُ، واعتبار أن مقتل أكبر رجال الأمن وصاحب أمان أكبر دليل على تفشي حالة الإرهاب من ثوار القمر وعدم قدرتنا الداخلية على احتواء الموقف مما تطلب تدخلهم بالبحث والتحقيق وإقرار الأمن.

تمر فترة صمت أخرى، يبدو أن الجنرال يفكر، أحاولُ في هذه اللحظات أن أتحرك. أشعرُ بنقصٍ بسيطٍ في الثقل الجاثم على صدري، أديرُ عيني في المكان، يُكمل الصوت:

- هذا هو خطأ عاصم، كان يجب أن يُظهر الأمر على أنه انتحار بقذفهِ من الشرفة كما هي العادة القديمة.

أشعر بقدرتي على تحريك جفنيّ تدريجيًا:

- ألم تفهم بعدُ يا نضال ؟ الأمر ليس في مأمون عاكف ولا شركتهُ. يمكن ببساطه غض الطرف عن كل هذا كما يحدث دومًا.

عن يميني لوحة التحكم التي كان الجنرال على وشك تشغيلها:

- ما أفكرُ فيهِ يا نضال هو أن ثمة خطأٍ قمنا بهِ في تنفيذنا لمخططنا الخاص بالمدرسة العسكرية الدولية. لم يكونوا ليتدخلوا بهذه الطريقة لو لم يكن بيننا جاسوسٌ نقل لهم نيتنا في استرداد المدرسة بعد فترةٍ من حصولنا عما نريد.

أتفاءل كثيرًا وأنا أشعرُ بقدرتي النسبية على تحريك أصابعي. يبدو أن الشلل المؤقت في طريقهِ للزوال:

- لهذا هم يريدون الدخول لحماية مصالحهم وتوجيه ضربة لنا إذا لم يروقهم قرارٌ من قراراتنا.

تمر فترةُ صمتٍ طويل أخرى، ثم صوت الجنرال هادئًا :

- ادخل معنا الجنرال باسل ياسين.

يقول الصوت برهبة:

- الجنرال باسل في رحلتهِ الفضائية إلى المشترى، لقد ذهب منذ ثلاثة أيام.

أشعرُ بقدرتي على تحريك ذراعيّ، لكنها قدرة ضعيفة لم تكتمل:

الجنرال بصوتٍ هازئ:

- حسنٌ، سأحدثك بعد قليل.

أحاولُ الهدوء في مكاني، وتمثيل أنني غير قادرةٌ على التحرك تمامًا، إلا أن صوت رناتٌ متتالية غريبة تصل إلى مسمعي، ثم صوت الجنرال:

- باسل باشا، كيف حال المشترى؟

ينطلقُ صوتٌ ضحكةٍ عاليةٍ مجلجلةٍ طويلة غليظةٌ تحملُ بحّة رقةٍ غريبة، ثم صوت يماثل ضحكتهِ:

- عبود باشا، سحقًا للمشترى وللأكاذيب التي يدفعوننا لنقولها.

يقهقة الجنرال:

- تعرف أهمية أن يقتنع مواطنو القمر أننا نحضر الماس من المشترى.

- اللعنة على أدهم الجبلي، وكل صداعهِ عن المنطقة صفر.

صوتُ ضحك الجنرال:

- لولاه ما تحكّمنا في مواطني القمر أبدًا، علينا أن نعترف أنهُ أكثرنا عبقرية.

ثم استطرد سريعًا:

- أنت في بيتك أم في المستعمرة بأعلى؟

صوت الجنرال باسل الرقيق الغريب:

- بالبيت؛ جاءني نبأ فرانك لامبارد وقراره السخيف عبر الاتحاد الدولي فأجلّتُ الرحلة قليلا. ألا يتذكر هؤلاء الأغبياء من الذي أسس اتحادهم، ألا يذكرون أن الهدف من وجودهم هو حمايتنا وإزكاء شرعيتنا ؟

صوت الجنرال متنهدًا:

- ياه، لا زلت تذكر يا باسل. هذا منذ أكثر من ثلاثين عام. المهم، لا أريد إزعاج اللجنة بهذه التوافه، كنتُ أفكرُ في تأييد قرارهم والترحيب بهِ للحفاظ على صورتنا الدولية، ثم القضاء عليهم بالداخل وإثبات أنهم أيضًا لا يقدرون على السيطرة على إرهاب ثوار القمر.

أحرك جسدي كله الآن، لكني أشعرُ بإنهاكٍ شديد، وأنفاسي تتسارعُ كأنني على وشك فقدان الوعي، أسمع من بينِ هزالي صوت الجنرال باسل مقهقهًا:

- يا عبود، فكّر بشيءٍ آخر غير قضيبك.

يقهقه الجنرال:

- الحياة بهِ أكثر متعة.

يقول باسل بصوتٍ يعلو وينخفض إثارةً:

- منذُ أن ورد لي النبأُ وأنا أفكرُ في الفريق "أ" بالمدرسة العسكرية الدولية.

لحظات صمت.

أستجمعُ قوتي وأحاولُ النزول عن السرير لأقف منتصبة، بصعوبةٍ بالغة محاولةً السيطرة على شعور الارتخاء الذي يسيطر عليّ. صوت الجنرال باسل يستطرد:

- الأمر كله مرتبط بالـ"IMS"، ومجرد تطمينهم من هذه الناحية سيوقف سخفهم وتدخلهم.

يقول الجنرال:

- ما علاقة الفريق "أ" يا باسل ؟

صوتُ باسل يستطرد:

- سنسحب الفريق "أ" من المدرسة. تعرف أن أدهم الجبلي هو الذي أسس هذا الفريق كما أسس كل شيءٍ آخر. الفريق "أ" كما تعلم هو المدير الحقيقي للمدرسة والذي يشل يد بايدن عن الدخول في تفاصيل الإدارة وعمليات المدرسة وعملائها وحتى مخططات أبنيتها وفروعها بأنحاء العالم. ما سنفعلهُ هو أننا سنسحب الفريق ونجعلهُ يسلم بايدن كل شيء، وقتها سيطمئن بايدن والتحالف إلى أننا لا نضمر أي شرٍ من جهتنا تجاه إعادة الاستيلاء على إدارة المدرسة، التحالف الدولي كما تعرف يمثل أكثر الدول التي تبحث عن شراء أسهم المدرسة، وستتدخل أمريكا بتهدئة الاتحاد وإرجاعه عن فكرة نشر قواتهُ بمصر كما هي العادة، وغالبا سينسون القرار كأن لم يكن.

الجنرال مصدومًا:

- سحب الفريق "أ" وتسليمه أوراق المدرسة لبايدن مصيبة وكارثة في حد ذاتها.

يقول الجنرال باسل:

- يا عبود ألم تفهم بعد؟ سيزور الفريق "أ" كل الأوراق ويقدم نسخ منقوصة ومغلوطة لبايدن الذي سيحتاج لأكثر من ستة أشهر للتأكد من صحة الاوراق. وقتها سنكون قد حصلنا على المساعدات الأمريكية اللازمة لإنشاء لؤلؤة القمر، وحين يقول بايدن أن الأوراق ليست صحيحة سنقول بأن بايدن غير جدير بالإدارة وسنبدأ مجموعة من المماطلات في المحاكم الدولية وربما نعيد الفريق "أ" مرة أخرى.

يقول الجنرال:

-وإذا لم ينته بناء الؤلؤة؟

يأتي الرد:

- وقتها سنويخ الفريق "أ" وربما نعاقب بعض أفرادهُ معاقبات صورية، ونسلم لبايدن المزيد من الأوراق التالفة لنحظى بستة أشهر أخرى، أنت تعرف لعبة العصفورة يا جنرال أم إدارتك لملف إفريقيا بغلظتها وثرواتها أنستك دهاءك القديم؟

يقول الجنرال:

- لكننا في كل الأحوال سنؤكد تأييدنا لقرار التحالف، ونسكت لامبارد مديرهُ مؤقتًا.

- بالتأكيد.

أسيطر تقريبًا على جسدي كلهُ، وأتحكم في الإرهاق الذي يسيطرُ عليّ، تمرُّ لحظة صمتٍ طويلة، أحاولُ المشي في اتجاه مجموعة الأسلحة البيضاء التي يفصلني عنها باب الحجرة الزجاجي المفتوح.

صوتُ الرنات المتتالية يتردد من جديد، وصوت الجنرال غاضبًا:

- أخبرتك أنني سأتصلُ بك يا نضال، لماذا تتصل أنت باستمرار ؟

صوتُ نضال المتوتر يرد:

- التنظيم الطليعي يرفض إصدار أحكامه القضائية ضد تحالف قوى الثورة يا جنرال.

يهدر الجنرال:

- ماذا ؟

أتخطى الباب الزجاجي بصعوبةٍ وأمسكُ أحد السيوف الحادة وأنا أستندُ على المناضد وجدران الحجرة الزجاجية، والجنرال لا زال يهدر:

- أين الجنرال عادل السعيد ؟

قال الصوتُ بسرعةٍ وأنا أتحرك بهدوءٍ لأختبر كل قدراتي على الحركة:

- أخبرتهُ وأمر بتصفية قيادات التنظيم الطليعي وأمرني بأن أعلمك بالأمر.

أتوجه إلى الناحية التي يقفُ فيها الجنرال، أتوارى خلف الجدار وأنظرُ - من بين أنفاسي اللاهثة المتلاحقة – بتلصصٍ عليهِ فأراهُ يتحدث إلى شاشةٍ عريضة بمساحة الحائط تقريبًا تُظهر رجلاً في الأربعينات يجلسُ إلى مكتبٍ ضخمٍ ووراءه عشرات الشاشات التي تعرض صورًا مختلفةً من أماكن مختلفة.

يقول الجنرال:

- أعلن فورًا عن قبولنا قرار التحالف الدولي لإقرار الأمن دون شروط، واجعل قائد الفريق "أ" يتصل بي سريعًا.

تختفي صورة الرجل الأربعيني ومكتبهُ ويقف الجنرال لحظةً يفكرُ.

يتوترُ فجأة وينظرُ ناحية الساعةِ بقلقٍ. أقفُ عند زاويةٍ تصلُ بين مكانهِ والغرفة التي كنتُ بها أختبئُ وراء جدارٍ وأتابعهُ ممسكةً بسيفٍ حادٍ يلمعُ نصلهُ تحت الإضاءة الخافتة.

أظنُّ أنهُ اكتشف انتهاء أثر الشلل، وأكثر ما أخشاهُ أن يعيد تشغيل البرنامج الأمني مرةً أخرى.

أستجمع قواي بسرعةٍ، أراه يدور ناحية جدارٍ في الحائط، أقفزُ في لحظةٍ ناحيتهُ لأغرس السيف في رقبتهِ وهو على وشك الالتفاف ناحيتي فيتفاداهُ بحركةٍ بسيطةٍ للجنب.

يُطلق ضحكة عاليةٍ نحوي، وهو يلقي كرةً مطاطيةٍ بيضاء اللون نحوي، أضربها بالسيفِ فتصير قطعتين، يقولُ وهو يدور في دائرةٍ يحاول أن يقترب من شيءٍ ما:

- أنتِ غاضبةٌ كذلك ؟؟

أهجمُ عليهِ بضربةٍ قوية فيتفاداها بحرةٍ بسيطةٍ أخرى للوراء ويلقي في وجهي كرسيٍ. حركاتهُ خفيفةً لا تناسب عمرهُ ولا جسدهُ ولا عينهُ الواحدة.

يلتفُ سريعًا فيلتقط سلاحًا ما ويوجههُ ناحيتي أتراجع في سرعةٍ وأقفزُ في الغرفة التي كنتُ بها، ثمةُ فوهة لهبٍ انطلقت في إثري، كان يودُ حرقي بقاذفةِ اللهب.

ألتقط من بين مجموعة الأسلحةِ البيضاء سيفًا آخر، وأحشر في ملابسي مجموعة من الخناجر مختلفة الحجم.يأتي صوتهُ من الخارج وأنا أبحثُ عن أي مخرجٍ في هذه الغرفة:

- تودين اللعب بالسيوف؟ لنبدأ المرح إذن!

يتوقف صوتهُ، ويبدو الصمت مريبًا بما يكفي فأحاولُ الخروج من الغرفة بحثًا عن المكيددةِ التي يدبرها. أمدُّ سيفًا ناحية الباب لأخرج.

تأتيني الضربةُ على السيفِ شديدة القوةُ فيقعُ السيفُ من يدي، يقفُ الجنرالُ هازئا بسيفٍ غريب الشكل يضيء إضاءةً فسفورية، كأنهُ سيف تكنولوجي ربما يعمل ببطاقةٍ ما، يهجم الجنرال فأحاولُ أن أتفادي هجمتهُ التي تقطعُ شيئًا من ملابسي.

مبارزٌ جيدٌ جدًا، ورغم أني أبارزُ بالسيفِ منذ عمر الخامسة إلا أنه استطاع بسيفهِ بعد عدة دقائق أن يكسر سيفيّ الاثنين ويركلني بقدمهِ إلى ركنِ الساحة ويقفُ ليضحك ملء شدقيهِ.

أخرجُ خنجرًا من ملابسي سريعًا، وألقيهِ بكلِ ما أوتيت من قوةٍ نحوهُ فيخترق رقبتهِ.

تتبدى على ملامحهِ أقصى درجات الدهشةِ والذهول، يسقط بين دمائهِ وهو يمدُ ناحيتي أيادٍ أصابها الشلل.

ابتعدُ قليلاً واترك الخنجر معلقًا برقبتهِ وأقفُ لأرتعش. لا أكاد أصدقُ أنني خرجتُ من هذه النهايةِ المؤسفة التي كادت أن تكتب لي.

أنظرُ حولي فأجد مكتبةً غريبة الشكلِ تتراص فوقها العديد من الاسطوانات والأجهزة الغريبة.

يرن في الأرجاء هذه الرنات المتتالية التي تعبر عن اتصالٍ قادم.

أنظرُ ناحية المكتبة الغريبة، أحضر حقيبةً قريبةً أفرغ محتوياتها وأبدأ في تعبئة كل الاسطوانات الضوئية والأجهزة الغريبة.

أغلقها في عجالةٍ، وأركضُ ناحية الباب أسمعُ الصوتُ الإليكتروني يقول:

- انتهى الوقت النموذجي لإيقاف البرنامج، سيعود البرنامج خلال خمس دقائق للعمل، ٣٥٩، ٣٥٨، ٣٥٧ ،....

استمر العد التنازلي لعودة البرنامج وربما قتلي كذلك.

أركضُ مجنونة ناحية الخارج، مساحة القصرِ مهولةٌ. وجدتُ على مسافة قريبة السيارة الضخمة التي تشبه مدرعات الجيش التي جئنا بها،..

- ١٥٦، ١٥٥، ١٥٤،....

أركبها بسرعةٍ وألقي حمولتي داخلها وأنطلقُ بها ناحية البوابة الخارجية،..

- ٩٥، ٩٤، ٩٣ ،....

أسمع عن مقربةٍ مني صوت رنة تليفوني الذي أعطانيهِ مازن والذي ظل في السيارة، لا بد أنه هو من يتصل ...

- ١٠، ٩، ٨،....

أعبرُ البوابة وهي تتحركُ للإنغلاق.

بعد ثوانٍ قليلة من ابتعادي يدوى صوت سارينةً متصلةً في القصر، انكشف موت الجنرال، وسيبحثون عن القاتل في دقائق معدودة.

أتناول الهاتف الذي لا يتوقف عن الرن، لأجد مازن يصرخ في وجهي أنه يتصل مرارًا ولا أرد، كان تليفونه مهيأٌ على الاتصال بي بمجرد اكتشاف خلو المكان الذي أتواجد فيهِ من أجهزة المراقبة.

بادرتهُ قائلة:

- لقد قتلتُ الجنرال عبد العظيم.

بدا على ملامحه إمارات الذهول وعدم التصديق، فأكملتُ:

- كنتُ في قصرهِ، وأقود سيارتهُ الآن بحثًا عن مهرب. لقد سمعتُ صوتُ سارينة القصر تدوي منذ ثوانٍ.

ثم حكيتُ له باختصارٍ ما حدث، فوجدتهُ يصرخ في وجهي أن أترك سيارتهُ حالاً قبل أي شيء.

أخبرني أن شياطين العالم ستبدأ في البحث عني وأن عليّ أن أدعو الله كي يشق الأرض فأختفي تحت ترابها لأن هذا سيكون أفضلُ لي من أن أقع في أيديهم.

صوتهُ يحملُ توترًا كبيرًا، وشعرتُ بأنهُ يواجهُ مصاعب أخرى خاصةً بهِ. أخيرًا بعد أن هدأ أخبرني أن أذهب إلى العنوان الذي سيمنحنيهِ لأحصل على سكنٍ جديد، قال إن السيد سليمان صاحب، لن يخبر أحدًا إن عرف أنهم يبحثون عني لأن بينهُ وبين رجال الأمنِ ثأرٌ قديم.

وبقيت المشكلة: أن أذهب إلى هذا المكان سالمةً، وقطعةً واحدة.

أبدأُ في الركضِ على قدميّ بعيدًا بعد أن تركتُ السيارة تسيرُ مبرمجةً إلى اتجاهٍ مجهول، أحملُ مشاعرًا متناقضةً، وتحدثني نفسي بالقصاص.. القصاص من بغاةِ الأرضِ وطغاتها، من يظنون أنفسهم فوق البشر وفوق الإنسانيةِ ليحددوا مصائرهم بهذه الطريقةِ الحقيرةِ البشعة.

تحول التوتر والخوف والغضب في داخلي إلى قوةٍ هائلةٍ تدفعني للركض. ومازن لا يزالُ معي يوجهني بصوتهِ، يروقني هذا الجهاز الصغير الذي يحدد مكاني، ويكشف أجهزة التصنت ويرسل تقريرا بها، وسيظهر تسجيلات سمرة أيضًا بعد أن تركتُ برقبتها جهاز التجسس، لا أعرف أي خبايا أخرى يحملها.

ثمةُ سؤالٍ يطيحُ برأسي منذ رأيت هذه الأرض وناسها، إذا كانوا وصلوا إلى هذه الدرجة من العلم والتكنولوجيا والتقدم، لِمَ يتركون أنفسهم بين كل الرغبات البدائية والحيوانية ؟

أواصل الطريق مشيًا بكنوزي التي جئتُ بها من مكتب الجنرال، لم أكن أحملُ ثقةً في أحدٍ، والوقتُ يتخطى منتصف الليل بكثيرٍ وليس ثمة بشرٍ في الطرقات.

بعد عدة ساعاتٍ من الركضِ والمشي والوقوف، صَفَت نفسي كثيرًا، بدأت لحظات التأمل والحزن وأنا أحثُ الخطى في الطرقاتِ الهادئة وأحمل معي الحقيبة التي لا أعرفُ ما سأفعلهُ بها تحديدًا.

وصلتُ إلى السيد سليمان؛ رجلٌ في منتصف الخمسينات تقريبًا أصلع الرأس لكن ملامحهُ تحملُ هدوءًا كبيرًا وعيناهُ بها درجةٌ من الذكاء المشع لا يمكن تجاهلها، العنوان الذي اعطانيهِ مازن عبارة عن فندق كبير يعمل بهِ الرجل وحيدًا ويمنح خدماتهُ بمساعدة آلات إليكترونية يقوم فقط على ضبطها وتشغيلها.

منحني غرفةً جميلة وأخذ نصف ما منحتنيهِ سمرة من أجرٍ خلال الفترة القصيرة التي عملتُ بها معها. ثم وعدني أن يمنحني الأمان الذي لا تستطيع أن تقدمهُ هرقل نفسها، لمحتُ شعار هرقل أعلى رأسهُ في مكتب الاستقبال الخاص بهِ لكنّي لم اهتم كثيرًا بما يقول.

الآن أنا في حاجةٍ عميقةٍ للانفصال عن هذا العالم والهرروب منهُ دون رجعة.

* * *

مازن!

(٢)

جاءتني رسالةٌ على هاتفي تؤكدُ أن مريمة نجحت أخيرًا في تثبيت جهاز SPY ١ في رقبة سمرة.

كنتُ في هذه الأثناء في جامعة القدس أسألُ عن الدكتور داود عزت، أستاذ القانون الدولي.

علمتُ أن الرجل توفى!

بالأحرى تم اغتيالهُ قبل أسبوعين في وسط حرم الجامعة!!

جامعة القُدس لازالت تعاني اضطهادًا من الحكومة برغم تأييدها الرسمي، رئيس الجامعة أصوليٌّ من أصولٍ عربيةٍ قديمة، وقد حاولت الحكومة مرارًا أن تغيرهُ لكن ردة الفعل من الأساتذة والطلبة تعكر صفو الصورة الرائقة للبلاد المستقرة.

رحب بي الدكتور فوّاز، رئيس الجامعة، حين علم أنني أنتمي للجبهة المعارضة للحكم في مصر، وأكد لي أنه يدعو الله أن يطيل عمره حتى يرى عودة الدول العربية متآخيةً كما كانت في السابق دولةً واحدة.

حاولتُ أن أكتم ضحكي، وجاريتهُ فيما يقول حتى أكسب وده. ورحتُ أسأله بين الكلمات عن الدكتور داود.

يقول الدكتور فواز:على أن لكلِ جوادٍ كبوة، فكبوة الدكتور داود كانت ضخمةً بحجم وصيت الرجل، وبدأت مع بداية تعاملهُ مع النظام المصري في عقد الانقلابات (وعرفتُ أنه يقصد الفترة من ٢٠١٠ وحتى ٢٠٢٠) والذي بدأ

بسببهِ سلسلة من الملاحقات الأمنية للرجل، انتهت بلجوئهِ السياسي إلى قُدسليم – الدولة المتحدة الجديدة في هذا الوقت والتي تسعى لإثبات الموضوعية وعدم التحيّز- وحماية الحكومة له، بعدها هدأ الرجل تمامًا، ثم دعتهُ إدارة الجامعة للعمل ضمن فريق تدريسها للإستفادة من خبراتهِ، ولتوافق مواقفه السياسية مع إدارة الجامعة.

ثم علمتُ أن للرجل حفيدةٌ غاضبة تسعى للانتقام من قتلتهِ.

سألتهُ السؤال الذي تأخر كثيرًا، لماذا قُتل الرجل، ومن قتلهُ ؟

قال أن الرجل كان على وشك الموت وقد قارب المائة من عمره، لكن الغباء لا دين له: قُتل كي لا يفضح أسرارًا قديمة لا يعلمها سواه على الأرجح، وقَتَلَهُ من يريد إخفاء الحقائق.

قلتُ أخيرًا:

- إذن يمكنني الاستعانة بحفيدتهِ في القضيةِ التي كنتُ أتمنى أن يرشدني الدكتور إلى حلها ؟

أكد لي أن هذا سيكون أفضل اختيارٍ بعد الدكتور داود:

- الدكتورة ليورة هي أفضل تلميذاتهِ ومساعدتهُ الشخصية على مدى أعوامٍ طويلة.

شكرتهُ بعد أن حصلت منهُ عنوان الدكتورة وهاتفها. وقررتُ أن أحصل على سكنٍ مؤقتٍ في (أبوديس) بالقرب من جامعة القدس حيثُ تعمل.

راقبتها عدة أيامٍ حتى عرفتُ أين تقضي أوقاتها، وماذا تعمل، وما هي إهتماماتها، ثم قررتُ أن أبدأ بالتعرفِ عليها.

اخترتُ أن أقابلها في مطعمٍ اعتادته، ارتديتُ بدلةً سوداء أنيقةٍ ووقفتُ أتابعها من بعيدٍ وهي تتناول طعامها في صمتٍ. حين انتهت توجهتُ إليها فرفعت إليّ عينين زرقاوين واسعتين مندهشتين، مددتُ يدي إليها وأنا أوقول:

- دكتورة ليورة، آسفٌ جدًا لفقدكِ جدكِ العزيز البروفيسور داود.

خفتت حدة الدهشة في عينيها وطفا حزنٌ خافتٌ وهي تمد يدها لمصافحتى، ثم تدعوني للجلوس.

- أنت أحد تلاميذ البروفيسور؟

- كنتُ أتمنى أن أكون كذلك، وأحظى بشرفِ التعلم منهُ.

هزّت رأسها متفهمةً، وانتظرت مني أن أوضح لها الأمر دون أن تسأل. لرقيها تأثير عميقٌ:

- لقد سمحتُ لنفسى أن آخذ بياناتك من الدكتور فواز بحجة أنني أحتاجكِ في قضية دولية، لكن الحقيقة غير ذلك.

بدأ الفضول يصعد إلى عينيها.

قلتُ مباشرةً لها إنني أبحثُ عن الثأر من قتلة الجنرال أدهم الجبلي، كما تغضب هي لمقتل جدها في سنهِ الكبير هذه، قلتُ لها إنني أثقُ في أن قتلة الاثنينِ هم نفس الجهة التي لا تريد للحقيقةِ أن تطفو على السطح لأنها ستغرقهم.

قلتُ لها إنني أبحثُ عن الحقيقة فقط، وإنني لن أسمح لأن يخدعني أحد دون رغبتي، أو أن يأسر قطعة من عقلي بأكاذيبهُ وإفكه.

استمعت إليّ ثم سألتني عن الوسيلة التي سأنفذ بها انتقامي، قلتُ لها إن ثمة خطوةٍ أولى قبل الانتقام، هي أن نعرف ما يحدث حولنا.

كانت صامتةٍ ككهفٍ للأسرارِ لا يفتحُ إلا بكلمة سرٍ محددة، وقد احتجتُ عدة أيامٍ ولقاءاتٍ معها قبل أن أعرف هذه الكلمة، وهي ككلِ امرأةٍ غير متزوجة، أو تحمل تجاربًا سيئة: الأمان.

حزنها على جدها الذي مثّل لها بحرًا من العلم والخبرة، وحقيبةً من الذكريات، وحصنًا مليئًا حتى الثمالة بالحبِ، كان يمنعها من مواجهة الحقيقة المفجعة؛ إنه لم يعد موجودًا، وأن الأمان الذي مثلهُ لها قد انتهى بأكثر الأساليب قسوةً.

كنتُ في حاجةٍ لزلزالٍ قويٍ أؤكد لها بهِ أنني في ذاتِ صفها، وقد وجدتُ هذا الزلزال في ما ساعدتني بهِ مريمة حين ثبتت الـ SPY في رقبة سمرة، وبدأت تتوالى لديّ لقاءاتها.

لقاءها مع الجنرال عبد العظيم، ولقاءاتها المتعددة مع القيادات العليا في مصر، والتي تتعامل بأسلوبٍ يقترب كثيرًا من الطريقة التي توفي بها الدكتور عزت، تُقدم لها أدواتًا جيّدة يمكن استخدامها في حربها ضد الجنرالات.

عند هذا الحد، انفتح كهف الأسرار، وقد كان ما بهِ صادمًا وعجيبًا!!

* * *

تقول ليورة:

في أواخر ٢٠١٣ حضر إلى مكتب البروفيسور في جامعة جورج تاون بواشنطن مندوب من المجلس العسكري آنذاك – قبل أن يتحول إلى اللجنة الحاكمة - يطلب منهُ أن يتولى الدفاع عن رجالٍ بالشرطة، والمجلس والمنظومتين القضائية والإعلامية، في مجموعة من القضايا والملاحقات الجنائية الدولية التي تطولهم بسبب التستر على المجازر التي حدثت في مناطق بشمال القاهرة، وشمال الجيزة والإسكندرية، وأنحاء أخرى بالبلاد.

كان للبروفيسور شركة محاماة عملاقة، وكان لهُ صيتًا دوليًا ومثّل الولايات المتحدة في عدة قضايا، وإن كان دائم الاهتمام بشئون الشرق الأوسط، درس جدي القضايا جيدًا قبل أن يقدم اقتراحه الأكثر ذكاءً والذي بدأ سلسلةٍ من الأحداث غير المتوقعة انتهت بقتلهُ مؤخرًا.

لا أعرف ما الذي دعاهُ آنذاك بقبول مساعدة المصريين، ولا كيف أقنعهُ مندوب المجلس العسكري بقضيتهم، هل فعل ذلك للمكسب المادي فقط،

وهو ما لا أتوقعه. هل فعل ذلك لأنه اقتنع بقضيتهم؟ لا أعرف، ولم يتحدث الدكتور في هذا برغم سؤالي المتكرر الذي كان يرد عليهِ بالصمتِ والحزن.

كان الاقتراح أن يتم إحداث حالة من التفاعل الدولي حول قضية الإرهاب التي كانت مصر تدّعي محاربتها في هذا الوقت بكل القتل والتدمير والاعتقالات الذي كانت تمارسه، نصل من خلال حالة التفاعل هذه نوعٍ من التوافق بين الرؤية التي تتبناها المنظمات الحقوقية والدول القائدة على مستوى العالم وبين الرؤية التي تقدمها مصر وجنرالاتها عن مشاكل الإرهاب في مصر والعالم وعن وجوب السعي من أجل إنهاءه، والحصول على التأييد الدولي المناسب للنجاح في هذه المهمة.

وقد قدم البروفيسور عدة خطوات للوصول إلى هذه الحالة، التي إذا ما حدثت، ستغير الرؤية العالمية تجاه ما يحدث في مصر، وتؤثر على رأي المحكمة الدولية.

الخطوة الأولى التي اقترحها جدي هي إعلان تيار الإسلام السياسي تيارًا إرهابيًا – عبر حكمٍ قضائيّ- يسعى لإحداث الانشقاق في الصفَّ الوطني بدعاويهِ الساعية إلى إفقاد الشعب الثقة في جيشهِ وقادتهِ، بالإضافة إلى الدعاوي الانفصالية عن المجتمع الدولي التي يدعو لها والتي تصب في مصالحهِ الشخصية فقط.

الخطوة الثانية في الاقتراح كانت إنشاء (التحالف الدولي لإقرار الأمن) وهو تحالف مكوّن من عدة دول – في غالبها دول ديكتاتورية – ويضم مِصر، بالإضافة إلى بعض المنظمات الحقوقية والإعلامية ذات الصيت الدولي؛ يقوم هذا التحالف بمكافحة الإرهاب من خلال إقرار عقوبات دولية على التيارات الانفصالية الإرهابية مثل الإسلام السياسي تحديدًا.

الخطوة الثالثة: إنشاء ما يُسمى بـ (التنظيم الطليعي) وهو تنظيم شبه سري داخل المؤسسة القضائية يهدف إلى إزكاء القضية باستمرار لتغطية أي أحداثِ عنفٍ يمكن أن تقوم بها الدولة من أجل إقرار سلطانها في البلاد، ويتم

ذلك من خلال الأحكام القضائية التي تدين الجهات المطلوب إدانتها لتحريك (التحالف الدولي لإقرار الأمن) ضدها، وبالتالي تحريك المجتمع الدولي بدوره.

النتيجة هي خلق حالة من التوافق الدولي وغطاءًا مناسبًا للتحرك في إهابهِ، وجعل الأمر يتساوى بما حدث في سوريا، والعراق، وأفغانستان، وغيرهم.

هنا تتحول القضية المرفوعة ضد العسكر والقضاء والإعلاميين من قضية تستر وقتل ضد الإنسانية، إلى قضية دفاع عن الإنسانية وتُصبغ بصبغةٍ سياسيةٍ وكأنها شأنٌ داخليّ، ويكون كل قاضٍ أو محكّم دولي في حالة حرجٍ شديد وهو ينظر القضية.

الأمر ذاتهُ قامت بهِ أمريكا في أوائل الألفية الثالثة حين دبرت أحداث سبتمبر لتشن حربًا ضد الإسلام السياسي الذي بدأت شوكتهُ تكبر آنذاك. واستطاعت الآلة الإعلامية الجبارة أن تحولهُ إلى أسوأ شيءٍ حدث في تاريخ البشر.

وصل تقرير البروفيسور إلى الجنرالات في أواخر ٢٠١٣، إلا أنهم اتخذوا أول خطوةٍ فقط، بعدها توالت الأحداث لديهم وفشلوا في استكمال المخطط، واضطروا إلى إعلان الانتخابات الرئاسية وصعد إلى رئاسة البلاد أحد قادة المجلس العسكري، والذي لم يحظى بحضورٍ واحترامٍ دولي؛ واشتهر بألقابٍ مشينة.

رئاستهُ لم تستمر كثيرًا، ثم ثار الشارع من جديد، وشهدت هذه الأيام أكثر حملات القتل والاغتصاب والتعذيب في تاريخ البشر الذي أعرفه، كانت عمليات التعذيب تتم أمام أعين أهالي المعذب، فإذا رفض أحد من الأهالي ما يحدث؛ جيء بهِ ليُفعل فيهِ أكثر مما يفعل بالمعذَّبِ نفسهُ.

اغتصاب الفتيات يتم أمام أعين أهاليها، ويتم إجراء الختان لهم على الملأ وفي الشوارع، ويتم إطفاء أعقاب السجائر في فروجهم بعد اغتصابهن، دون أن يعترض أحدٌ، أو يقدر على الرفض.

انتشرت هذه الحملات بطول البلاد وعرضها، وكانت المؤسسات الإعلامية العالمية تنقل ما يحدث وتدينهُ بعنفٍ، وكانت الجنرالات ترد بأن هذا شأنٌ داخليّ وأن من حق الحكومة أن تواجه الإرهاب بالطريقةِ التي تريدها.

الأمر كان يفوق قدرة البشر على الخيال، أحدثت هذه الحوادث شرخًا عميقًا في التكوين النفسي للنسيج المصري. وقد بدا أن الهدف من وراء هذا هو تلقين الشعب درسًا لا ينساهُ كي يكف عن الاحتجاج والرفض.

لم يستطع المجتمع الدولي أن يظل على صمتهِ طوال هذه الفترة. هنا جاء دور التقرير الذي أرسلهُ جدي قبل خمسة أعوامٍ للظهور من جديد.

لكنهم طبقوهُ بطريقةٍ مختلفة تناسب أهوائهم وميولهم التدميرية، إذ لم يعد مجديًا أن ينشئوا (التحالف الدولي لإقرار الأمن) دون تنفيذ عملية (تصدير الإرهاب) التي تفتق عن فكرتها ذهن مفكرهم الأكبر أدهم الجبلي.

كان على الجنرالات أن يقنعوا العالم أن ما يحدث في مصر هو تحالف إرهابي بين بقايا الإسلام السياسي، وبين الطابور الخامس الذي ينفذ أجندات إرهابية في البلاد وأنه سوف يمتد ليشمل العالم كله.

حاولوا أن إقناع العالم بهذا بعد أن قاموا بعدة عمليات تفجيرية وإرهابية صغيرة في مجموعة من بلدان العالم مثل إسرائيل، وأمريكا، وفرنسا، وبريطانيا. وأعلنت أن الجماعة السلفية الإسلامية أنها المسئولة عن هذه العمليات.

أحدث الأمر تأثيرًا قويًا لكن ليس إلى الدرجة المطلوبة، فكان عليهم أن يقوموا بلفت الأنظار بطريقةٍ أكثر درامية.

أُعلن عن نشوء خلافٍ بين حركة حماس في فلسطين آنذاك، وبين التنظيم الدولي للإرهاب –كا كانوا يطلقوا عليه -بزعامة قادة الإسلام السياسي، وبدأ بعدها بتنفيذ مجموعة من العمليات الإرهابية في إسرائيل – آنذاك – وفي مصر كذلك، وكان من ضمن هذه العمليات، عملية جامعة نيفي التي راح ضحيتها أكثر من ألف إسرائيلي بخلاف المصابين والجرحى.

هنا تحرك المجتمع الدولي بعنفٍ وقوةٍ غير متوقعة، وتم إنشاء (التحالف الدولي لإقرار الأمن) وكون الجنرالات (التنظيم الطليعي) من رجال القضاء، وبدأ مخطط البروفيسور الذي اقتراحه قبل عدة أعوام في العمل، وجنى نتائجه.

لم يستطع جدي أن يتحمل نتاج كل هذه الدماء التي فاقت تصوراتهُ، والتي نقلتها وسائل الإعلام لتصير حيةً ملموسة كأقرب ما يكون.

ما قدمهُ من قبل هو تلاعب قانوني، ومحاولة لخداع الرأي العام العالمي، ولم يتوقع أن يتسبب في كل هذه الدماء والموتى الذي نقل الإعلام العالمي قصصهن فكان لها وقعٌ أكبر من أي شيء، تعب نفسيًا وشعر بالحمل الثقيل ينوء بكاهلهِ، فقرر كشف الأمر وتبريء ذمتهُ أمام العالم وأمام نفسه.

حكي جدي الحقيقة الكاملة بالمستندات والتقارير في أحدى الصحف العالمية، وتم استضافتهُ في كثيرٍ من البرامج الحوارية في أكبر الشبكات الإعلامية انتشارًا وهو ما أغضب الجنرالات وقرروا أن يعاقبوه، فصار أبي مطاردًا منذ ذلك الحين.

أصدر (التحالف الدولي لإقرار الأمن) عدة قراراتٍ تأديبيةٍ – كما هو مطلوبٌ منهُ - ضد حركة حماس فبدأت حملات الاعتقال الدولية تنال قادتهم على مستوى العالم، وبدأ نشر قوات حفظ الأمن – اليد العسكرية للتحالف – بطول فلسطين وعرضها، حتى خفتت حدة الحركة وكادت تنتهي.

بعدها تم تغيير الحكومة الفلسطينية، وأتت حكومة أخرى أكثر خنوعًا.

في تلك الأثناء تقدم اليهود باقتراح إلى مجلس الأمن بتحويل الدولتين المتحاربتين (فلسطين وإسرائيل) إلى دولة واحدة متحابة، ومتآخيةٍ تعيش بالمبادئ الديمقراطية.

وافقت فلسطين التي صارت حكومتها هشّة بما يكفي، وظهرت للوجود - تحت رعايةٍ دولية - الدولة الجديدة (قُدسليم) وهو اسمٌ مركبٌ مشتركٌ، أصر عليهِ

اليهود لما لهُ من وقعٍ ساذج ومضحك حتى يستطيعوا القيام بتغييرهِ حين تحين أقرب فرصةٍ لذلك، وهو ما يحدث الآن.

بالتأكيد ابتلعت أحدى الدولتين الأخرى لما لها من قوةٍ، وقدرةٍ إعلامية على نشر ثقافتها وسلوكياتها.

استمرت أحداث ثورة التصحيح مدة عامين، وإن خفتت حدتها كثيرًا، لكن الوضع الاقتصادي صار أكثر سوءًا بكثيرٍ، اختفت السلع من الأسواق، وبدأت مظاهرات الجياع تجوب أنحاء البلاد تقتل وتخرب في كل مكانٍ، وتهاجم كل المخازن التي تظن بوجود أي غذاء بها.

من جديد ظهرت اليدُ القمعيةُ للجنرالات لكن في ثوبٍ جديدٍ هذه المرة. في شكل برنامج (القنّاص) وهو برنامج جوائز أول ما ظهر، كان لتعليم كيفية استخدام أدوات القنص من أجل أن تنظف البلاد مما فيها من خونةٍ وعملاء ومخربين يجوبونها.

تذهب للبرنامج، وتبدأ في الاشتراك في قنص المخربين وقتلهم، والذي يخلص الدولة أكثر من أعدائها يأخذ جائزة أكبر تتمثل في كوبونات لصرف حصص غذائية، وكلما اشتركت في البرنامج أكثر، كلما حصلت على كوبوناتٍ أكثر.

بدأت تنتشر في الشوارع فرق الإعدام مكونة من أفراد الشعب يقومون بقنص أفرادًا آخرين، ويفعلون ذات الأفعال التي فعلها الجنرالات في الشعب قبل عامين مضيا.

القتل والاغتصاب، والتعذيب، وإخراج كل مخزونات العنف التي وصلوا إليها بعد ما يقرب من عقدٍ يختزنون فيهِ ما يرونهُ من قتلٍ وتدمير.

حين مر عام الجوع هذا، استمر البرنامج في تقديم حلقاتهُ بدافعٍ آخر: هو استمرار القضاء على الخونة من المنتمين للتيار الإسلامي، أو الطابور الخامس، وقد بدا وكأن هذا البرنامج كنزٌ ذهبيٌّ يقدم الجنرالات من خلالهِ أنفسهم ومؤسستهم بثوبٍ جديدٍ يأسر الأجيال الجديدة.

بدأ في موسمهِ الثاني بدروسٍ تعليمية لمعني الوطنية، والواجب الوطني للمواطن الشريف، وسمات الخونة والعملاء. كنتُ أتابعهُ وأنا صغيرة وأضحكُ مع جدي كثيرًا لما بهِ من سذاجةٍ وحمق، ولم أتخيل قتها أن هناك من يقتنع بهذا الكلام ويتابعهُ بشغفٍ، ثم ينزل إلى الشارع لتنفيذ ما جاء به.

أما جدي فقد بدأ مرحلة من الصدامات مع الجنرالات لم تنته إلا بسكوتهِ التام، ولجوئهِ إلى الدولة الجديدة هنا في قدسليم، والتي رحبت بهِ لتؤكد عدم تحيزها، وقدرتها على نشر الأمن بها.

* * *

وجمتُ لفترةٍ من الزمنِ بعد أن انتهت ليورة من حكيها. قدمت لي الرؤية البانوراميةٍ فشعرتها كصفعةٍ هائلةٍ في حياتي:

-وأنت كنت مجرد ناتجٍ آخر لكل ما فعلهُ الجنرالات.

نظرتُ لها، ولمقولتها التي تلخص حقائق كثيرة وشعرتُ بمرارةٍ تطفو إلى صدري.

مرّت أمامي أحداثُ حياتي من جديد: لقد صرتُ قناصًا قويًا لأن الجنرالات دفعت الشعب ليكون كذلك، وليتقاتل من أجل مصلحتهم الشخصية.

كنتُ مجرد فريسة حمقاء سقطت في شركهم الأعظم " برنامج القنّاص" الذي أعترف أنهُ غيّرني، وبالتأكيد غير نسيج الشعب بأكملهِ. كيف يمكن لبرنامجٍ تليفزيونيّ أن يفعل كل هذا ؟

تركتها في هذا اليوم دون نقاشٍ ودون وعدٍ بلقاءٍ آخر. كنتُ أهربُ لإخفاء دموع القهرِ التي كادت أن تزهق كرامتي.

لم يغضبني شيءٌ أكثر من كوني كنتُ أجاهدُ كي لا أكون فريسةً ولا عبدًا لشيءٍ، ثم اكتشفتُ في النهاية أن كل محاولاتي وجهادي جعلتني أمعن في السقوط في الشرك الأكبر الذي سعى لتوجيه فصيلاً من الشعبِ كي يُقصي ويصارع الفصيل الآخر ويقوم عنهُ بدورهِ في تلقيم أظافر الشعب.

وتبدت لي صورةُ أبى وآراؤه – كابوسي الأعظم – يقولُ لي أن ألزم البيت ولا أخرج، وأن أدع العالم يستعر في الخارج في سقر.

" لا شأن لنا بهم يا بنيّ، نحنُ لن نستطيع مجابهتهم، وآخرنا أن نكون عبيد إرادتهم ".

أكسِّر الأشياءَ غضبًا ويأسًا في السكنِ الجديد. أصارعُ الجدران والأبواب؛ لأطرد صوتهُ الذي يلاحقني كالموت.

أحاولُ أن أجلسُ في شرفة الشقةِ هادئًا بحثًا عن خلاص.

أفكرُ كيف يمكنني رد كل هذا ؟

بعد فترةٍ؛ رن هاتفي برسالةٍ من مريمة؛ تذكرني فيها ببحثها المضني عن الدكتور على البريمي ابن قبيلتها.

نظرتُ ناحية الأفق أفكرُ فيما تفعلهُ هذه الطوارقية التي ظننتها أقل درجةٍ من مستوى البشر، فأثبتت لي أنها أعلى وأكثر شموخًا.

رددتُ عليها بمكانهِ، وكنتُ عرفتهُ منذ فترة. ساءلتُ نفسي كثيرًا عن السبب الحقيقي لما تفعلهُ، فلم أفهمهُ تمامًا. أعرفُ أنها تمثل كل ما هو ليس أبي، وكل ما هو ليس أنا، وجودٌ مختلفٌ يمثل شيئًا أكبر من كل ما أحاولُ أن أكونهُ.

ثمة سموّ بشري –أو حمق- يسمح لك بأكثرِ من احترامِ عدوك؛ البحث عن طريقة للتواصل معهُ، بحثًا عن حل.

لم أنم حتى اليوم التالي، وذهبتُ رأسًا إلى ليورة أسألها عن خطتها التي ستقومُ بها للانتقام من قتلة جدها.

لا ريب أنها نظرت في عينيّ فعرفت حجم ما أعانيهِ من صراعٍ. جلست في مكتبها فأخبرتني ببساطةٍ أنها ستكمل ما سعى جدها لفعلهُ بمشاركة الجنرال أدهم.

سقط في يدي، لقد كان هدفي الأساسي من زيارة ليورة هو معرفة ما كانا يخطط له الرجلين.

قالت حين سألتها عما ستفعل:

- تكوين جبهةً دولية من أجل كشف الفساد المستشري في التنظيمات الدولية، وفي مصر تحديدًا.

- وكيف ستفعلي هذا وحدكِ؟

- لم أعد وحدي الآن!!

قالت أن جدها هو الذي نظم مراسم استقدام العفريت، ولهذا فهو وحدهُ القادر على صرفهِ.

هو أعدّ الخُطة كاملةً، وبقى تنفيذها، هي لديها كل العلاقات والتشبيكات المطلوبة للبدء في التنفيذ.

سألتها عن هذه الخطة فقالت إن الحقيقة حين تظهر على الملأ تتغير موازين القوى، وتتكشف أمورٌ أخرى.

اعتمادها سيكون على كشف الحقائق للشعوب وليس لحكومات الدول التي تعرف كل شيءٍ وعقدت اتفاقاتها الخاصّة التي نالت من خلالها ما تريد.

قالت ليورة إن نتيجة للعقوبات التي أقرّها (التحالف الدولي لإقرار الأمن) على بعض التيارات السياسية، وإعلانه الرسمي بأن أحداث العنف المختلفة التي طالت أرجاء العالم هي مجرد أعمال إرهابية للتنظيم الدولي للإرهاب، هي أرباحٌ خيالية لجنرالات مصر، بسبب توحش شركات الأمن – التي نشأت بعد عام الجوع في ٢٠٢٠ –وبدأت تصدِّر خدماتها الأمنية لكل أنحاء العالم.

قالت أن الصورة الدولية الآن تختلف تمامًا عن هذه الصورة التي سادت العالم قبل ثلاثين عام.

كل ما حدث لم يؤدي إلى اندحار الإسلام السياسي على مستوى العالم، بل أدى إلى ازدهاره.

رغبة الشعوب المتقدمة لمعرفة الحقيقة، جعلها تبدأ في القراءة عن الإسلام، وحين قرءوا عنه، دخل الكثيرون فيهِ، وبدأوا يكوّنوا جبهات إسلاميةٍ مختلفة.

هي تعتقد أن كشف كل هذا للشعوب المختلفة يمكن أن يحدث أثرًا ما، وستعمل باتصالاتها وعلاقاتها على توسيع هذا التأثير حتى يطول كل شيء، وقد أنهت عمليات التشبيك بين بعض الجهات والمنظمات الدولية التي تسعى لأن تجد لها مساحةً في الساحة العالمية، ولسوف يفيدها كثيرًا ما تسعى ليورة لفعله.

تحاول كذلك أن تربط عملها بالجهات والمنظمات الإسلامية التي تُعلى من قيم الحرية والكرامة، وتحارب أشكال القمع المختلفة.

التهديدات تأتيها من كل صوبٍ منذ فترةٍ طويلةٍ وهي تأخذ حذرها قدر ما يمكنها.

بعدما انتهت من كلامها المسترسل؛ حاولتُ أن أزن هذه الأمور وأقدر مدى نجاح مثل هذه التحركات التي يبدؤها فردٌ وحيد.

بالرغمِ منّي تذكرت الدرزي حمزة أبو تميم، وكلامهُ الهستيري المتخبط.

تبدو لي أنها تقتربُ من هذا، وحاولتُ جاهدًا أن أنفض الفكرة عن رأسي. لم أستطع أبدًا تقبل فكرة أن فردًا واحدًا يمكنه أن يفعل كل شيءٍ، أو يبدأ شيئًا له هذا التأثير العالمي غير المسبوق.

أشعرُ دومًا أنه لا بد من نظامٍ متكامل كي يبدأ أي شيءٍ وينجح فيه. غير أني كنتُ أحاولُ الوثوق في ليورة وفي علاقاتها، وقد بدا أنها تفهم ما تعمل.

شعرتُ بالشفقةِ على الدرزي العجوز، ونظرتُ ناحية ليورة شاردًا لا أعرف إن كان من المفترض أن أشعر بالشفقةِ عليها أم على نفسي!!

سألتني عما أفكرُ فيهِ، فقلتُ لها أن من الأسهل إحداث ثورة داخل الشعب المصري نفسهُ بدلاً من تحريك الشعوب كلها.

سألتني:

- أتظن أن هذا الشعب قادر على الثورة الآن؟

- لا أظن أن أي شعوبٍ قادرة على إحداث تغيير من أي نوع.

قالت بملامحٍ عميقةِ الأسف:

- تظن هذا لأنك مصريّ. في بلادك؛ قام العسكر بتدجين الشعب إلى قطاعاتٍ وفرقٍ وتركوهم عقودًا طويلةٍ في أماكنهم حتى نشأ نوعٌ من الحميمية بين كل قطاع وبيئتهِ، إن خرج منها فهو إما يحوّل بيئتهِ الجديدة إلى صورةٍ مهترئةٍ من بيئته القديمة، أو يجاهد حتى يعود لبيئتهِ التي ترعرع فيها. لقد قتلوا الثورة في نفوسهم قبل أن توجد، وخلقوا رفضًا تلقائيًا ضد أي تغييرٍ يمكن أن يحدث.

دقّت أجراسَ التنبيه لديها. نظرتْ في الشاشة التي تعرض ما يحدث بالخارجِ بجوار مكتبها، فبدا كأن ثمة اقتحامٌ جديد تتعرض له الجامعة.

تذكرتُ كلام الدكتور فواز - مدير الجامعة- عن المواقف الانفصالية، المختلفة للجامعة سياسيًا برغم تأييدها الرسمي للحكومة.

هبت ليورة واقفة وقالت بسرعة ،إننا يجب أن نختفي.

قلتُ لها :

- إنهم بالتأكيد جاءوا من أجلك والأفضل أن تهربي سريعًا بينما أقوم بتغطية هروبكِ.

خرجَتْ سريعًا من الباب الآخر، وتوارت بين دهاليز الجامعة الكثيرة بينما أغلقتُ البابينِ جيدًا.

انفجر الباب وظهر وراءه قوات الأمن تسحبني من يدي بعنفٍ.

لم أقاومُ وإن حاولتُ مرارًا أن أوضح أني لا أنتمي للجامعة أو مواقفها السياسية، لكن الأيدي الغليظة لم تستمع لما أقولُ.

وُضِعتُ في سيارةٍ مجهزةٍ بالأصفاد، سرعان ما كبّلوني وهوت ضربةٌ عنيفةٌ على رأسي من الخلف، سرعان ما تلتها عدة ضرباتٍ أخرى، حتى غامت الدنيا أمامي.

* * *

الضرباتُ الشديدةُ على الباب تنبؤني بأهميةِ القادم.

نعيشُ في بيت العائلة، أربعة أسرٍ في بيتٍ من طابقينِ وشقتينِ، وعدد لا نهائيّ من الأطفال، أحبهم إليّ هو ابن عمي "عُمر" الذي كان مختفيًا وكنتُ أبحثُ عنهُ آنذاك.

عمري أربعة أعوامٍ تقريبًا..!

هبطتُ السلالم سريعًا متوقعًا أن القادم هو "عمر".

فتحت الباب تحت وابل الطرقات الكثيف لأجد مجموعة من الأطفال التي تكبرني بثلاثة أعوامٍ أو أكثر قليلاً، يقودهم "روبي" ابن أكبر بلطجية المنطقة الذي لا يستطيع أن يقف أمامهُ أحد.

هاجمني الأطفالُ دون أن أفهم السبب، نالتني ضرباتهم من كل جانبٍ وأنا أحاولُ أن أدفعهم عنّي وأصرخُ طلبًا للمساعدة دون مجيبٍ.

حين سقطتُ وأصبتُ بعدة جروحٍ في وجهي، رفع "روبي" يدهُ معلنًا انتهاء حفلة الضرب، خرج جميعُ الأطفال من الباب، وقال وهو يشير بيدهِ ليتبعوه:

- على البيت الثاني يا رجالة.

تابعتهم بدهشةٍ طفوليةٍ غير واعية، هرولتُ إلى السطح أبحثُ عن أبي فلم أجدهُ، كان أقاربي جميعهم يجلسون بينهم من يلعب من الأطفال، أو يتكلم من الكبار، لا علم لهم بما حدث لي منذ دقائق قليلة، حاولت أن أحكي لأحدٍ، لكن أحد لم يستمع لي أو يسألني عما بي.

هرولتُ بحثًا عن أبي أشكو له ما حدث، كان يقرأ في غرفتهِ منعزلاً، جئتهُ باكيًا فرفع رأسهُ عما يقرؤهُ وسألني عن سبب جروح وجهي. حكيتُ له ما حدث، ففزع من جلستهِ وبدأ الصراخ في وجهي، هوت قبضاتهِ على جسدي تضربني، ويعنفني لأنني فتحتُ الباب.

"لماذا فتحت الباب دون أن تخبرني، لماذا فتحت الباب؟".

الضرباتُ تزدادُ ضجيجًا فوق رأسي، حتى أكادُ أن أنفصل عن الوجود.

مشكلتهُ الرئيسة أنني فتحتُ الباب، وليس أي شيءٍ آخر، انتشلتني الأيدي من بين يديهِ الغاضبتين. لمحتُ في عينيهِ النظرات المهووسة غير المصدقة، ذات نظرات الدرزي وملامحهُ.

علمتُ أن الطفل كان يقوم بفرد زعامتهِ على الأطفال بالضرب متبعًا نصيحةَ أبيهِ؛ كي يتولى مكانتهُ في المنطقة. أبوهُ كان شبه الحاكم الفعلي للمنطقة بسبب علاقتهُ مع رجال الأمن. وكونهُ رجلهم الذي يسيطر على المكان.

خرجتُ من هذا اليوم بشرخٍ في روحي، وكراهية لكل الكتب ولكل من يقرأ. خرجتُ من هذا اليوم برغبةٍ عارمةٍ في الانتقام، وشعورٌ بالتعري وبفقد السند والظهر، كأنني ورقةٌ في الفراغ تطالها أيدي كل عابر سبيل.

خرجتُ في هذا اليوم بفزعٍ من كل طَرقاتٍ عنيفةٍ على الأبواب، وبغضبٍ يملأ أعماقي، وأعجزُ عن السيطرة عليهِ.

"لماذا فتحت الباب دون أن تخبرني، لماذا فتحت الباب؟".

على أنني حين استجمعتُ نفسي بعد عشرة سنوات؛ جعلتُ "روبي" هو أول ضحاياي.

****

طرقاتٌ عنيفةٌ على الباب، وصداعٌ يكادُ أن يشج رأسي نصفين.

تنبهتُ لما حولي، فوجدتني ملقىً بإهمالٍ على أرضيةٍ صلبةٍ رطبةٍ، حجرةٌ ضيقةٌ عديمة التهوية، وثمة حفرةٌ في أقصى أركانها، باب معدنيّ يمثل الطرق فوقهُ بقضيبٍ معدنيٍّ أقصى درجات الضجيج والتعذيب العصبيّ.

جلستُ وركنتُ ظهري على الحائط واستجمعتُ شتاتي.

هذه غرفة سجينٍ في معتقل.

أعرفُ هذا التصميم جيدًا، وعشتهُ كثيرًا في تدريباتي بالمدرسة.

قمتُ أحاولُ معالجة قفل الباب لكن صاعقة كهربيةٍ أصابتني وألقتني للوراء بعنفٍ حتى اصطدمتُ بالحائط المقابل.

الباب يسري بهِ تيارٌ كهربي.

عدتُ للجلوس والانتظار، لا بد أن ثمة أحدٍ سيستدعيني للتحقيق معي، أو لاتهامي بأي شيءٍ، أو حتى لتعذيبي ودفعي للاعتراف بأي شيء، لكن الساعات مرت تلو الساعات دون أي تغييرٍ، ودون أي حادثةٍ.

أعرفُ هذه الطقوس جيدًا، وقد حكى لنا الجنرالُ أدهم عنها كثيرًا أثناء تدريباتهُ العبقرية لنا.

السجون نوعان، سجنٌ يستخدم التكنولوجيا بإحكامٍ ليضبط النظام، ويمارس بالإضافة لذلك نوعًا من القهر النفسي، ليشعر السجين بضآلتهِ أمام التكوين المهيب لتكنولوجيا السجن وحراستهُ ونظامهُ، وسجنٌ بدائيٌّ يترك السجين في فراغٍ فريسةً لنفسهِ وللوقت، وهذا هو أكثر السجون قسوةً ودفعًا للجنون.

ضحكتُ مع ضحكة الجنرال التي تذكرتها حين قال بسخريةٍ إن مصر لا تستخدم أي من هذين النوعين، مصر لم يعد فيها سجونٌ.

ما الداعي لأن أجمّع العملاء والخونة لأضعهم في مكانٍ أكلفهُ بأفرادٍ للحراسة، وطعامٍ، وتنظيمٍ ؟ هذه نفقات لا داعي لها، بالتأكيد لستُ في مِصرَ.

مرّت ساعاتٌ أخرى دون أي أحداث.

فكّرتُ في أن أشغل وقتي ببعض التمرينات الرياضية. بدأتُ في إحداها حين لاحظتُ حركة خفيفةً بالباب الذي ارتفع جزءًا منه لتنطلق مياهٌ عبره تغرق أرضية السجنِ، تراجعتُ للوراء ثم رفعتُ قدميّ إلى الجدارين المتقاربينِ بمسافةٍ تقل عن المترين لأرفع جسدي كلهُ معتمدًا على قدميّ المرتكزتان على الحائطين ويداي المتعلقتانِ بهِ.

سرت شرارةٌ كهربية في المياه لفترةٍ طويلة، وتصاعد الهيدروجين. تكفي شعلة واحدة من النار لتنفجر الزنزانةُ تمامًا.

بعد فترةٍ توقف التيارُ الكهربائي عن المياه التي عادت تتسلل للخارجِ مرةً أخرى.

عدتُ إلى الأرض وقد فهمتُ الرسالة. لا محاولات لتمضية الوقت.

بالإضافة لمعرفتي لشيءٍ آخر؛ ثمة من يراقبني هنا.

مرت ساعاتٌ أخرى.

لا زلتُ أملكُ من الحيل ما يبعد بيني وبين ما يحاولون إيصالي له. أخذتُ أسترجع مجموعةً من الذكريات المحببة إلى نفسي، وأضع أمامي مسائل فكريّة معقدةً أحب التفكير فيها.

وقبل أن أنتهى من هذا، وبعد ساعاتٍ عديدةٍ نمتُ خلالها مرّات كثيرًا، فُتح الباب.

هرولتُ للخارج فوجدتُ ساحةً مغلقةً أخرى لكنها أكبر بكثيرٍ وتضمُّ بعض السجناء الآخرين.

علمتُ أن أكثرهم مثلي، تم اصطياده إلى هنا مباشرةً وهم قضوا فترات أطول بكثيرٍ، على أنهم لم يعرفوا حتى الآن جرائمهم، ولا السبب الذي اعتُقِلوا من أجله، كثيرٌ منهم فقد عقلهُ بالفعل، وبدا البعضُ الآخر على وشك الانسحاب تدريجيًا من هذا العالم.

أكد بعضهم أن هذا هو سجنُ "عسقلان" الذي أنشئ قديمًا أيام الانتداب البريطاني، ثم تم تكريسه فيما بعد من أجل تهذيب أظافر المقاومة الفلسطينية، فكان يحوى أقسى عمليات التعذيب التي أقامها بشر.

البعض الآخر أكد أنه معتقل "كتسيعوت" الإسرائيلي الذي أنشئ قبل سبعين عامٍ، ويقع في وسط صحراء النقب جنوب بئر سبع.

لم يعنني اسم السجنِ كثيرًا، لأني قررتُ - بالتأكيد- أن أهرب منهُ، وهو أمرٌ لم أكن أعلم حتى الآن كيف سيمكنني تنفيذهُ؟

* * *

مريمة

(٣)

يقولُ مازن:

(لا تقلقي؛ ستدورُ النظراتُ في حلقاتٍ متصلةٍ تتبعُ كل شيءٍ، سيبدي البعض تجاهله وهو يتابعُكِ من طرفٍ خفيّ فاتبعيهِ من طرفٍ ماكر، وحين ينقضُ ارفعي سيفكِ لاستقبالهِ؛ وكوّني رايتكِ البشرية علامةً للنصر....

(لا تأمني أحدًا، سيفتحُ لكِ ذراعيهِ، ويفرد كفيهِ معلنًا تأييدهُ وتأمينهُ التام لكِ، سيقدمُ ضماناتٍ عدّة، ويقسم ألف قسمٍ بأشياءٍ لا يعيها كي تمنحيهِ الأمان؛ ثم ينقضُّ مع أول خطوةٍ تخطينها نحوه....

(فلتعرفي ما حولكِ وقسِ موازين القوةِ والسلطة، فسيفردُ لكِ أرضًا مغايرةً، ويسمي الأشياء بغير مسمياتها، سيعصبُ عيناكِ بابتسامةٍ ووعود، ويمنحكِ غلالةً من ذهب تلفينها كهديةٍ حول عنقكِ؛ فتمنحكِ الخلاص الأخير....

(لا تسمعي لما يقولُ، سيخبركِ بعكس ما يريد، لتفعلي ما يريد، فاتبعى حدسكِ....

(لا تلعبي دور الشهيد؛ لن يضمن لكِ أحدٌ شيئًا، لن يتذكركِ أحد أكثر من لحظةٍ يضحكِ فيها مع موتكِ، ثم يرحلُ شاعرًا بالرضا بعد أن صرتِ جلسةِ تنقيةٍ مجانية....

(وكمبدأٍ عام فإن أول المتوددين هو أكثر الناس شرًا واستغلالا).

* * *

يقولُ مازن:

(تلك وصاياي لكِ، فهل تستطيعين معها صبرًا ؟)

* * *

قضيتُ عدة أيامٍ غارقة في أحلامي الخاصة، تطوف بأرجاء الغرفة الصغيرة المطلة على شارعٍ واسعٍ كبير أطيافُ رفيقاتي في (أغاديس) حيثُ قضيتُ بعضًا من مراهقتي، ضحكاتهنِ وحكيهن المهووس بالجنّ والسحرِ يطوفُ حول رأسي كأنهن يحدثنني على بُعدِ أمتارٍ لا على بُعد الأميال والسنين.

كنَّ يمثلنَّ لي الحياة البريئة التي لم ألفها قبلهن ولا بعدهن، لم يكن أبي قد توفي بعد، تعوّد أن يرسلني إلى الجدة في (أغاديس) لأقضي عندها أيامًا ممتعة، وحين توفى رحلتُ إلى (عولام) كي أشارك في حمايتها.

قضيتُ عدة أيامٍ ساكنةً في فندق السيد سليمان غريب الأطوار. أنظرُ من النافذةِ المطلةِ على الشارعِ الواسعِ فأكادُ أرى (المغارة) التي يسكنها الشيخُ الحورانيّ، وأسمعُ صوتُ (خولة) تهتفُّ بنا كلما مر الشيخ بالقرب من حيينا أن احترسوا من العفاريت.

(خولة) خشيت كثيرًا الشيخ الحوراني الذي يسكن مع الجنّ في المغارةِ. تنظر ناحيتهُ بشيءٍ من الحزنِ والأمل. تتمنى لو أن يمنحها الشيخُ وصفةً –عن طريق الجنِّ- كي تصير أذكى امرأةً في التاريخ، ربما في ذكاء (تينهينان) ذاتها، لكنها تخشى الجنَّ وتخشى أن يُعجب بها أحدهم.

المغارةُ هي الاسم الذي نطلقهُ على الكوخ الكبير الذي يسكنهُ الشيخ بجوار جبال (آير)، نسمع الحكايات الغريبةِ عن الجن الذين يسكنون الكوخ معه ويتخذونهُ خادمًا لهم ينفذ رغباتهم وأوامرهم.

يقولون إن الكوخ لا سقف لهُ، لأن جدران الكوخ مجرد هيكل خارجي فقط للصرح الكبير الذي يصل إلى السحاب دون أن يراهُ أحد وتسكنهُ الجنّ.

الوحيد الذي يراهُ هو الشيخ الحورانيّ، الوحيد الذي يجلسُ في المساء خارج الكوخ تتعلقُ عيناهُ بالسماءِ فوقه كأنهِ يطّلعُ على الصرحِ ويتابع ما تفعله العفاريت، ثم في الصباح يأخذ ناقتهُ ويحملُ فوقها الأكياسُ الهائلة لفضلات الجن، يلقيها في المكان المعتاد لتمر عليها بعد ذلك عربة البلدية تأخذها مع ما تأخذه من القمامةِ وتمر في سلام.

بعدها يحثُّ الشيخُ الخطى بناقتهِ نحو مركز (أغاديس)، يجتمع بأمنوكال المدينة وبالرجالِ والنساء الكبيرة. لتخرج بعدها قراراتهم.

كانت (سكينةُ) تقول وهي حزينةٌ كلما شاهدنا حدثًا مماثلا:

- لا وجود للجن، إن الشيخ مجنون فقط.

وتقولُ (خديجة) بسذاجة:

- الجنُّ موجودٌ في القرآن، مثلما نوجد نحنُ.

فترد (خولة) وهي تخفضُ صوتها:

- إنهم يعيشون معنا، على الأقل يجب أن نحترم رغباتهم.

لكني كنتُ أعرفُ أن الأمر يتجاوز الحكم. إنهم يستلهمون القرارات منهم، ويقرءونهم السلام.

و الجدة – التي ضربت الخرافاتُ عقلها - تقولُ في أدبٍ وهي تحكي عنهم:

- الجن في مدينتنا مسلمون، وليسوا عصاة لله كالشياطين.

على أن الحكاية تصير أجمل كلما تحدثنا عنها في الظهيرةِ، تصيرُ الشمسُ في وسط السماء. تكشفُ كل البساط الأصفر الذي يمتد حتى الأفق، بينما تبدو المغارة صغيرةً جدًا كنقطةٍ لا تُرى تحت سفح (آير).

في وحدتي هنا أكادُ أستشعر لهيب الصحراءِ وشمسُها الغاضبة، وأستشعرُ الهواء الساخن الذي يطوفُ برقبتي كلما سرنا بين الجمال التي تأتي قوافلها من الشمالِ حاملةً الكثير من الخيرات.

نبتعدُ بحكينا عن (المغارةِ) حينًا، نلحظها في الأفق ونتجاهلها، ثم نحكي عنها كحدثٍ أسطوريّ غير موجود، نسمعُ بعض الكبار يستنكرون الأمر والبعض الآخر يحكون عنه كحدثٍ طبيعيٍّ موجودٌ منذ الخليقة ولا تستقيم الحياةَ بدونهِ.

أكادُ أسمعُ في حجرتي الآن صوتُ (خولة) على بُعد السنواتِ الطويلة تنشد الشعر أمامي بطفوليةٍ وحركاتٍ راقصة كما يرقص الكون في عينيها.

تسألني بعد أن تنتهي في لهفةٍ عن رأيي، متسعة العينينِ تتلاحقُ أنفاسها، في انتظار الحكم الرهيب الذي سأقضي بهِ، أقومُ فأحتضنها، وأقول لها أنها وشعرها أجمل شيءٍ في الوجود.

تبعدني عنها بعتابٍ وتسألني أن أكف عن قول رأيي فيها، فهي تسأل عن رأيها في القصيدةِ وحدها، في النهاية يجب أن أجلس معها وأفصص لها أبياتها، وأخبرها عن كل مقطعٍ راقني ولم يروقني. وحين ننتهي، تصمتُ بعينينِ متسعتين، وأنفاسٍ متلاحقةٍ تفكرُ فيما قُلتُ. بعد دقيقةٍ واحدة، تعود لسؤالي مجددًا عن رأيي في قصيدتها، ثم ترفعُ إصبعها في وجهي وتحلفني أن أقول رأيي –هذه المرة– بصدقٍ أكبر.

لكم ضحكتُ مع (خولة)، ولكم قضيتُ أعوامًا قاسية كنتُ للموتِ فيها أقربُ؛ بعد أن أتاني نبأُ موتها في (جوثاي) على يد المرتزقة الذين يغتصبون المناجم.

لم تعد الحياة كما كانت، وكان عليّ أن أعيش بشرخٍ في كياني لا يبرأ؛ رغم أنني لم أرد العيش بعدها.

تتملكني رغبةً في الثأرِ لها من كل المرتزقةِ الذين ينصبون أنفسهم أنصاف آلهةٍ فيقتلون ويذبحون كما يشاءون.

نظرتُ ناحية الشارع الواسع، الصروح التي تكاد أن تشق السحاب، والأنوار الملونةِ المضيئة التي تعلنُ عن أشياءٍ كثيرة.

تساءلتُ في نفسي أيُّ صرحٍ من تلك الصروح يسكنهُ الجن ويحكمون هذه الأرض من خلالهِ ؟ وهل جنُّ هذه المدينة مسلمًا، أم كلهم شياطين مثل سكانها؟

وكان ما رأيتهُ في هذه الأرض حتى الآن، ينبئوني بالإجابة !

* * *

الدكتور على البريمي يعمل أستاذًا للتاريخ الحديث في جامعة الإسكندرية.

تعجبتُ يوم علمتُ هذا من مازن في رسالةٍ مقتضبةٍ، كيف يصيرُ رجلا مثلهُ بأصولهِ الأمازيغية في منصبٍ هامٍ كهذا.

رجلٌ فارع الطولِ، بشرتهُ تميلُ إلى السمرةِ، وشعرهُ تكثر بهِ الشعيرات البيضاء. التقى بي في مكتبهُ بترحيبٍ حذر، وحين عرف بأصولي اكتست وجههُ فرحةٌ غريبةٌ واشتياقٌ لم يستطع كتمانهُ.

الدكتور على أحد من وُلدوا في مصر لكنهم ظلوا يحملون شوقًا غير عاديٍ لأصولنا. أبوه كان يأخذهُ كل فترةٍ لرحلاتٍ لنا، فيمكث عدة شهورٍ كل سنة، حتى انقطعت أخبارهُ تمامًا حينما اقترب من الثلاثين. أغلبُ الظن أن السبب كان جهاز الجاساك الذي أنشئ آنذاك.

أخذ يحكي عن أيامهِ تلك حين لم يفهم بعد حجم الجهاز الذي سيطر في وقتٍ قليلٍ على أنظمة المواصلات والاتصالات. أصدر القوانين دون رجوعٍ لأحد، حدد الدول التي يمكن للعامة التعامل معها والسفر إليها، ثم قطع الاتصالات والمواصلات الجوية عن باقي الدول.

حكيتُ لهُ عن سفري بعد محاولات اقتحام (عولام)، ومساعدة أحد المقاتلين لي كي آتي إلى هنا. بدا لي مهتمًا كثيرًا بما أقول.

لم أعرف إلى أي مدىً بقى انتماءه لأرضهِ الأصليةِ في وجدانهِ، فضلتُ أن أنتظر قليلاً قبل أن أخبره بما حدث معي منذ جئتُ، على أنني أخبرتهُ بملاحقة الأمن

لي، وصعوبة خروجي وتحركي في الشوارع، فلم يسأل عن السبب، وكأن ملاحقة الأمن هي شيءٌ عادي لا يستأهل السؤال.

دعاني للعشاء في بيتهِ مع زوجتهِ، وعرض أن يمر عليّ بسيارتهِ، فقبلتُ.

في المساءِ جاء، سألني وهو يقود سيارتهُ بوجهٍ متجهم عن الفترة التي قضيتها في هذا الفندق.

سألني عن مورد الدخل الذي أنفق منهُ لأدفع أجر هذه الغرفة. قلتُ لهُ أنني قضيتُ وقتًا لدى صديقة للمقاتل الذي أتى بي هنا، لكنها باعتني للأمن فاضطررتُ لأن أقضي فيه عدة أيامٍ مختبئة قبل أن أصل لك.

شعرتُ أنهُ بدورهِ لا يثق في كلامي.

حين وصلنا، استقبلتنا زوجتهُ استقبالا فاترًا، ثم اختفت بعد ذلك وتركتني أتناول العشاء معه، يبدو أن الحزن كان يطفو فوق ملامحي لأنه سألني أكثر من مرةٍ أن أفضي إليهِ بما في داخلي لكنني كنتُ أضحك وأصمت، تحدث كثيرًا عن ذكرياتهِ في (أزواغ)، وعن والدهِ، ورفاقهِ الذين لم يعد يعرف عنهم شيئًا.

لمحتُ على وجههِ علامات الحزنِ والغضب، ولاحظتُ محاولاتهِ العنيفة لعدم إظهار ذلك وسط ابتساماتهِ ولا مبالاتهِ، قال لي في النهاية:

- يمكنني أن أجد لكِ عملاً هنا لو أردتي.

- أتمنى هذا، غير أني لا أعرفُ كيف سيتركني رجالُ الأمن أعملُ في سلام.

- لا يوجد أحدٌ هنا يعملُ في سلام.

ثم صمت لحظةٍ يفكر وقال:

- وإن تجاوزنا رجال الأمن، أي وظيفةٍ تفضلينها ؟

- الوظيفة الأكثر سلامةً بالتأكيد.

فكّر لدقائقٍ أخرى، ثم قام ومدَّ يدهُ لي يدعوني للنهوض. قمنا وسرنا في الفيلا الكبيرة ذات التنسيق الجميل، طرق أحد الأبواب وانتظر لحظات ثم دخل ودخلتُ وراءه.

وقفنا داخل الحجرة الواسعة شبة الفارغة ثم ضغط بيدهِ جانب الجدار فانفرج عن فراغٍ داخلهُ يحملُ جهازًا ضخمًا، تحرك الجهاز ليتوسط المسافة بيننا، ثم دعاني الدكتور للوقوف أمام شاشتهِ.

سألتهُ وأنا أقف أن يشرح لي ما هذا، قال وهو يضغط عدة أزرارٍ على اللوحةِ الهولوجرامية:

- جهاز الـMedical Recovery أو الـMR كما يطلقون عليهِ في ألمانيا.

-وماذا سيفعل ؟

- لا شيء، عملية تجميل بسيطة وسريعة تتغير فيها ملامحكِ، وقرنيةُ عينيكِ، ليمنحكِ هوية جديدة.

قال إن الجهاز هو واحدةٌ من خمسة أجهزة في العالم، وهو يمثل أحدث ما وصل إليهِ الطب الحديث. ما سيفعلهُ هو معجزةٌ صغيرة.

لم أشعر سوى بأشعةٍ تمسح وجهي وعيني مع آلامٍ بسيطةٍ تنتشرُ على سطح جلدي. بعد أقل من عشرة دقائق وقفتُ أمام المرآة ولم أعرفني، قال د. علي:

- الـMR قام بحفظ بياناتك الأصليةِ عليه، لتعودي إلى صورتكِ الطبيعية متى شئتِ.

عيناي صارتا أكثر اتساعًا، وأنفي أكثر دقة، وشفاهي أكثر امتلاءً، جبهتي ضاقت قليلاً، والمسافاتُ بين ملامح الوجهِ اختلفت كثيرًا.

في داخلي قلقٌ عارمٌ، وقلبي ينبض بعنفٍ، أقولُ له إن كان فعل بي شيئًا سيئًا، فأقسم بصدقٍ أنه لم يفعل.

* * *

سيقدمُ ضماناتٍ عدّة، ويقسم ألف قسمٍ بأشياءٍ لا يعيها كي تمنحيهِ الأمان؛ ثم ينقضُّ مع أول خطوةٍ تخطينها نحوه.

* * *

لم أعرف أيهما أصدقُ ؟

تراجعتُ باكيةً، لكنهُ نظر بإشفاقٍ لي وتجاهلني.

خرجنا من الغرفة، فوجدتهُ يتوجه مرةً أخرى إلى ذات المكان الذي كنا نجلسُ فيهِ، قال بعد أن جلستُ:

- لم أعرفُ أنكِ مرتبطةً بملامحكِ وشكلكِ لهذه الدرجة.

لم أفهم ما يقول بالضبط، وحاولتُ أن أتمالك نفسي وهو يكمل:

- يمكنني أن أعيد لكِ شكلكِ مرةً أخرى يا مريمة، الآن، أو الوقت الذي تحدديهِ بنفسكِ.

سألتهُ:

- أنت لم تزرع جهازًا للتصنت داخلي، أو أورثتني مرضًا ما، أليس كذلك؟

ضحك بلطفٍ ضحكة خفيفة وقال:

- المسألة مسألة ثقة إذن.

ثم أكمل:

- لا تقلقي يا ابنتي، أنا على مشارف الموت، ولن أفعل في آخر أيامي ما يغضب الله مني.

ثم سألني لماذا لم أسألهُ عن الوظيفة التي اختارها لي، لم أرد، قال:

- هل تعرفين الـGolden Tower ؟

هززتُ رأسي أن لا، فقال بابتسامةٍ أنه يعرف مدير المطعم الذي يضمهُ الجولدن تاور، ويمكن أن أعمل نادلةً فيهِ:

- هل يناسبكِ هذا ؟

تذكرتُ أيامي مع سمرة حينما كانت تلفُّ جميع الفنادق والمطاعم من أجل عملها، وتذكرتُ العاملين بالمطاعم وهم ذوو أخلاقٍ رائعة كما شاهدتُ منهم.

هززتُ رأسي موافقةً:

- لكن هل هذا سيمنحني عائدًا كافيًا حتى أدفع أجرة الفندق الذي أعيش فيهِ؟

فبدت على ملامحهِ الدهشة وسألني:

- أتريدين الاستمرار في هذا الفندق.

- أهناك بديلٌ آخر؟

قال وكأنهُ يوضح أمرًا مفهومًا ولا جدال فيهِ:

- هذه الوظائف لا تعطي مقابلاً بالنقود.

بدت الدهشةُ على ملامحي:

- لماذا سأعمل إذن ؟

صمت قليلاً، وبدا صوتُ أنفاسهِ عاليًا:

- أي عملٍ كنتِ تعملينهُ مع هذه المرأة صديقة صديقكِ.

صمتتُ بدوري وأنا مترددةٌ بين أن أخبرهُ بالحقيقة، أو لا، ثم قررتث أخيرًا أن أكون حذرةً قدر إمكاني:

- كانت أعمال حرة لتقديم خدمات خاصة لمن يطلبها.

فكّر لدقائق ثم قال:

- سأكونُ ممتنًا لو كنتِ أكثر إيضاحًا. لا يوجد مصريّ يعمل في مصر دون أن يكون متصلاً بالأمن إلا عمال الفنادق والمصانع والخدم الخاص. باقي الأعمال بالكامل متصلة مباشرةً بالجاساك، وهي إما مقاتل في شركة أمن، أو سيدات العلاقات العامّة والإستشاريين، أو معلمين وإعلاميين، باختصار لا توجد وظائف أخرى يعمل بها المصريون غير هذا.

ثم سكت دقيقة أخرى:

- ما اسم هذه السيدة ؟

قلتُ بصوتٍ خفيض:

- سمرة.

بدت الدهشة عارمة على ملامحهِ، ثم اشتعل وجههُ بالغضب. صرخ وقد تحول تمامًا لشخصٍ آخر:

- سمرة الراسي ؟ كنتِ تعملين مع سمرة الراسي ؟

يجزُّ على أسنانهِ في ثورةٍ عارمة، ويهب واقفًا. يتركني فجأة.

بدا لي ردة فعلهِ غريبة جدًا. عاد بعد دقائق واعتذر:

- سامحيني، فإن لي ذكرياتٌ سيئةٌ معها.

ثم ألحّ في السؤال عما شاهدتهُ معها وعرفتهُ. فسردتُ له أقل القليل مما أعرفهُ عنها وعن علاقاتها مع الجنرالات. هدأ قليلاً وقد تأكد أنني صادقةٌ.

عدتُ لأسألهُ:

- اسمح لي أن أسألك من جديد، أي عملٍ هذا الذي لا يعطي أجرًا ؟

- لم أقل أنه لا يعطي أجرًا، قلتُ أنه لا يعطي نقودًا.

أوضح لي أن هذه هي الأعمال الوحيدة المسموح بها للمصريين، قلتُ لهُ أنني لستُ مصرية، ولدي هويةٌ ليبية فقال:

- واضحٌ أنكِ لم تختلطِ بالمجتمع بعد، وأنكِ عشتِ في برجٍ عاجيّ بعيدًا عن الناس، الحياة في مصر تغيرت كثيرًا خلال العقود الأخيرة. فتح السوق المصري لجميع المستثمرين الأجانب دون شروطٍ منح البلاد انتعاشةً مفاجئةً خاصة بعد أعوام الجوع التي بدأت في ٢٠٢٠، وكان يمكن أن تستمر إلى الآن لولا ما حدث.

طلبتُ منهُ أن يوضح لي أكثر، فسألني بصوتٍ خفيضٍ إن كنتُ أريده أن يخبرني الحقيقة، أم يخبرني التاريخ الرسمي الذي يدرسهُ في الجامعة؟

ثم لمّا تلقى الجواب من ملامحي بدأ في السرد بصوتٍ خفيضٍ لأن أجهزة التجسس والمراقبة يمكن أن تلتقط الألفاظ المحرّمة التي يمكن ان تفلت منهُ دون قصد.

قال:

- لا زلتُ أذكر هذه الأيام أثناء عام ٢٠٢٠ تحدث وتتكرر كل يومٍ كأنها على بعد دقائق من عيني. وقد حاولتُ قبلها السفر دون فائدةٍ أو نتيجة. كنتُ على استعدادٍ لفعل أي شيء، مقابل الطعام فقط. لهذا لم أطق صبرًا فاشتركتُ في برنامج القناص وحصلتُ على كوبونات وجباتي لمدة عام، وحظيتُ بحمايتهم كذلك.

أنتِ لن تتخيلِ ما كان يحدث في مصر في ذاك الزمان، لا محلات عامرة بأي شيءٍ، ولا ملابس في المعارض، مبانِ البيع والشراء فارغةً كأنها بيوت الأشباح. جثث الصبيةِ كانت تلقى في الشوارع غير مكتملة الأطراف، دون أن يجرؤ أحد على السؤال عن السبب، أنتِ لم تعشِ هذه الأيام يا مريمة، من المعتاد آنذاك أن تسمع صوت طلقاتِ الرصاص، وصراخ أحدهم، وتهليل الآخر فرحًا بإسقاطهِ ليحصل على وجبات أسبوعٍ كامل، كان من المعتاد أن تكون الشوارع خاليةً، وأبواب البيوت مليئة بالمتفجرات.

كان على أي أحدٍ أن يفعل أي شيءٍ. وقد بدأت بعض الفتوات تظهر في الشارع مرتدية حلات كاملة مضادة للرصاص، والويل لمن يحاول قنصهم فهو يقتل

هو وكل من حولهُ وكل أقاربهُ. هكذا بدأتُ ألحظ نمو سيطرة هذه الفئة في كل مكانٍ، وصارت تنتشر في أماكن عدة. عرفنا بعد ذلك أن شركات الأمن الناشئة هي التي قامت بتوظيفهم، وتم إخلاء مناطق كاملةً من سكانها بالقتلِ أو بالترغيب، وبدأ إنشاء شركات ومصانع جديدة باستثمارٍ أجنبيّ حظت بحمايةٍ كاملةٍ من المؤسسة العسكرية ومن شركات الأمن الناشئة.

لم يكن يسمح للمصريين بالعمل في الشركات، لمدة سنواتٍ طويلة حتى تغير الوضع مؤخرًا، وصار يسمح لهم بالعمل دون أجر نقدي، وإنما بالأجر القديم وهو كوبونات وجبات الطعام.

يصمت كثيرًا ثم يسألني إن كنتُ على استعدادٍ للعمل، مقابل إطعامي وتوفير مأوىً لي ؟، قال:

- هذا آخر مكانٍ يمكن لرجالِ الأمن أن يبحثوا فيهِ عنكِ، خاصةً بملامحكِ الجديدة.

سألتهُ متجاهلةً كل هذا:

- ما التاريخ الذي تدرسّه في الجامعة بدلاً من هذا ؟

ضحك خجلاً، هز يديهِ، ثم هز رأسهُ محاولاً جعل وقع الأمرِ أبسط:

- يمكنكِ أن تخمنين. الإرهاب الذي ساد في هذه الفترة، ومحاولات أجهزة الأمن السيطرة عليهِ، ومدى عظمة لجنة الحكماء في الحد من انتشار الإرهاب الداخلي، وقدرتها على فتح استثماراتٍ جديدة. الحقيقة أن ليس كل هذا كذبًا، بعضه حقيقيّ، لكنهُ ليس الحقيقة كلها.

شعرتُ باستحقارٍ غير عاديٍ له:

- أنت تمنح الطلبة هويةً مزيفةً ووعيًا كاذبًا، حتى صرت انت تصدّق أكاذيبك.

- أنتي متخيلةً أمرًا غير حقيقيّ وكلاسيكي جدًا عن منظومة التعليم. هذه البلاد لم يعد شبابها يهتم بالعلم، بل بدخول الـ"IMS"، وحمل السلاح في وجه بعضهم، أو السفر إلى وسط إفريقيا أو قدسليم أو غرب أسيا ليمارسوا

هوايتهم في اصطياد البشر بدلا من الحيوانات. في جامعة الإسكندرية – حيث أعمل – عدد الطلبة المصريين بالجامعة كلها سبعة طلّاب، والباقون جميعًا هم طلبةً مغتربون أتوا من مختلف بلاد العالم؛ ليدرسوا مصر نفسها قبل دراسة علومها.

قمتُ ساخطةً شاعرةً بالغضبِ والحنق:

- وأنت تمنحهم حقيقةً مزيفةٍ عن البلاد، ليعودوا بها إلى بلادهم وينشرونها في كل العالم.

لم أعرف هل كانت دموعي تسقط، أم أن دمي كان فائرًا فخرج من مسام جسدي:

- أنت خائن لنفسكَ قبل أن تخون أي أحدٍ آخر، أنت خائنٌ لـ (أزواغ) التي تعاني من الإرهاب الرسمي الممارس ضدها وضد شعبها منذ قرونٍ كثيرة في ظل صمتٍ دولي بسبب أمثالك الذين يبيعون أنفسهم للشيطانِ ويطبلون للظلم ويجيزوه كي يحتفظوا برءوسهم فوق أكتافهم.

أصمت للحظةٍ فأجده ينظر ناحيتي بمزيجِ ابتسامةٍ وحزن:

- هذه حقارةٌ وخيانةٌ لم أرى مثلها، ولم أتخيل أن تصدر من أمازيغيّ ينتمي لنا.

يظلُّ على جمودهِ بنظرتهِ، وأتهاوى على المقعد من جديدٍ أبكي.

لا أصدق أن تنتهي مهمتي عند هذا الحد!

بهذه النتيجةِ سأعود إلى (عولام) المنهكة؟ أخبرهم أن ابنكم الذين وضعتم عليه شيئًا من الأمل في إنقاذ شيء من دمائكم، هو أحد الذين مهدوا لهذا الدم أن يُسفك ؟

بأيّ خبرٍ يمكنني أن أعود ؟

أي شيءٍ يمكنني صنعهُ مع خائنٍ ضعيفٍ مثلهُ.

بروحٍ شاخ فجأة قمتُ من مقعدي، منحتهُ نظرةً تحمل عمق استحقاري لهُ، فاستوقفني ببرودٍ وهو يدس ورقة – تحمل عنوانًا وتوصيةً للعمل في المطعم - في حقيبتي:

- امنحيني فرصة صغيرة في التكفير عن خطئي بمساعدتي الصغيرة تلك.

لم أرد يده، حاول أن يعرض توصيلهُ لي لكنني تركتهُ وخرجتُ من منزلهُ، أواجه عمق الظلام وحدي كما كنتُ.

اليأسُ خيانةً.. لهذا سأموت وأنا أبحثُ عن طريقٍ يصل بي لكشف الظلم عن وطني.

لم يعد لديّ ما أخسره.

قد خسرتُ كل شيءٍ قبل سنواتٍ طويلة، ولم يعد ثمة فرقٍ إلا أمرٌ وحيد.

* * *

ركوب الحافلات التي تحملُ شعار (هرقل) يمثل مخاطرةً وخيمة العواقب. وبرغم تكرار تحذيرات مازن أن أتجنب حافلات هرقل، وأن أستقل حافلات أمان فقط، إلا أن محاولتي الدائمة للتجريب تدفعني لهذا خاصة مع حالة فقدان الثقة التامة الذي صرتُ أعيشها هذه الأيام.

المنطق الذي يتحدث مازن من خلالهُ هو أن (أمان) تعتمد على المراقبة البشرية أكثر، أما (هرقل) فتعتمد على المراقبة الإليكترونية وهو ما يجعلهم يراقبون درجة إفرازات العرق، ودقات القلب، وذبذبات الأعصاب أثناء بث البرامج الإخبارية، ومع المسافات الطويلة يصيرون قادرون على كشف الهوية الحقيقية للركاب ومدى شعورهُ بالعداء التام للنظام.

أخبرني أن هناك عدة حالات اعتقال نفذها رجال الجاساك من خلال تعاون شركة (هرقل) معهم.

لم أعرف هل كنتُ أبحث عن مواجهةٍ صاخبةٍ معهم ؟ أم أحاولُ الانتحا

* * *

(لا تلعبي دور الشهيد؛ لن يضمن لكِ أحدٌ شيئًا، لن يتذكركِ أحد أكثر من لحظةٍ يضحكِ فيها مع موتكِ، ثم يرحلُ شاعرًا بالرضا بجلسةٍ تنقيةٍ مجانية....)

* * *

وضبطتُ نفسي كثيرًا بأفكارٍ مشابهة..

أتضاربُ بين لعب دور الشهيد، وبين مفهوم الاستشهاد الحقيقيّ. إن لعبتُ هذا الدور فلن أموت في سبيل ما أؤمن بهِ.

في الحافلة ثمةُ هالةٍ شفافةٍ تحيطُ كل راكبٍ وتعزلهُ تمامًا عن الراكب بجوارهِ، مع زرٍ تضغطهُ في محطة النزول لتحملك الهالة كأنها حذاء يركلك للخارج.

تذكرةُ الحافةِ كانت مكلفة أيضًا، ومعظم الركاب أجانب، يحملون وجوهًا شقراء أو حمراء أو صفراء، حتى لتبدو بشرتي بجوارهم شديدة السمرة، يقضون وقت الانتقال في القراءةَ أو متابعة الأخبار عبر الشاشة الهولوجرامية التي تحتلُ جانبًا من الهالةِ أمامهم.

حين اقتربتُ من محطة النزول شاهدتُ المبني الضخم للـ (Golden Tower)، مُصَمَّمٌ كنصلِ سيفٍ عريضٍ من أسفل ثم يقل عرضهُ تدريجيًا حتى نصل إلى قمتهِ المدببةِ مع إنحناءةٍ مخيفةٍ للمبنى بأكملهِ.

راقني تصميمهُ جدًا، وضممتهُ – في أعماقي – إلى مجموعةٍ أخرى من المباني الشاهقة التي أخذني تصميمها وشدّني كثيرًا.

أضغطُ زر الخروج، فيتحرك الكرسي تحتي، ويدور حول نفسهِ ثم يسير فوق قضيبٍ طويلٍ يصل إلى باب الخروج، فأُلقى خارجًا حين تقفُ الحافلةَ وأتوجهُ سريعًا ناحية المبنى.

إجراءات الأمنِ بالمبنى شديدة، وتعتمد على فحص الدّمِ، ومعرفة درجات الغضب، واحتمالات العنف الممكنة.

برغم أنني دخلتُ أماكن كثيرةٍ، إلا أنها المرّة الأولى التي أشاهد فيها شيئًا كهذا.

يبدو أن الحياة بدون سمرة ستختلف كثيرًا!

أسألُ أحدهم عن (ماجد سليم) وهو الاسم المكتوب في الخطاب الذي اعطانيهِ الدكتور على. يندهش الرجل كثيرًا وينظر لي باستغرابٍ ثم يأخذني إلى رجلٍ أسمرٍ نحيلٍ قصيرٍ تبدو في ملامحهِ علامات الخبث والمكر، يهمس له بعدة كلماتٍ في أذنهِ، فينظر الرجل ناحيتي، يمسكني من مرفقي ويطلب مني أن أسير، أسيرُ معهُ حتى مقعدٍ أمام مكتب الاستقبال بالمطعم الذي لاحظتُ اسمهُ الغريب (بلوفينز) Blue Veins، قال الرجل:

- حدثني الأستاذ ماجد عنكِ.

أسألهُ:

- أليس أنت ماجد سليم؟

يضغط على الحروف وهو يقول بنظرةٍ بدت عدائيةٍ:

- اسمي الأستاذ خيري، الأستاذ ماجد، مدير المطعم، أنتِ لن تريهِ في حياتِك.

لم أفهمه، أكمل بنفس الأسلوب:

- أنت ستعملين نادلةً هنا هيا، أخبريني سببًا يجعلني أضعكِ ضمن درجات الـ+C.

أكتمُ ضحكةً كادت تفلت منّي، لا أعرفُ حرفًا عما يقولهُ ويطلبهُ، لمّا ظهر لهُ جهلي قال بخلقٍ ضيّق:

- أنتِ تريدين أن تعملي Indoor فقط، وبرداء +C أليس كذلك؟

بدأتُ أنتبه قليلاً:

- هل يعمل الندلاء خارج المطعم ؟ يتم انتدابهم لأماكن أخرى مثلاً ؟

كرر في استخفاف:

- انتدابهم، أماكن أخرى.

ثم سأل ساخرًا:

- ما جنسيتكِ، وكم مكثتِ في مصر ؟

- ليبية، مكثتُ شهرين أو أكثر قليلاً

-ولا تعرفين معنى +A، أو+C، ولا النادلات Outdoors ؟

- لا..!!

مسكني من مرفقي مرةً أخرى بعد أن قام، فهمتُ أن هذه هي طريقتهُ في دعوتي للتحرك، أخذ يطوفُ بي في المطعم من الداخل، يقولُ بغضبٍ:

- لولا أن الأستاذ ماجد أوصاني بنفسهِ!

بهو المطعم كبير، يأخذ شكلاً دائريًا تتراص فيه الموائد، وعلى امتداد محيط الدائرة المقابل ما يقرب من سبعة أبوابٍ لخمسة صالاتٍ خاصةٍ بكبار الزوار، يقولُ الأستاذ خيري:

- هنا في الصالة الرئيسة يعمل الندلاء بدرجة +C، وهم نادرون في الحقيقة، كما ترين.

ما يقرب من خمسة رجالٍ يرتدون حلة سوداء كاملةً، وخمسة نساءٍ يرتدون حلة نسائيةٍ مشابهةٍ وإن كانت أكثر ضيقًا، على كتف الرداء الرسمي من الأمام والخلف طبعت درجة +C:

- هؤلاء يقومون بالعمل العادي الكلاسيكي وهو تقديم الطعام والشراب للعملاء دون النظر إلى جنسهم.

ثم سحبني مرّة أخرى من رسغي نحو أحد الأبواب الخمسة:

- هنا يعمل درجات –A و B- و+B.

القاعة الداخلية متوسطة الحجم، يتراص فيها عدد صغير من الموائد الضخمة، يجلس بها مجموعة قليلة من الضيوف، بعض النادلات تقف وراء الزوار وتقوم بتدليك أجسادهم، ملابسهم فاضحة إلى أقصى درجة، وبعض العاملات تقوم بفعل أشياءٍ مشينةٍ لا أقدر على وصفها.

تراجعتُ مصدومة وخرجتُ من الباب مسرعة. الآن فهمتُ!

هذه الدرجات هي درجات التسيب والانحلال الأخلاقي، نظرتُ له غاضبةً فلحظتُ عدم مبالاتهِ، وعدم فهمهِ لردة فعلي، قال:

- هذه هي درجات التميز، لا يستوى الذين يعملون والذين لا يعملون أليس كذلك؟ لهذا درجات الـ A- تحصل في مقابل عملها المتميز على خمسة وجبات في اليوم، أي ١٥٠ كوبون في الشهر، بالإضافة للكوبونات الترفيهية التي يمنحها إياها الزبون في مهام الـOutdoors، وهذا هو العمل الذي أرشحهُ لكِ، تقل بعد ذلك الكوبونات حتى نصل إلى درجتكِ، أنتِ ستأخذين سبعين كوبون فقط في الشهر، صدقيني لن تستطيعي العيش.

ثم دقق النظر في وجهي وقال:

- والآن، أي سببٍ يمكنكِ أن تمنحنيهِ حتى تكوني +C، بتكلفتكِ العالية ؟

لم أفهمهُ أيضًا.

للمرة العاشرة يسحبني من رسغي كانهُ يسحبُ عمياء حتى باب خلفيّ، يدخلهُ دون أن يفلتني:

- اختاري لكِ رداءً يناسب مقاسكِ بالضبط، وسلّمي نفسكِ لمدام إيمي لتبدأ توزيعكِ على أيام الأسبوع.

تركني بسرعة ليغادر؛ فبادرتهُ بسؤالٍ يؤرقني كثيرًا:

- لحظة، ألا يوجد عمل هنا بمقابل نقدي ؟

تجمّد فجأة، ثم دار ببطءٍ فبدت علامات عدم الفهم على وجههِ:

- مقابل نقدي، لماذا ؟

- أليس من حقي ؟ لي متطلباتٌ أخرى خاصة سأقوم بتوزيع أجري عليها!

بدت ابتسامةٌ ساخرةٌ تحاولُ الفهم على ملامحه وهو يقول:

- متطلبات أخرى ؟ غير الطعام والسكن؟ أنتِ Low race ماذا يمكن أن تحتاجي أكثر من هذا ؟

صدمتني الكلمة، لكنّهُ واصل:

- أنتِ لا تستطيعي أن تديري شئون نفسكِ، حتى تحتفظي بأموالٍ في يديكِ.

استكمل ابتسامتهُ الساخرة، حتى تحولت إلى ضحكةٍ عاليةٍ وهو ينظر لي باستخفافٍ، ثم تركني ورحل سريعًا.

في الخارجِ؛ وجدتُ مدام إيمي في انتظاري. مرتديةً رداء الـA - الفاضح وقفت تنظر لي ولملبسي ثم مسحتني بعينيها من رأسي لقدمي ودارت حولي. في النهاية حددت لي مواعيد الأسبوع وقالت:

- بداية فترة العمل لديكِ من السادسة صباحًا إلى الثالثة عصرًا، حينما تحضرين في الخامسة والنصف تكونين متأخرة، الحضور قبل العمل بساعة كاملة.

ثم بدأت تسرد عليّ جدول العقوبات كذلك:

- الحضور متأخرًا، خصم كوبون، عدم تنفيذ الأوامر، خصم خمسة كوبونات وإنذار أول، الطرد يكون مع الإنذار الثالث.

ثم انتحت بي جانبًا وهمست:

- إبلاغكِ عن أخبار زملائكِ يمنحكِ كوبونين عن كل خبر يروقني.

فلتت مني ابتسامةٌ مندهشةٌ ساخرة. تراجعت للوراء وأشارت إلى إحدى الفتيات الـ C + فأتت مهرولةً، قالت لها:

- مارو، ستعلمينها سريعًا، وحاولي أن تكتشفي فيها شيئًا مختلفًا يجعلنا نبقيها في الـ+ Cقبل شهرين.

قبضت مارو هذه على رسغي فجأة، وهي تهز رأسها لمدام إيمي التي تركتنا فجأة.

جذبتني مارو ناحية مكتب الاستقبال للفندق، فوقه رسمًا غريبا لعينٍ في منتصف شكلٍ هرميّ، سألتها عنها، فقالت بشكلٍ آليّ:

- شعار شركة (العين) التي تقوم بحماية المطعم أمنيًا.

سألتها وأنا أتابع طريقتها الآلية في دهشةٍ:

- وشركات (أمان) و(هرقل) ؟

قالت بنفس الطريقة وهي تجهز مجموعة من الكتالوجات الضخمة:

- متعاقدون مع أماكن أخرى في الـ Golden Tower.

وبدون كلمة إضافيةٍ بدأت تعرض عليّ أصناف الطعام والشراب في مجلدات هولوجرامية ثلاثية الأبعاد، تذكر اسم الصنف ومكوناتهُ وسعرهُ ومكان نشوئه ولماذا يكون مطلوبًا أحيانًا، والأماكن التي يقدم فيها كذلك خارج المطعم، تفاصيل كثيرة، ومن المفترض أن أحفظ كل هذا في وقتٍ قصيرٍ لا يتجاوز الأشهر الثلاثة.

بعد يومٍ طويلٍ شاقٍ، ذهبتُ مع مارو إلى الحافلة؛ بالعين الهرمية التي تحرسها، هذا الشعار يذكرني بشيء ما لكنني لا أذكر.

وصلنا إلى منطقةٍ محاطةٍ بسورٍ طويلٍ تتراص بداخلهُ مجموعات من البنايات متوسطة الطول، وضعت على بوابتها لافتةٌ ضخمة باسم المطعم Blue Viens، وتحتها كلمة بخطٍ أصغرLow Races، دخلنا إلى أسوأ مجموعةٍ من المباني والعمارات رأيتها حتى الآن.

المسافات بين البنايات صغيرةٌ جدًا، تغرقها مياهُ المجاري والصرف، المداخل ضيقةٍ، والسلالم عاليةٍ جدًا، في الطابق الثامن حيث صعدنا قُسِّم بالكامل إلى

غرفٍ صغيرة تتراص على جانبي ممرٍ ضيقٍ تخرج منهُ العاملات بكثافةٍ غير عاديةٍ؛ ذوات السراويل +C أو ذوات الجيب القصير -B أو ذوات القطعتين -A جميعهن يدرن في فلكِ بعضهن ولا تميز منهن غير تشابكات الأيدي والأقدام، وقد لا حظتُ عدد قليلٌ من الرجالِ مختلطٌ في هذا العجين. سحبت مارو واحدةً وجذبتها بعنفٍ حتى بدت ملامحها أمامي، فتاة -A، قالت مارو:

- سارة، أنتِ ستنتقلين لغرفتي مع سالي، وسآخذ غرفتكِ مع العاملة الجديدة.

برقت عينا سارة؛ وهي تفحصني بعينيها وسط الضربات المتتالية التي تتلقاها في ظهرها من المارّات:

- +C، ستحاولين معها يا مارو؟

ثم أطلقت ضحكة عالية، فابتسمت لها مارو في رسميةٍ واستخفاف وقالت:

- خبر جيد بوجبتين عند إيمي. هنيئًا.

ثم أفلتتها فسحبها شلال البشر.

طلبت منّي أن أبقى في ظهرها لا أبتعد، غاصت بين الجموع تزاحمهم بضراوةٍ وأنا أحاولُ أن أبقى وراءها بعد أن اضطررتُ لتشبث بخاصريها في عنفٍ، تسب بعضهن وتمازح آخرين، بعد فترة وجدتً نفسي معها في حجرةٍ ضيّقةٍ بها سريرٍ من طابقين، قالت:

- ستكون هذه حجرتنا لمدة ثلاثة أشهر، هي فترة تدريبكِ، وسيكون عليّ أن أكتشف فيكِ شيئًا يفيدُ الأستاذ خيري قبل مرور نصف هذه الفترة.

صمتتُ، وهززتُ كتفيّ بمعني أنني لا أعرف، فقالت:

- الآن سترتاحين لمدة خمس ساعاتٍ، سأوقظكِ في التاسعة مساءً....

قاطعتها محتجّةً:

- خمس ساعاتٍ فقط ؟ سأحتاجُ أكثر....

قاطعتني بغلظةٍ هذه المرة:

- غير مسموحٍ لكِ أن تناقشيني في أوامري، أو أن تقاطعيني.

قاطعتها بثورةٍ:

- أوامر في النوم ؟ وفي وقت الراحة ؟ هذا استعباد!

دققت النظر في وجهي، ثم قالت بهدوءٍ:

- حاولي أن تبتعدي عن الألفاظ المحرّمة لمصلحتكِ الخاصّة. سأحاولُ أن أقنع نفسي أنني لم أسمع شيئًا، وأيًا كان ما تسميهِ. فإنكِ بأكملكِ بساعات نومكِ بطعامكِ بعدد انفاسكِ تحت إمرتي طيلة شهور تدريبكِ.

- وبعد شهور تدريبي ؟

- تنتقل سلطة إدراة شئونكِ إلى المدام إيمي.

- حتى متى؟

- حتى تتركين العمل أو يقتنصكِ أحدهم.

- ألن أكون حرّةً نفسي ؟

عادت تدقق النظر في وجهي محذرةً هذه المرّة، ثم ضغطت حروف كلامها:

- المرّة الثانية للتحذير، حاولي أن تبتعدي عن الألفاظ المحرّمة!

لم أعرف أي ألفاظٍ تقصدها:

- أنا لا أعرف ما هي الألفاظ المحرّمة.لكنكِ تعرفين مقصدي.

بحثت في الفراش الأسفل، وأخرجت كتيبًا صغيرًا ناولتني إياهُ:

- هذا هو قاموس الألفاظ المحرمة، وعقوبة كل لفظٍ.

جلست على حافة الفراش، ومدّت قدميها أمامها كأنها تتمطى:

- ما تقصديهِ هو: ألن أكون قادرةً على إدارة شئون نفسي، أليس كذلك؟

أومأتُ برأسي إيجابًا، فأكملت:

- والإجابة هي: لا بالتأكيد.

حاولتُ أن أكون أكثر حذرًا وأنا أسأل:

- والسبب ؟

- أن هناك من يديرُ شئوننا.

أنتقى الكلام بحرصٍ:

- لماذا لا يدير كل فردٍ شئونهُ إذن ؟

ردت كأنها ترد على طفلٍ صغيرٍ لا يعي شيئًا من الحياة:

- لأننا دولةٌ كبيرة. أنا أدير شئونكِ لأنكِ قليلة الخبرة، وقليلة العلم، المدام إيمي تدير شئوني لأنها أكثر خبرةً وعلمًا، والأستاذ خيري يديرُ شئونها، ويديرُ شئونهُ الأستاذ ماجد، وهكذا حتى نصل إلى اللجنة الموقرة التي تدير شئون البلاد، هذا هو شكلُ الحياة الطبيعية المنظمة في الدولة، وليس الحياة في فوضى كما تريدين.

سألتها:

- أهو شكلٌ من أشكال الإشتراكية ؟

صبغ الدمُ وجهها الغاضب، قالت بعصبيةٍ مكتومة وهي تضغط كلماتها:

- نفذت مراتي الثلاثة لتحذيركِ بشأن الألفاظ المحرمة. معكِ القاموس، لماذا لا تفتحيهِ قبل أن تفتحي فمكِ الملوث بالمحرّمات ؟ بعد ذلك ستأخذين ترتيبًا في عداء النظام، ينتهي بتصفيتكِ.

ثم قامت فجأة وأخبرتني أن أتخذ السرير الأدني فراشًا، لأنها ستوقظني في التاسعة، وإن لم أستيقظ ستفرض عقوبتها بخصم وجباتٍ خمسة، قالت:

- الإنذارات تبدأ بعد شهور التدريب لحسن حظّكِ.

واعتلت الفراش العلويّ.

بقيتُ في فراشي أفكّر في هذا الحضيض الذي صرت إليهِ. تصفحتُ كتيب الألفاظ المحرّمة الغريب، بعد دقائقٍ اكتشفتُ أن كل الألفاظ والكلمات المعبرة عن الحرية، والنبل، والشرف، والدين، والأمانة، والقيم، والعدل، والحق، والتعلم، وحتى الرأسمالية، والاشتراكية، والفن، والأمل، والثورة، ومستعمرة القمر هي كلمات محرمة تتراوح العقوبات فيها حتى الإعدام بالليزر.

استسلمتُ للنوم، ثم شعرتُ أنها توقظني بغلظةٍ بعد دقيقةٍ. نظرتُ ناحية النافذة الضيقة بالحجرةِ فوجدت النهار قد ولّى، أبدلتُ ثيابي في عجالةٍ بثيابٍ أخرى أرشدتني لها، وسحبتني من مرفقي للخارج.

الزحامَ أقل بكثيرٍ، وغرف المسكن كلها مفتوحةٌ نظرتُ داخلها فارتدتُ مصعوقة من هول ما رأيت.

نظرتُ لمارو مذهولة، لم يبد عليها أي دهشةٍ، نادت إحدى الفتيات، فأجابتها بتأوهٍ أن تنتظر قليلاً. صعد الدم إلى وجه مارو، واقتحمت الغرفة فجذبت من يعتليها من رأسهِ وألقت بهِ أرضًا ثم صرحت في وجه الفتاة:

- حين آمركِ، تتركي كل شيءٍ وتنفذين ما آمركِ به، حتى لو بدأتِ الـOrgasm، هل تفهمين ؟

تحملُ ملامحًا أسيويةٍ متضايقةٍ في هذه اللحظة، تتمطى بسفورها، ثم تقوم وهي تومئ برأسها أن نعم. تكمل مارو وهي تتركها صارخة:

- اجمعي باقي فريقكِ من تحت كلابهن، وانتظرني.

سألتها وأنا أولي وجهي عن الغرف المفتوحةِ على أوضاعٍ سافرةٍ:

- أهم متزوجين ؟

ردت برسميةٍ وجمود وهي سائرة في الممر وكأنها تمنح ملاحظات صغيرة في العمل:

- لو تزوجوا، لطردوا من أعمالهم.

- لماذا ؟

- لا يسمح الأستاذ ماجد بالاتحادات الداخلية.

- وماذا لو أنجبوا ؟ أين تعيش الأطفال ؟

- النساءُ هنا لا تنجب.

- لماذا لا تنجب النساء هنا؟

- Hysterectomy.

- ماذا ؟

وقفت ودارت على عقبيها تتابع حركة الفريق الذي طلبتهُ، وهي تجيب بلا مبالاة:

- هن يستئصلن أرحامهن، كي لا ينجبن.

صُعقتُ وتجمدت أطرافي!

قالت مارو بذات الطريقة:

- إذا قررتِ أن تنامي مع أحد يجب أن تجري هذه العملية أولاً. إذا حملتِ دون إذني أو إذن المدام إيمي بعد ثلاثة أشهر ستكون العواقب وخيمة.

توجهت إلى بابٍ خلفي يفضي إلى قاعةٍ صغيرةٍ تفضي إلى مائدةٍ مستديرةٍ، جلست مارو وجلستُ جوارها، قالت:

- هذا الفريق هو المنضمين لنا حديثًا قبل ثلاثة أشهر، وقد اعتدن الحياة بسرعة، أريدكِ أن تتعلمي منهن، وفيهن مثلكِ +C.

سألتها:

- اسمحي لي، ماذا تعني + أو - ؟

- + تعني عدم قبولكِ التعامل جنسيًا مع الجنسين، - تعني العكس، والأحرف A تعني قبولكِ لأي أحد لهذا رِداءهُ من قطعتين، B تعني أنكِ تشترطين موافقتكِ على الشخص الذي تنامين معه، و C تعني رفضكِ لكل الأشخاص إلا من تختاريهم أنتِ.

حاولتُ أن أستوعب ما تقول، فأكملت:

- بالتأكيد لا فارق بين Male وFmale في هذا التقسيم.

نظرتُ لها بعينينِ متسعتينِ. قلتُ:

- هل كل مكان في الـGolden Tower، يقسّم فيهِ العاملين بهذه الطريقة ؟

قالت باستخفافٍ:

- لا شأن لكِ بكل مكانٍ في الـGolden Tower ركزي فقط على المطعم.

حين أتى الفريق المزعوم كان أكثره من الفتيات، وقليلٌ من الرجال، مزيجٌ من جنسياتٍ عديدة، أكثرهم مصريين، ومنهم فلبينيين، وهنود، صينيين، سودانيين. بدأوا يتحدثوا بلغةٍ أثارت دهشتي؛ مزيجٌ غير مترابطٍ من الكلمات العربية بلهجةٍ شامية أو مصرية، وكلمات من الإنجليزية، والإشارات المتداخلة وحركات الرأس، كل هذا في جملةٍ واحدةٍ لا أعرفُ كيف تترابط.

حين بدأوا في عرض تقاريرهم، غلبت الإنجليزية على هذا النسيج غير المترابط.

فهمتُ أن كل واحدٍ وواحدةٍ تقوم بتقديم تقريرًا كاملًا عن العملاء، ماذا أكلوا، أي المواضيع تم التقاط الحديث فيها، كم وقتٍ قضوا، حتى فتيات الـA- اللاتي قمن بمهام الـOutdoors، قدمن تقريرًا مفصل بهِ بيانات العميل، ونوع الجنس الذي يفضلهُ، مع مقاطعٍ متفرقة تثبت أنهن قمن بتسجيل اللقاءات دون أن يشعر العميل.

أحد الرجال حكى عن اللقاء الثلاثي الذي طلبهُ العميل، والاتفاق السريّ الذي أقامهُ معهُ بإحضار مجموعاتٍ أخرى.

في النهاية منحت مارو بعضهم العديد من الكوبونات كمكافأة لهم.

وحين انفض الاجتماع، كنتُ قد انتقيتُ فتاتين ظننتهما أقل الموجودين خبثًا وشرًّا، إحداهما فليبينية، والأخرى صينية على الأغلب، وقدّرتُ أنهن قد يساعدنني في التعايش هنا وفهم طبيعة الحياة بأقل خسائر ممكنة.

اقتربتُ من الفلبينية وقلتُ لها بابتسامةٍ:

- تقريركِ كان ممتازًا.

ابتسمت لي، ولم تفهم ما قلتُ على الأغلب، قالت:

- هاي، مرحبًا.

تتكلم بهذه اللغة المختلطة الغريبة التي حاولتُ طيلة الاجتماع فك طلاسمها:

- أنتِ +C.

أشارت بيدها نحوي ثم نحوها:

- أنتِ +C، +C، Same same.

ثم ضحكت كثيرًا وهي تهزّ كتفيها.

فهمتُ أنها تحاول أن تقول أننا نشبه بعضنا، ملامحها تحمل قدرًا من البساطةِ، وضحكتها ليست شريرة. ظهرت مارو أمامي. مسكتني –كالعادة– من رسغي، قالت وهي تنتحى بي جانبًا:

- هل ترغبين في الحصول على الجنسية المصرية ؟

لما سكتتُ غير مدركةً لقصدها أكملت:

- الفترة من الآن، الحادية عشر مساءً إلى الرابعة صباحًا قبل الاستعداد لفترة عملك، مخصصةً لمن يرغب في الاشتراك ببرنامج القنّاص.

هذه هي المرة الثانية التي أسمع فيها عن هذا البرنامج، أكملت مارو:

- الاشتراك مخصص في الأساس للمصريين الشرفاء الذين يرغبون في مساعدة الدولة في تطهيرها من الخونة. لكن بعد الضغوط الأخيرة صار مسموحًا لغير المصريين الراغبين في الحصول على الجنسية المصرية، إثبات انتماءهم من خلال الاشتراك في البرنامج.

لما استمر سكوتي، قالت مارو بضجرٍ:

- إذا لم تشتركين، يجب أن تبقى في فراشكِ لا تغادريهِ حتى موعد الذهاب للعمل غدًا.

-وإذا اشتركتُ؟

- سيكون مسموحًا لكِ التحرك خارج المطعم وداخلهُ.

- متى يجب أن أقوم بعملية القنص إذن ؟

في الوقت الذي تنتهين فيهِ من إعداد خطتكِ؛ يومًا، سنة، المكافأة والجائزة ستتأخر بتأخر اشتراكك.

فكرتُ للحظةٍ أن هذا الخيار يحتوى الخيار السابق له:

- حسنٌ، أريدُ الحصول على الجنسية المصرية.

- ما سلاحُكِ ؟

نظرتُ لها بدهشةٍ، ظننتُ أنها ستتركني في حالي أخيرًا، قالت بضجرٍ أكبر:

-هل قاتلتِ من قبلٍ ؟

- نعم!

- بأي سلاحٍ ؟

- السيف.

ظهرت الاستنكارُ على ملامحها، وفكرت للحظة:

- ستحتاجين لخططٍ معقدة حتى تستطيعين اقتناص أحدهم، أتودين أن أساعدكِ ؟

هززتُ رأسي نفيًا بسرعةٍ:

- لا شكرًا.

ألقت نظرة على الفتاة الفلبينيةِ التي وقفت تنتظرني وتتابعنا، ناولتني خمسة كوبوناتٍ وقالت:

- خذي هذه، إذا أردتِ بعض المرح قبل الصيد، سأخصمهم منكِ بعد أول شهرٍ لكِ.

ثم ألقت كلمتها الأخيرة:

- حاولي أن تنتقي لكِ رفيقةً أفضل من هذه البلهاء.

ضحكتُ في أعماقي، وقد عرفتُ أن اختياري موفقًا. عادت الفليبينية تضحكُ حين سألتها وأنا استعين بالإشارات:

- ماذا ستفعلين الآن ؟

كعادتها بدا أنها لم تفهم ما أقول وقالت وهي تشير لكوبونات الوجبات:

- Go سوا سوا للClub قبل Sleeping.

حاولتُ أن أفسر هذا اللغز الذي قالتهُ، غير أنها أمسكت مرفقي – كالعادة السيئة في هذا المكان – وسحبتني معها إلى السلم لنهبط خمسة طوابق إلى الطابق الثالث.

داخلهُ كانت مساحةٌ واسعةٌ على غير العادة. علا فيها صوت الموسيقى الصاخبة وانتشرت فيها الأجسادُ المختلطة غير واضحة المعالم والأفعال، قالت الفتاة معي:

- أفيون or كوكيين ؟

ثم أشارت للكوبونات الخمسة في يدي وقالت:

- واحد تذكرة أفيون، اتنين تذكرة كوكيين.

ثم انتظرت ردي.

فهمتُ أن هذا هو المرح الذي حدثتني عنهُ مارو. لمَا لمْ أرد، أشارت بإصبعها إلى رأسها وقالت:

- في معلوم، ولا ما في معلوم ؟

ثم وقفت في حيرةٍ لا تعرف ماذا تفعل، سحبها أحدهم من يدها فاتسعت عيناها انبهارًا وبدأت ترقص معهُ.

للحظةٍ وقفتُ أتابع حركة الشراء العالية التي تدور عند ركن المكان حيث مكتب الاستقبال، الحركات الممسوسة التي يقومون بها بعد استنشاق المخدر، اللقاءات الحميمية التي تتم والأجساد المنفرطة على الأرض.

درتُ على عقبيّ وأنا أشعرُ بكمٍّ من الغضب والثورة تتصاعد في أعماقي.

خرجتُ من المبني، وتوجهتُ إلى كافيتريا.

على الباب وقفتُ أحاولُ أن أفهم النظام المتّبع. لم يكن ثمة ندلاء ولا مكان لاستقبال الطلبات. لم يكن أمامي إلا مجموعات من العاملين، وثلاجة زجاجيةٍ ضخمة تحتوي على وجبةٍ واحدةٍ من الطعام من صنفينِ وكوب عصير.

توجهتُ ناحيتها وقرأت التعليمات. وضعتُ الكوبون في المكان المخصص، فخرجت لي وجبة الطعام. أخذتها وانزويتُ في أحد الأركان.

شاشة التليفزيون ضخمة وببعدين فقط، ويبدو عليها القدم. تابعتها في صمت حتى فهمتُ أنها تعرض برنامج القنّاص.

تنبهت حواسي فجأة وتوجهت بأكملها إلى الشاشة؛ لأعرف قَدر إمكاني عن هذا البرنامج التلفزيزني ذائع الصيت.

كان يُقدّم بعربيةٍ ركيكةٍ جدًا، يستضيفُ بعض الجنرالات التي تتحدث عن أساليب القتال المختلفة.

جاءني صوتًا من الخلف:

- لم أتوقع أن تهتمي بالبرنامج.

شابٌ يبدو في منتصف الثلاثينات عيناهُ ضيقتان:

- لم تعرفيهِ من قبل، ولم تبدي حماسًا بهِ مع مارو.

ثم أكمل وهو يجلسُ دون دعوةٍ:

- بما أنكِ تهتمين بالبرنامج، وتستخدمين السيف. فإن لي عرضًا لكِ سيفيدنا معًا.

لم أعرف انهُ يتتبعني كذلك منذ حواري مع مارو وأنه استرق السمع. سألتهُ وعيني على شاشة التلفزيون:

- ما عرضك!

تجاهل سؤالي، وهو يتابع اهتمامي بالبرنامج، ثم بدأ يشرح:

- هذه هي المرحلة الثانية من الموسم، في الموسم الأول تم اختيار أفضل القناصين بأفضل لقطات القنص، للأسف لم تفز لقطتي التي أرسلتها، لم يعد ثمة رفيقات مخلصاتٍ، ولا تجدِ واحدةً تصور لقطة القنص بضميرٍ هذه الأيام. هي فازت بلقطتها التي قمتُ بتصويرها لها، لأنني كنت أمينًا معها.

بدا على وجهي عدم الفهم، فقال أن المعتاد أن يتشارك اثنان في تصوير بعضهم البعض أثناء عملية القنص، وقد قامت بتصويرهُ بشكلٍ سيء لم يظهر براعتهُ على عكس ما فعلهُ معها، ثم أكمل:

- في الموسم الثاني – كما ترين - يجمعون كل الفائزين في أرض المعركة، شبه مدينةٍ بمبانٍ جميلة يعيشُ فيها الفائزون وتنتشر الكاميرات وأدوات التصنت في كل مكان، ومع كل قنّاصٍ لوحة تعليمات؛ عليهِ أن يتبعها بدقةٍ وعناية.

للأسف ليس عليهِ أن يقتل كل من يراهُ، بل عليهِ أن يتحالف مع البعض، ويقتل البعض، حسب الأوامر التي تأتيهِ.

على الشاشةِ بدأتُ أفهم ما يحدث، المنطقة الشاسعة التي تشبه حيًّا سكنيًا راقيًا يمتلئ بالفيلات الجميلة. المحاربون الذين يحملون مختلف الأسلحةِ ويمكثون في منازلهم أو يدورون حولها، أو يتجهون للفيلات الأخرى.

مع كل مشتركٍ يُقتل، تظلم الشاشة، ثم تحمل صورتهُ وبياناتهِ بشكلٍ دراميّ، وتعرض اللقطة التي قدمها وهو يقتنص أحدهم ليشارك في البرنامج، مع موسيقى مؤثرة.

أكمل الشاب السخيف:

- إذا قتل المشارك أحد المتحالفين معهُ فإنهُ يصير هدفًا لباقي المتسابقين جميعهم، وإذا قتل أحد آخر دون أمرٍ بذلك فهو يخرج تمامًا من المرحلة.

أدرتُ رأسي بعيدًا وشردتُ للحظة، فقال سريعًا:

- الآن يمكنني أن أقدم لكِ عرضي.

سألتهُ متجاهلةً ما يقول:

- لماذا لا تقوم بعملية قنصٍ الآن مثل الباقين.

ضحك وقال:

- إنني أتابع جومانة، الخائنة التي حكيتُ لكِ عنها، ،أنتظرُ أن أراها تُقتل أو تخرج من البرنامج لأعرف مكانها.

- لماذا تريد أن تعرف مكانها ؟

بدا الغل في عينيهِ وهو يقولُ بغضبٍ حاول أن يجعلهُ مرحًا:

- لأنها ستكون فريستي التي أشارك بها في البرنامج العام القادم.

سألتهُ بعد فترة صمتٍ:

- وإذا كسبت ؟

صرخ بعنفٍ:

- لن تكسب.

أظلمت الشاشة مرةً أخرى، فتابعها بلهفةٍ، ثم لما عرضت صورة شابٍ، سألتهُ:

- ما هي مكافأة من يفوز ؟

قال بعينين لامعتين:

- الانضمامُ إلى الـ"IMS".

- هل هذه مكافأة تستحق كل هذه المخاطر؟

غير مستوعبٍ ما أقول رد بدهشةٍ:

- تستحق ؟ هل أنتِ مجنونة ؟ إنه حلم كل إنسان في هذه البلاد للخروج من هذا العفن.

ثم قال أخيرًا:

- هل يمكن أن تسمعي عرضي ؟

أظلمت الشاشةُ مجددًا فقفز من مقعدهِ، امرأةٌ أسيوية الملامح، زفر بهدوءٍ فقدّرتُ أنها ليست جومانة:

- سنتشارك معًا في تخطيط عمليتنا وتصويرها، أنا بخبرتي في التخطيط، وأنتِ بلياقتكِ البدنية وسيفكِ.

- كل هذا من أجل عملية قتل؟ عشرات القتلى كل يومٍ في الشوارع يتساقطون بلا أي تخطيط.

بدهشةٍ كأنهُ ينظر لمجنونةٍ حملق في وجهي ثم أنفجر في الضحك:

- الفكرة ليست في القتل فقط، بل في الإبداع في القتل.

حملقتُ في وجههِ هذه المرة، تابع بعد أن هدأ:

- الفكرة هي كيف نثير مشاعر المتفرج ليشعر بالإبداع في الاقتناص. كيف تجعل أنفاسهُ تتلاحق كانهُ هو الصياد، كيف تجعلهُ يقفز من مقعدهُ صارخًا مع لحظة القتل، الفكرة هي كيف تصنع للمتفرج (دماغًا) ليستمتع بالقتل.

من جديد أظلمت الشاشة، فنظر ناحيتها، ثم هب من مقعدهِ صارخًا، أخذ يصيحُ ويصرخ بأنهُ هو من قتلها وليس أحد آخر. فهمت أن الضحية هذه المرة هي جومانة.

- أنا من أرسلتها إلى هناك لتلقى هذا المصير البائس.

نظرتُ لملامح الفتاة التي تُعرضُ صورتها على الشاشةِ؛ فتاة عشرينية ممتلئة القوام وقصيرة نسبيًا، بينما تذيع الشاشة اللقطة الذي شاركت بها في البرنامج.

تركضُ خلف أحد القناصين وتختبئ، يطلق دفقة ليزر ناحيتها فتختبئ، ثم تركضُ وهي تطلق دفقةً أخرى ناحيتهُ فتصيبهُ ويسقط وقد احترق نصف وجههُ.

يعود لي بعينٍ تلمعُ انتصارًا:

- هل شاهدتي هذه اللقطة؟ أنا من صورها. هذا الركض المحموم وراء فريستها الشرسة. نوعٌ من اقتناص القنّاصين، وقد تم تصويرهُ بحرفيةٍ خيالية. أنتِ لم تريهِ بالأبعاد الثلاثية والصوت المجسم.

بدا لي ضجيجهُ عجيبًا أن يحتفل بقتل رفيقتهِ على هذا النحو. أعادوا إذاعة مشهد قتلها في المسابقة، فأخذ يتابعهُ بعينينِ شغوفتينِ.

في النهاية جلس في مقعدهِ من جديد، وسألني:

- ها ؟ متى نبدأ ؟

* * *

وكمبدأٍ عام فإن أول المتوددين هو أكثر الناس شرًا واستغلالا.

* * *

- أنت تفترض موافقتي ؟

قال وهو يشير ناحية التلفزيون محاولا إقناعي:

- أنتِ رأيتِ المشهد بنفسكِ، هل توجد روعة أكبر من هذا ؟

قمتُ من جلستي:

- امنحني فرصة للتفكير، وسأردُّ عليك.

رحلتُ دون كلمةً أخرى، توجهتُ للخارجِ، خرجتُ من المنطقةِ بأسرها. أنظرُ في هاتفي بحثًا عن شيءٍ أتاني من مازن، لكن، لا شيء.

أحتاجُ لأن أكون بعيدة جدًا عن أي أجهزة رقابة محتملة، لم أكن أحملُ أي سلاحٍ، وكان عليّ أن أسير طويلاً حتى أجد مساحة واسعة في الخلاء.

على أنني حين ابتعدتُ كثيرًا لاحظتُ بعض من يحوم حولي على مسافاتٍ بعيدة، التفتتُ بهدوءٍ وبدأتُ رحلة العودة حين استوقفني بعد أمتارٍ قليلة رجلٌ في منتصف الأربعينيات يرتدي حُلة كاملة، يبتسم ابتسامة ذئبٍ، حاولتُ أن أبتعد عنهُ لكنهُ أمسكني في عنفٍ وضمّني إليهِ.

أشعرُ بالغضب، وبالخوفِ الشديد. دفعتهُ بقوةٍ بين قدميهِ فتهاوت قبضتهُ عني. ثم حين عاودتُ الركض وجدت واحدًا آخر في أثري ضخم الجثّة التقطني ببساطة وظلّ يضحك في استمتاعٍ، هبط برأسهِ على وجهي يحاولُ تقبيلي.

* * *

(وحين ينقضُّ ارفعي سيفكِ لاستقبالهِ، وكوِّني رايتكِ البشرية علامةً للنصر).

* * *

لا أعرفُ ما حدث بعدها. لم أعي إلا وقد تهاوى العملاقُ والدمُ يسيلُ من رقبتهِ. عاودت الركوض ورأيتُ المهاجم الأول في أثري على بعد مسافةٍ طويلة.

بعد دقائقٍ قليلة كنتُ على بوابة الـLow Races ووجدتُ مارو في انتظاري.

تقفُ تنظر لي مبتسمةً بعينينِ تبرقينِ، تمدُّ يدها نحو فمي ثم تنظرُ ليدها بفخر فإذا هي مليئةٌ بالدماء. فزعتُ وأنا أمسحُ وجهي وأخذتُ أفتش عن مكانِ الجرح:

- لا يبدو عليكِ كل هذه القوة.

لم أفهم ماذا تقصد:

- كيف تفعلين هذا دون أن يصوركِ أحد. لولا بلال، لما استطعنا أن نعرف شيء.

ظهر الشاب الذي قابلتهُ في الكافيتريا، يعرض على من موبايلهِ صورة ثلاثية الأبعاد لما حدث، قال:

- كنتُ أعرفُ أنها عكس ما تبدو، وأن ثمة غولٍ في أعماقها يحتاجُ إلى الخروج.

تُظهرني الصورة وأنا أضربُ المهاجم الأول، أركضُ، أدفع المهاجم الثاني، يحملني، يحاولُ تقبيلي، و....

لا، لا يمكن أن أكون فعلتُ هذا، اتسعت عيناي دهشةً، أرددُ بصوتٍ منخفضٍ:

- هذا ليس حقيقيًا، هذا لم يحدث.

تاه صوتي وسط صرخات الاستحسان، وهتافات بعضهم:

- ووووووه، لقد أكلت حنجرتهُ.

ويهتف آخرون:

- انتزعتها كلبؤة شرسة.

لم أصدق أن هذا حدث، أمسحُ الدم عن يدي ووجهي غير مصدقة أنني قتلتُ بهذه الطريقةِ الوحشية.

يرفعونني فوق أعناقِهم، يخبرهم بلال أنني سأكون رفيقتهُ في التخطط لعلميتينا القادمة.

كنتُ أفكرُ؛ إلى أي مدى يمكن أن تغيرني هذه الأرض دون أن أعرف، ودون أن أرفض.

تتالت الأحداث في مخيلتي، بينما تنام مارو فوقي.

الأيام التي تتوالى، والأماكن التي أمرُّ عليها فتترك في نفسي وأعماقي أشياءً لم أعد قادرةً على السيطرة عليها، أو متابعتها بدقة.

لم تكن هذه هي حادثتي الأولى في القتل، لكنها الحادثة الأكثر بشاعة.

* * *

يدورُ حولي على مسافةٍ بعيدةٍ. أعرفُ أن انقضاضتهِ ستأتي من الخلف. الجبناء وفاقدي الرجولة لا يفعلون سوى هذا، حين صار خلفي التفتتُ بوثبةٍ مسرعةٍ تجاوزت المتر لأغرس سبابتي ووسطاي في عينيهِ. أطلق خوارًا ولوح بيديهِ يمنةً ويسرة، أمسكتُ رأسهِ بكلتا يدي ودرتُ بجسدي كله حوله فدارت رأسهُ معي مطلقة صوت التهشيم ومعلنةً انفصال عنقهِ عن عمودهِ الفقري.

في داخلي غضبٌ تراكم من كل ما يحدث حولي من ظُلمٍ وتجبّر.

* * *

يركلني بقدمهِ إلى ركنِ الساحة ويقفُ ليضحك ملأ شدقيهِ.

أخرجُ الخنجر من ملابسي سريعًا، وألقيهِ بكلِ ما أوتيت من قوةٍ نحوهُ فيخترق رقبتهِ.

* * *

واليوم قتلتُ رجلاً بأكلِ حنجرتهِ كنمرةٍ شرسة!

هل سأتحولُ غدًا إلى مجنونةٍ تتسعُ عيونها شبقًا كلما رأت حلقةً للقتل ؟

أسيرُ في الطرقات أبحثُ عن فريسةٍ سهلة، أو صيادٍ اقتنصهُ لأكون قناصة الصائدين؟

أيُّ مصيرٍ ينتظرني في هذه الأرض؟

أشعرُ بالإشفاقِ تجاه أهل هذه البلاد، تدريجيًا عامًا بعد آخر، وجيلاً وراء جيلٍ تحولوا إلى هذه الصورة. لم يكن ثمة ثقافةٍ ولا وعي يردهم عما يحدث لهم.

يسيرون مع التيار دون أدنى شعور بالمسئولية.

ولم أعرف هل سأسيرُ بدوري في ذات الطريق.

لم أعرف إن كان ما أشعره الآن هو لحظة إفاقةُ وعيي أم لحظة احتضارهِ؟

لحظةُ انتباهي، أم دهشة سقوطي الأخير؟

* * *

- وووووووه، لقد أكلت حنجرتهُ.

ويهتف آخرون:

- انتزعتها كلبؤة شرسة.

* * *

لم أنم في ليلتي الأولى هنا !

في الصباح لم تبذل مارو مجهودًا في إيقاظي.

فعليًا سيكون هذا هو أول يوم عملٍ لي، أبدأهُ بكل هذه التجارب، والخواطر السوداء.

في المطعم، وحيثُ دخلنا من الباب الخلفيّ، كان الجميع يقفون متأنقين كأنهم أناسٍ آخرين غير الذين قابلتهم قبل يوم.

دخلوا ودخلتُ معهم، يستقبلون الزبائن بوجوهٍ باسمة، ضاحكةٍ مستبشرةٍ، عليها مسحةٌ من الرقيّ لا أعرف من أين أتت. يتلقون طلباتهم بشموخٍ وعزةِ نفسٍ، وينفذونها بذوقٍ ولغةٍ تفيضُ رقيًّ وجمالاً.

لا أعرف من هؤلاء!!

تابعتُ بعضهم بدقةٍ أكبر، وقفتُ عند مكتب استقبال الطلبات، استمعُ لما يقولونهُ بينهم وبين بعضهم البعض، فوجدتُ الشخصيات الحقيرة قد عاودت الظهور، تسب بعض الزبائن بألفاظٍ كريهةٍ لمجرد أنهم لم يقوموا بالتعليم في الخانة التي تؤكد تميزهم في أداء خدمتهم؛ ليحصلوا على كوبون أو اثنينِ إضافيين.

يأتي الأستاذ خيري ليسأل بعض الرواد على آرائهم في الطعام؛ برأسٍ يكاد يلامس الأرض، فيدسون أوراقًا مالية بين يديهِ.

بدوا لي في وضعٍ مزريٍ، وأسلوبهم بدا أقرب إلى الشحاذة.

فقدوا هنا كل ما يحملون من إنسانيةٍ في نظري.

متى وصلوا لهذه الدرجة من الانحطاط؟ وهل سأصلُ لدرجةٍ مشابهةٍ دون أن أدري ؟

في نهاية اليومِ خرجتُ بعد استئذانِ مارو للسيرِ في الشارعِ في وضح النهار. لم ترفض بعد ما رأتُ مني في اليوم السابق.

طلبت مني أن أحترس أكثر هذه المرة، واتخذ سلاحًا وكاميرا مناسبة معي. تظنُّ أني خارجةً للصيد.

في الشارعِ رحتُ أجوبُ الطرقات بحثًا عن اللاشيء.

أكثر ما أثار انتباهي هي ملصقاتٌ على الأرضِ تدعو للرفض، وللثورة على الظلم والقتل.

أوراقٌ صغيرةٌ تحملُ كلمتين أو ثلاثة (ثورة حرة)، (لا تنصت لهم)، (لا تقتل)، (ابحث عن مستعمرة القمر)، (لجنة الحكماء قاتلة) وهي تعبيراتٌ – كما فهمتُ – رهيبة لا يمكن قبولها هكذا. البلد التي تحرم لفظ الحرية، لا بد أن تعتبر أن الحديث عن الثورة هو هرطقةٌ لا بد من إعدامِ صاحبها.

كلماتٌ بسيطةٍ لكنها بدت لي تمنحُ قدرًا من الأمل، لم يكن الناسُ يلتقطونها بل يعبرون فوقها، وتأتي عرباتٌ حكومية مجهزةٌ تمرُّ فوقها فتنزعها.

أغلبُ ظني أن هذه أشياءٌ من فعل ثوار القمر، وإن بدا لي الفعلُ بسيطًا لا يوازي حجم آلة الظلم التي تأكلُ كل شيءٍ حولها.

لم أعرف فيم كنتُ أفكر. أكنتُ أبحثُ عن حلٍ للخروج من كل ما أعانيهِ في وجوهِ البشر، وأعمدة الإضاءة، وملصقات الثورة الأرضية التي لا تمنحُ أكثر من القدرة على التمنّي؟

* * *

مرت الشهور الثلاثة الأولى لتدريبي وأنا على هذا الحال.

من العمل، إلى الشارع ،إلى الأعراق الدنيا؛ كما يسمون سكن المطعم، إلى بعض العاملين والعاملات الذين لا زالوا يتندرون بالحادثة المؤسفة ويؤكدون أن بإمكاني أن أشترك في (القنّاص) بهذه اللقطة المتميزة، إلى بلال الذي لم يهدأ في طلب تعاوننا، هكذا كلّ يومٍ.

ذات الوجوه، والأشخاص، والكلمات، والحوارات، إلى أين يأخذني هؤلاءِ الموتي المتحركون.

أحاولُ أن أكسر حاجز الملل والألم في نهاية كل يومٍ، أفتحُ الهاتف وأتابع ما تفعلهُ سمرة – عبر الـ SPY ١ – بين لقاءاتٍ متكررةٍ مع جنرالات إلى اتفاقاتٍ

تقومُ بتنفيذها، إلى لقاءاتٍ سرية مع رجالٍ أجانبٍ شقر الوجوه تنقل فيها ثلاثة أرباع ما يحدث في يومها بالتفصيل، وتذكّرهم بتذكرة المستعمرة.

مؤامراتٌ عن تفجيراتٍ في أماكن مختلفةٍ في العالم، تخطيطاتٍ سرّيةٍ واتصالاتٌ مع الدول الغربية، وخاصة أمريكا. لم أكن أستطع أن أكوّن رؤية كاملةً عمّا تفعلهُ، ولم يكن في قدرتي القيام بأي رد فعل.

لا زلتُ أحتفظُ بالأجهزة والملفات التي أخذتها من الجنرال عبد العظيم يوم قتلتهُ، تتبدى لي ذكرى موتهُ مع ذكرى الرجل الذي قتلتهُ في الشارعِ كأكبر أدلةٍ على أنني تغيّرت فعلاً دون قرارٍ مني، ودون أن أرغب.

أحتاجُ إلى مازن، لا أعرفُ لِمَ تظهر أمامي صورتهُ كأنهُ منقذي؟

اخبارهُ انقطعت تمامًا، ولا تُجدي كل الرسائل التي أرسلها لهُ.

يبدو لي أحيانًا كأنهُ حلمٌ لم يوجد إلا في خيالي، ولم أعرفهُ إلا وهمًا.

أسيرُ كل يومٍ مسافاتٍ طويلةٍ بحثًا عن مساحةٍ واسعةٍ في الخلاء تسمحُ لي بالاتصال بهِ، غير أنني لم أجد مساحةً كافيةٍ كالتي وجدتها قبل ذلك حين كنتُ لدى سمرة.

حتى خيار العودة لبلدي لم يعد موجودًا.

بعمل بلا نقود لن أشتري تذاكر السفر للبلاد التي جئتُ عبرها. وبلا سمرة سيلتقطني رجالُ الجاساك قبل أن أركب الحافلة إلى المطار.

لم يكن أمامي سوى البحث عن مازن.

لهذا أسيرُ، وأذهبُ لأماكن كثيرةٍ بحثًا عن مساحةٍ في الخلاء أحدثهُ عبرها.

تدريجيًا يتصاعدُ الغضب في داخلي مع كل محاولةٍ فاشلةٍ أجربها.

أتلقى يوميًا من مشاهدِ العنف ما يفقدني القدرة على الإحساس، ومن الظلم ما يغيم الدنيا أمام ناظريّ.

أتجاوز تحذيرات الأمان التي سُرِدت على مسامعي عشرات المرات، وأسير غاضبةً مجروحةً أشاهد هذه الأشباح التي تنتسب زورًا للبشر.

كم من مكائدٍ حاكها الشيطانُ لهذه البلاد لتكون على هذه الصورة، كما حاكها لوطننا لننضم داخل ذاتِ الصورةِ إعلانًا لعبقرية الغباء البشري.

صار من المعتاد أن أجد مجموعة من الناس ملتفةً حول أحدٍ ما تضربهُ أو تطعنهُ بكل أنواع الأسلحة ليسيل دمهُ حتى الموت دون أن يلتفت لهم أحدٌ، أو يحاول منع ما يتم.

لم يكن برنامج القنّاص هو سبب انتشار القتل، بل سبب التلذذ بالقتل والتعذيب، أما حالات القتل الأخرى فيسببها الغضب الذي صار يحرك الجموع ويعيد تشكيل طبيعتهم ويردهم أسفل سافلين.

هوجمتُ عدة مراتٍ، لكنني تعلمتُ كيف أدافع عن نفسي، وكيف أتوقع الهجمات التي يمكن أن تحدث. تعلمتُ مراقبة من حولي، واتباع قوانين الصيّد. لكنني لم أتعلم أن أوقف تيارات الحزن بداخلي. الحزن الذي ترسخ في أعماقي وصار شيئًا وجوديًا ثابتًا كالحياة نفسها.

في مصر يجب أن تكون متعاقدًا مع إحدى شركات الأمن لتحميك وتكف يد الآخرين عنك. لا وجود للشرطةِ في الشارعِ ولم أر غير شعارات الشركات على المحلات والمولات التجارية الكبيرة، والعملاقة.

(أمان) بقبضتها الدموية المرفوعة عاليًا، (هرقل) النصفُ العلويّ العاري لرجلٍ مزدحمًا بالعضلاتِ حد الاختناق، (العين) بعينها المحصورة داخل شكلٍ هرميّ يتقد اشتعالاً كأنه الشمس.

أما الرعب الحقيقي فيصيب جميع الناس حين تلتقط آذانهم صوت هليكوبتر وتتبدى في السماء طائرةً سوداء تحمل على جانبها الحروف المرعبة Gassac إلى جوار القبضة السوداء المضمومة، بسبابتها المفتوحة. الناس تتوارى وتتوقف عن كل ما تفعلهُ.

يفسحون الطريق للسيارات السوداء المسرعة التي تحمل نفس الشعار، يتابعون الحصار المضرم برًا وجوًا حول أحد العمارات أو المبانِ الشاهقة، يحدث الإنزال الجويّ والصعود عبر الواجهات الخارجية للمباني، لسحب حفنةً من البشر، ثم الإنسحاب السريع لتعود الأمور كأن لم يكن شيئًا، كأنها لحظةً منسيةٍ يعجز العقل عن الاعتراف بها فيخدرها في نفسهِ كي تمر سريعًا.

الناسُ تحملُ في عيونها سمتُّ الضباع؛ نظراتٌ مراقبةٌ مخيفةٌ، أو تدعي الإهمال وعدم الاهتمام بينما تتابعُ عن كثبٍ من طرفٍ خفيّ لتبحث عن شيءٍ تنالهُ منك.

فقدت كل الأحاسيس معانيها ولم يبق لي سوى الصمت. أتذكّرُ المرأةُ التي لقيتها في إحدى المتنزهات تتعرض للاغتصابِ أمام الناس التي تدقق النظر ناحيتها وترحلُ صامتةً، البعض الآخر يقفُ متفرجًا مستمتعًا بالمشاهدة منبهر الأنفاس.

لم أصدقُ عيني وقتها وأنا أرى المشهد. انقضضتُ على المغتصب بقطعٍ من الحجارةِ على رأسهِ حتى سال الدم وفقد الوعى، ومددتُ يدي ناحيتها لأساعدها.

لم تهتم بملابسها التي تقطعت، إنما توجهت للجلوس بلا أي شعورٍ ناحية إحدى المقاعد وأخرجت سيجارتها لتدخن في صمتٍ بلا دموعٍ ودون أن تنظر نحوي، سألتها أن ترحل بعيدًا قبل أن يفيق المغتصب فنظرت ناحيتي باستغرابٍ ونفثت دخانها في وجهي. شددتها من يدها أحاولُ إبعادها فشدّت يديها منّي وقالت أيُّ فرقٍ بين أن يتم هذا هنا أو بعد أمتارٍ أخرى قليلة، أيُّ فرقٍ أن يتم هذا الآن أو أمس أو الغد. صرخت في وجهي ان أرحل وقالت أنها لم تتعود على الشذوذ بعد.

حينما وقفتُ متجمدةً في مكاني، قامت بهدوءٍ تكلم نفسها وتعدل ملابسها وهي شاردةٌ في أفقٍ آخر، سمعتها تلعن رضيعها الذي اضطرها مرضه لنزولها والبحث عن أي دواء له.

لقد صار الوجعُ هو الوجود ذاته، أتحرك في ظلّهِ وتحت رايتهِ، أرافقهُ في ذهابي وإيابي، ألعنهُ في سري وجهري، وأطردهُ بلا جدوى من قلبي.

تمرُّ الأيام بلا معنى ولا قيمة، حتى صارت كالسراب في صحراءِ الدهشةِ التي تحتويني منذُ ولجتُ إلى هذه الأرض.

أموت ألف مرةٍ مع كل حادثة أشاهدها، وأتذوق الموت فيها حتى صار طعمهُ المر في حلقي يعكس طعم الحياة.

جئتُ يوم جئتُ مع مازن بقلبٍ يحملُ الحزن والحماس مناصفةً، ويحملُ من الإرادةِ أضعاف ما يحملهُ من اليأسِ، ويملكُ من الجهلِ بالواقع ما يمنحُ القدرة على الابتسام.

لكن الحزن صار كرمالِ الصحراءِ التي تكسوا كل شيءٍ بعد العواصف، وتخلّف الوجع وراءها كأثرٍ جانبيّ للفوضى.

* * *

مريمة!

(٤)

رأيتُ الدكتور على مصادفةً.

المكانُ موحشٌ وفوضويُ، لا ينتمي لباقي المدينةِ أو لباقي البلاد بأي شيء. لا يشبهها في مبانيها الشاهقة، ولا في أناسها المتحاربون والمتصارعون، ولا في شوارعها الواسعة.

الناسُ هنا تختلطُ بأكوامِ القمامةِ وبمياهِ المجاري ورائحتها. تسيرُ في الطرقاتِ حاملةً الطعام والأواني، وتلعب الأطفالُ في الشوارعِ دون أن أرى بقعًا من الدماءِ على الأرض.

أتت بي قدماي إلى هنا بعد محاولاتٍ عديدةٍ لاكتشافِ مكانٍ ناءٍ للاتصال بمازن. لم أعد قلقةٌ بخصوصِ الأمن لأسبابٍ كثيرةٍ منها أنني صرتُ أحملُ سيفًا وملامح غاضبةً تفرض هالةً من البأسِ.

يفصلُ بين هذا الحي وباقي الأحياءُ مجريً مائي طويلٌ جدًا، كأنهُ يقسم الأرض نصفينِ، يمتلئ بالحشائش والقمامةُ وروث الأحصنة التي تنتشرُ على جانبيهِ، حتى مبانيهِ يعلوها سوادٌ غريبٌ، ويمتلئ جوهُ برائحةٍ عطنةٍ غريبة. سمتٌ غريبٌ مقبضٌ.

المكانُ لهُ رائحة الحزنِ، كأنما الوجعُ أحد سكانهِ. شيءٌ ما في رائحة الهواء أو شكل المباني القصيرة المزخرفة أحيانًا أو أهلهِ البسطاء الذين لا يبدو أنهم ينتمون للعالم الشرس بالخارجِ يوحي بعجائبيتهِ وإدهاشهِ.

وسط هذا رأيتُ الدكتور على البريمي. يرتدي قميصًا مزركشًا وبنطالاً وقبعةً صغيرةً فوق رأسهِ. يهرولُ في طريقهِ ويعبر الجسر الذي يقطعُ الطريق المائي، يصافح بعض الناسِ الذين بدا أنهم يكّبِرونهُ ويحترمون وجودهُ.

حين عبرتُ الجسر المعدنيّ البدائي - مقتفيةُ أثره – شعرتُ أنني أعبر حافة الزمنِ، وأمرُّ فوق جسرٍ ينقلني عدة قرونٍ للوراء.

يمرُّ عبر شوارعٍ ضيّقةٍ تمتلئُ بالصبيةِ التي تلعب الكرةَ وتتصارخُ بعنفٍ، وبالفتيات الصغيرة اللاتي رحن يصطففن في جماعاتٍ ويكتبن أو يرسمن فوق الجدران. الدكتور على بملابسهِ البسيطةِ يبدو أنهُ قطعةً من هذا المكان لا غرابة في وجودهِ. أما أنا، فقد شعرتُ بالأعينِ التي تراقبني في توجسٍ لتواجدي في هذه الأزقةِ بهذه الملابس السوداء اللامعة والسيفُ المستفزُ حول خصري.

ثم وقف الدكتور على أمام بيتٍ صغيرٍ من طابقينِ، مغلقٌ بابهُ على عكس كل البيوت المفتوحة أبوابها ويجلسُ النساءُ على عتباتها.

طرق الباب، ففُتح لهُ ثم اختفى وراءه. ووقفتُ أفكرُ بأنفاسٍ عاليةٍ لاهثة.

ما الذي يفعلهُ أستاذٌ جامعيٌّ باع نفسهُ وعلمهُ وحصل على كل ما يريد في مكانٍ كهذا ؟

ما الذي يفعلهُ رجلٌ يعيش في مستوىً اجتماعيّ شديد الرقيّ، في مكانٍ قاحلٍ موبوءٍ كهذا ؟

الفضولُ ينهشُني، وراحت الأفكارُ تتردد في خيالي ترسمُ قصصًا وهميةٍ عن الرجل، طردتها جميعًا وأنا أتوجهُ بهدوءٍ وحذرٍ إلى ذات الباب أطرقهُ.

- تريدين ماذا يا مدام ؟

أفزعني السؤالُ الذي أتى من خلفي بصوتِ امرأةٍ لا تختلف عن الرجال في شيء.

التفتتُ لأواجه غوريلا تلتفحُ السواد، بدينةٌ إلى حدٍ لم أرهُ في حياتي، تنظر لي بريبةٍ وشكٍ كأنها جاهزةٌ لافتراسي، قلتُ بهدوءٍ محاولةً صُنع ابتسامة:

- الدكتور على البريمي، دخل هنا الآن!

قالت بعدائيةٍ واضحة:

- لا يوجد أحد بهذا الإسم هنا.

- أيًا ما كان اسمهُ، هو رجلٌ في الستين تقريبًا، يرتدي قميصًا مزركـ..

قاطعتني وهي تقتربُ تدريجيًا كأنها على وشكِ انتزاعي والإلقاء بي بعيدًا:

- هذا منزل مجموعة من الشباب العزّاب.

ثم بدأت ترفع عقيرتها:

- ماذا تريدين أن تفعلي في منزل الشباب العزّاب؟

تراجعتُ باستغرابٍ من التهمة، كأنما هي شيءٌ مشينٌ بالنسبةِ لهم، ألم يأتها نبأ الفسادِ بالبرِّ والبحر؟

قلتُ:

- لا شيء، أريد أن أقابل أحدهم هنا على الملأ أمام الجميع.

اتسعت عيناها هولاً، ثم صرخت بأعلى صوتها:

- أنتِ حيوانة يا امرأة.

ثم علت عقيرتها مناديةً الجميع:

- يا عبّاس، الحق؛ المرأة تريد أن تقابل أحد الشباب أمامنا في الشارع. يا صامبو، المرأة تريد أن تنام مع أحد الشباب أمامنا جميعًا. يا أحمد يا صعيدي المرأة تريد أن تمرمغ رؤوسنا وتقابل الشباب في الشارع...

مندهشةٌ من اختلاف المكان وثقافتهِ عن كل ما يدور خارجهُ، وجدتُ الرجال يهرولون بفنلاتهم الداخلية إلى حيثُ نقف، يسألون عمّا يحدث بعينينِ يغلبها الحذر، ثم أتى المزيد من النساء، واحتشد الجميع أمامنا كلٌ يقول بما فتح اللهُ عليهِ.

تراجعتُ للوراء أمسك قبضة سيفي، بينما تقترب الجموع الغاضبة في اتجاهي.

تقدم أحد أصحاب الكروش الكبيرة في فانلتهِ الداخلية، أشار بيدهِ للجميع:

- خلاص؛ المرأة لم تخطئ بعد وكانت تستأذن؛ هي لا تعرفنا، ربما أتت من الخارج، وأنتم تعرفون ما تفعلهُ النساءُ في الخارج.

هدأت الأصوات قليلا، وإن بدت بعض الأصوات المحتجة التي تطالب بشنقي، والتمثيل بجثتي. تابع صاحب البطن المتضخم:

- اسمعي يا ست. نحن سنحترم أنكِ امرأةً وأنكِ غريبة، سيرافقكِ أحد الصبية إلى الخارج، ولا نريد أن نراكِ هنا مجددًا.

حاولتُ ان أقول:

- أنا فقط أريد الدكتور على.

أشار بإصبعهِ قائلاً:

- لا يوجد بيننا من يحمل هذا الاسم، ابحثي عنهُ في مكانٍ آخر.

ثم أشار بيدهِ أنه لا يقبل المزيد من الكلام:

- إذا أتيت مرة أخرى سأتركك لهن.

و أشار إلى مجموعة من النساءِ البديناتِ المحتشدات حُمر الأعين والوجوه من الغضب. ثم رفع ذراعهُ عاليًا وقال بصوتٍ جهوريّ:

- هذا هو حُكمي، هل يوجد معارض؟

سكت الجميع وهدأت الأنفاسُ الثائرة، فأشار إلى أحد الصبيةِ متسخي الوجوه وقال:

- أوصلها يا حودة إلى الكوبري.

مشيتُ وراءه شاعرةً بالدهشةِ. بدا لي أسطوري وسط كل ما عشتهُ من قبل، لم يحاول أحد قتلي، لم يهتموا بالسيف الذي أتمنطق بهِ، أرسلوا معي طفلاً ولم يخشوا عليه، يبدو أنهُ لا وجود للبرنامج في هذا المكان.

يتحدثون عن الشرف، والشباب الأعزب، وعن الفضيحة، وعدم وجوب مقابلتي لشاب!

ما هذا المكان!

كأنما سقط من الزمن الذي غيّر كل ما هو خارجهُ إلى الأسوأ.

على أن العيون ظلّت تتابعني حتى عبرت الجسر أو الكوبري لأعود إلى الزمن المعروف، بعيدًا عن هذه الأسطورة الغريبة.

لا أعرفُ لماذا تذكرتُ (المغارة) والشيخ الحورانيّ. بدا لي هذا المكان أو هذا البيت ذي الطابقينِ تحديدًا يشبهها كثيرًا.

أيُّ جنٍ يسكن البيت الموصد؟ وهل تحول الدكتور على إلى جنٍ يحرسهُ الأهالي بهذا الطريقة؟ هل يحكمهم أم يحكم هذه البلاد ؟

أشعرُ أنني كنتُ واهمةً، وأن الدكتور على لم يوجد قط في هذا المكان. شعرتُ بسخافتي مما حدث؛ أكنتُ أحاولُ أن أدخل بيتًا لشبابٍ عزاب ؟

وضحكتُ ساخرةً، ساخطةً في أعماقي.

على أنني في اليوم التالي وجدتهُ.

تراجعتُ في دهشةٍ وبدأتُ أشعرُ أن ما رأيتهُ في المكان الغريب لم يكن وهمًا محضًا.

يجلسُ على إحدى الموائد في المطعم بجوارِ زوجتهِ، يرتدي حُلةً أنيقة، وينظر لي ويشيرُ بإصبعهِ أن أوافيهِ في الحال. ضحك وهو يسألني عن حالي، ثم لما لم أجبهُ حاول أن يذكّرني بالأسلوب والأداء الذي يجب أن أعامل بهِ الزبائن.

ابتسمتُ ابتسامة صناعيةٍ ودونتُ طلباتهِ.

قضى وقتًا طويلاً مع زوجتهِ يتابعني بعينيهِ. في نهايةِ فترةِ عملي ذهبتُ لتغيير ملابسي، وتوجهتُ إلى الحافلة التي يتم شحننا فيها، فوجدتهُ ينتظرني عند الباب، أشارٍ بطرفِ عينيهِ أن أتبعهُ.

استأذنتُ مدام إيمي أنني سأحتاجُ للبقاء وحيدة للتخطيط لمشاركتي بالبرنامج، فأذنت لي وطلبت أن أعرض عليها النتائج.

بقيتُ دقائق بالداخلِ، ثم خرجتُ وسرتُ طويلاً وورائي على مسافةٍ بعيدةٍ سار الدكتور علي بسيارتهِ. كان عليّ أن أتأكد أن أحد لم يعد في أثري، حتى لا يسألني الجاساكُ عن علاقاتي.

حين ركبتُ معهُ سيارته، وجدتهُ مبتسمًا، وزوجتهُ تبدو مختلفةً كثيرًا عن المرأة التي قابلتها في بيتهِ قبل ذلك.

ثمةُ شاشةٍ تعرضُ الأخبار، وتتابعها زوجتهُ بهاتفها الملتصق على يديها والقلم الخاص بالهاتف وتكتب أشياءً.

قال لي ونظرهُ ناحية الطريق:

- كيف وصلتِ لهذا المكان ؟ أكنتِ تراقبينني ؟

لم أرد عليهِ.

التفت لي بجسدهِ يقول:

- لماذا تراقبيني يا مريمة ؟ تعرفين أنني أستطيع تدميركِ في لحظة!

يشتعل الغضب داخلي:

- ستكون فريستي للاشتراك في البرنامج.

أرتد، وبدت عليهِ علامات الذهول.

أنا كذلك اندهشتُ مما قلتُ. لم أفكر لحظةً في الاشتراك في البرنامج، ولم أفكر في قتل الدكتور على أبدًا.

الغضب الذي أتلقاهُ يوميًا ترك أثاره المدمره في خلاياي دون وعيّ.

- لهذه الدرجة يا مريمة ؟

بدت الدموع تحتشدُ في عيني دون إرادة ولا رغبةً منّي.

- أنت خائن.

يعكسُ الزجاج الأمامي – حيث تجلس جوارهِ- ملامح زوجتهِ المندهشة، وتوقفها عما كانت تدونّه.

قال بقسوة:

- أنتِ تتحولين تدريجيًا لواحدةٍ من القتلة والرعاع، ثم تتهمينني بأنني - بعد ثلاثين عام - ضعفتُ وتهاونت.

تركتُ نفسي لشلال الدموعِ، بكيتُ دون أن أملك القدرة على تملُّك أنفاسي، كأنني أخرجُ أطنانًا من الألمِ والحزن والغضب، كأنني أتخلى أخيرًا عن وهمِ الصمود الذي عشتهُ شهورًا طويلة.

تغيم الرؤيةُ أمامي. تتقطع أنفاسي كأنني على وشكِ الاحتضار. يُكمل الدكتور على بذات القسوة:

- أنتِ لم تُلقينِ وحيدةً في الشارعِ تتصارعُ حولكِ الناسُ، وجدتِ مساعداتٍ مختلفةً وفي نهايةِ كل ليلةٍ كنتِ تجدين فراشًا يحتويكِ، لم تلقين مصيري ليوم واحد مما عانيتهُ، لم تتلقفكِ يدُ الجاساك لتكوني عينهم في أي مكانٍ تكونين بهِ، ولا جلستِ أمام حديث عطية الله تشعرين أن كل ما يقولهُ حقٌ وتخرجين من حديثهُ تمجدين لجنة الحكماء، وتسجدين للجنرالات. أنتِ لم تسقطي يومًا في يدِ رجالِ الجاساك.

لم أكن أرى أمامي شيئًا، وحاولتُ كثيرًا أن أمسح بكفيّ دموعي، لكنها كانت تسقط لتحتشد من جديد في عينيّ:

- أنتِ لم تواجهي شيئًا من ظلم هذه البلاد بعد، كنتِ مرفهةً لأقصى الدرجات. ولم تكوني وحيدةً كما تتوهمين، وتمارسين دور الضحية، ودور الاستشهاد، هذه من قوانين الفريسةِ لو كنتِ تعلمين.

صمت قليلاً، وبدأتُ أشعرُ أن ثمة أطنانًا من الضغوط تنزاح عن صدري. فتدمعُ عيناي من جديدٍ لتحرري منها:

- كيف تتحولين إذن لواحدةٍ منهم، هؤلاء البشر الذين عاصروا كل فنون الظلمِ والفساد الذي لا يتخيلهُ أحد جيلاً وراء جيل، لم يكن أمامهم سبيلٌ للهروب، ولا قدرة على مجابهة كل طرائق التعذيب التي يواجهونها بيأسٍ لا حدود له. هؤلاءِ البشر يموتون ألف مرةٍ قبل أن تمتد يدٌ لهم بالقتلِ أو التعذيب.

نظر لي، بوجهٍ متجهمٍ:

- هل تشعرين الآن بشيءٍ من أوجاعهم وآلامهم؟ هل تدركين حجم ما يعيشونهُ وعدم قدرتهم على المواجهة أو التصدي له. هل تشعرين بهم يا مريمة ؟

جيلاً وراء جيلٍ يخرج منعزلا عن العالم، يواجهُ نظامًا يظنُ أنه هو الوجود ذاتهِ، وأن الحياة كانت هكذا منذ بداية الخلقِ. على أن نفسي لم تهدأ، بل ازدادت لوعةً وألمًا، عاود الدكتور على سؤالهُ:

- هل تشعرين بهم يا مريمة ؟

واجمةً أنظرُ لهُ، أرى في عينيهِ شيئًا لم أكن أره من قبل، هززتُ رأسي إيجابًا ببطئٍ:

- أ حقًا يا مريمة ؟

سقطت دموعي مجددًا. فابتسم لها وقال وهو يعاودُ النظر أمامهُ:

- هذه هي أول خطوات الثورة يا ابنتي!

ثورة؟!

هزّتني الكلمة!

دون وعيٍ تلفّتتُّ حولي، لأتأكد أن أحد لم يسمع الكلمة المحرّمة.

لاحظتُ ابتسامة الزوجة. ثم انتبهتُ بعد أن غابت الغيمةُ عن عينيّ للمكان الذي صرنا إليه.

مبانٍ منخفضة الطول، ينتشر في الشوارع كثيرٌ من الناسِ دون أن يحاولوا تصيّد بعضهم البعض، وإن انتشر العنف في تعاملهم مع بعضهم البعض. كنّا نقتربُ تدريجيًا من المجري المائي.

أنا كنتُ هنا بالأمس.

- لم أكن أتوهم أني رأيتك إذن؟

ضحك وضحكت زوجتهُ. قالت الزوجة بعد صمتٍ طويلٍ:

- دهبية لم تكذب عليكِ، ولا أحمد الصعيدي كذلك. البيت يسكنهُ الشباب العزّاب بالفعل، ولا أحد يعرف اسم الدكتور على.

ترجّلنا من السيارة. سرّنا على أقدامنا فعبرنا الجسر الذي لا زلتُ أحسهُ فاصلا يين زمنينِ وعالمين. رفع أحد المارة يديهِ بتحيةِ إكبارٍ للدكتور على وقال:

- سي هارون، ما أخبار معاليك ؟

رد الدكتور علي تحيتهُ بتحبةٍ مماثلةٍ. قلتُ بدهشة:

- هارون ؟

قال بضحكةٍ خفيفة:

- نوعٌ من الأسماء الحركية، جميعنا نحملُ أسماءًا حركيةٍ كهذه لتصعب الوصول لنا قليلا.

سلكنا الطريق عبر الشوارع بحرصٍ شديدٍ حتى وصلنا إلى المنزل الصغير ذي الطابقينِ الذي حدث ما حدث أمامهُ بالأمس.

لا يبدو على الناسِ أنها ترانا، تتحدث مع بعضها البعض، ولا تنظر ناحيتنا. وجدتُ المرأة الفضيحة تقفُ تتحدث مع رفيقةٍ لها، مررتُ أمامها وأنا أنظرُ لها فلم يبد أنها تراني.

طرق الباب طرقتين فطرقتينِ، فُتح وظهر خلفهُ شاب منكوش الشعر، دخلنا وقال الدكتور على وهو يدعوني للداخل:

- مرحبًا بكِ في المقر الفرعي للحركة المصرية للإصلاح.

وأكملت زوجتهُ:

- أو كما اصطلح على تسميتنا: ثوار القمر.

* * *

مبهورةُ الأنفاسِ أسيرُ وراءهما.

أنا في داخل مقرٍ لثوارِ القمر ؟

عبرنا عدة أبوابٍ، حتى وصلنا إلى مصعدٍ صغيرٍ دخلناهُ وأُغلِّق الباب فهبطنا عدة طوابق إلى أسفل.

ووجدتُ قاعةً شديدة الإتساع ينتشرُ بها عشرات الأجهزة وعشراتُ الأفراد في شكلِ جماعاتٍ منفصلة، المكان بنظافتهِ واتساعهِ وجدرانهُ المصقلة بدا كأنه لا يمت بصلةٍ للمنطقة التي يقبع تحتها بعدة أمتارٍ.

استقبلتنا امرأةُ في منتصف العمرِ بابتسامةٍ:

- على الرغم من أننا لا نقبل منضمين جدد، إلا أن هارون راهن على أنكِ ستبكين.

قال الدكتور على، أو هارون كما صار الآن :

- بلقيس، أكثر من عارض قدومكِ بسبب علاقتكِ بسمرة الراسي.

نظرتُ للمرأةِ، فقالت بودٍ:

- أنتِ لن تعرفي سمرة مهما ظننتي أنكِ عرفتِها، هي قادرةٌ على التأثير فيكِ مهما ظننتِ أنكِ لا تتأثرين.

قالت زوجةُ هارون:

- لم نتخيل أنكِ ستبكين أبدًا.

سألتهم حائرة وأنا أدور بعيناي في المكان:

- ما أهمية أني بكيتُ برأيكم ؟

لا حظت بلقيس اهتمامي بما يدورُ حولي، فأشارت لي أن أتحرك لتعرفني على المكان، قالت:

- بالتأكيد أنتِ لم تلاحظي هذا، لكن أهل هذه البلد لم يعدوا يبكون.

توقفتُ للحظة، أرجعُ بالذاكرةِ بحثًا عن أي أحدٍ رأيتهُ يبكي، تكمل بلقيس:

- هي ظاهرةٌ غريبةٌ لحظناها لكننا اختلفنا في تفسيرها. الناسُ هنا يصرخون خوفًا، يهربون، يستسلمون، ييأسون لكنهم لا يبكون.

ثم قال لأحدهم وهو يتابع ما يفعلون:

- بيبرس؛ هل أنهيت تقرير قناة التميّز؟

جعلني اسمهُ الكودي أبتسمُ بالرغمِ منّي. عبث الشاب بهاتفهِ المزروع في كفّهِ، قال:

- وصلك الآن.

تفقد هارون هاتفهُ ثم أنزوى جانبًا، سألتُ بلقيس:

- لا زلتُ لا أعرفُ ما أهمية أني بكيتُ.

قالت وهي تتابع هارون بقلق:

- نعتبرهُ مقياسًا على قدرتكِ على التغيير، وعلى نقاءكِ الداخليّ، ودليل على اختلافك عن الآخرين.

اقتربت من هارون المستغرق في قراءة التقرير، قال في النهايةِ بغضبٍ شديد:

- لم يعد هناك أي منطق. الناسُ فقدت قدرتها على تذكر أي شيء. الفرق بين خبريين متناقضين على نفس القناة أقل من دقيقتين، دون أن تأتي رسالة واحدةً على شريط الرسائل يستنكر هذا.

انتظرتُ أن يوضح لي أحدٌ ما شيئًا مما يحدث إلا أن بلقيس قالت:

- ربما هذا لا يعطي إشارة سيئة. يمكن أن يكون المشاهدين فقدوا اهتمامهم بالمتابعة.

- كيف يمكننا أن نعرف هذا ونقيسهُ إذن ؟

قلتُ بصوتٍ خفيضٍ:

- لو أوضحتم لي الأمر ربما أفيدكم.

نظر لي هارون وشرد، قالت بلقيس:

- لا زال أمامكِ الكثير من التدريب حتى تفهمي ما نعمل.

أوقفها هارون بيدهِ، ثم أشار لي بيدهِ كي أسير معه. وقفت زوجتهُ وبلقيس مع الشاب بيبرس يتناقشون، بينما سرتُ معهُ حتى انزوينا في ركنٍ بهِ مكتبٌ عليه بعض أجهزة الكمبيوتر الحديثة.

قال أخيرًا بابتسامةٍ متوترة:

- لا أعرفُ من أين أبدأ بالضبط، ولا أذكر تحديدًا كيف بدأنا فتطورنا لما نحنُ عليهِ. لكن، اسمحي لي أن أبدأ بهذه اللحظة، بما نفعلهُ الآن، وأظنُّ أن كل شيءٍ ستعرفيهِ تدريجيًا.

هززتُ رأسي متلهفةً أن أعرف، وأن يتكلم من أي بداية، قال:

- أحد المهام التي نقومُ بها هي (اختراق الإعلام). تعتمد هذه المهمة على متابعة الإعلام بصحافتهِ وجرائده الإلكترونية، وقنواتهِ المختلفة، وكل أدواتهُ على شبكات الإنترنت المختلفة. كل فرد في هذا الفريق يأخذ جريدةً أو قناةً أو مجلةً أو قناة إليكترونية ويقوم بتلخيص وتسجيل كل الأخبار التي يتم بثّها، على مدى أيامٍ متتاليةٍ يكون أمامكِ ببساطةٍ مدهشة رؤية كاملة عما تفعله القناة أو الجريدة، وهي في أغلبها تكون أخبار متناقضة ومتضاربة ولا علاقة بينها وبين ما يحدث في الحقيقة، ولهذا حين نبدأ في فتح ملفات معينة من ملفات الفساد أو التدخلات الأجنبية نقوم بتجميع المواد الإعلامية التي تناولت هذه القضية فنكتشف حقائق كثيرة.

لم تكن الرؤية واضحةً أمامي تمامًا، وإن راقتني الفكرة الإجمالية، لكن هارون تابع:

- مثلاً ملف الشيخ عطية الله نفتحهُ خلال هذه الأيام. عطية الله هو مفتي البلاد، خطبهُ ودروسهُ وأحاديثه تنتشر في كل مكان، هو يتكلم باسم الدين والناس تتبعهُ دون أن تفكر، بينما كل كلامه مختلطٌ ومتضارب ولا صلة له بالدين، الآن نشرت لهُ قناة التميز خبرين على لسانهِ، أحدهما أحلّ دم جماعة الخوارج، والآخر استنكر هذا بشدة. كأنه شيخينِ بعمامتينِ. المشكلة أن قناة التميّز هي أحد القنوات القليلة التي تسمح بنشر رسائل المشاهدين على شريطها الإخباري دون فلترة الرقيب، ولم يرسل أحدٌ أي شيءٍ يستنكر ما قالهُ عطيةُ الله، وهذا مؤشر على عدم جدوى فتح ملفّهُ.

- لماذا ؟

صمت لدقيقةٍ يفكر ثم قال بأسلوبٍ حاول أن يكون هادئًا:

- سأحاول أن أوضح لكِ أكثر. حين نفتحُ ملفًا ونجمع موادهُ نقوم بعمل منشور صغير من صفحتين أو فيديو قصير جدا حول القضية نحاولُ من خلالهُ أن نوضح الحقيقة، ونكشف زيف الإعلام. هنا إذا قدمنا شيئًا عن عطية الله يبدو ان الناس لن تستمع أصلا، لأن الدين الذي يزورهُ يعمي عيونهم عن الحقيقة.

جاءت بلقيس تهمسُ في أذنهِ بشيءٍ، فهز رأسهُ، سألته:

-وهل تستمع الناس أصلا ؟

ابتسمت بلقيس وقالت:

- ماذا تقصدين بتستمع ؟

سألتها مستوضحه:

- في الغالب ماذا يكون رد فعل الناس؟

قالت ساخرة:

- الناس لا تسمع، ولا ترى، ولا تتكلم، الناسُ لا تستطيع أن تمنحك أذنيها خوفًا من مراقبة رجال الجاساك لهم. حين بدأنا أسلوب (اختراق الإعلام) هذا، كُنا نوزِّع المنشورات على أبواب المنازل، حين رآها الناسُ صباحًا أغلقوا أبوابهم بسرعة، واتصلوا بالجاساك ليخلوا مسئوليتهم. المضحك أن الجاساك قبض عليهم باعتبارهم خلية إرهابية تقوم بعمل خدعة وتتحداهم، بعد ذلك صار الناس يحرقون المنشورات صباحًا قبل أن يفتحوا أبوابهم.

قال هارون:

- عرفنا في هذه الأوقات المشكلة التي يعانون منها؛ أنهم يخشون الاستماع للحقيقة، وأنهم في حاجةٍ لقناع يختبئون وراءه فقط كي يستمعوا لما تقول، ثم يدّعون بعد ذلك أنهم لم يسمعوا ولم يعرفوا شيئًا. محاولة غريبة لخداع النفس، كي لا يحملوا وزر اختياراتهم، ولا عبء انبطاحهم.

أكملت بلقيس:

- بعد ذلك وجدنا طرقًا أخرى في نشر المنشورات بإلقائها في الشوارع وفي المتنزهات وهي طرق على بساطتها وبدائيتها إلا أن نتيجتها كانت رائعة، لأن الناس بدأت تلقى نظرات خاطفة وتقرأ ما كتبناهُ وترتعب وجوههم ثم يدّعون أنهم لم يقرءوا شيئًا بل ولم يجدوا أي منشوراتٍ ملقاه في الشارع. بعدها بدأنا

الهجوم على المواقع الحكومية الإليكترونية وتركنا عليها بعض الفيديوهات التي ننتجها فكانت عدد مرات مشاهدتها تتجاوز المليون أو المليونيين. كنّا نسيطر أحيانًا أخرى على شاشات العرض الإخبارية في الميادين ونعرض عليها موادنا.

قلتُ بدهشةٍ:

- أليست هذه مخاطراتٌ شديدة ؟

وقال هارون وهو يتابع العمل الدائر حوله:

- بالتأكيد، وقد قُتل بعضنا، وعذب منا الكثيرون. لقد كان صراعنا مع العوائق النفسية التي وضعتها الناس نفسها بينها وبين الحقيقة، أكبر من صراعنا مع الجاساك ورجال الأمن. لم يكن باستطاعتنا تغيير الناس ما لم يكتشفوا هم بأنفسهم ما يعيشونه من ضلال ويرغبون في تغييره. لهذا كان علينا أن نصنع إعلامًا بديلاً، إعلامًا يصل إلى الناس في الشوارع، ويهتم بقضايا تهمهم وتعكس مدى فقر أحوالهم وبؤس أوضاعهم. كثيرون منهم كانوا يبكون في الخفاء، وكنّا نراقب الأثر عن بُعدٍ لنتأكد من مدى قوة ضربتنا.

ثم أكملت بلقيس:

- البكاء كان إعلانًا عن انتهاء تجربتهُ مع المعاناة، وسقوط الحواجز النفسية بينه وبين الحقيقة، لا يبقى بعدها سوى دفعهُ إلى الطريق الصحيح، ونزع الخوف تدريجيًا.

أخذتُ أفكر في كل ما قالوا. سكتُ طويلاً ثم قلتُ:

- لماذا تهتمون بالناسِ أصلا وبتغيير أفكارهم؟ أليست الثورة تعني أن تواجهوا النظام مباشرةً؟

ردت بلقيس:

- نواجههُ بماذا؟ لو كنّا خرجنا في مظاهراتٍ حاشدة منذ البداية، كان سيبيدها الجاساك في ساعاتٍ ثم يحظون بتأييد الناس على قتلنا بإعتبارنا أعداء الدولة.

قال هارون وهو منشغلٌ بهاتفهِ في يدهِ:

- ثورتنا الآن تعتمد على صناعة الوعي. وهي الخطوة الأولى في مرحلة الإصلاح فالتغيير الشامل.

وأكملت بلقيس:

- الآن صار بمقدورنا تنظيم مظاهرات رافضة لحكم اللجنة، إلا أن الناس لا تؤيد الجاساك حين يفضونها بالقتل والتعذيب، هذه نقلة رهيبة بالنسبةِ لما كان فيه الناسُ قبل ذلك.

قلتُ:

- وبرغم معرفتكم بهذا تخرجون للتظاهر؟

- بالتأكيد، المسألة تكمن في إيماننا العميق بالله، وبكوننا على الحق.

ثم قال هارون بعد فترة صمتٍ:

- المشكلة التي نواجهها الآن في ملف عطية الله، هو ظنّنا أن الناس لازالت تؤمن بكل كلامهُ المتناقض، كأنهُ كلام الله، وتفقد الثقة في نفسها وفي قدرتها على الفهم والرفض لما يقول، الآن نواجه السؤال؛ كيف نرفعُ سلطتهُ الدينيةِ عنهم؟

سألتُ أول سؤالٍ دار بخلدي:

- هل هذه أول مرّة تسلطون الضوء على خطأ أحكامهِ وفسادهِ؟

وأجابت بلقيس أن نعم، عدتُ أفكر من جديد:

- أعتقد أن الأمر سيحتاجُ وقتًا، وكثيرًا من الطرقِ على الحديد الساخن.

أكد هارون على كلامي حين أشار أحد الشباب بيدهِ لنا وقال:

- ستبدأ محاكمة (سعيد المارقي) الآن.

سار أمامنا فسألتُ بلقيس عن هذا الذي ستبدأ محاكمتهُ، قالت:

- أحد المتهمين بالانتماء للخوارجِ برغم يقيننا أنه لا ينتمي لهم.

ابتسمتُ وأنا أسألها:

- ومن هؤلاء الخوارج؟

أشارت إلى الشاشة الهولوجرامية، فنظرتُ ناحيتها.

بدا على الشاشةِ المجسمة عمق المحكمة كأنها تتواجد في ذات الفراغ الذي نجلسُ فيهِ. شعورٌ عجيبٌ أن ترى كل رجال الجاساك بشعار القبضة المضمومة والمفرود وسطاها والملتفون حول المحكمة؛ وسطك كأنهم يقفون جوارك دون أن يروك.

للحظاتٍ ينتفضُ قلبي توترًا.

في وسطِ القاعةِ مجموعة من الكاميرات ومكبرات الصوت، أمامهم منصة القضاء التي عن يمينها ممثل النيابةِ وعن يسارها اسطوانةٌ زجاجيةٌ معلّقةٌ يبدو أن الواقف داخلها هو المتهم.

سألتُ وأنا أتابعُ المحاكمة التي بدأت بإجراءاتٍ رسمية كإسم المتهم وتهمته:

- أين محامي الدفاع وشهود الإثبات؟

ضحك أحد الشباب وقال:

- لا يوجد دفاع.

وسخر آخر :

- ولا شهود إثبات!

دهشتُ كثيرًا:

- كيف لا يوجد دفاع ؟

قال أحدهم ساخرًا:

- الدفاع يعني إهانة القضاء، إذ كيف يعارض أحدٌ ما، ما توصلت له النيابة من قرارات وحقائق.

ضحكوا جميعًا.

قال هارون:

- لا أحد يجرؤ على التدخل بالشهادة في أي شيء.

ممثل النيابة يقول بانفعالٍ وغِّل:

- من أين عَلِم سعيد المارقي بتوقيت هجوم الخوارجِ على بنك المحافظة؟ هؤلاء مجموعة من المنشقين حاملي السلاح يعيثون في الأرضِ فسادًا ما دخل سعيد المارقي بهم؛ إن كان مواطنًا شريفًا همّه مصلحة البلاد.

أحاولُ أن أفهم ما التهمة، وما أدلتها:

- سيقولُ البعضُ أن المواطن الشريف أبلغ جهاز الجاساك من خلال هاتف خدمات الجماهير. هؤلاءِ سأقولُ لهم "لا" يا مدعو الوطنية، انتم لا تفهمون كيف يعمل هؤلاء المجرمون ولا ما هي طرق تفكيرهم ولا علاقاتهم التي تسعى لهدم الدولة وتقسيم وحدتها. هؤلاء سأقولُ لهم؛ لو لم يكن سعيد المارقي واحدًا منهم أو على الأقل على اتصالٍ بهم ومعاونٌ لهم لما عرف بتوقيت هجومهم على البنك، فضلاً عن أن يعرف بوجود هجومٍ على هذا المكان في الأساس.

قال أحد الشباب ساخرًا:

- والدليل الأكبر على أنهُ منهم أنهُ خانهم وأبلغ عن مخططهم.

قال آخرٌ في حُنق:

- متى يدركُ الناس حقيقة كل هذا الخراء؟

- اقتربنا كثيرًا يا صديقي!

ممثل النيابة يُكمل بنبراتٍ غاضبةٍ:

- يقوم بالاتصال من تليفونٍ غير رسمي ليبلغ عن موعد الهجوم ومكانهُ ثم يختبئ في بيتهِ. أهذهِ تصرفات مواطنٍ شريفٍ أم متآمرٍ على الدولة؟

قلتُ:

- ألن يبدأ في عرض الأدلة والإثباتات ؟

جاء الرد:

- أي أدلةٍ وأي إثباتات، لا وجود لهذه الأشياء في المحاكم المصرية. هذا شخصٌ أقام اتصال يبلغُ فيهِ عن أمرٍ ما فقاموا بالقبض عليهِ. لا شيء غير هذا.

قالت بلقيس:

- ثم إننا نعرفُ أن الحكم سيأتي بالإعدام.

صرختُ فزعًا:

- إعدام ؟!!

بالتأكيد، الجميع يعرفُ أنه لا سجون في مصر، ولا سجّانين.

أكمل ممثل النيابةِ:

- إنني أطالبُ بتنفيذ أقصى عقوبةٍ على الخائن (سعيد المارقي)، ليكون عبرةً لكل من تسول له نفسهُ أن يكون عدوًا لهذا الوطن.

صاح هارون مشيرًا بيدهِ لأحدهم:

- بيبرس، هل انت جاهز؟

يشير الشاب بإبهامهِ علامة الإيجاب.

أسألُ محاولةً التوضيح:

- لكن من أين علم المتهم حقًا بالهجوم وتوقيتهُ ؟

ارتج المكان بالضحِك، قال هارون موضحًا وهو يركزُ في قرار المحكمة التي بدأت في سردهِ:

- هذا هو جوهر الأمر يا ابنتي، استغلال المنطقة صفر: توجيه الرأي العام تجاه منطقةٍ محددةٍ يقف عندها التفكير المنطقي.

ثم صاح مرة أخرى:

- استعد يا بيبرس!

نظرت بلقيس ناحية بيبرس وهو يؤكد أن كل شيءٍ تحت السيطرة وقالت:

- لم تكن الفكرةُ أبدًا في كيف عرف ما عرف، بل الأساس في الاتهام هو أن توجد أدلة وقرائن وأسباب ودوافع لتنفيذ الجريمة، وأن تثبت المحكمة أو القضاء أنه عرف هذا بسبب أنهُ كان فردًا من الخوارج بأدلةٍ وبراهين. وليس لأنهم يقولون هذا.

قال أحد الشباب:

- هذا الأسلوب في توجيه الفكر هو الأساس الذي يستخدمونه منذ ثلاثين عاما في إحداث الفرقة بين أفراد الشعب.

كنتُ أشعرُ بالاختناق من كل ما يلقى عليّ في وقتٍ واحدٍ بهذه الطريقة. لم أكن أستوعبُ أمرًا لأجد أمرًا آخر يُلقى في وجهي ألمًا جديد.

يتابع هارون شيئًا ما مع بيبرس، ومع حديث المحكمة الذي يبدو أنه طال، ويقولُ:

- هذا الأسلوب الذي يهاجمون بهِ، ويلقون التهم جزافًا كان وسيلتهم الفريدة في قطع العلاقات بين الأفراد والجماعات . نوعٌ من تفتيت علاقات المجتمع كي لا تجتمع أي فئةٍ أو جماعةٍ أو حزبٍ ضدهم. ولهذا أنشأوا الجاساك في البداية لمراقبة الاتصالات ونشوء العلاقات بين الأفراد. كأنهم يسجنونهم داخل أنفسهم وداخل وسائل الترفيه والدعايةِ التي يصدرونها وهم يؤكدون هذا الأسلوب وهذا التفتيت ويزيدونه سوءًا كل فترةٍ. لكن أهمية هذه المحاكمة تحديدًا تأتي من أنهم تمادوا حتى وصلوا إلى أكبر مرحلةٍ للغباء.

صمت لحظةٍ يتابعُ فيها ما يحدث على الشاشةِ ثم أكمل:

- هم يرسلون – بهذه المرحلة الغبية التي وصلوا إليها- رسالةً مستترةً بأنك إن حصلت على أي معلوماتٍ فلا ترسلها للجاساك. بذلك يقطعون العلاقة بين الجاساك وبين أفراد المجتمع، إذا استطعنا ان نلتقط هذا الخيط جيدًا يمكننا أن نؤكد على زرع هذه الفكرة في الناس. وستكون هذه هي البذرةُ الأولى في اجتماع الشعب ضدهم.

ثم صرخ بأعلى صوتهِ أن يصمت الجميع كي نستمع لحكم المحكمة النهائي:

- وبذلك تحكم المحكمة على المتهم سعيد المارقي بالإعدامِ بعد أخذ موافقة مفتي البلاد.

يظهر الشيخُ عطية الله في شاشةٍ هولوجراميةٍ بجوار منصّة القضاة يقول:

- بعد الحمد للهِ والصلاة والسلام على رسول الله، فإن الله قد أمركم بأن تحكموا بين الناسِ، وأن لولي الأمر حق الطاعةِ على الناس، فإذا ما تبين لكم خيانةُ هذا المارق سعيد المارقي، فأضربوا عنقهُ بيدٍ من حديد، وقاتلوا وقتّلوا كل أعداء بلدنا الحبيبُ في كل شارعٍ وزقاق، جعلكم الله وإيانا زخرًا لهذه البلاد، التي قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليهِ بأن جندها هم خير أجناد الأرض، وأن من أراد بحكّامها سوءًا سوّد الله وجههُ يوم القيامة.

ضحكتُ فجأة، ثم انطلقتُ في الضحك كثيرًا. لم أكن أصدق ما يحدث أمامي، كأننا في أكثر الأفلام كوميدية وسخافة.

قال هارون صارخًا:

-الآن يا بيبرس.

انقطعت المحاكمة فجأة وبدأ عرض فيلم ما، ويقفُ هارون ورفاقهِ يتابعون الفيلم بشغفٍ شديد.

المعلِّق في الفيلم المعروض يقول بصوتٍ متهدج.

- سعيد سليم خالد المارقي. المهندس الذي جاء من السعودية بعد سنواتٍ طويلةٍ من العمل، إلى وطنهِ الأم.

صورةٌ متتاليةٌ للمتهم وهو في الحرم المكّي، وصورٌ أخرى وهو يرتدي اللباس السعودي.

- حصل على كل التصريحات الرسمية من الجاساك.

صورٌ متتاليةٌ متداخلة بشكلٍ فنيٍّ مبهر له وهو يبتسم للكاميرا على أعتاب المطار

- قام بالاتصال بمديرة العلاقات العامة (ريتا جوبير) وحصل منها على عقدٍ بمشروع مع إحدى المصانع التابعة للمؤسسة العسكرية.

صورة العقد الذي وقعهُ مع المصنع بإمضاء ريتا جوبير كوسيط تجاري.

- مؤيدٌ تام للنظام، وقام بالاشتراك في برنامج القنّاص، وحصل على المركز الأول.

فيديو المشهد الذي قام فيهِ سعيد بقنص إحدى الفرائس للاشتراك بالبرنامج

-لهذا كان عليهِ أن يبدأ في إجراءات انضمامهُ إلى الـ"IMS".

مشهد فوزه في آخر مراحل البرنامج ويتقلد درع القنّاص.

- إلا أن الاتهام الباطل بانتمائهِ للخوارجِ أحال دون ذلك.

مشهد القبض عليهِ في بيتهِ.

- سعيد سليم المارقي لم يكن يومًا من الخوارج، وكان وطنيًا شريفًا.

إعاده لآخر صورة في مشهد تقلّده لدرع برنامج القنّاص.

- إن كل ما عوقب من أجلهُ هو لمنعهُ من الالتحاق بالـ"IMS " بعد نجاحه بالبرنامج.. الحرية، لسعيد المارقي!

انتهى الفيديو، وعادت صورة المحكة من جديدٍ يجلس القضاة البدناء على المنصةِ.

صرخ هارون فرحًا، وصرخ كل الموجودين. وفهمتُ أن هذه المحاكمة كانت تذاعُ على كل محطات التليفزيون وقنواتهِ الفضائية وأن اختراق الثوار تم على كل هذه القنوات وقاموا بعرض هذا الفيديو.

قال بيبرس بفرحةٍ:

- كان فيلمًا قصير لأنني كنتُ مقيدٌ بمساحةٍ محددةٍ ووقتٍ محدد هو الوقت الذي سنسيطر فيهِ على القنوات.

احتضنهُ هارون وهو يقول:

- ضربةٌ ممتازة يا بيبرس، ضربةٌ قاضية.

انزويتُ أتابع فرحتهم وعناقهم وصراخهم، الصخب الجميل الذي يصنعه الانتصار على الظلم ولو كان انتصارًا مؤقتًا.

لا زال في هذا البلد أملٌ لم ينته بعد، وفرحةٌ تبدو مؤجلةٌ لتسطع على وجوه المظلومين، وانتصارٌ سيحدث يومًا ما، لكن تحديد هذا اليوم لا زال مجهولٌ، ولم يقدّر لأحدٍ أن يعرف إن كان سيدركهُ أم لا!

بالرغمِ مني تساقطت دموعي مجددًا، اختلاجاتٌ تضربُ صدري دون قدرة مني على السيطرةِ عليها. اقترب مني هارون وهو يقول:

- كنّا ننتظرُ هذه اللحظة منذ شهور، أن نضرب ضربةً كهذهِ في عمق الإعلام، ونوجه صفعةً وتحديًا للنظامِ بأكملهِ.

ابتسمتُ مشجعةً، أكمل:

-الآن بقى أن نقيس تأثير الضربة على الناس وعلى النظام.

سألتهُ بفضولٍ:

-وماذا تتوقعون أن يفعل النظام إذا نجحت الضربة ؟

ضحِكَ وقال:

- الصمت التام، والتجاهل كأن شيئًا لم يحدث.

اندهشتُ، فقال موضحًا:

- النظام نفسهُ ليس ناضجًا يا مريمة، ولجنتهُ تحبُّ الجعجعة. هم يتصايحون بكل أمرٍ تافهٍ ليشغلوا بهِ الشعب، أما الأمور المؤثرة، فهم يمارسون فيها التعتيم الإعلاميّ التام، كأنها غير موجودة.

قلتُ باستغرابٍ:

-لم أتخيل أن يكون للإعلامِ كل هذا الأثر في نفوس الناس.

ضحك ضحكة هازءة:

- أنتِ لن تتخيلين ما فعلهُ الإعلام في هذا الشعب. بل ما فعلهُ تقريبًا برنامج واحد ناجح في نفوس هذه الناس.

انتظرتهُ أن يُكمل، وبدا أنه سيسكت عند هذا الحد، ثم قال:

- الإعلام يقوم بدورٍ إجرامي هو تفكيك نسيج الشعب، ونشر الخوف بين الناس. نشر التخوين الدائم والشك في كل ما حولك. ثم برنامجً مثل القنّاص، قام – على مدار ما يقرب من ثلاثين عامًا – بتقسيم المجتمع وتحويله إلى نوعين فقط؛ فرائس وصيادين، فيأخذ الصيادين إلى ماكينتهُ الأمنية التي يصدرها لكل دول العالم، ويترك الفرائس والخوف وقودًا للنظام وضمانًا أساسيًا لاستمرارهِ.

شعرت باقتراب كلامهُ من روحي. تضييق الخناق الذي عشتهُ لمدة ثلاثة أشهر فقط مع مارو، داخل الآلة القهرية الكبيرة لنظام المطعم، كاد أن يحولني دون أن أشعر إلى صياد، وكاد يسقطني أكثر من مرةٍ كفريسةٍ.

الشعور بالظلمِ والقهر، وعدم وجود منفذٍ طبيعيّ لضخ ألوان الحزن والظلم الذي يتعرض لهُ الإنسان يحولهُ تدريجيًا إلى وحشٍ كاسرٍ كل ما يبحث عنهُ هو إرضاء نفسهُ، وتنفيث غضبه.

قلتُ:

- التفتيت الذي يحدث في المجتمع بين أفرادهِ ومنظماتهِ، يُعاد ربط أوصالهِ من جديدٍ عبر سيدات العلاقات العامة أمثال سمرة الراسي، وريتا جوبير، أليس كذلك؟

ابتسم بإعجابٍ ثم صفَّق بيديهِ تشجيعًا:

- ممتاز؛ أنتِ تتقدمين بسرعة، لقد قضينا وقتًا طويلاً لنصل لهذه النتيجة.

ثم أطال ابتسامتهُ لي:

-وتسهلين المهمة التي أريدك أن تساعديننا فيها.

بدا على وجهي القلق، فضحكِ وقال:

- هي مهمةٌ صعبة فعلًا؛ أريدكِ أن تعودي إلى سمرة الراسي.

فزعتُ واقفةً وقد هربت الدماء من وجهي، قال مطَّمئنًا:

- لا تقلقي؛ نحن أعددنا كل شيءٍ، وقد غيرتِ ملامحكِ وبصمةُ عينيكِ وصار التعرف عليكِ مستحيل.

قلتُ مرتجفة:

- أنت لا تعرفُ شيئًا.

لم أتوقع أن أجد بداخلي كل هذا الخوف حد الرعب. ظننتُ أني متماسكةً قليلاً، غير أني اكتشفت زيف ادعاءاتي لنفسي.

قمتُ كأنني أحاول البحث عن مهربٍ، وحاولت بلقيس تهدئتي.

سألتهُ بتوتر:

- لماذا تريد أن تعيدني هناك.

صمت وقد بدا أنه ضايقهُ جُبني إلى هذه الدرجة، فقالت بلقيس:

- الفكرة أننا في حاجة لأكمال الدائرة. العلاقات المنفّكة التي نحاولُ أن نعيد ربطها بكل ما نقوم بهِ تمثل طرفًا، الطرف الآخر هو أن نعرف تفاصيل التشبيكات التي يقوم بها العسكر لربط أطراف المجتمع بهِ وبمؤسساتهِ ومشروعاتهِ الاقتصادية.

انفرجت أساريري وأنا أقولُ:

- تحتاجون جاسوسة إذن؟

نظروا لي بدهشةٍ فانطلقتُ ضاحكةً. لا بد أنهم ظنوا أني قد جننتُ.

كيف نسيتُ هذا الأمر حتى الآن ؟

رفعتُ هاتفي المحمول، وأدخلتُ كلمة المرور، ثم دخلتُ على برنامج متابعة جهاز SPY ١ الذي يرسل لي تحركاتها بالصوتِ والصورة لحظة بلحظة. وجهتُ شاشة الهاتف نحوهم فبدت لهم سمرة تجلسُ في أحد الفنادق مع مجموعة من الرجال.

قفز هارون من جلستهِ وقد قفزت الدماءُ في وجههِ انفعالا، هتف:

- كيف حصلتِ على هذا؟

قلتُ لهُ مازحة:

- هذه بلورتي السحرية.

تابع ما يحدث ثم قال:

- ستحكي لي بالتفصيل ما حدث معكِ.

التفوا حولي في شبهِ دائرةٍ وقد توقفوا عن كل ما يفعلون.

وبدأتُ أحكي لهم عن (عولام)، وعن مازن، وأسباب قدومي هنا، والوفد الذي تم اغتيالهُ، واختبائي عند سمرة.

الحفلات، ودعوات العشاء.

الجنرالات التي ترى أنفسها كآلهة الأوليمب.

التفكك والانحلال.

مراسلات مازن لي، التي مثّلت لي يومًا الخلاص من كل شيء.

الجنرال الذي قتلتهُ، الأشياء التي أخذتها أثناء هروبي.

حكيتُ كلَّ شيءٍ واستمعوا بهدوءٍ ودهشةٍ، حتى إذا ما انتهيتُ وجموا كأنهم تماثيل من شمعٍ.

اهتمَّ هارون بأجهزة الجنرال وملفاتهِ. وقد أخبرتهُ أنني أخبئها في السكن الذي أنامُ فيهِ مع مارو، فارتعش من الغضب، وأخذ يصيحُ ويزوم بشفتهِ، ثم أعطاني مفاتيح سيارتهِ وطلب منّي أن أحضر الملفات حالًا، وأترك العمل.

تركُ العملِ هو أسهلُ الأمرين، فيكفي ألا تذهب ليظن الجميع أنه تم اصطيادك في مغامرةٍ لأحدهم، أما المشكلة الحقيقية هي مارو، التي لن تسمح بخروجي في وقت العمل.

عرضت بلقيس أن تأتي معي، بينما صار هارون يدور حول نفسهُ كمصابٍ بوسواسٍ قهريّ يصيحُ بغيظٍ:

- أعرفُ انكِ لن تجدي شيئًا، لقد سرقوا كل شيء!!

خرجتُ مع بلقيس محتقنة الوجهِ، إلى هذه الحارةُ الغريبة، التي صار الناسُ على ذات حالهم كأنهم لا يروننا. أشعرُ بتوترٍ وقلقٍ أن تضيع هذه الملفات. لا أصدق أنني تركتها بإهمالٍ في هذا المكان.

قالت رفيقتي محاولة تلطيف الجو:

- أَحدثكِ هارون عن هذه المنطقة ؟

هززتُ رأسي أن لا، وأنا أعبرُ فوق طفلةٍ تفترشُ الأرض وتضحكُ، فابتسمت بلقيس بإشفاقٍ وقالت:

- هو لا يحبُ (نعيسة) كثيرًا.

- نعيسة ؟

- نعم!

قالتها وضحكت، ثم بدأت تحكي لي عن الحي الصغير، ونحنُ نسعى لنهايتهِ:

- قبل ثلاثين عام، كان هذا المكان ينتمي لمنطقةٍ واسعةٍ شديدة الرقيّ اسمها (سراي عبده) تمتلئ بالفيلات الباهرة والمساكن الفاخرة. سكّانهُ صفوة المجتمع وأصحاب المراكز المرموقة وكثيرٌ من رجال الحكومةِ، لا تمتد يدٌ لهم بأي شيءٍ. حتى جاء العام ٢٠٢٠، واقتحم الجياعُ وجرادُ المجتمع كلَّ شيءٍ حتى طالت أيديهم (سراي عبدهُ). هجموا على المنطقةِ فلم يجدوا فيها أحدًا، لقد فرَّ السكان الأصليون ذوي المناصب وأصحاب السلطةِ والقوّة، وتركوا منازلهم مفتوحةً على مصراعيها. تكاثر المهاجمون وكل من دارت رؤوسهم بخبر خلو المكان من سكّانهِ وامتلائهِ بالخيرات. أتت أسرٌ كاملةً تصحبُ أطفالها ونسائها، استوطنوا المنازل والفيلات والبيوت، وافترش الباقي – بعد صراعاتٍ طاحنةٍ – الأرض والشوارع والفراغات الضيقةِ بين المنازل، حتى أتت قوات الأمن والعسكر فأحاطوا المنطقة بالكاملِ وقاموا بقصفها جوًا وبرًا، ولم يبقوا على نفسٍ يدور داخلها.

توقفتُ أنظرُ لها مذهولةً من هولِ ما تقول:

- لقد انتظروا تجمعهم ليقتلونهم ؟

هزّت رأسها بحزنٍ وقالت:

- ربما!

أخذت نفسًا عميقًا، وقالت ونحنُ نعبر الجسر:

- لا زلتُ أشمُّ رائحة الحريق والرماد في هذا المكان.

- حريق ؟!

توقفت تنظر ناحية المنطقةِ بأسرها، وقالت :

- نعم، بعد انتهاءِ المذبحةِ فطنوا إلى أنهم يجب أن يخفوا كل آثار جريمتهم وعدوانهم، كانوا لا يزالون يخشون الإعلام والرأي العالمي في هذه الفترة. والنتيجة هي أن قاموا بحرق الجثث عن آخرها ورميها بقنابل النابالم الحارق واكتشفوا أن البعض لم يمت وكانوا قبعوا جوار ذويهم يرثونهم، في النهاية احترقت جميع الجثث، ثم تركوها تتفحم لعدةِ أيامٍ حتى تطاير الرماد في كل مكانٍ حولها، وعرفت هذه الحادثة بـ (محرقة السراي).

بدأتُ أرى السواد الذي يعلو الأبنيةَ بعينٍ مختلفة، وأفهمُ رائحة الهواء الرطبة، دارت بلقيس على أعتابها متوجهةً ناحية السيارة.

جذبتني من يدي، حتى لا يلحظ أحدٌ ما شيئًا غريبًا، وتوجهنا ناحية السيارةِ وهي تُكمل:

- ظلت المنطقةُ كما هي لمدة عشر سنواتٍ تقريبًا. انتهت المظاهرات بموت المتظاهرين والثوار وكل من يقبع في رؤسهم أقل فكرةٍ عن الثورة أو الرفض أو معاني الحرية. وكل من بقى هم الساكتون المرتعبون الخائفون. بالإضافة إلى من أتى فيما بعد من الأجانب من أجل العمل فقط، وكانوا في معظمهم من الجنسيات التى يحتقرها العالم، بينما امتدت استثمارات الجنسيات الأخرى لكل مكانٍ تقريبًا في تربيطات وتشبيكات تجارية مع مشروعات العسكر الخاصة. بعد عشر سنواتٍ بدأت تنزحُ للمكانِ من جديدٍ مجموعاتٌ ممن

سقطوا من الطبقات الوسطى أو العليا إلى أدنى شرائح المجتمع. المكان بالنسبةِ لهم كان بعيدًا عن العيون ليمكثوا فيه دون اشتراكِ فعليّ في أي شيءٍ، أتى كثيرٌ من الناسِ من أماكن وثقافات مختلفة. تقسّمت المنطقة إلى أحياءٍ صغيرة، منها (نعيسة) التي قررنا أن يكون بها مقر الحركة كي تقوم، من أكثر الأماكن التي شهدت مذابحًا، ثورتنا الكبرى.

تغيم الرؤيةُ مجددًا، وتحتشد الدموع في عينيّ، أتوهُ في كلامها، وفي تاريخ هذه الأرض، إلاَّ أنها لم تمنحنى فرصة للتأمل وقالت:

- الغريب أن سكان السراي الأصليين لم يعرف أحدٌ لأين ذهبوا ؟ كأنهم تبخروا من الأرض.

- ربما قُتلوا ضمن من قُتل!

- مستحيل.

- لماذا ؟

- بسبب السيارات! لم تكن سيارات سكان السراي موجودة حينما دخل الجياع المنطقة قديمًا، لقد اختفى المواطنون بسياراتهم.

قلتُ بدهشةٍ:

- هذا طبيعي؛ لأنهم سافروا بها بالتأكيد للأماكن التي ذهبوا إليها.

أكملت كأنها لا تسمعني:

- ثم وجدوا كل هذه السيارات، مع سيارات أكثر بكثيرٍ تلتفُّ حول منطقةٍ واسعةٍ جدًا على مشارف الصحراء الغربية، وقد وجدوا آثارًا غريبة لها منخفضة ومبانٍ شبة متهدمة، وقدر كثيرٌ من الخبراء أن هذه المنطقة ربما شهدت إطلاق صاروخٍ خارج الأرض.

قلتُ مندهشةً:

- للقمر؟ منذ ذلك الوقت ؟

- هناك شواهدٌ كثيرةٌ غريبة تبقى بلا تفسير.

ثم عادت تواصلُ ضرباتها:

- على أن محرقة السراي لم تكن هي الأولى أو الوحيدة، بل واحدةٌ ضمن عشرات المذابح والحرائق التي ارتأى العسكر آنذاك أنها الطريقة الوحيدة لإخماد ثورة الجياع.

- كيف سكت العالم على كل هذا.

ثم ضحكتُ من سُخف سؤالي بعد أن تنبهتُ له: لأن العالم يسكت أيضًا على نهب أراضينا.

- لم يسكت. بل اغترفت كل دولةٍ مصلحةً ما، وبدأت تتحدث عن خصوصية الشئون الداخلية لكل بلد، وبدأت هذه الدول في حصد غنائمها تدريجيًا.

قلتُ وقد أنارت في عقلي ومضةٌ :

- لهذا ينجمون ويبحثون عن الذهب والماس واليورانيوم في أراضينا كي لا يتهاوون ويعلنون إفلاسهم من كثرةِ ما خسروا!

قالت وهي تشيرُ بإصبعها:

- هم لا يزالون ينجمون ويسرقون حتى الآن. بالتأكيد اقتصادهم هش جدًا. ونظامهم هشٌ جدًا، لا يعتمد إلا على خوف الناس، وتوجيه الناس لإفراز غضبها فيما بينها، لكن يبقى السؤال. إن كانوا سرقوا هذا قديمًا ليسدوا ديونهم، فأين تذهب آلاف الأطنان من الذهب والماس التي تخرج من إفريقيا بأوامر من لجنة الحكماء، دون أن تؤثر إطلاقًا في انتعاش الإقتصاد المصري؟

عدتُ أفكرُ في القمر مجددًا، وأقولُ بتردد:

- لبناء المستعمرة ؟

ابتسمت وقالت :

- هناك شواهدٌ كثيرة تبقى بلا تفسير.

- مثل ماذا أيضًا؟

- مثل أن نظام ما قبل وما بعد ٢٠١١ مباشرةً أتُّهِم بسرقة ما يقرب من أربعة بلايين دولار ونقلهم إلى بنوك سويسرا وأمريكا. وبرغم أن هذا النظام لم يسقط وقتها واستمر إلى يومنا هذا، إلا أن أحدٌ منهم لم يطالب بإعادة هذه الأموال إلى البلاد مجددًا، وانتهى الحديثُ عنهم تمامًا.

قلتُّ وأنا أشعرُ بنهمٍ في البحث وراء هذه القضية:

- وماذا كذلك؟

- في أوائل عام ٢٠١٢، أعلنت وكالة ناسا الأمريكية للفضاء أنه صار بإمكانهم القيام ببناء منازل، وحتى قواعد فضائية لهم على سطح القمر، وأن هذا يمكن أن يتم باستخدام الروبوتات والكاميرات ثلاثية الأبعاد،خاصةً بعد أن تبين بالتجارب الناجحة وجود مياه على سطح القمر. بعد هذا بدأت الصحافة الأمريكية تهتم بأخبار رجال الأعمال المصريين الذين تعاقدوا مع ناسا لبناء قصور لهم على سطح القمر، قبل أن يستنكر الإعلام المصري الأمر ويتم التكتم الإعلامي الكامل على الموضوع.

سألتها باستغرابٍ:

- لماذا يتكتمون على الأمرِ إذن ؟ لماذا لا ينشروه ويعتبروه من منجزاتهم؟

ضحكت وقالت:

- لأن الأمر ليس إنجازًا حققوه، بل أموالًا سرقوها ثم دفعوها لجهةٍ ما لتنفذها لهم. يعتبرون الأمر سريًا يضم فئات كاملة من أهاليهم وذويهم، ويريدون لهم الأمان والرفاهية التي لا يمكن تخيلها. لهذا نسعى أن نكشف هذه الحقيقة التي تمثل فاجعةٍ في حق الشعب. أن يُقتل وتسرق مواردهُ ويتمتع بها من قتلوه: بأكثر متعًا رفاهية في التاريخ البشريّ. لكن الناس لازالت لا تصدق. كلما كبرت

الفاجعةَ وتفحش الذنب كلما كان تصديق الأمر عسيرًا على عكس مبدأ جوبلز في إذاعة أكاذيب الحكومات.

- ماذا تعنين؟

- جوبلز وزير إعلام النازية؛ وضع قاعدةً في عالم الدعاية والحرب النفسية هي أنه كلما كبرت أكاذيب الحكومات التي تذيعها على شعوبها كلما صدقها الناسُ بسهولة، نحنُ هنا في موقف معاكس لما قالهُ جوبلز؛ فكلما تفحشت جرائم الحكومات كلّما كذب الناسُ حدوثها مهما عرضتَ لهم من دلائل.

أخذتُ أفكرُ في كلمتها ونحنُ نقتربُ تدريجيًا من الـGolden Tower فأوشك رأسي على الإنفجار. المنطقةُ التي بها سكن الـLow Races تقبعُ خلف المبني بمسافةٍ ليست قصيرة. وكان عليّ أن أترجل على مسافةٍ بعيدةٍ منهُ قبل أن أدخلهُ. طلبت منّي بلقيس أن نفتح خطًا للإتصالِ بين هواتفنا لتطمئن على سلامة وصولي وسلامة الملفات.

قلتُ لها بقلقٍ عبر خط الاتصال المفتوح بعد أن ترجلتُ من السيارة:

- تأخرتُ كثيرًا في العودةِ لهم.

قالت لي بعد أن ابتعدتُ قليلاً:

- حاولي أن تكوني أكثر هدوءًا وأكثر غلظة.

خطوتي بدت مرتبكةً بالرغم مني، فظلت بلقيس تؤكد لي أن أطرد أي توتر بداخلي.

حاولتُ أن أمثّل اللامبالاةِ، فتوجهتُ مباشرةً إلى أعلى حيث الطابق الثامن. قابلتُ في الطريق بلال – الفتى الذي يريد أن يشاركني القنص- فحاولتُ أن أتجاهلهُ، لكنهُ قال بتوترٍ:

- المدام إيمي تريد كل الفريق بأسفل، أين كنتِ؟

وضعتُ يدي في جيب سترتي، وقلت بلا مبالاة:

- لماذا ؟ ماذا حدث؟

هناك ضيوفٌ مهمّين يحجزون القاعة الأساسية بالمطعم.

- من هؤلاء؟

- غالبًا جنرالات من الجيش، أنا أعرفهم من نظراتِ أعينهم الحادة وسمتُ وجوههم، لكن الحجز تم باسم سمرة الراسي.

تجمدتُ في وقفتي.

حين رحل، جاءني صوت بلقيس يقول:

- سمعتُ هذا، حاولي أن تحضري الملفات بهدوءٍ وتأخري قليلا. ابتعدي تمامًا عن سمرة. وأنا سأحاولُ أن أؤمن لكِ الخروج. لا تقلقي؛ ذا قانون الفريسةِ الأول، سنضع خطةً وننفذها بصرامة.

توجهتُ سريعًا إلى غرفتي، بحثتُ في حاجياتي حتى وجدتُ الملفات والأجهزة التي لم أستطع تشغيلها. وضعتها جميعًا في حقيبتي، وجلستُ أرتعش.

ملامح وجهي مختلفة، بصمةُ عيني مختلفة، فكيف يمكن أن تتعرف عليّ؟!

حاولتُ أن أهدئ نفسي. الموضوع ببساطةٍ هو أن أخرج من المكان.

انتظرتُ دقائق أخرى، ثم قلتُ لبلقيس عبر خط الاتصالِ بيننا:

- هل أخرج الآن ؟

قالت بعد فترةٍ:

- هل أنتِ مستعدة ؟

- إن شاء الله؛ نعم.

مرت فترة صمتٍ أخرى سمعتُ خلالها صوتها كأنما تتكلم مع أحد. قالت أخيرًا:

- انتظري قليلاً.

عدتُ أحدث نفسي قليلاً وأقنعها بالهدوءِ. أتذكرُ أيامي معها، ولا أفهم كيف مرّت. أيامي التي انتهت بقتل الجنرال المسئول عن ملف الذهب الإفريقي. للحظةٍ ما شعرتُ بغرائبيةِ الأقدار. للحظةٍ شعرتُ بالتشفّي والانتقام. ماذا يمكن أن يفعلوا معي لقتلي جنرالهم الأهم؟

مرت لحظات طويلةٍ من الصمت، قبل أن أسألها:

- ماذا ننتظر؟

فترةُ صمتٍ طويلةٍ مرّت قبل أن تقول:

- لو أنكِ مستعدةٌ، تحركِ الآن، مباشرةً إلى باب الخروج.

قمتُ وقد هدأت نفسي، وامتلأتُ برغبةٍ في الخروجِ السريع وانتهاء كل هذا.

نزلتُ إلى البوابةِ الرئيسة وقبل أن أصل إلى الطريق وجدتُ أمامي سمرة.

تجمدتُ في مكاني. وشعرتُ أنني يجب أن أكون أكثر ثقةً بنفسي.

برفقتها المدام إيمي وثلاثة من رجال الأمن، قالت إيمي بعتابٍ وبلهجةٍ تختلف تمامًا عن أسلوبها الخشن الجاف:

- أين كنتِ كل هذا الوقت؟

هززتُ كتفيّ باستهتارٍ ولم أردُّ. رفعت سمرة جهازًا أمام عيني ودققت النظر في ملامحي. أكملت إيمي:

- مدام سمرة تبحثُ عن فتاةٍ في نفسِ طولكِ تقريبًا.

قالت سمرة وهي تتفحصني:

- ونفس القوام وحركة الجسد كذلك.

سألت السؤال الطبيعي لواحدةٍ غيري في موقفي:

- من المدام سمرة ؟

برقت عينا سمرة فجأة، وفَطِنتُ إلى الحقيقة الواضحة التي سقطت مني دون أن أشعر بها إلا الآن. قالت سمرة بظفرٍ وانتصار:

- لازالتِ غبية يا مريمة. تغيرين كل شيءٍ في ملامحكِ وعينيكِ، وتنسين تغيير صوتك؟

أشارت بيديها لرجال الأمن الثلاثة فمسك اثنان منهم ذراعي، وتبعني الثالثُ من الخلف، قالت سمرة:

- أرهقتيني يا مريمة حقًا. بحثتُ عنكِ في كلِّ مكانٍ.

حاولتُ أن أكون ساخرةً. أسألها وأنا أسيرُ مجبرةً نحو السيارةِ :

- هل تركتِ أعمالكِ لتبحثِي عنّي أخيرًا ؟

ضحكت سمرة وهي تركبُ السيارةِ:

- برغم أنكِ تستحقين أن أفعل هذا لما فعلتيهِ. لكنني كنتُ أستقطعُ من عملي وقتًا كلما ذهبتُ إلى مطعمٍ لأبحث عن واحدةٍ في مواصفاتكِ. كنتُ أعلمُ أنكِ ستعملين نادلةً في النهاية؛ هذا هو طريقكِ الوحيد.

ركبتُ بجوارها وصوت بلقيس يأتيني عبر السماعةَ في أذني:

- لا تقلقي، نحن خلفكِ.

نحنُ؟ هل ثمةُ آخرين. تكملُ سمرة بضحكةٍ أخرى:

- تقتلين الجنرال يا فاجرة ؟ لقد أدهشتيني حقًا.

حاولتُ ان أكون مستفزّة:

- لا ريب أن أسيادكِ غضبوا عليكِ!

تجمدت الضحكة في ملامحها. هوت بيدها على وجهي. تزعقُ بغضبٍ:

- أتجدين هذا مُضحِكًا ؟

تصاعد الغضب من أعماقي، وهي تصرخ:

- سترين ما الذي سيحدث فيكِ.

وصلنا إلى أبواب الـGolden Tower وأنا أقول لها:

- لن يحدث أسوأ مما عزمتم أن تفعلوه من قبل.

لاحظتُ انتشار رجال الجاساك، بشعارهم – القبضةُ مفتوحة الوسطى- على ذراعهم الأيسر، ووجود طائرة هيليكوبتر صغيرة بجوار المبنى.

نزلنا وتوجهنا للداخل. عند مدخل القاعة طلبَت من العمالقة الثلاثة أن أبقى في حوزتهم، حتى تنتهي من اجتماعها.

وقفتُ، وتركتني المدام إيمي سريعًا وكأن الأمر لا يعنيها. عبر السماعةِ الصغيرةِ في أذني يأتيني صوتُ هارون فجأة يقولُ كمن ركض لمسافةٍ طويلة:

- مريمة؛ اسمعيني جيدًا. أريدُ أن أعرف موقعكِ بالتحديد، إذا كنتِ تستمعين لي وليس معكِ أحد فزومي بشفتيكِ مرّةً واحدةً.

أطلقتُ صوتًا خافتًا بشفتيّ المغلقتين.

أكمل يقول:

- جميل؛ أمامي خريطة كاملةً للمبنى، سأخبركِ بالأماكن فيها. وكلما اقتربتُ من مكانكِ أطلقي صوتكِ الخفيض. الدور الأرضي.

زمتُّ بشفتيّ.

ظلَّ يردد الأماكن بالدورِ الأرضيّ حتى عرِف بمكاني بالمطعم بمدخل القاعة الرئيسة، ثم سكت.

أتابعُ سمرة من مكاني وأحاولُ أن أتعرف على الجنرالات والأشخاص الذين في صحبتها. لم تكن تجتمع بكل هذه الأعداد من قبل. تمنيتُ أن يكون معي الهاتف الذي منحنيهِ مازن لكني تركتهُ لهم في مقر الحركة.

على وجوههم بدا أن الأمر شديد الخطورةِ والأهمية. والخدمة التي تتم من إدارة المطعم تعاملهم على أنهم أنصاف آلهةٍ.

ثم سمعتُ صوتُ الانفجارات.

انفجاراتٌ مفاجئةٌ قويةٌ جعلت كل من بالمكان يهبُّ واقفًا، وانتشر رجال الجاساك الذين كانوا داخل المطعم حول المخارج والنوافذ بنظامٍ مدهشٍ.

أتاني صوتُ هارون مجددًا:

- مع الانفجار التالي توجهي راكضةً إلى الباب الخارجي ومنهً إلى الشارع. نحنُ ننتظركِ في السيارة السوداء الضخمة.

مع انتهاء كلمته انفجرت جميع النوافذ وأبواب المطعم عدا الباب الذي أقفُ عندهُ. انطلقتُ راكضةً نحو الخارج، سمعتُ صوتُ سمرة تصرخ :

- لا تتركوها تهرب.

أقفزُ فوق الأشياء التي تقابلني، وأسقطها خلفي. ألحظُ بعض رجال الجاساك في أثري. أعبر الباب الخارجي وأحدهم قد قفز خلفي وسقطنا أرضًا معًا.

تنفلتُ قبضتهُ عني فجأة وألحظُ رصاصةُ تركت ثقبًا في جبهتهُ. أنهضُ وأواصلُ الركض. تنطلق خلفي وحولي طلقاتُ الرصاص ودفقاتُ الليزر الحارقة. أثبتُ عينيّ على السيارةِ السوداء وأنطلقُ ناحيتها كالرمحِ.

حين أقتربُ أجدُ الباب الخلفي قد فُتِح فأقفزَ إلى داخلهِ قبل أن تنطلق السيارة بجنون.

أنفاسي وضرباتُ قلبي توشكُ أن تكون شاهدةً على وفاتي، أحاولُ أن أرى من حولي فألحظُ وجهُ أحد الشباب على مقعد القيادةِ، وألحظُ وجه هارون كذلك.

السيارةُ كأنها ترقصُ في حفلةِ زارٍ مجنونة، يقولُ هارون بلهفةٍ:

- أين الملفات ؟

أعطيه حقيبتي وأنا أترجرج في مقعدي. يخرجُ الأشياء بلهفةٍ ويقلبها بين يديهِ، يقولُ:

- هل هذا كلَّ شيء؟

أشعرُ بارتفاعنا المفاجئ عن الأرض، فأتمسك بمقعدي وأوشكُ أن أصرخ، يقول هارون:

- لا تقلقي. نحنُ نسيطر على الأمر؟

قلتُ بدهشةٍ:

- كيف فعلتم هذا؟ ظننتكم سلميين، وأن الخوارج هم من يقومون بالأعمال القتالية ؟

نظر لي بعينينِ مبتسمتين، ثم ابتسم وتابع تقليبهُ للملفات.

صُعقتُ غير مُصدقةً:

- أنتم الخوارج كذلك؟

هزّ كتفيهِ وسكت.

أنظرُ ناحية النافذةِ. أشاهدُ الأرض بعيدةً وقد اقتربنا كثيرًا من السحب، قلتُ مصدومة:

- قتال وانفجارات، وسيارات تتحول إلى طائرات.

قال مبتسمًا:

- وسيارات وطائرات مزودة بتقنية الاختفاء التام التي لا توجد في مِصر.

- من أنتم بالضبط؟

يشيحُ بوجههِ وهو ينظرُ للناحيةِ الأخرى :

- نحنُ الحركة الوطنية للإصلاح.

-ومن الخوارج إذن ؟

تنهّد بعمقٍ وقال:

- مجموعاتٌ من الفقراء حملت السلاح قديمًا وسيطرت على مناطق بأكملها في الفترة ما بعد المجاعة التي حدثت. حاربت الأمن والسلطة آنذاك وهربت تباعًا إلى الصحراء وإلى الصعيد لكن عملياتها المتفرقة ظلّت تؤرق النظام لفتراتٍ طويلةٍ. وقد استلهمنا أسلوبهم في بعض عملياتنا؛ فظنوا أننا هم. ونسب الإعلامُ هذه العمليات إلى الخوارج.

كنا نحومُ في دوائرٍ فوق الصحراء استعدادًا للهبوط، وكنتُ أسأل الأمازيغي الذي لم أتصور أن يخرج منهُ كل هذا:

- هل أنت قائد هذه الحركة؟

-لا بالطبع، أنا مجرد منسِّق الحركةِ بالإسكندرية.

-وأين قيادةُ الحركة؟

ابتسم ولم يجب، فعدتُ أسألهُ:

- في العاصمة مثلا؟

قال بهدوءٍ كانه يعلم أحد تلميذاته الخائبات:

- الحركة الوطنية للإصلاح ليست حركة مصرية فقط، وإنما حركة عربية شاملة، هدفها لم البلدان العربية والإسلامية في أمةٍ عربيةٍ واحدة.

شعرتُ بانشراحةٍ في صدري، وسألتهُ:

- هل توجد مقرّاتٌ للحركة في بلدانٍ عربية أخرى؟

قال بابتسامةٍ:

- بالتأكيد: سوريا وتونس وليبيا والعراق، وغيرهم.

سألتهُ بلهفةٍ:

- ما التيار الفكري المسيطر على الحركة؟ الليبرالي، أم العلماني أم....

قاطعني:

- لماذا توجد حركة ليبرالية أو علمانية معارضة ضد نظام علماني وليبرالي في الأساس؟

- لكن أحدٌ لن يسمح بعودة تيار الإسلام السياسي.

- إن هدفنا الأساسي هو تحرير الشعوب من الظلم وهو شيءٌ يتفق مع كل الأنظمة الفكرية في العالم من الناحيةِ النظرية فقط. تعرفين أن القضية ليست في الإسلام السياسي تحديدًا، وإنما في أي فكرٍ أو تجمعٍ انفصاليّ لا يدينُ بالإنتماء للنظام العالمي المسيطر عليه الدول الغربية. أخذ نفسًا عميقًا وأكمل:

- لم تكن الفكرة في الإسلام السياسي، وإنما في أي تيارٍ منفصلٌ عنهم ولا يدين بشروطهم ولا يأتمر بقراراتهم الدوليةِ التي يصبغون عليها الصبغاتُ الشرعية باتفاقهم عليها واحتمائهم بمبادئ الحريات والاستقلال بعد أن يلوون أعناق تلك المبادئ لتناسب أهواءهم وتجاري مصالحهم، لكن المشكلة فيمن يصدق. ومن يدين لهم بالولاء والانتماء وهو لا يدري أنه بذلك يتنازل عن حقوقٍ كثيرةٍ لهُ، وعن فرصٍ أفضل للحياة أضاعها بجهلهِ وسلبيتهِ.

حطت الطائرةُ / السيارةُ على الأرض في وسطِ الصحراء. خرجنا وسط الريحِ الباردةُ والشمس التي توشكُ على الشروق. حين نظرتُ خلفي شعرتُ كأنما خرجتُ من الفراغ، قبل أن تتحدد معالم السيارة السوداء الضخمة مجددًا.

انفتحت فجوةٌ في الرمالِ وخرج منها صندوقٌ زجاجيٌّ ضخم. ضغط هارون بعض الأزرار بهِ، ففُتح ودخلناهُ، سألتهُ بدهشةٍ:

- من أين حصلتم على كل هذه الأموال؟ من يمولكم ؟

ضحك كثيرًا ثم قال:

- هذه هي التهمةُ الأساسية لمنظمات الطابور الخامس.

- الذي هو أنتم أيضًا، أليس كذلك؟

صمت على ابتسامتهِ ونحنُ نهبطُ وسط الظلام. أرى ملامحهُ على إضاءةٍ خافتةٍ للجدران الزجاجية التي تشع نورًا خافتًا. قال هارون:

- هل تعرفين قيمة أن يطلق علينا النظام أكثر من اسمٍ ؟

انتظرتُ إجابتهُ، فقال:

- هذا يعطي أملاً أكبر للناس، ويعملّق وجودنا في عين النظام.

فُتح الباب ورأيتُ أمامي طرقاتٌ واسعةٌ مضاءةٌ، وتجهيزات تشبهُ كثيرًا التجهيزات في (نعيسة) غير أن هذه أكثر زخمًا وقوة.

قال لي:

- مرحبًا بكِ في المقر الرئيس للحركة في مصر.

توجه ناحية قاعةٍ كبيرةٍ انتشرت فيها التجهيزات، وأجهزة الكمبيوتر. وجدتُ بلقيس تهرول ناحيتي وتحتضنني:

- قلقتُ كثيرًا عليكِ.

عيناها صافيتانِ صادقتانِ، وهو شعورٌ لم أعتده طيلة الأيام السابقة.

أمامنا تجلسُ امرأة الشابة رقيقة الملامح،عيناها تبدوان مخترقتان الحواجز والأشياء. ابتسامتها هادئة وتبدو الثقة في عينيها واضحةٌ وتتألقُ مع عقد الماس حول عنقها. أنا رأيتُ هذه المرأةُ من قبل.

يقدمها لي هارون:

- مدام فجر سالم، ملهمة الحركة، وأهم مصادر تمويلها.

ارتددتُ في عنفٍ. صرختُ:

- هذه فجر مشهور، زوجة صفوت مشهور صاحب (هرقل)!

ضحك الموجودون بالقاعةِ، وكانوا قلّة، وقال أحدهم، وعرفتُ فيما بعد أن اسمهُ الكوديّ عيسى:

- بالتأكيد، هذه هي العقل المدبر في (هرقل) وصاحبة كل إنجازاتها التكنولوجية. ويرجعُ لها الفضل في ضم كثيرٌ من الأعضاء الجدد للحركة.

جلستُ على مقعدٍ مجاورٍ وشعرتُ بعقلي يدورُ من جديدٍ من كثرةٍ ما يتلقى من ضرباتٍ مبرحة.

أوضح هارون:

- تقنية (الهالات الاستشعارية) التي تقيس ضربات القلب وإفرازات الجسد مع نشرة الأخبار المعروضة بالهالة كانت تكشف مدى قبول راكبي الحافلات للنظام أو كراهيتهم له. هكذا أرسلنا كثيرٌ من وقودُ النظام إلى الهلاك، وانتقينا الرافضين له.

تذكرتُ كلام مازن عن شيءٍ مشابهٍ حين حذرني من ركوب حافلات (هرقل). قالت فجر أخيرًا وهي على ذات جلستها:

- جهاز الـMR قام بعملٍ ممتازٍ يا ريناد، أو مريمة الآن! سمرة كانت شيطانةٌ ماكرة لتعرفكِ بعد كل هذا.

أوضح عيسى:

- كنّا نتابع ما يحدث في المطعم مع سمرة من هنا عبر جهاز الـ١٣ MS وقد وجدنا تطوراتٍ غير عادية.

سألتُ باستغراب:

- ما جهاز الـ١٣ MS هذا ؟

بدت الدهشة على ملامحهِ وهو يقول:

- الجهاز الذي منحتيهِ لنا، وأحضرتهُ بلقيس معها.

- هذا هاتفٌ قديم.

ضحك وقد بدا الخجلُ على ملامحهِ:

- هذا أعتى أجهزة التجسس العالمية. وقد اضطررتُ لإيقاف قناة إرسال البيانات حتى لا ينقل شيئًا من هنا لأحدٍ.

شعرتُ بدوارٍ يهزُّ رأسي. لقد كذب مازنُ عليّ، وبحمقٍ وغباء صدقتهُ.

جلستُ أستمعُ لهم شاعرةً بالحنقِ وبفراغ طاقتي وقدرتي على المواصلة. يشرحون لهارون ما حدث في مقابلة سمرة، تقولُ فجر :

- الموضوع تخطى مرحلة تكسير العظام التي كان الجنرالات يلعبونها. يفرقون بين صفوت ومأمون ليطلب كل واحدٍ من سمرة أن تجهّز ضربةً قاضيةٍ للآخرِ بعيدًا عنهما حتى لا يُفتضح أمرهما، فتقوم سمرة بإخبارهم أو طلب الأمر مباشرة من عادل السعيد مدير الجاساك فيقومُ بضربهما معًا. عمليةٍ ملتفّةٍ وطويلة، لكنها كانت تجني نتائجًا ناجحة في قصقصة ريش كل منهما. الموضوع تخطي كذلك مرحلة ضرب الشعب ببعضهِ وتفريخهِ إلى صيادين وفرائس عبر برنامج القنّاص الذي ركض إليه آلاف الأفراد ووجدوا فيهِ الخلاص، الموضوع تخطى كل الحدود التي يمكن لعقلٍ أن يتخيلها يا هارون.

بدا القلق على وجههِ العجوز، وفجر تُكمل بينما أشعرُ أن روحي تُسحب مني ببطئٍ شديد:

- إنهم يحضّرون لهدم الدولة تمامًا عبر عملية زرع قنابل نووية صغيرة في كل المناطق والأجهزة الحيوية بالبلاد.

عند هذا الحد؛ تداعى جسدي إرهاقًا وعدم قدرةً على المواصلة، لم أشعر بما حدث بعد ذلك.

* * *

بعد عدة ساعاتٍ استيقظتُ.

هارون يدورُ في أرجاءِ المكان وهو يقول:

-لا زلتُ عند موقفي بأن ثمة تغيراتٍ دوليةٍ حدثت أدت لهذا.

وقفتُ على جانب الممر أسترقُ السمع، وشيئًا من النظر، تؤكد فجر وهي تجلسُ ذات جلستها كأنها ملكةٌ متوّجة:

- يا هارون؛ يجب أن نفكر على أكثر من مستوىً، وعلى احتمالاتٍ مختلفة.

قالت بلقيس وهي ترتكنُ إلى مكتبٍ طويلٍ انتثرت فوقهُ الأجهزة المختلفة:

- ما التغيرات التي تدعوهم لأن يقوموا بتفجير البلاد؟

يردُّ هارون بضيقٍ:

- شيءٌ مماثل لما حدث قبل أربعين عام؛ يجعلهم يكررون خطة داود عزت القديمة على نحوٍ أسوأ.

بضيقٍ مماثلٍ قامت فجر من جلستها تتوجهُ ناحية أحد الأجهزة:

- هذا أسخف سببٍ يجعلهم يزرعون قنابل نوويةٍ على طولِ البلاد يا هارون، لقد عقدوا تحالفات دولية وقسموا الكعكة وانتهى الأمر. لن يفعلوا شيئًا مجددًا كي يبرروا وجودهم لأن وجودهم ترسَّخ وانتهى الأمر في نظرهم.

قالت بلقيسُ مفكِّرةً:

-وما أحضرتهُ مريمة من الجنرال عبد العظيم ألا يمكن أن يفيدنا في شيءٍ؟

- ما أحضرتهُ مريمة سيغير موازين القوى تمامًا بيننا وبين هذا النظام.

نظرت فجر ناحيتي فجأة، وابتسمت تدعوني للدخول.

حين عبرتُ الباب الفاصل بيني وبينهم شعرتُ بوهج الثورةِ وزخم المكائد والمؤامرات؛ كأن روحًا تحلِّقُ فوق هذه القاعةَ وتبارك ترابطها.

قال هارون مازحًا:

- ما رأيكِ فيما سمعتي؟

بحثتُ عن مكانٍ أجلسُ فيهِ فأعانتني بلقيسُ وبدا على وجهي إمارات الإرهاق الجسدي والفكري، قلتُ:

- أنا أحاولُ أن أستوعب ما يحدث بصعوبةٍ بالغةٍ فكيف أكوّن رأيًا؟

نظرت فجر ناحية هارون بابتسامةٍ تبادلها معها، ثم قالت:

- أعتقد أن من حقها أن تعرف كل شيء.

أمَّن هارون على كلامها، فأكملت:

- لولا ما قدَّمتهُ لنا لما استطعنا أن نصل لهذه الرؤية البانورامية.

ثم أشار هارون إلى عيسى- الشاب الخجول المجتهد- فبدأ يضع بعض الاسطوانات الضوئية بداخل أحد الأجهزة.

بدت صورة سمرة داخل قاعة المطعم المتهدمة بعد أن انتهي الهجوم، ظل يقدم ويؤخر حتى إحدى اللقطات التي تجلسُ فيها سمرة بجوار أحد الرجال البادي على ملامحهم سمتُ الصلابةِ والقسوة، تقولُ باستهتارٍ:

- لا تقلق من شيء، انضمام الطوارقية إلى الخوارج لن يضيف لهم أيُّ شيءٍ، آخر ما يمكن أن يفعلوه أن يحاولوا التواصل مع قبيلتها في النيجر أو مالي وسيكون أقصى طموحهم أن يفعلوا هذا تحت أنف الجاساك.

يؤكد عليها الرجل صلب الملامح بنبرةٍ غليظة:

- أنتِ واثقةٌ أنها لم تأخذ شيئًا من أوراق أو ملفّات عبد العظيم.

أكدت سمرة بثقة:

- بالتأكيد واثقة. هذه المرأة أتفه من أن تفكر في شيءٍ كهذا، ولو فكّرت فهي لن تعرف كيف تتعامل مع التكنولوجيا. إنها تقود السيارة بصعوبةٍ بالغة.

صرخ الرجل بثورة:

- أنا أريد دلائل واضحة على أنها لم تأخذ شيئًا.

ابتسمت سمرة بهدوءٍ لتمتصّ انفعالهِ، ثم قالت وهي تقتربُ منه:

- للأسف لم يكن في استطاعتي ولا سلطتي أن أتجسس على الجنرال عبد العظيم. ولم يعرف أحد ما الذي يوجد بملفاتهِ ولا بقصرهِ لنعرف ما الذي فُقِد. بالإضافةِ إلى أن برنامج الحماية والتأمين للقصر كله لم يكن يعمل حين هربت. والوحيد القادر على فعل هذا هو الجنرال نفسهُ. فماذا يمكنني أن أفعل أكثر مما فعلتُ؟

ابتعد الرجل قليلا متجاهلاً تقربها منهُ، وقد بدا عليهِ القلق.

أوقف عيسى البثّ. وقال هارون بشغفٍ:

- ما رأيك؟

نظرتُ بدهشةٍ لهم:

- هم لم يعرفوا أنني أخذتُ شيئًا أصلاً؟

قالت فجر موضحةٌ:

- بل أكثر من ذلك.

ثم أخذت تعُدُّ على أصابعها قائلة:

- هم لا يعرفون بتجسسنا عليهم عبر جهاز مازن الغريب هذا. هم لا يعرفون بامتلاكنا لجهاز الـMR الذي يوجد في منزل هارون. هم لا يعلمون حقيقة أن ثوار القمر هم الخوارج هم المنظمة الدولية للحريّات هم نحنُ، وليس الأمر مجرّد Show إعلامي. هم لا يعرفون باختلافك وقوّتكِ. ولا يعرفون كذلك بتحالفكِ مع مازن.

أكمل هارون:

- بالإضافة إلى أن عدم تأكدهم من أننا نملكُ شيئًا من ملفات عبد العظيم، وشكهم في هذا يمنحنا مزايا عديدة. أولها توترهم الداخلي في أن خططهم قد تكون مكشوفة، هذا قد يضعفهم ويجعلهم مترددين في ضرباتهم. وثانيها قدرتنا الواضحة على الاعتماد على ما وجدناهُ من كوارث في هذه الملفّات.

بدأ الإدرينالين يسكب في دمائي، وأنا أتحفزُّ وأسألُ مهتمّة:

- ماذا وجدتم في الملفات؟

ضحِك وهو يقولُ:

- بالتأكيد أنتِ لم تنتقي هذه الملفات من مكانٍ واحد في قصرهِ، أليس كذلك؟

قلتُ وأنا أحاولُ أن أتذكّر:

- ربما، كان من عدة أماكن في غرفةٍ تشبهُ غرف العمليات في الجيش.

قال مبتسمًا:

- إنها أكبر توليفةٍ رأيتها في حياتي. مجموعة من الأفلام الجنسية تجمعهُ بعشرات الفنانات والشخصيات العامّة رجالا ونساءا. كنتُ أظنُّ أن عادل السعيد فقط هو الذي يهتم بالرجال.

هناك كذلك مجموعة من التسجيلات السريّة بين كثيرٍ من الجنرالات تحتاجُ وقتًا طويلا لمشاهدتها وتحليلها. بالإضافة إلى تسجيلات كل حفلات سمرة ومنها الحفلة التي قُتل فيها مأمون عاكف. الباقي بعضُه خرائط، خرائط لكثيرٍ من المواقع الحيوية المهمة بالعالم في كثيرٍ من الدول، بما فيها مصر وتمتلئُ الخرائط بالعديد من الرموز والشفرات التي ستأخذ منّا وقتًا طويلاً لحلّها.

قالت فجرُ مقاطعة:

- ظنّي الأكبر أنها لها صلة وثيقة بسلسلةِ الانفجارات التي تحدثت عنها مع مُهاب فخر الدين.

سألتُ مستفسرة:

- من مُهاب فخر الدين؟

ردت بلقيس وهي تشير إلى اللقطة التي أدارها عيسى قبل دقائق:

- الجنرال مُهاب، عضو لجنة الحكماء الأخطر، كيف لا تعرفيهِ بعد فترة عملكِ مع سمرة.

رددتُ غير مصدّقة:

- عضو لجنة الحكماء؟ هل سمرة بهذه الأهمية؟

قالت بلقيس:

- الأكثر صدمةً هي أنها تخونهم كذلك مع الجنرال بايدن، وبعض الجهات الخارجية، وتقدم لهم المعلومات التي تحصل عليها، تقريبًا هي جاسوسة مزدوجة، كل ما تبحث عنهُ أن تنضم لشعب القمر.

قالت فجر بنظرةٍ متحفزةٍ في عينيها:

- هي فقط تجيد المنح من نفسها وجسدها، وتتقنُ الأخذ بعد طول العطاء.

أكمل هارون موضحًا:

- سمرة الراسي هي أفعى لجنة الحكماء المهمّة. وهمّها الأكبر هو العيش في القمر. لهذا فهي في كلِّ ركنٍ بهِ كارثةٍ تتواجد لتدير هذه الكارثة وتربط خيوطها جيدًا. ما يهمّنا هنا، هي أنها تمثِّل لنا العين التي نرى من خلالها تحركات الطرفين الداخلي والخارجي وهي ميزة فائقة لا يمكن تجاهلها.

أخذني ذكرُ القمر في التفكير فيهِ من جديد، قالت بلقيس وقد فهمت ما فكّرتُ فيهِ:

- باقي ما وجدناهُ في ملفّات عبد العظيم يهمّكِ أن تعرفيهِ بشكلٍ خاصٍ.

أكمل هارون:

- مخططاتٌ كاملة للمدينةِ التي قاموا ببنائها على القمر، وصورٌ شديدُ الوضوح مأخوذةٌ من أحد المكوكات الفضائية قبل هبوطها. بالإضافة إلى فيلمٍ كامل يصور رحلة عبد العظيم من الأرض حتى وصولهُ إلى قصرهِ الرهيب على القمر، يبدو أنه أراد التأريخ لهذه الرحلة لأحفادهِ.

شددت فجر على هارون قائلةً:

- يجب أن يظهر هذا الفيلم للعامّة. هذا أكبر دليلٌ على وجود مستعمرة القمر التي يُصِرُّ الأغبياءُ على إنكارها.

قال هارون بحزمٍ وهو يشير بأصبعهِ:

- لن نكون وحدنا أصحاب هذا القرار، كما أنه لو قررنا نشره لن يكون الآن، وإنما يجب أن نتخيّر الوقت المناسب لفعل هذا، وربما ننشرهُ على حلقاتٍ كذلك، من الصعب على الناس أن تتقبل صدمةً مفاجئة كهذه.

في النهاية افترقنا على وعدٍ بأن نواصل اجتماعنا غدًا لنضع خطةً كاملةً لتحركاتنا في ظلِّ الحقائق الجديدة التي حصلنا عليها.

انصرفتُ مع بلقيس لا أعرفُ أين سأقضي ليلتي، عرضت عليّ أن أرافقها في بيتها لأعيش معها هناك، إلا أن قلقي الشديد من مقابلة سمرة مرةً أخرى جعلني أرفض.

في النهاية قررنا أن نقضي - هذه الليلة على الأقل- في مكاننا هنا بالمقر الرسمي، بينما عاد هارون وفجر وعيسى وباقي الشباب إلى المقر الفرعي بـ(نعيسة).

جلستُ معها في الغرفةِ التي نمتُ فيها قبلاً. أضاءت الأنوار فبدت الغرفةُ واسعةٌ مريحةٌ بها مقاعدُ ووسائد شعرتُ أنني أغوصُ فيها وأكادُ أختفي.

ظللنا نتحدثُ طويلاً. واكتشفتُ الجانب الآخر من شخصيتها. وهي شخصيةٌ آسرةٌ تحملُ سخريةً وثقافة لم أتخيلها. وتحملُ قوةً وإصرارا كذلك.

حكيتُ لها عن حياتي بعض الشيء. عن قبيلتي، ووطني الذي قسّمهُ الغزاةُ الفرنسيين قديمًا فأعطوا لكل دولةٍ قطعة لنتوه في الأرضِ ونحارب أنفسنا دون

أن نصل لشيءٍ. فحكت لي عن روايةٍ مشابهةٍ تحكي عن محاربٍ قديمٍ كان يحاربُ طواحين الهواء ويظنها أعداءً جهنمية.

أصابني حكيها بمزيدٍ من الألم، قلتُ لها أن سبب قدومي إلى هنا في الأساس هو فهم الأسلوب الذي يفكرون بهِ بحثًا عن أي قناةٍ للتواصل والتفاهم.

بدت متعاطفةً وهي تسألني عمّا وجدتهُ بعد هذه الفترة. فقلتً لها أن شعوري الذي أحاولُ أن أكتمه في أعماقي هو أنه لا تواصل ولا تفاهم. وأن الحل الوحيد هو استئصال الفساد من هذه الأرض مهما كلّف الأمر.

قلتُ لها أن قناعتنا الأساسية هي أن الأمة العربية والإسلامية لن تزدهر ولن تقوم إلا بصحوةِ مصر وقيادتها لها.

طفرت عيناها بالدموعِ فجأةٍ، ثم قالت وهي تحاولُ أن تكون ساخرةً كعادتها: أن الغرب فهم هذا مبكرًا فأحكم قبضتهُ عليها وجعلها تقود باقي البلاد إلى الهلاك؛ بدلاً من أن تقودهم إلى النصرِ والازدهار.

بدت لي كلمتها معبرةٌ جدًا، وتعكسُ واقعٌ حقيقيّ.

عدتُ أقيّم الأمر من هذه الناحيةِ، فوجدتُ أن كل القمع الذي يمارس في بلاد العالم العربي، وحتى دول إفريقيا يتم بيدٍ مصرية عبر شركات الأمن، وحتى نظام التفويض الذي تم استبدالهُ بدلا من التمثيل الدبلوماسي عبر نظام السفارات، يوضح أن العلاقات الوحيدة التي صارت بين الدول هي العلاقات التجارية وعلاقات المصالح فقط.

على أننا عند منتصف الليل، وجدنا هارون أمامنا من جديدٍ.

وجههُ مصفر شاحب كأنه صارع الشيطانُ لتوهِ، ملابسهُ غير مهندمة؛ صرخ فينا من بين لهاثهِ وقلبهُ الذي يوشكُ على التوقف:

- أنتم تجلسون هكذا!!

هببنا من جلستنا لا نعرفُ ما حدث، أدار التلفزيون وأخذ ينتقلُ بين قنواتهِ حتى وصل إلى القناة الإخبارية التي تعرضُ انفجاراتٍ عديدة في موقعٍ شديد الأهمية.

صرخ هارون:

- هل تعرفون هذا الموقع؟

ردت بلقيس بغباءٍ لا يليقُ بها:

- السد العالي في أسوان.

احمرت عيناهُ غضبًا وهو يقول:

- هذا الموقع هو أحد المواقع التي توجد في خرائط عبد العظيم.

ثم انطلق خارجًا إلى القاعة الرئيسة، وهرولت وراءهُ بلقيس، بينما وقفتُ غير متوازنةٍ لدقيقةٍ أتابعُ الخبر الذي نسب التفجيرات إلى ثوار القمر الذين لا يكفّون على تفتيت النسيج الوطني، وسحب الشعب إلى المنطقة صفر ومواضيعها الفرعية غير الحقيقية كوجود مستعمراتٍ على القمر يعيشُ بها عليةُ القومِ.

ثم بدأ يكيلُ الضربات بضراوةٍ وهو يقفُ بالقربِ من موقع الانفجارات بينما بدا كثيرٌ من الناسِ في الخلفية:

- تُرى ماذا يقصدُ هؤلاء الثوار الخونة حين يقوموا بعمل تفجيراتٍ ستتسبب في غرق الصعيد والوجه القبلي بأكملهُ في الظلام والعودةُ إلى العصور الحجرية بعد أن تنقطع الكهرباء عدة أيامٍ قبل أن تتمكن حكومتنا الموقرة من إعادة إصلاحها؟ هل يريدون لمصر أن تقبع في عصور الظلام التي يجرونها إليها بإصرارٍ عبر سحب الناس إلى أفكارهم الهدّامة الإنفصالية؟

بدأ الصوتُ يعلو خلفهُ، صوت عشرات الحناجر التي تهتفُ بالموت لثوار القمر الخونة.

هرولتُ مبتعدةً أبحثُ عن هارون وبلقيس.

وجدتُ هارون يقفُ أمام الجهاز المتصل بالـ١٣ MS الذي يعرض لنا حياة سمرة لحظةٍ بلحظة. يقلب المقاطع وينتقل بينها بينما وقفت بلقيس على جهازٍ آخر تحاولُ ضبط الخريطة في ملفات عبد العظيم التي تعرض المناطق الحيويةِ المقصودة.

قلتُ بدهشةٍ:

- إنهم يتهمون ثوار القمر بهذه التفجيرات؟

لم يرد هارون وبدا منشغلا جدًا، بينما قالت بلقيس باقتضاب:

- هذا هو الطبيعي.

أخيرًا توقف هارون عند لقطةٍ ووقف يتابعها بقلق.

بدت الشاشة الهولوجرامية تعرض صورة سمرة كأنها بيننا، نائمةٌ على فراشها بينما تعتليها امرأةٌ أخرى وهما تعتليانِ معًا رجلاً ما متغضن الملامح.

قفزت فجأة مع صوتٍ متكررٍ كأنه رنةُ إنذارٍ، هرولت ناحية جهازٍ يشبهُ كثيرًا الجهاز في قصر الجنرال عبد العظيم وشغلتهُ حين تبعها العجوزُ، يزيحها جانبًا كي يتحدث مع المتصل الذي ظهرت صورتهُ.

على الشاشةِ صورة الجنرال مُهاب يجلسُ في منزلهِ مرتديًا روبًا حريريًا فاخرًا، قال:

- بايدن أيها العجوز!

يتحدث الإنجليزية، رد بايدن باستعلاء:

- جنرال فخر الدين، هل تم الأمر؟

قال مُهاب بنفس اللهجة المرحة:

- بالتأكيد، كما اتفقنا، السد العالي.

رد بايدن وهو يحتضن سمرة التي تعد له غليونهُ:

- الهالات الكهرومغناطيسية هل تمنع الإشعاعات الذرية وتحجم الإنفجار جيدًا؟

جلس مُهاب صاحب أكثر الملامح صرامةً وغضبًا محاولاً الابتسام وهو يقول:

- بالتأكيد؛ تجربة ناجحةٍ جدًا، وأعتقد أن باقي المواقع ستجني التأثير نفسهُ.

- ليس الآن يا مُهاب، ليس الآن.

- بالتأكيد يا جنرال.

مرت لحظةُ صمتٍ ثم قال مُهاب:

- والآن؟ حصلتم على الـ "IMS" وقمنا بسحب الفريق"أ" ونفذنا كذلك الجزء الخاص بنا بتجريب أولى خطوات المخطط "X". فأين ما وعدتم؟

قال بايدن بعصبية:

- نحنُ على ما وعدنا يا جنرال، العمل في لؤلؤة القمر يتم على أكمل وجهٍ.

- لكن الجنرال باسل ياسين لم يستلم كل شيءٍ بعد.

- الجنرال ياسين متسرعٌ. نحن لسنا سحرةً ولا شياطين ليتم الأمر بالصورة التي تتخيلونها. ثم إننا حددنا موعدًا، ولم يزل أمامنا ثلاثة أشهرٍ.

- ثلاثة أشهرٍ هي فترة طويلة جدًا يا جنرال.

- أنت تتحدث عن أكبر بناء تكنولوجي على سطح القمر. ونحن بيننا اتفاق. لا أحب طريقتكم هذه أيها المصريون.

هدأت ملامح الجنرال مهاب؛ أو هكذا بدت، وهو يقول:

- حسنٌ يا جنرال.

أنهى بايدن الاتصال. ثم التفت لرفيقتيهِ فطرد الأخري بغلظةٍ وقال لسمرة بضيقٍ:

- سمرة، أنتِ كسولة جدًا ولا تنفذي ما أطلبهُ منكِ. أخبرتكِ أنني أريد الملفات الأصلية للفريق"أ".

قالت سمرة بدلالٍ مبالغُ فيهِ:

- مهاب عندهُ حقٌّ في أنك لا تحفظ وعودك يا جنرال. أخبرتك أنني سأكون ملكك تمامًا إذا ذهبتُ في زيارةٍ للمستعمرة الأمريكية في القمر. أنا حتى لا أطلب أن أزور اللؤلؤة، أو المستعمرة المصرية.

يواصل بايدن بضيقٍ وهو يجلسُ على حافة الفراش:

- ما تطلبيهِ سيكشفُ أمرك تمامًا لهم. كيف تختفين لهذه الفترة الطويلة، ثم تعودين هكذا، ستصيرين كارتًا محترقًا.

اقتربت منهُ تداعب فمهُ المتغضن:

- وهل لا يستطيع جنرالي أن يحميني؟

أوقف هارون العرض عند هذا الحد، ووقف ينظرُ لنا ويفكر.

تذكرتُ حوارًا مماثلاً بين الجنرال عبد العظيم والجنرال باسل ياسين هذا عن أمورٍ مماثلة، قلتُ لهم أنني سمعتُ حوارًا كهذا، وحكيت لهم ما سمعت، وقلتُ أنني أشعر أن الموضوع بأكمله تلاعب بين الفريقين المتحالفين ومحاولة للحصول على المكسب من الآخر.

لم يهتم هارون بما قلتُ كثيرًا، وهو ينظرُ لخريطة العالم الضخمة التي أفردتها بلقيس أمامنا على الهولوجرام وبدت المواقع المختارة كنقطٍ مضيئةٍ تنتشر في كلِّ قارة:

- ما يعنيني الآن هو أن أفهم مخططهم هذا. إنهم يحضرون لكارثةٍ، لو أن هذا الانفجار هو انفجارٌ تجريبي. فإن باقي الإنفجارات التي ستحدث في أوقات

متقاربة لو أنها حدثت في هذه المواقع فستتغير خارطة العالم تمامًا وستنتهي دولٌ وشعوبٌ بالكامل.

قلتُ وأنا أسترجعُ نشرة الأخبار الفائتة:

-وسنسقط في الظلام، ونرجع عصورٍ كاملةٍ للوراء.

أشار لي هارون بسبابتهِ:

-وسيحكم من يملك التكنولوجيا ومصادر الطاقة والثروةِ فقط.

قالت بلقيس بشفتينِ مرتعشتين:

- أهو انقلابٌ على العالم كلّهُ؟

جزَّ هارون على أسنانهِ وهو يقول:

- كيف يستطيعون فعل شيء كهذا؟

كنتُ أتمنى في داخلي ألا يحدث هذا، تحدثني نفسي أن هذا غير حقيقي، وأن ثمةُ شيءٍ ما فهمناه خطأً.

يقول هارون من بين غضبهِ:

-من سيصدقنا لو نشرنا أمرًا كهذا؟

* * *

نحنُ هنا في موقف معاكس لما قالهُ جوبلز؛ فكلما تفحشت جرائم الحكومات كلّما كذب الناسُ حدوثها مهما عرضتَ لهم من دلائل.

* * *

تقولُ بلقيس:

-لا يمكن أن ننشرهُ.

وأقولُ في نفسي، لماذا لا يمكن أن ننشرهُ.

لم نستطع أن نواصل التفكير. وبصمتٍ وبدون اتفاقٍ مسبق ينصرف هارون، وأعودُ مع بلقيس إلى غرفتنا.

نقضي وقتًا طويلاً صامتتين. ثم أسألُ بلقيس بين دموعي: لماذا لن تصدقنا الناس؟ لماذا؟

قالت بلقيسُ أنهم لن يصدقوننا فقط. بل سيعادوننا أكثر مما يفعلون. وسيسبوننا في سرهم وجهرهم، وسينطلقون بحثًا عنا في الطرقاتِ وتحت أحجار الشوارعِ لقتلنا.

وسيبدأون صراعًا مختلفًا معنا لن نصمد امامهُ ونحنُ نحاولُ أن ندير صراعًا آخر مع أباطرة الشر.

قلتُ لها أنهم يجب أن يفهموا أن الصراع ليس بيننا وبينهم، يجب أن نثبت لهم أننا لسنا جبهة الشرِّ التي يجبُ قتالها.

قالت وهي متكورةً حول نفسها محملقةً في الفراغ: أن الصراع لم يعد بين خير وشر، ولا بين حقٍ وضلال.. الصراعُ الآن يتجلى في نفوسِ الناسِ على نحوٍ آخر: صراعٌ بين الثورةِ والانتصار لكرامةِ الإنسان وحريتهُ، وبين نفوسٍ أدمنت الاستكانة في حضنِ أبٍ غير شرعيٍ تترك مقاليد أمرها لهُ يصرفّها لهم كيف شاء؛ ثم تكبرهُ وتعظمهُ.

صراعٌ بيننا وبين نفوسٍ فارغةٍ لا تملك القدرة على الثقةِ في نفسها، ولا ترغب في أن تتحمل مسئولية حياتها ومصيرها فتترك كل شيءٍ بيده.

قالت أن في نفسِ كلٍّ منّا شهوة التعبّد –وهي رغبةٌ كباقي الرغائب الإنسانية- تبحثُ عن إلهٍ تقدسهُ وتقر له بالألوهيةِ، غير أن فشلهم في التدين – كفشلهم في كلِّ شيءٍ آخر- يجعلهم غير قادرين على تطبيق الجانب الغيبيّ في معادلة الإيمان، فيبحثون عن إلهٍ سريعٍ وواضح ملموس يعرض أمامهم مباشرةً عجائب قدراتهِ في القتلِ والتعذيبِ والمنح، فيدينون لهُ بالولاءِ والتقديس.

غير أنهم في هذه الأرض قد وجدوا لهم عدة آلهة!

مريمة..!

(٥)

الشاشةُ تعرضُ صورة القمرِ مع صوت موسيقى متوترة، صوتُ معلّقٍ خارجي:

- السفرُ إلى القمر. أهو حقيقةٌ أم خيال؟ وهل حقًا استطاعُ الإنسانُ أن يبني مستعمرةً للقمر؟

مزيدٌ من الموسيقى المتوترة:

نحنُ ننشرُ لكم رحلة الجنرال عبد العظيم إلى القمر، والتي وصلت إلينا قريبًا لنترك الحقيقة والحكم بين أيديكم.

تخفت صورة القمر، وصوت الموسيقى المتوترة تدريجيًا.

خُطوات تسيرُ فوق سطحٍ معدنيّ يلمعُ ويعكس صورة القبة الزجاجية التي تعلوهُ وتظهرُ من وراءهِ سماءٌ زرقاءٌ صافية قليلة السحب.

صوتُ حركةٍ مضطربةٍ، وخطواتٍ كثيرةٍ تبدو في الخلفيةِ.

تضطرب الصورةُ وتهتزُ كثيرًا قبل أن تُظهر رجلٍ عارِ الجزع يبدو في عقدهِ السادس - تقريبًا- قاس الملامح ويتمتع بلياقةٍ بدنيةٍ عالية.

يأتي صوتٌ من خلفِ الشاشة يقولُ بتوتر:

- نحنُ جاهزين الآن يا جنرال.

بجوارِ الرجل يقفُ أحد الفنيين يعاونُ العجوز على ارتداءِ رداءٍ أسودٍ لامعٍ كأنهُ بدلةً كاملةً ينتهي بهالةٍ زجاجيةٍ حول الرأس.

الفنيّ بالإنجليزية:

- هذا هو رداء الفضاء AS٣٣، أفضل البدلات الفضائية المصنعة بالنانوتكنولوجي من المستوى ...

الجنرال بعنفٍ وغضب:

- من أذن لك أن تتكلم؟ هذه ليست رحلتي الأولى لتسرد على سمعي كل هذا الهراء عن منتجاتكم الفضائية.

يتحولُ إلى الشاشةِ، يقول بالعربية مبتسمًا ابتسامةٍ مرهقة:

- هذا هو التسجيل الكامل لرحلتي الأخيرة لعام ٢٠٥٣ إلى القمر. من المفترض بعد حوالي عامين أن أذهب هناك لأبقى بعد تنفيذ برنامج الخطة "X".

الفنّي يربط البدلة من الخلف فيهتزُ الصوت قليلاً:

- ليعلم أولادي وأحفاي، أنني أقومُ بالكثير من أجلهم.

يأتي أحد الأجانب بمعطفٍ أبيضٍ خفيفٍ لامع، يقولُ بابتسامةٍ:

- مرحبًا جنرال!

الجنرال متضايقًا ومتأففًا:

- أهلا دكتور وين.

الدكتور وين رافعًا يديهِ:

- أعرف أنها ليست المرة الأولى لك، لكن أنت تعرف الإجراءات.

قال الجنرال بنفس النبرة:

- وأنت تعرف ردودي الدائمة عليك، تفضل لكن رجاءً انتهي سريعًا.

الدكتور وين يقرأ من جهازٍ بيدهِ:

- هذه هي الرحلة رقم ٢٣٤ لعام ٢٠٥٣ التي تقيمها ناسا ضمن برنامج "لؤلؤة القمر" المنعقد بين جمهورية مصر والولايات المتحدة. نهيبُ بالمسافرِ الكريم أن يتبع تعليمات الأمن والسلامة المكتوبة في كل مكان. ونودُ أن نحيطكم ببعض المعلومات الأساسية عن السفر والحياة على القمر.

ينتهي الفنيّ من تركيب بدلة الفضاء كاملةً، ويبدأ الجنرال في تجريبها بالحركة يمينًا ويسارًا ليختبر مدى مرونتها، ثم يضغط زرًا جانب عنقهِ فتنقسم الهالة الزجاجية حول رأسهِ قسمين وتتوارى على جانبي رأسهً.

الدكتور وين يُكمل من جديد:

- يستغرق السفر من سبعة ساعات إلى ثمانية ساعات على أقصى تقدير للوصول إلى سطح القمر، الخروج من الجاذبية الأرضية يكون بعد حوالي الساعة ...

الجنرال يُكمل في مللٍ وتأفف وهو يعاود السير نحو السّلم المعدني المتحرك:

- لهذا نرجو منكم الالتزام بمقاعدكم وبشروط السلامة ابتداءً من هذه اللحظة.

الدكتور وين يكملُ مبتسمًا:

- بعض المعلومات التثقيفية عن الحياة في القمر:

الجنرال ينظر حولهُ ثم يتوجه إلى باب الخروج. الدكتور وين يُكملُ:

- يتم الحصول على الأوكسجين عبر نظام كهربة المياه التي تم اكتشاف وجودها على القمر لهذا نرجو الحفاظ على كل قطرة مياهٍ في الاستخدام اليومي، الطاقة التي نعتمدُ عليها هي الطاقة الشمسية التي يتم استخلاصها عبر القبة الهائلة التي تضم المستعمرة وتقيها من الموجات الإشعاعية والحرارية للشمس، لهذا برجاء الاحتفاظ بخيم الإيواء الكروية في رحالات الاستكشاف خارج المستعمرة وعدم البقاء خارجًا لأكثر من يوم واحد، وتذكّر ..

الجنرال يُكمل بغضبٍ مكتوم:

- الابتعاد التام عن المنطقة C التي تضم الألواح الشمسية، ومنطقة توليد الطاقة النووية..

الدكتور وين ماشيًا وراءه:

- حيثُ أن بضعة كيلووات من الهيليوم٣ يمكن أن تمنح طاقة كهربيةٍ تضيء كوكب الأرض بأكمله.

يقفُ الجنرال أمام مركبةٍ لها أربعة أرجلٍ طويلةٍ تسير على عجلاتٍ كبيرة، وتتحرك لتقف تحت هيكلٍ ضخمٍ .

الدكتور وين مبتعدًا:

- رحلة سعيدة يا جنرال.

الجنرال بشراسةٍ:

- ستكون سعيدة إن رأيتُ دماءك تسيل.

يتوجهُ ناحية السلم المعدنيّ العالي. يصعدهُ.

تَّظلم الشاشةُ تدريجيًا.

* * *

أقفُ أتابعُ تأثير هذه اللقطة على وجوه الناسِ للمرة الخمسين تقريبًا.

لا زال كثيرٌ منهم يظهرُ الخوف باديًا على ملامحهم، وأكثرهم يبدو الغضب على ملامحهم.

البعض يصرخ من باب إثبات أنه ليس معنا:

- يسقط ثوار القمر الخونة.

- ثم ينظر حوله ليتأكد أن الجميع سمعه، قبل أن يمضي في طريقهِ.

أتوجهُ نحو موقف الحافلات. لأتّجِه إلى (نعيسة) لحضور الاجتماع الأسبوعي لأفراد الحركة بالإسكندرية.

أعدُّ نقاط التقرير الخاص بي في رأسي، وأحاولُ أن أكون مركزةً ومحددة.

أتخيرُ إحدى حافلات (هرقل) التي تمثلُ أكثر الأماكن أمنًا بالنسبةِ لي، تأخذني الهالةُ بمقعدها إلى الداخل حيثُ المكان الفارغ التالي. أتابعُ الشوارع وركضها المحموم بالخارجِ، غير مباليةٍ بسلسلةِ الأخبار التي يتم سردها عبر الشاشة الهولوجرامية.

أتوهُ بين وجوهِ الناسِ ومعالمها. ونظراتهم القلقةُ تجاه الحياة.

ينقبضُ قلبي كلما شاهدتُ عملية قتلٍ أو اغتصابٍ تتمُّ في الشارع في وضحِ النهار.

على بعضِ الجدران كُتبت كلماتٌ ضد النظام وضد اللجنةِ الحاكمة يخشى البعضُ مجرد النظر إليها.

أعودُ بذاكرتي للوراءِ. وأغوصُ في ذكرياتي.

كنّا قررنا عرض الفيديو الذي يُصور رحلة الجنرال عبد العظيم إلى القمر على حلقاتٍ تدريجيًا، وقد عرضناهُ مرارًا على الشاشاتِ الرسميةِ للنظام في الميادين العامّة، وكانت هذه اللقطة هي اللقطةُ الأولى في الفيديو التي نعرضها الآن للمرة الخمسين تقريبًا محاولين بإصرارنا أن ندق بها فوق رءوسهم لعلهم يتفكّرون.

عامانِ مرّا.

عامانِ من الصراع والثورةِ والغضب.

عامانِ من الركضِ في الشوارعِ، والتجمعِ في (نعيسة) أو المقر الرئيس. عامانِ من التخطيطِ والتفكيرِ ومحاولات صُنع الوعي بين أناسٍ تتقن الإنسياق في قطعانٍ دون تفكيرٍ، وتتقنُ قنص أنفسها في قنصها للآخرين.

عامانِ من الحزنِ والانتظارِ، ومحاولات العودة إلى النيجر والخروج من بين يدي الجاساك دون جدوى.

عامانِ من نشر حلقاتِ الفيلم دون أن نجني سوى الصمت من كلِّ من يراهُ في الميادين.

لم أتخيل أن محاولة السيطرة على شاشةٍ وحيدةٍ في ميدانٍ يمكن أن تمثل كل هذا الحجم من المخاطرةِ والتخطيط لعدة أيامٍ ثم الاختباء لعدةِ أيامٍ أخرى.

على أننا بدأنا ندركُ حقيقة أننا صرنا نمثل صداعًا في رأس لجنة الحكماء وكابوسًا لا يستطيعون إيقافهُ أو الوصول إليه.

اشتركتُ في وضع خطة كشف المتفجرات وإيقاف مفعولها على طولِ البلاد. ولم استطع إلا متابعة خطوات وضع الخطة الكبري التي اشترك فيها هارون وبلقيس وفجر، وأدار تنفيذها قيادة الحركة بتشبيكاتٍ عالميةٍ لم استطع متابعة تفاصيلها بسبب استغراقي حتى النخاع في تنفيذ خطة إيقاف المتفجرات.

اعتمدت الخطة في أساسها على انتقاء بعض كارهي النظام عبر معاونة فجر وشركة (هرقل)، وحاولنا التركيز على الأفراد التي تعمل بتلك المناطق الحيوية.

كان اقناعهم بوجودنا وجدوى ما نفعلهُ عسيرًا للغاية. وبرغم كونهم يميلون أكثر لسلوك الفرائس في معظمهم، إلا أننا حاولنا أن نعلمهم سلوكيات الصياد، البعض كان يبدي استعدادًا والبعض يخشى الاشتراك معنا حد الموت.

ندخل هذه المواقع لنكشف عن القنابل النوويةِ ونوقفُ عملها، وأحيانًا يقوم بعضهم بعمل ذلك بنفسهِ.

ما يقرب من ١٦ موقع على طولِ مصر، يضم بعضها بعض المصانع القديمة، أو المناطق الأثريةِ، أو القرى السياحية على طول البحر المتوسط، وغيرها.

بالإضافةِ لهذا، استقدمنا بعض علماء الطاقةِ النووية عبر فروع الحركة بالخارجِ، وساهمت فجر كثيرًا في هذا عبر اتصالاتها الدولية المؤمنّة بعيدًا عن الجاساك، فأتوا عبر بلدانٍ مختلفةٍ وإثباتات هويةٍ بين عمالٍ وفنيين، لنقوم بوضع خطة إجمالية لاحتواء الإشعاعات الذرية حال أن انفجرت بعض القنابل التي قد لا يكون لنا علم بها أو التي نفشلُ في إيقافها. وكذلك للبحث عن مصادرٍ أخرى للطاقةِ كي لا نصير أسرى لأصحاب التقدم التكنولوجي.

عملياتٌ عدة لحفظ البيانات والعلوم، وتاريخ الأرض تتم بدقةٍ بالغة. ومواقع كاملةٍ أنشأت في الصحراء الغربية حيث الرمال والشمس وحيث يقل التواجد الأمني تمامًا حد الإنعدام.

أخبرني هارون أن الحركات الإصلاحية قديمًا كانت تختلف عن الحركات الثورية. أما الآن فإننا وصلنا إلى مرحلةٍ لن تستطيع معها الثورة إلا إذا أصلحت بعضًا من عقل الناس الجمعي أولاً؛ كي يعوا ما هم فيهِ من فسادٍ وإفسادٍ ويدركون أن هناك شكلاً أفضل للحياةِ يمكن أن يصلوا إليه.

تذبذبت الإضاءةُ قليلاً داخل حافلة (هرقل)، ثم أظلمت الشاشاتُ في هالات الركاب فجأة.

بدأت تضيءُ تدريجيًا وصوتٌ يقولُ:

- السفرُ إلى القمر، أهو حقيقةٌ أم خيال. وهل حقًا استطاعُ الإنسانُ أن يبني مستعمرةٌ للقمر؟!

مزيدٌ من الموسيقى المتوترة:

نحنُ ننشرُ لكم رحلة الجنرال عبد العظيم إلى القمر، والتي وصلت إلينا قريبًا لنترك الحقيقة والحكم بين أيديكم.

لم أصدّق.. الفيلم يتم عرضهُ هنا كذلك. إنها مخاطرةٌ رهيبةٌ من فجر.

تُظهر الشاشاتُ الجنرال وهو يجلسُ على مقعدٍ وثيرٍ وأمامهُ وجبةٌ دسمةٌ من مختلف الأطعمة. يشيرُ ناحية النافذة القريبة منهُ ويقول بتعالٍ:

- صوَّر الخارج.

تتحول الكاميرا باهتزازٍ نحو النافذة لتعرض السحب كأنها أرضية بيضاء تبتعد بسرعةٍ شديدة. يبدو الأفق على شكلِ قوسٍ غير واضح تمامًا ومختفٍ وراء ضبابٍ شديدٍ، على أن هذا القوس يزادُ انحناءًا حتى يصل إلى نصف دائرةٍ عندها تبدو حركة الكاميرا متموجةٍ. تدورُ الكاميرا إلى الجنرال الذي بدا أنهُ مقيدٌ في مقعدهِ وقد فقدت بعض الصحائف أمامهُ وزنها فبدت عائمة في الهواء.

صوتُ المصورِ متحمسًا:

- خرجنا من جاذبية الأرضِ يا جنرال.

الجنرالُ بغضب:

- اترك الكاميرا في حامل النافذةِ وأحمل هذه الأطباق بعيدًا.

تتحرك الصورة بشكلٍ مضطربٍ قبل أن تثبت معرضةً صورة كوكب الأرض من الخارج يبدو وكأنهُ ثابتًا في مكانهِ.

يَظهَرُ أحد الأقمار الصناعيةِ على مسافةٍ بعيدةٍ جدًا.

تهتزُّ الكاميرا مجددًا. ثم تدورُ ناحية القمر لتصورهُ وقد بدا أكبر حجمًا بكثيرٍ.

انقطع الإرسالُ فجأةً، أظلمت الشاشةُ وتردد صوتٌ يقول:

- نعتذرُ عن هذا البث الخاطئ غير المقصود، ونؤكد لكم عداءنا الكامل لثوار القمر، ونعرضُ عليكم هذا التقرير.

يقفُ مذيعٌ في القناةِ الإخبارية خلف شاشةٍ هولوجراميةٍ تعرضُ بوستر فيلم (من أجل القمر) وهو أحد الأفلام الهزلية الساخرة التي أنتجها النظام للنيل منّا. يتكلم عن شخصٍ آمن بوجود مستعمرةٍ للقمر وظل يتحدث عنها وينزل مع ثوار القمر الذين يبدون مخبولين تمامًا – في الفيلم- يصرخون ويتحدثون بشكلٍ كالمجانين ويقولون كلمات غير مترابطة تنتهي دائمًا بكلمة مستعمرة

القمر، مستعمرة القمر، ترك عملهُ فلم يعد يجد طعامًا يأكلهُ، وفشل في علاقتهِ مع ابنتهُ، وظل يدورُ في الشوارعِ بحثًا عن المستعمرة، وينامُ في العراءِ ناظرًا نحو القمر. في النهاية مات على يد الجاساك بتهمة تضليل الرأي العام وتوجيههُ للمنطقة صفر.

يقولُ المذيع الذي يقفُ خلف البوستر ساخرًا:

- من جديد يقدمُ لنا ثوار القمر دليلٌ آخر على انهم مجموعةٌ من المخابيل، إذ يصنعون فيلمًا مضحكًا عن جنرالٍ سافر للقمر ودخل المستعمرة.

أضغطُ زر الخروج من الحافلةِ إذ تأتي محطةُ وصولي. فيتحرك الكرسي والهالة استعدادًا لإخراجي.

يُكملُ المذيع:

- يقولون أن هذا الفيلم أتاهم دون أن يقولوا المصدر الذي حصلوا عليهِ، وهذا شيءٌ سخيف. إذ كيف يريدوننا أن نثق فيهم دون أن يقولوا لنا مصادرهم.

تأخذني الهالةُ نحو الباب، والمذيعُ يُكمل:

- ومع هذا فإننا سوف نفنّد هذا الفيلم الهزليّ بالتمحيص والتوضيح.

توجهتُ بخطواطٍ سريعةٍ إلى طرفِ الميدان لأخرج منهُ إلى الشارع الطويل المفضي إلى الجسر الذي يصلُ إلى (نعيسة) وأنا أتحسس سيفي وسلاحي الناريّ.

يحتاجُ السيرُ في هذه الطرقات أن تكون أسلحتك ظاهرة لكل من يراك، وأن تعبث بها بين وقتٍ وآخر، وأن تنظر للناسِ بعينٍ فضوليةٍ كأنك تتدخل في كل شئونهم.

تلك بعضٌ من سمات الصياد التي تعلمتها، متابعة ما يحدث حولك وتوقع تصرفات الناس، والشراسة في التعامل والنظر لهم. ثم التدين بدينِ الانتقام حتى لو كان لمن نظر لك نظرةً لا تروقك.

بالميدان الذي أوشكُ على الخروج منهً توجد عدة شاشاتٍ إخبارية معلقةٌ على جوانب الطريق تنشر الأخبار بين الناس، أو تنشر أكاذيب النظام وتقوم بعمل غسيل مخٍ مستمرٍ لكل من يتابعها.

أظلمت الشاشاتُ فجأة فتوقفتُ أنظرُ لها، وكذلك فعل كثيرٌ من السائرين منتظرين ما قد تعرضه.

تعلموا طيلة الشهور الفائتة أن هذه هي إشارة سيطرة ثوار القمر على شاشةٍ من الشاشاتِ أو إذاعةٍ من الإذاعات كي يعلنوا عن شيءٍ ما. عرفوا كذلك أنه لا يتم مهاجمة من ينظر لها، وهذه نقطة مهمة أخرى.

أضاءت الشاشةُ تدريجيًا.

بدا الجنرال يقفُ على بابِ المركبة الفضائية. وخلفهُ أرضية القمرِ واضحةٌ مليئة بالفجوات والمنحدرات. في الأفق يبدو كوكب الأرض ساطعًا كأنك ستمسهُ إذا مددت يديك.

تبدو حركة الجنرال غريبةٍ كأنهُ بالكادِ يلمسُ الأرض، ويمشي بحركةٍ كأنما يقفز بقدميه الإثنين.

كثيرٌ من المنحدرات والتضاريس المتعرجة تنتشر على طول السطح. يركب لهُ أحد الفنيين جناحين عملاقين يخرج منهما ذيلٌ يشبهُ ذيل الطيور.

الجنرال يقول:

- أكبر حُلمٍ للإنسانيةِ فشلت فيه يمكن أن أحققهُ ببساطةٍ هنا على القمر.

يضبط الزي حولهُ جيدًا، ويبدو أنهُ معدٌ بأجهزةٍ ميكانيكيةٍ قوية لعمل الجناحين بسهولةٍ مع تحريك الذراعين.

الجنرال يُكمل:

- يختلف الأمر كثيرًا عن الزيF٨٧ المكون من موادٍ مضادةٍ للجاذبيةِ، ويبدو الطيران بهِ صناعيًا يرتفعُ وينخفض بغباءٍ مع قوة الجاذبية الأرضية.

يوجه كلامهُ للمصور:

- ستصور التحليق حتى مدخل المستعمرة.

يقفُ منتصبًا.

الاستمتاع على ملامح وجههُ المتغضن القاسي، يقفزُ ثم يحرك جناحيهِ، تبدو حركة الجناحين سلسةٌ سهلةٌ كأنهُ طائرٌ عملاق، يرتفع وينخفضُ ويدور بحركاتٍ إنسيابيةٍ.

تتحرك الكاميرا وراءه بسرعةٍ واضحةٍ، تبدو على امتدادِ البصرِ مجموعةٌ من القباب الزجاجيةِ العملاقةِ اللامعة.

تقتربُ تدريجيًا مع صورة الجنرال الطائرِ، الذي يحطُّ عند إحدى بواباتها. وتبدو صور المساحات الخضراء خلف القبة الزجاجيةِ واسعةٌ بشكلٍ لا يُصدق.

تُظلم الشاشة.

بعد فترةٍ قليلةٍ يعود البث العادي للأخبار.

بينما ينصرفُ الناسُ من جديد.

يبدو أن بيبرس- المسئول عن ملف نشر هذا الفيلم- يقومُ بجهدٍ غير عاديٍ.

أهرول مسرعة، متجهةً ناحية الشارع الطويل المفضي إلى الترعة.

أقطعهُ وأعبر الجسر إلى المنطقة التي لا تتجاهل الحكومة حتى الآن بوجودها، وتنتشر عنها شائعات الجن والأشباح الذين ماتوا، ويخشى من خارجها أن يقتربوا منها.

أسيرُ بين الوجوه المتعبةِ والتي لا تنظر لي كأنني لستُ موجودةٌ، وهو شعورٌ يذكرني بشدةٍ بجن (المغارة) الذين لا يراهم أحد، ويحكمون الناس فعليًا. وكذلك كانت تبدو (نعيسة) في نظري بالنسبةِ لكل من خارجها.

يخرجُ أفرادها ليلاً جماعاتٍ أو متفرّقين لينتشروا في صناديق القمامةِ حول جميع الفنادق والمطاعم الفاخرةِ التي تلقى نصف طعامها في نهايةِ كل يوم.

يُخرِجُون من صفائح القمامةِ أشكالاً مختلفة من الفواكه والخضروات السليمة تمامًا لكن تغليفها – بالنسبةِ للفنادق- لم يكن على ما يرام، فتقرر إدارة الفندق إلقاءها في القمامةِ.

أشكالٌ مختلفة من الطعامِ والمياه الغازية، وحتى الملابس التي قد يكون بها قَطْعٌ صغير لا يكادُ يرى بالعين المجردة.

هذا هو عملهم، البحث عن الطعامِ ليلاً في صناديق قمامة علية القوم. والتجسس عليهم أحيانًا، وفي الصباحِ يجلسون في جماعاتٍ يدخنون أو يتضاحكون أو يقومون بمهمةٍ ما نطلبها منهم إذا احتجنا.

ولهذا يحملون ودًا فيما بينهم. ولم يتأثروا بالهجمات الإعلامية والثقافية؛ فلم تهن قوة ترابطهم وعلاقاتهم السوية، بدا لي مجتمعٌ أسطوريٌّ غريب لا يمتّ بصلةٍ للعالم الخارجي.

بالداخلِ كان الاجتماعُ على وشكِ البدء.

وجدتُ بلقيس تجلسُ مع عيسى وبيبرس.

عيسى مشغولٌ بإعداد التقرير الخاص بتحركات سمرة وخططتها، وهي مهمةٌ عسيرةٌ على شابٍ خجولٍ مثله، أما بيبرس فكان مسئولا عن خطة نشر فيلم الجنرال عبد العظيم تباعًا، وفي أماكن مختلفة.

بلقيس استقبلتني بابتسامةٍ ونظرةٍ طويلةٍ لا تنتهى. نشأ بيننا على مدارِ عامين صداقةٌ لم أهيئ نفسي لها، ولم ألحظ تطورها إلا وهي تمثل شيئًا هامًا بالنسبةِ لي.

أكثر ما أحببتهُ فيها هو تفاؤلها وإيمانها العميق بكل ما تفعلهُ، كانت شخصيةٌ حالمةٌ تحملُ الثورة في قلبها، وفي عقلها تتربعُ قرونٌ من التاريخِ والحكمة.

قالت بلقيس بابتسامةٍ:

- لدينا مفاجأةٌ ضخمةٌ لكِ اليوم.

ابتسمتُ وقبل أن أرد دخل هارون ووراءه دخلت فجر.

بادرتُها قائلةً:

- مخاطرةٌ ضخمةٌ منكِ أن تقومي بعرض الفيلم في حافلاتكِ.

حجظت عينا فجر وتجمدت في وقفتها. نظرت بسرعةٍ نحو بيبرس الذي قال:

- لقد وصلتُ إليها بنفسِ الطريقةِ التي نتبعها.

صرخت فجر غير مُصدقة:

- هل أنت مجنون، أنت تعبثُ بالجانب الوحيد الذي نتكئ عليه في علاقاتنا الخارجية؟

قال هارون:

- على العكس يا فجر. إننا نسيطر أحيانًا على إذاعاتٍ كاملة نبثُّ فيها موادنا الإعلامية. ومنها أماكن تسيطر عليها كل شركات الأمن. بالتالي نشر هذا الفيلم لديكِ لن يثير أي شكوكٍ فيكِ تحديدًا.

قالت فجر بغضبٍ:

- على الأقل كان يجب أن تستشيرني.

احمر وجهُ بيبرس وهو يقول:

- هذا الملف تحت إدارتي أنا، وأقدم تقاريرهُ مباشرةً إلى هارون.

انفجرت فجر:

- وهارون يقدم تقاريره لي، أنا المنسق العام في مصر.

حاول هارون أن يقلل من حدة الموقف:

- أيًا ما ينتج عن هذا القرار سيكون مسئوليتنا جميعًا. والآن يا عيسى، ماذا لديك ؟

ضغط عيسى على أزرار هاتفهِ وهو يقولُ:

- الآن وصلك التقرير الخاص بكل تسجيلات سمرة الراسي، بما في ذلك جدولٌ بالرحلات الفضائية للقمر خلال الشهرين القادمين.

قالت بلقيس:

- إن رحلاتهم للقمر ازدادت كثيرًا خلال الشهور الأخيرة.

رد هارون موضحًا:

- بالتأكيد؛ يبدو أن ساعة الصفرِ بالنسبةِ لهم قد اقتربت. ألم يمر عامين كما قال الجنرالُ في بدايةِ رحلتهِ؟

سأل عيسى:

- هل أرسل جدول الرحلات إلى الضيفين الجديدين كما هي العادة؟

- بالتأكيد. إنهم يفيدوننا كثيرًا.

قال هارون محذرًا:

- لا تثقوا بهم كثيرًا.

سألتهُ، وأنا أعلمُ أن كثيرٍ من الأمور والقرارات لم أحضرها أو أشارك فيها بسبب انشغالي الدائم بمهمتي:

- من هؤلاء الضيفين؟

رد هارون بابتسامةٍ:

- إنهم سينضمون لنا الآن للمرةِ الأولى وستعرفينهم وقتها.

ثم عاد يسألُ فجر باهتمامٍ:

- ما اخبار التنظيم الحرّ؟

ابتسمت فجر وهي تقول:

- فكرتك بعمل تشبيكٍ بين الموصياد التركي والتنظيم، وبين المنظمة الدولية للحريات التي تمثلنا دوليًا كان مفيدًا. النتيجة هو رفع الحصار تمامًا عن النيجر ومالي، وانسحاب القوات التي هاجمت (عولام) قبل عامين.

انتفضتُ من جلستي مع ذكر (عولام). قلتُ بلهفةٍ:

- احكوا لي بتفصيلٍ أكبر رجاءً.

قال هارون بحنوٍ وقد لحظ لهفتي:

- الأمر بدأ منذ سنواتٍ كثيرة، منذ إنشاء تركيا لجمعية الموصياد في أواخر القرن السابق وهي جمعية لرجال الأعمال الأتراك؛ تحولت تدريجيًا إلى جمعية عالمية لرجال الأعمال المسلمين أصحاب رءوس الأموال والمشاريع الإقتصادية الضخمة وقد صارت الجمعية تمثل قوة اقتصادية لا يمكن تجاهلها. على الناحيةِ الأخرى ومع إنشائنا للمنظمة الدولية للحريات التي تعني بمشاكل وقضايا تعذيب المسلمين في كل أنحاء العالم التي كانت تُدعم بملايين الدولارات من رجال أعمال مسلمين على أنحاء العالم خاصة في الربع الأول من القرن الحالي حيث تزايدت أعداد الداخلين في الإسلام.

قلتُ متذكرةً:

- اتذكر جيدًا دور هذه المنظمة، واهتمامها بقضايا تعذيب المسلمين في بورما، والصومال. لكنها لم تنتبه إلينا في النيجر ولا في مالي.

قال هارون مشيرًا بسبابتهِ:

- بالضبط، لأن قضيتها الأساسية التعذيب وليس السرقة المبررة، في نفس الوقت ومع ظهور التنظيم الحر بعد نجاح الجيش الحر في السيطرة على الاوضاع في سورية وإنهاء مجازر الديكتاتور وجيشه تحول إلى توجه سياسي عالمي يسعى لنهضةٍ إسلاميةٍ شاملة.

أكملت بلقيس ساخرة:

- وكان هذا أهم الأسباب التي دعت إسرائيل للاتحاد مع فلسطين مكوّنةً دولة قدسليم، للإحتماء بها من القوة السورية / الإيرانية الصاعدة.

ضحك هارون وأكمل:

- لهذا كان التشبيك بين الجهات الثلاثة يمثل قوة رادعةٌ في يد المسلمين. وقد حاولنا على مدى عامٍ كامل أن نزيل الخلافات بين المنظمات الثلاثة ونقرب وجهات النظر، وهي ذي النتيجة. انسحاب القوات الأمريكية والمصرية من النيجر ومالي. ولم يبقى سوى شركات الأمن مما يمكّن الأمازيغ من أن يشنوا الهجمة تلو الهجمة ويحصلون على المناجم. ورفعنا الحصار عن (عولام) بعد عامين من الجوع.

طفرت دمعةٌ من عيني..

هل كانت عولام تحت الحصار لمدة عامين؟ عامان غبتُ فيهما في شباكِ العنكبوت!

أكملت فجر:

- الآن يتكوّن بشكلٍ لا يقبل الإنكار قوةٌ دولية تتخطى بكثير قوة وشرعية التحالف الدولي لإقرار الأمن الذي صدع رءوسنا بقضية الإرهاب التي يقوم بتصنيعها وتصديرها لنا.

قال هارون:

- لا تنسي جهود الدكتورة ليورة عزّت، حفيدة الرجل الذي صنع هذه المأساة من أجل أن يثبت لنفسهِ أنه قادر – بعلمهِ- على تغيير خريطة العالم.

قالت فجر:

- بالتأكيد؛ إنها تقدم كل الوثائق التي تهدم التحالف من جذورهُ. وتؤكد أنه دعم الأرهاب طويلاً.

قالت بلقيسُ وهي تفكر بعمقٍ:

- هذه هي الصورة التي رأتها لجنة الحكماء قبل عدة أعوامٍ حينما قررت أن تحارب كل هذا بالقنابل النووية. وإعادة البشرية مئات السنوات للوراء.

يشيرُ هارون بيدهِ وهو يوضح:

- لا تنسي أن هذه المنظمات بتشبيكها تمثل لوبي إسلامي قادر على فرض قراراته، بالإضافة إلى تحالفات دولية كاملة تضرب في نفس العمق. مثل سوريا وإيران مثلا، الصين واليابان وكوريا، بالإضافة إلى العملاقين تركيا وسنغافورة، كلها تحالفات قوية تقف بقوةٍ أمامهم وتهدد التحالف الهزيل مصر/ إسرائيل/ أمريكا، كل هذه أمور تدعو إلى سلك المبدأ اليهودي في هدم المعبد على الجميع.

أقولُ بألمٍ:

- لكنهُ لن يُهدم فوق رءوسهم أيضًا، سيولون الفرار إلى مستعمرات القمر.

يخيم الصمت على الجميع، وأرى في عيون البعض كثيرٌ من الحزن. لكن هارون يقولُ بشكلٍ مفاجئ موجهًا كلامهُ لي:

- هذا يقودنا إليكِ وعمّا حققتهِ في مهمتك.

بدأتُ أسردُ المواقع التي قمنا بسحب القنابل النوويةِ منها، والسيطرة عليها. وأسرد أسماء من قُبض عليهم، ومن قُتل.

سكتوا طويلاً فقلتُ:

- المشكلة الأكبر التي ستواجهنا هي إذا كان ثمة مواقعٍ تم إضافتها لخطتهم ولم نعرفُ بها.

قال هارون باهتمامٍ:

ونحنُ نحاولُ أن نعالج هذا بخطتي احتواء الإشعاعات، وإيجاد مصدر آخر دائم للطاقة.

قلتُ وأنا أشعرُ بيدٍ تعتصرني:

- أنا أتحدث عن المئات الذين سيموتون لأننا لم نكتشف أماكن القنابل الأخرى.

كانت هذه القضية هي أكثرُ ما يشغلني ويحصل على اهتمامي. هي أن أوقفُ وفاة أي إنسانٍ.

يترددُ في سمعي دومًا أن من أحيا نفسًا كمن أحيا الناس جميعًا. وأنا كنتُ في حاجةٍ لإحياءِ كثير من الناس الذين افتقدهم في حياتي.

لا أريدُ لمذبحةٍ أخرى أن تتم. كفى مذابحًا في هذا الكوكب.

لحظتُ أن الأنظار انتقلت لشيءٍ ما ورائي، وقال هارون مرحبًا:

- أهلا أيها المقاتل.

ثم قام الجميع يرحبون بهِ، وحين قمتُ من مقعدي، ودرتُ لأرحب بالقادم.

تهاوت قدماي، وعدتُ أجلسُ من جديد.

لم أصدق عيناي.

قال هارون:

- ما رأيكِ بهذه المفاجأة؟

لم أدرِ كم من الوقت تعلقت عيناي بوجههِ غير مصدقة.

كان هذا هو مازن.

وقد نظر لي بدهشةٍ وقال في صرامةٍ:

- هذه ليست مريمة.

مازن

(٣)

المكان لم أرى مثيلاً له من قبل.

فناءٌ متسعٌ على امتدادِ البصر يحيطهُ من كل جانبٍ الأبراج الشاهقةِ اللامعة على ضوء النيران في الساحة الجنوبية، والأنوار المسلطةُ في منتصف الفناء لتصنع دائرة تحتوي مئات الأقزام.

كنتُ أقفُ جوار النيران. الناسُ تملأ الفناء بكثرةٍ كأنها حربٌ.

وثمةُ صوت غليظ في مكبرٍ للصوتِ يدعو الناس للهروب من الهجمات الجوية بالتوجهِ إلى المنطقة المضيئةُ.

هجمات جوية؟

لم أرى هجماتٍ جوية. على أن الناس كانت تُساقُ إلى المنطقةِ المضيئة.

أسمعُ أزيز الهيلوكوبتر.. ثم صوت الـ تاتاتاتاتاتاتاتاتا سريعًا مرعبًا، أركضُ بحثًا عن أي شيءٍ أحتمي تحتهُ أو وراءه.

الناس تهرول وتسقط وتدوس فوق بعضها متوجهة إلى المنطقةِ المضيئة.

الصوتُ الغليظُ يحثُّ الناس على التوجه إلى المنطقة المضيئة.

الطائرات تضرب كل شيءٍ حتى الأبراج اللامعة، لكنها تبتعد تمامًا عن المنطقة المضيئة.

وأرى الناس تتقزم وتغلُّ أيديها وأعناقها بمجرد أن تصل للمنطقة المضيئة.

الطلقاتُ فوق رأسي..

الناسُ تسحبني معهم متجهين للمنطقةِ وأنا أحاولُ أن أركض بعيدًا ضد التيار.

فجأة أجدُ نفسي داخل المنطقة، يقولُ الصوت الذي لم يعد غليظًا:

- مرحبًا بكم في المنطقة صفر.

أنظرُ حولي فأجد الناس مقيّدةٌ بعضها في بعضٍ، سعيدةٌ ومبتسمة.

بالخارجِ يبدو الناسُ كأنهم أقزامٌ لا قيمة لهم. يركضون في رعبٍ خوفًا من الضربات المستمرة لطلقات الرصاص، ويهرولون نحونا.

حينما اجتمع الناسُ جميعًا مقيدين في المنطقةِ صفر. ارتفعنا لأعلى كأن طائرةٌ عملاقةُ تسحبنا، ويحيطنا غلالةٌ رقيقةٌ من مادة بلاستيكيةٍ شفافة. توجهنا ناحية الجبال فبدت قممها تحتنا مهيبةٌ ومرعبة.

انفتحت الغلالةُ فصرخ الجميعُ وسقطنا نحو قمم الجبال..

الهبووط المدوى في روحي جعلني أفتحُ عيناي فجأة.

تستيقظُ حواسي وأدركُ وجوي هنا في زنزانتي الرطبة الضيّقة عديمة التهوية.

أهربُ من هذا الحُلم الذي يتكرر كثيرًا.

أقومُ من ضجعتي على الأرضِ وأفرغُ حاجتي في الحفرةِ العميقة في أقصى الأركان.

أبدءُ في العدِّ لأعرف الوقت الذي يمرُّ. وأنظرُ نحو التقويم الذي حفرتهُ في الحائط لأعرف الأيام والشهور التي قضيتها هنا، وأغوصُ في المسائل العقلية التي تعلمتها من أحمد العطّار لتمضية الوقت هربًا من السقوط في فخ الجنون والانهيار الذي يدفعنا إليهِ من صمم السجن على هذه الناحية.

أتذكرُ كل ما مر عليّ من معلوماتٍ، وكل ما درستهُ. أركزُ بشدةٍ في تذكر كل معلومةٍ سمعتها عن التاريخ أو العلوم أو الطب النفسي المحرّم تدريسهُ.

كنتُ بدأتُ أرى حياتي بشكلٍ مختلف، قدر من الصفاء الذهنيّ والروحي كان يغلفني ويمنحني راحةً نفسيةٍ لم اعهدها فيّ من قبل.

حتى اليوم مر ستمائة وسبعة وستون يومًا منذ دخولي إلى المعتقل دون أن أفهم السبب، ودون أن أرى سجّاني.

باقي شهرين تقريبًا حتى أكمل عامين في هذا المكان.

عامانِ من الكهربةِ بالماءِ أثناء النوم. والضجيج المستمر لفتراتٍ طويلة

عامانِ من التعذيب النفسي والجسدي.

الزنزانةُ المضيئةُ بضوءٍ ساطعٍ لفتراتٍ طويلةٍ مع صوتٍ غريبٍ يتردد برتابة وانتظام، إغراق الزنزانة بالماءِ عند النومِ، الموجات الحارّة باستمرارٍ في الصيفِ، والموجات الباردة حد الموتِ في الشتاءِ، الرشّ بالمياة الباردة لفتراتٍ متصلةٍ تصل إلى عدة أيامٍ دون نوم، إغراق الزنزانةِ بالكاملِ بالمياه لمدة تتعدى أحيانًا الدقيقتين.

كنتُ أصِلُ إلى حافّةِ الانهيارِ والجنون، أشعرُ بالعجزِ والغضب من نفسي دون أن أعرف ما فعلتهُ تحديدًا لأتلقى هذا المصير.

عامان من الإنعزال عن البشرِ إلا الأيام التي تفتحُ فيها الزنازين ليتقابل المعتقلون - الذين شتت عقولهم وغرقوا في أوهامٍ خاصّة صنعوها - في باحة السجن.

كل السجناءِ يخرجون للساحةِ يسيرون بجسدٍ هزيلٍ غارقين في أحلام اليقظةِ.

كل السجناء فقدوا إدراك هوياتهم، وكثيرٌ منهم قام بالانتحار، وأوشك البعضُ الآخر عليهِ.

كل السجناء يصرخون أو يتكلمون مع لا أحد، ويتوهمون أشياءًا فيزعقون بها ليل نهارٍ محدثين أشباحًا بغضبٍ أحيانًا وبرعبٍ، سقطوا في فخ الانهيار، وصنعوا عالمًا مجنونًا استلب عقولهم.

كل السجناء إلا سجينين.

سجينانِ أثارا دهشتي وحيرتي؛ تعلمتُ منهما الكثير، وكانا عوني الوحيد في صمودي الطويل طيلة مايقرب من عامين.

الأول هو أحد علماء الطاقة النووية واسمه أحمد العطّار كهلٌ في أوائل الخمسينات من عمرهِ كان همّه الأساسيّ تصنيع القنبلة الهيدروجينية في جامعة القدس، وقد عرضوا عليهِ أن يقوم بأبحاثهِ في جامعات امريكا لكنهُ رفض بإصرار. يقولُ أن عذابهُ الأساسي أنه تُرك في هذا المكان دون جهاز كمبيوتر، أو حتى دون ورقٍ وأقلام.

على أنه حوّل حوائط الزنزانةِ إلى معلقاتٌ في الشعرِ والمعادلات الفيزيائية، ولوحات فنيةٍ تُظهر وجه زوجتهُ التي توفيت وتركتهُ يعاني في هذا العالم وحيدًا.

أحمد العطّار كان حالمًا. يتحدثُ عن فلسطين قبل أن يموهوا هويتها وتاريخها بمعاونات أشقائها العرب لتختفي تحت إهاب قُدسليم؛ الدولةُ المختلطةُ عديمة الهوية. .يتحدث كثيرًا في التاريخ وقد تعلمتُ منهُ كل ما لم تذكرهُ الكتب المدرسيةِ ولا المتشدقون بالعلمِ في وسائل الإعلام.

تعلمتُّ من العطار كذلك مبادئ الفيزياء والرياضيات، وهي علومٌ لم أدرسها بشكلٍ كافٍ لأعرف إن كنتُ أميلُ لها أم لا، لكن العطّار فسّرها لي بشكلٍ سحريٍّ فأحببتُ طرافتها ومعانيها، وفي كل مرّةٍ حين تُفتح أبواب الزنازين يشرحُ لي شيئًا ثم يعطيني بعض المعضلات الفيزيائية والرياضية لأفكر فيها في زنزانتي وحيدًا حتى موعد اللقاء التالي. اكتشفتُ بعد فترةٍ، ما صرتُ لهُ من حدةِ ذاكرةٍ وقدرةٍ على التركيز والتفكير المنطقي.

كانت أشياءٍ كهذهِ هي ملجأي ومهربي الوحيد أثناء بقائي وحيدا لساعاتٍ وأيامٍ أتلقى فيها الصعقات الكربائية عبر المياه، أو أجلسُ لساعاتٍ في ضوءٍ ساطعٍ يعمي الأبصار، أفقدُ قدرتي على التفكير فأبدأ في ترديد الأشعار التي علمنيها القدُّوسيّ.

سميح القدُّوسيّ هو ثاني من احتفظوا بعقولهم؛ شاعرٌ مشاغب أرهق الحكومات بشعرهِ اللاذع وكان ينشدُ أمامنا الكثير من أشعارهِ فلا نشعر بأنفسنا إلا ونحنُ غارقين في الضحك.

حكى لي الكثير من الأحداث التاريخية التي غيّر بها الأدب حياة الناسِ وعدّل مسار التاريخ. كان الحديثُ يأخذنا إلى التاريخ والأشكال القمعيةِ التي مارسها الطغاة على مدار الأزمنةِ والأمكنة. وهو يؤمن بأن قبول الإنسان لطرق القمعِ مهما كانت بسيطة هو عبودية لا يستقيم معها الصورة التي خلقنا الله عليها.

على أن القدُّوسيّ كان متدينًا يميلُ للتصوّف. حكى لي عن مذاهب الصوفية، وعن مولانا جلال الدينِ الروميّ الكثير، حتى حفظتُ بعض أشعاره .

أكثر ما تعلقتُ به هو مقولتهِ: حين تُقيد أنعتق، لو تُوبخ أحتفي، نصْلُك المشقوق عشق، وأنينك أغنية.

أخذتني هذه المعاني الثورية التي تفتحُ مجالات في خرائط تفكيري لم أعرف بوجودها. علَّمني القدُّوسي كيف يتحول السجن وأساليبه إلى حرّيةٍ منطلقة بلا قيود، بينما يتحولُ براح الدولةِ وأراضيها إلى سجنٍ لأنه يقدم حرّية مشروطة بالقمعِ والإرهاب.

كان القدُّوسيّ يذكرني دومًا بأبي، ليس لأنهُ يشبههُ، لكن لأنهُ نقيضه. أتذكرُ كثيرًا كيف تسببت ثلاثة أشهر في السجن في هزيمتهِ وتغيير حياتهِ إلى الأبد، بل وتغيير حياة أبنائهِ كذلك. تذكرتُ كيف مات في نظر أمي وقت أن خرج من المعتقل على هذه الصورة الهزيلة. منذُ دخلتُ إلى هنا كنتُ أذكّرُ نفسي أنني لا يجب أن أضعف ولا أن أُهزم نفسيا. هزيمتي كانت ستعني انتصارهُ في كل ما فعل بعد اتهامي لهُ بالضعفِ والجبنِ طيلة حياتي وحتى وفاتهُ مرتعدًا ووحيدًا

في فراشهِ. كنتُ أقولُ لنفسي دومًا أنه أكرم لي ألف مرّةٍ أن أموت وسلاحي في يدي مهاجمًا عدوي على أن أموت هذه الميتةُ المخزّية. وقد جاء الوقتُ الذي أختبرُ فيهِ مدى صدقي.

تكَشَّفت لي في تلك الأيام حقيقةُ المصير الذي عشتُهُ، وأيُّ طريقٍ قادتني إليهِ وقائع حياتي. واكتشفتُ أشكالاً أخرى من الحياةِ أكثر نبلاً وكرامة، وطرائق أفضل في العيشِ، تتخطى كثيرًا الصورة التي ظننتها دومًا – برضًا بالغٍ عن النفسِ - مثالية لأي إنسانٍ.

بندمٍ وخجلٍ حكيتُ لهم عن العالم الذي نشأتُ فيهِ حيث كانت كلمة الحرية توضعُ في قاموسٍ للكلمات المحرّمة التي تعادي النظام لأن الناس تفهمها بشكلٍ مختلف عما يقصدهُ النظام.

حكيتُ لهم عن مريمة، ومقابلتي لها في النيجر مقابلة الحيوانات فقط لأثبت قدرتي. حكيتُ عن قتلي لفهد أقرب أصدقائي فقط كي أمحو الآثار خلفي فلا يتبعني أحد، حكيتُ عن استغلالي لمريمة بأكثر من وسيلة، حكيتُ عن مرات القتل والاغتصاب والسرقة، حكيتُ عن كل ذنوبي، وشعرتُ بدهشةٍ أنني أتخلصُ منها، حين كانوا يؤكدون لي أن محاسبتي لنفسي تبدأ الآن بعد اكتشافي كل الأكاذيب التي تربيتُ على كونها حقائق.

برغم هذا كان جانبًا منّي يشعرُ بالفوضى، واختلالِ الأرض التي أقفُ عليها. إن تخليتُ عن الصورةِ التي كنتها، فأي صورةٍ أتبعها، وأنا غيرُ قادرٍ سوى على الإعجاب بأشكالِ حياتهم.

فكأنما يتغيرُ وجودي، وتتبدل أعماقي، فأكادُ لا أعرفني، عرفتُ من العطار أن تغيير أساليب تفكيرنا للأفضل، وامتلاك القرة والرغبة على التغيير هو أرقى الملكات الإنسانية التي حبى الله بها الإنسان.

التفكيرُ في الإنسانيةِ والسمو كان يأخذني تلقائيًا إلى مريمة، صورة الإنسان الشامخ فوق كل صنوف الحيوانيةِ والتجبر، ويؤلمني - أكثر من كل التعذيب

الذي ألاقيهِ هنا- فكرة أني خذلتها، واستغللتها، وعاملتها بأنانيةٍ ودنوٍّ وحقارةٍ لا تدلُ إلا على سلوكي وذاتي.

حديثنا في ساحة السجنِ لم يكن متصلا باستمرارٍ. ففي الغالب حين تُفتح أبواب السجون للمعتقلين كي يخرجوا للساحة الخارجية يرفضون العودة للزنازين حين يحين وقت العودة. فكانت تأتي لنا آلةٌ عبارةٌ عن جدارٍ معدنيّ تخرجُ منها عدة كماشاتٍ معدنيةٍ أخرى تحتوي على اسطوانات زجاجية. ينغلقُ الجدارُ على جميعِ من بالخارجِ فيحصرهم بين الآلةِ /الجدار وبين أحد جدران الساحة. وتبدأ الكماشة المعدنية الأسطوانية العملاقة تتحرك على الجدار حتى تأسر السجين، ثم ترسلهم تباعًا إلى زنازينهم.

كنّا نسمي هذه الآلة بالسجانةِ متعددة النهود، ونسخرُ منها لأنها تشبهُ حركة الأم في ضمها للسجين المتكور حول نفسه رغبة في الهرب منها.

ومثل السجانةِ متعددة النهود، هناك السجانةُ ذات النهد الواحد، وهي التي تدخل للسجينِ في زنزانتهِ فتجبرهُ على الخروج للساحةِ إذا رفض الخروج وقضى وقتًا طويلاً في الداخلِ بعد فتح الأبواب.

وكانت ذات الآلةِ تمارسُ بعض التعذيب الجماعي على السجناء بساحة السجنِ المنغلقة مثل الصعق بالكهرباء حين يتم تجميع جميع السجناء بها، أو السجن داخل الإسطوانة الزجاجية الضيقة لفتراتٍ طويلةٍ فتلتهبُ أرواحنا فيها بالألمِ، وبالرغبةِ في الخلاص، فتنطلق –أحيانًا- عقيرة القدُّوسيّ بالشعرِ والهجاء.

أوقات أخرى كان يتم إطلاق الحشرات في الساحةِ. مزيجٌ من الفئران والسحالي والزنابير بأعدادٍ كثيرةٍ مرهقةٍ، فتزحفُ على أجسادنا ووجوهنا. وأحيانًا يتم تعليقنا جميعًا من أقدامنا لتتدلى رؤوسنا كبندولِ الساعةِ. على أن ما كان يزيدُ الألم والإرهاق والوصول إلى حافة الإنهيار هو الصراخ المتصل لباقي السجناء الذين فقدوا عقولهم وإدراكهم. والبعض كان يبولُ فتتحول الساحة إلى رائحةٍ خانقةٍ مقززة.

وقد حاولنا معًا طيلة العامين ،الهروب من السجن.

كنتُ على علمٍ أن أي نظامٍ وأي تصميمٍ لا بد أن يوجد بهِ ثغرةً، لأن التفكير الإنسانيّ بأكملهِ يحمل الكثير من نقاط الضعف. وطوال عامينِ كنّا نبحثُ عن هذه الثغرة، فلا نجدها إلا في أنفسنا التي لا زالت تتوقُ إلى الحريةِ المقيدة بالخارج، كبديلٍ عن السجنِ الحرِّ. ولم يكن القدَوسي يرى اختلافات كثيرة.

* * *

قمتُّ لأحرك جسدي قليلاً. أنفذ بعض التدريبات الرياضية على الحائط قبل أن تغرق المياهُ الأرضية فأتعلّقُ بين الحائطين حتى تنتهي نوبة كهربة المياه.

أعودُ لأبدأ من جديد بعض التدريبات الرياضية بسرعة فتعودُ المياهُ إلى الزنزانةِ، فأتعلّقُ بين الحائطين حتى تنحسر المياه.

كنتُ كلما رغبتُ في أن أسخر من السجن ونظامهِ أفعلُ هذا، لنضحك من ذكرهِ حين ألقى رفاقي بالخارج.

في أوقات اكتئابي كنتُ أقول لرفيقيّ أنني أشعر أنه تم تقزيمنا، وحصرنا في مكانٍ لا بشر فيهِ، وكل ما نسخر منهُ هو آلةٍ ونظامٍ وضع وينفّذ آليًا. كنتُ أقولُ لهم بحزنٍ لم يعتادوهُ منّي أن السخرية الحقيقية هي في وضعنا هنا بهذه الطريقة.

أحيانًا كان يصلُ سميحُ أيضًا لهذه المرحلة من الحزن والاكتئاب، فيحكي عن رواية سيربانتس الذي لم أعرف عنها إلا منه. يقول أننا مثل دون كيخوتة نحاربُ طواحين الهواء التي وضعها لنا السجّان ووقف يضحكُ ويهزأ منا بعيدًا.

على أن العطّار- صاحب العقليةِ العلمية – كان أكثرنا تماسكًا، ويقولُ دومًا أن من يستخدم القوة ليخرس الأفواه هو أكثر الناسِ ضعفًا وأكثرهم خوفًا كذلك.

حتى الآن مر ما يقرب من أسبوعٍ من الاحتجازِ في الزنزانةِ دون فتحها. وهي فترةٌ طويلةٌ نوعًا.

أهدأ بعد ممارسة التمارين والتعلق بالحوائط، لألتقط انفاسي.

يُفتحُ جانب سفلي في الباب ليدخل منهُ الطعام فألتقطهُ بسرعةٍ وألتهمه.

أعترفُ أن الإنعزال في السجنِ طيلة العامين، ومرافقة رجلين مثل العطّار والقدُّوسيّ قد ترك أثرًا لا ينمحي في نفسي.

هدأت روحي كثيرًا. وتغيرت مفاهيمًا كاملةً. وصرتُ أقل عنفًا، أكثر تأملاً وعقلانية وتفكير. أحزنُ احيانًا حين أشعرُ في داخلي بالشخص الذي كان من الممكن أن أكونهُ لو عشتُ حياةً اخرى مع رفاقٍ كهؤلاءِ بدلا من السير مع تيارِ القطيعِ الذي أوصلني لما أنا عليهِ.

مرتزقٌ – كما تقولُ مريمة – أمارسُ القتل كوظيفةٍ والاغتصاب كتسلية. همجي كنتُ ضمن نظامٍ ممنهجٍ للهمجِ غير المتحضرين، ترسٌ في نظامٍ للإرهاب الذي نصدرهُ، ثم نتهم به الآخرين، نتهمهم بما هو أساسُ وجودنا نحنُ وليس فيهم.

قبل أن انتهي من طعامي يُفتحُ بابُ الزنزانةِ وتظهرُ وراءه السجانةُ ذات النهد الوحيد، فأضحكُ بفمٍ ممتلئٍ.

تقدمت منّي فتركتها تأخذني وتفردُ جسدي في اسطوانتها الزجاجيةِ ثم تسيرُ بي فوق عجلاتها للخارجِ.

تعجبتُ حين وجدتها لم تقف في ساحة المعتقل الفارغ الذي لم يكن بهِ أحد. توقفت أمام جدارٍ أصمٍّ ففتح شقٌ فيه عبرتُ خلالهُ إلى مساحةٍ أخرى واسعةٍ. توجهت ذات النهد الواحد الذي تسجنني فيهِ إلى ما يشبه مصعدٍ.

أطلقت السجانةُ سراح نهدها، فتحركت الأسطوانةُ إلى داخل المصعد الزجاجي.

ارتفع المصعد إلى أعلى وغمرهُ الظلامُ لفترةٍ قبل أن يظهرُ نورُ النهارِ تدريجيًا حتى يعمي نظري، فأغلقُ عيناي وأضعُ يدي فوقهما.

أفتحُ عيناي تدريجيًا لأجدني داخل الإسطوانةِ الزجاجية وقد فُتح بابها، ومن حولي رمالُ الصحراء من كل جانبٍ.

أقفزُ للخارجِ بسرعةٍ ولا أصدق ما حدث.

أسقطُ على قدميّ لأمسك رمال الصحراء الملتهبة. وأغمضُ عيناي من الشمس الضارية التي تكادُ تحرقني.

أضعُ يدي فوق عيناي بحثًا عن أي شيءٍ حولي لكنني لم أجد إلا الفراغ والرمال. أقفُ وأبدأ في السير بقدمين نسيتا معني الحرية، أشعر بهما واهنتين ضعيفتينِ، أمنّعُ عيناي بصعوبةٍ أن تحتفظ بدمعٍ يطفرُ حزنًا وقهرًا.

الآن أشعرُ بالقهرِ كما لم أشعرُ بهِ في حياتي.

ألحظُ سيارةً على امتدادِ البصرِ تأتي نحوي بسرعةٍ، لا أعرفُ هل أهربُ منها أم انتظرها، وقفتُ وأنا أعرفُ أنني مهما فعلتُ لن أكون أسرع منها.

وقفت أمامي ونزل منها رجلٌ يرتدي بدلةً سوداء وقبعةٍ سوداء ونظارةُ شمسٍ سوداء.

حاولتُ – بعينيّ المرهقتينِ من الشمسِ – أن أدقق في ملامحهِ أكثر، قال بنبرةٍ مرحة:

- اركب يا مازن.

رُباه.. الجنرال أدهم الجبليّ، هتفتُ غير مصدقٍ باسمهِ، فبدت الإبتسامةُ على وجههِ ساطعةً.

ركبتُ جواره، فخلع منظارهُ وقبعتهُ وقال مازحًا أنني تغيرتُ عما كنتُ عليهِ في المدرسة.

لم أكن أصدق ما يحدث، ولأولِ مرةٍ تختلطُ الأحاسيس بصدري، وأحاولُ أن أسيطرُ قليلاً على نفسي.

أسألهُ وهو ينطلقُ بسيارتهِ أن يحكي لي كلَّ شيءٍ، فيقولُ باقتضابٍ شديد أنه يريدني معهُ.

- كيف وصلت لي هنا ؟

- أنا أعرفُ بوجودك هنا منذ دخلت المعتقل.

- منذ عامين؟

- نعم!

أُصدمُ بشدةٍ، ويتصاعدُ التوترُ بأعماقي حتى ليوشكُ على طرد قلبي من فمي.

- لماذا أخرجتني الآن إذن؟

- أريدكَ معي.

- لماذا لم تخرجني قبل الآن؟

ينظرُ باستغرابٍ نحوي :

- لأنني أريدك الآن معي!

هكذا باختصارٍ يردد الكلمة كأنها تنهي كل شيءٍ، وتفسرُ كل شيء.

- كيف أخرجتني من هنا؟

يضحكُ بسخريةٍ:

- هل هذا سؤالٌ يُسألُ لي؟

- ما هذا السجن، ولماذا تم اعتقالي ؟

- ملحق معتقل "كتسيعوت" الحديث. أما أسباب اعتقالك فكثيرة، منها: تمردك على القيادة في النيجر، وسعيك ورائي، ووصولك إلى ليورة ومخطط داوود عزت القديم، كلها أسباب كافية كي تطلب اللجنة إعدامك، لكن السلطة هنا في قُدسليم رفضت تسليمك وقررت اعتقالك في معتقلها الحديث الذي لا ريب أنك فهمت أسلوبهُ في إفقاد الإتزان والعقل.

هززتُ رأسي أن نعم. فبدا عليهِ الفخرُ:

- هو ذا تلميذٌ من تلاميذي يعتقل لمدةِ عامين بأكثر الأساليب الحديثة وحشية وإفسادًا للعقل، ثم يخرج سليم الفكرِ والجسدِ تظهرُ عضلاتهِ تحت بدلة السجن. لتعرف أنهم أغبياء حين يسلمون هذه المدرسة للأمريكان. الأغبياء لا

يعرفون أن هذه المدرسة ستصيرُ أقوى شيءٍ على سطح الأرض بعد تنفيذ المخطط "X".

استوضحتُ منهُ معنى ما يقولُ فقال لي أنه يريدني معهُ من أجل هذا.

حكى لي كثيرًا عما حدث خلال العامين الفائتين، وعن أسباب غضب اللجنة عليهِ، وعن هروبه، ومخططه المضاد لاسترداد حقهُ وسمعتهُ. حكى عن أسفاره المتعددة بالخارجِ للذهاب إلى العديد من الدولِ والمنظمات الدولية وعمل تشبيكاتٍ معهم في مخططٍ عالميٍ ضخمٍ يسعى لتغيير الخريطة العالمية.

حكى عن باسل ياسين، شيطان لجنة الحكماء على مستعمرة القمر، والمسئول عن مخطط لؤلؤة القمرِ، والمسئول الأول عن انقلاب لجنة الحكماء ضدهُ.

تكلّم عن المنطقة صفر، وعن وجوب كسر شوكة لجنة الحكماء وهدم المخطط "X".

* * *

المنطقة صفر: مساحةٌ محفوفةٌ بالخطر في عقل أي مواطنٍ في دولة، تمثل لوحة القيادةِ التي إذا امتلكتها امتلكت قيادة المواطن. لتعريف المنطقة صفر بشكلٍ أكثر تحديدًا، يجب أن نتحدث عن التجليات الثلاثة لنظريةِ المنطقة صفر.

التجلي الأول للمنطقة صفر: الرسالة الإعلامية الموجهة.

الأعداء: هم الذين يشدونكم للضلال في قضايا وهمية لا طائل من ورائها بعيدًا عن العمل المنتجِ الذي يساهم في نهضة بلادنا.

التجلّي الأول، هو النموذج المضاد للنظرية: لتأمينها.

التجلي الثاني: استبداد دولة القهر.

يتكون من اتحاد دائرة الجهل: أنك لا تعرف شيئًا عن أسرار الدولة ولا أعدائها الذين يضمرون لها الشر. دائرة العجز: لأنه ليس مسموحٌ لك بأن

تفعل شيئًا فكل ما تفعلهُ دون أوامرٍ صريحةٍ يضعك في خانة الاتهام. دائرةُ الخوف الناتجة عن الجهل والعجز. دائرة الأمان التي يؤهلك له الإعلام فتحصل عليه إذا أمنت للحاكم ولقراراتهِ الحكيمة العليمة بكل شيء. دائرة الإيمان بالنظام والتي تلجأ إليها هربًا من كل الدوائر السابقة.

تقاطعُ الدوائر الخمسة يكوّن المنطقة صفر في تجليها الثاني، وهو التجلي الذي تستخدمهُ دولة الجنرالات في مصر ضد مواطنيها.

التجلي الثالث: استبداد دولة الرفاهية.

وهو يتكون من اجتماع الدوائر العكسية لاستبداد دولة القهر، فالدائرة الأولى ؛ دائرة القدرة، حيثُ يظنُّ الناس أن بقدرتهم فعل كلَّ شيءٍ وأي شيء. والدائرة الثانية ؛ دائرةُ العلم، حيث يثقُ الناس في أنهم يعرفون كل شيءٍ. لكن هاتان الدائرتان يحدُّ من تفحشهما دائرة الخوف؛ وهي الدائرة الثالثة التي تمثلُ الخوف من أعداءِ الدولة الخارجيين الذين لايزالون يمثلون خطرًا على وجودهم، وتفضي الدائرةُ الثالثة إلى الدائرة الرابعة: دائرةُ الأمل: حيث يتواجد المشروع القومي الضخم الذي يمثل النجاح فيهِ القضاء على كل الأعداء الخارجيين، وتؤكد دائرة الأمل على الدائرة الخامسة وهي دائرة الإيمان بالحاكم الذي بيدهِ القدرة على إنجاح هذا المشروع القومي الضخم.

وهو التجلي الذي تستخدمهُ دولة الجنرالات في مستعمرة القمر.

"من الأوراق السرّية للجنرال أدهم الجبلي".

* * *

حين أوقف سيارتهِ أمام البرج الشاهق كان رأسي متخمًا بعشرات التفاصيل والخطط والأحداث، نزلتُ من السيارة لأجد أننا أمام مصحةٍ نفسيةٍ. ارتددتُ مصعوقًا وأنا أنظرُ غير مصدقٍ للجنرال أدهم الذي ابتسم وطلب مني ألا أنزعج.

قال أنه مهما كنتُ قويًا ومهما كنتُ مدرّبًا فإن ثمة اضطراباتٍ لا بد أن تكون حدثت بداخلي. قال أن الأمر لن يتعدى بعض فحوصاتٍ سريعةٍ وفترة للإستجمام لن تتعدى شهرًا؛ لكنها ضرورية كي أصل إلى صفاء الذهن الكامل.

بدا لي تبريرهُ منطقي. أنا نفسي كنتُ في حاجة لاختبار مدى نجاح أساليبي في إنقاذي من مصير الجنون.

أصعدُ مع الجنرال وهو يسرد عليّ الأوقات التي سيمر فيها على المصحة ليصحبني للاجتماعِ مع باقي أفراد الفريق الذين تخيرهم جميعًا من دفعتي في المدرسة العسكرية الدولية. قال ونحنُ نخرجِ من باب المصعد إلى الطابق الثالث والثلاثين أنه كان يتمنى أن يضمَّ معنا فهد قَصيّ لكنهُ اكتشف موتهُ في النيجر.

تزلزل وجودي فجأة. تذكرتُ فهد. رفيقي الذي قتلتهُ - برغم أنه عاونني ضد المساعد أول سليم فخري - خوفًا من أحتمالية أن يخونني، لكي أقطع كل الخيوط التي يمكن أن تصلهم إليّ في خطتي للوصول إلى أدهم الجبلي بحثًا عن الحقيقة.

تجلّت أمامي فجأة صورةً من حياتي الفائتة التي نسيتها أو تناسيتها. حينما قبض الحزنُ والندمُ على قلبي اكتشفتُ أنني صرتُ شخصًا آخر، وأنني لم أعد ذات الشخص الذي رحل عن النيجر غاضبًا ثائرًا قادرًا على فعل أي شيءٍ من أجل نفسه.

تجلت أمامي صورةُ مريمة مجددًا، وشعرتُ بهوىً في نفسي يحنُّ إلى الأمان الحقيقي الذي استشعرهُ معها لثقتي التامة انها لا تدبر المكائد، ولا تتقنُ فنون التلاعب.

شغلت مريمة نصف فِكري، ونصفُ عيني التي كادت تراها، وأنا أقومُ بالفحوصات الطبيةِ وبالاختبارات النفسية والجسدية، وأتت النتائج كلها مرضيةٌ لدرجة أطلقت من الجنرال الوقور ضحكة عاليةٍ رنت في جنبات المكان.

هو يرى في صمودي طيلة عامين: انتصارًا لهُ، وانتصارًا لعقليتهِ التي استطاعت أن تضع المناهج التدريبية وتؤسس لعلمٍ جديدٍ في نظره. وكنتُ أرى أنه أكثر أهل الأرضِ خبرةً عسكرية ونفسية. لكن صورتهُ السابقة في عيني، التي كانت تمثلُ وهجًا طاغيًا قد خفتت حدتها كثيرًا.

استلمتُ غرفتي بالمصحةِ وكانت تطلُّ على شوارعِ أورشليم. استكنتُ في الفراش الدافيء وشعرتُ بغرابتهِ وغرابة حركتي فيهِ. جزءٌ من عقلي لم يكن قادرًا على تصديق ما حدث، جزءٌ من وعيي لا زال يرى الحوائط الطينية الصلبة ويستشعرُ رطوبةُ الفراشِ من تحتي، جزءٌ من إدراكي كان يبحثُ عن المسائل الذهنيةِ ليغرق فيها وهو يعدُّ الأرقام لحساب الوقت الذي يمرّ، جزءٌ من روحي يحنُّ لفتح باب الزنزانةِ كي أقابل العطار والقُدُّوسيّ. وبدون سابق إنذارٍ شعرتُ بالدموعِ تسقطُ من عيني دون بكاء.

لم أبكِ؛ لكن ثمةٌ أشياءٍ غير مفهومةٍ كانت تحدث في أعماقي: كأن كيانًا ضخمًا محبوس يطلب الخروج؛ بداخلي رغبةٌ عارمةٌ في الانسلاخِ عن نفسي والتحليق بعيدًا عن كلِّ شيء.

على أنني حين استيقظتُ ؛ كانت عشرةُ ساعاتٍ قد مرّت.

دخلتُ للاستحمام، وحين خرجتُ جلستُ أمام التليفزيون أتابع أخبار ما يحدث، أو ما يريدون أن يحدث.

ثم شرد خيالي بعيدًا، وأنا أتذكرُ أننا سنرجعُ إلى مصر بعد تمامِ خطتنا.

وفي مصر سأقابلُ مريمة.

* * *

يقولُ الجنرال أدهم الجبلي:

" المخطط "X" هو مخطط تكسير عظام على مستوى العالم، يعتمد على زراعة العديد من القنابل النووية محدودة المدى في كل المراكز الحيوية في الدول التي تمثل تهديدًا؛ وضمت القائمة مراكز الأبحاث والجامعات والمراكز

التجارية الضخمة والبنوك والبورصات العالمية والمستشفيات الكبرى وحتى الأماكن السياحية.

الأمر بالفعل معركة وجود، وتحديد مصير. ولم يكن ثمة حدودٍ للخيال الأمريكي، لهذا؛ كانوا في حاجةٍ للسيطرة على المدرسة العسكرية الدولية التي تمتدُ عملياتها التأمينية لكل دول العالم تقريبًا، ورهنوا الأمر بتنفيذ نسخةٍ أخرى لنا من مشروع لؤلؤة القمر.

لم يكن في استطاعتي أن أقبل أمرًا كهذا، ورأيتُ أن من الغباء التام أن يقبلهُ أحد.

المخطط"X" كان يضم مواقعًا داخل الحدود المصرية نفسها، وكان التبرير الذي قدمته المخابرات الأمريكية هو الحد من سيطرة ثوار القمر؛ وهو سببٌ غبيّ لأننا نحن الذين اخترعناه. أنا الذي اخترعتهُ تحديدًا وأنا أنظِّر لكتابي عن المنطقة صفر.

لكنَّ اللجنة بغباءٍ أو بطمعٍ في اللؤلؤةِ وافقت، وقررت أن تعاديني لاختلافي معهم، ولما أشاعهُ باسل ياسين عن رغبتي في رئاسة اللجنة.

هكذا حركهم الخوف مني وأوصلهم إلى معاداتي، واختارت الجمعية العمومية للمدرسة مديرًا غيري، لكن الفريق"أ" بقى كما هو بحسب علمي آنذاك، وهو ما يعني أن لجنة الحكماء تحاولُ التلاعب بأمريكا التي يبدو أنها لا علم لها بالهيكل التنظيمي للمدرسة الذي قمتُ بتأسيسهِ.

المدرسة تتعامل مع أكثر من خمسين دولة على مستوى العالم، وبكل دولة مئات المواقع التي تقوم المدرسة بتأمينها وإدارة الأمن بها. وهي الوظيفة التي مُنعت منها شركة أمان وكل الشركات الخاصة التي رغبت في أن يكون لها حضورًا دوليًا. كل هذه المواقع وكل الأموال المتدفقة عبرها يديرها الفريق"أ".

على ان هذا لم يكن السلوك الأمثل للتعامل مع أمريكا، بل هي مراهقة سياسية أن يتم التلكؤ في تسليم المدرسة ظنًّا أن الولايات المتحدة يمكن أن تسلمهم لؤلؤة القمر قبل أن يستقر لها الأمر في تنفيذ مخططها الأساسي.

هكذا تمّ نفيي إلى قُدسليم لأكون مفوض البلاد هناك، وهو نوعٌ من التعجيز الذي أقنعهم بهِ باسل ياسين؛ ظانًا بغباءٍ أن هذا يمكن أن يحدني.

لجنةُ الحكماء هي لجنةٌ غبية، واستلامها مهمة إدارة البلاد تم، ليس لأنها تحوي أذكى الشخصيات، ولا أكثرهم معرفةً وخبرة، وإنما لأنهم أصحاب أكثر الأتباع في الجيش والمؤسسة العسكرية الرسمية. وهو التقليد الذي بدأ منذ استلم الجيش حكم البلاد منذ عصر المماليك وحتى الآن. الأمير صاحب الأتباع الأكثر والأقوى هو الذي يحكم. الأمير المتغلّب يحكم.

لكن هذا لا يجعلها الأذكي، ولا يجعلها لا تهزم، ولهذا فهي لجنة فاشلة حين تظن أن الولايات المتحدة ستسلمهم لؤلؤة القمر بشكلٍ سليمٍ ومتقن ولن تتلاعب بهم. وهي غبية لأنهم لا يعرفون أنه بعد تنفيذ المخطط ستكون المدرسة العسكرية الدولية هي أكبر قوة تكنولوجية وعسكرية على الكوكب، وهم يتخلّون عنها ببساطةٍ متناهية. وجميعهم أغبياء لأنهم يحاولون الانقلاب على من علّمهم علوم التخطيط والخداع الاستراتيجي، وأغبياء لأنهم لا زالوا يظنون أن التحالف مع أمريكا يعدُّ مكسبًا بعد كل التغيرات الدولية التي حدثت، أغبياء حين حاولوا التخلّص منّي.

ولأنهم أغبياء سيدفعون الثمن. وسيكونُ ثمنًا غاليًا بعد كل ما أعددتهُ لهم من مفاجآتٍ طيلة العامين السابقين.

* * *

نظرتُ ناحية الطريق الذي بدأت الرمالُ تخفتُ على جانبيهِ وأنا أحاولُ أن أتخير الكلمات لأسأل ما أريد:

- طيلة عمري لا أستطيع أن اتخيل كيف يمكن لرجل واحد أن يحقق شيئًا فضلا عن أن يهزم نظامًا.

زوّد الجنرال سرعتهُ:

- هذا ما زرعناهُ يا مازن، ولا يجب أن تسقط في هذا الشرك، لكنَّ رجلاً وحيدًا يمكن أن يغير العالم.

-وكيف يحدث هذا يا جنرال؟

- بأن يتحول الرجل الواحد إلى فكرةٍ تحتلُّ النفوس وتنخرُ في النظامِ فتهدمه، أن يتحول الرجل الواحد إلى نظامٍ بديلٍ يقدم اختياراتٍ أفضل ويرتكز على دعائم أقوى. أن يتحول الرجل الواحد إلى أسلوب حياةٍ لا تستقيمُ الحياة بدونهِ.

-وكيف يمكنُ هذا يا جنرال؟

صمتَ طويلا وهو يبتسم وينظرُ للطريق.

- ما رأيك أن تبدأ في تنفيذ هذا بنفسك؟ سأعطيك فرصةً لترى كيف يمكن لرجلٍ واحدٍ أن يهدم دولةً، أو يقلب نظامًا، أو يغير العالم. ما رأيك؟

-هذا ما أردتني من أجلهِ؟

- شيءٌ كهذا. مبدئيًا سنشكّلُ فريقًا تكون مهمتهُ إفشال المخطط "X". لدينا فكرة المخطط، ولدي تسجيلاتٌ وأوراقٌ رسمية تؤكد هذه الاتفاقيات بين مصر والولايات المتحدة. بقى أن نتواصل مع هذه الدول بطريقةٍ صحيحةٍ لنطلق فكرتنا وتؤتي ثمارها. ولسوف تكون هذه هي مهمّتك. التي ستدير جزءًا منها من هنا قبل أن نعود إلى مِصر.

- نعودُ إلى مصر؟

- بالتأكيد لأن خطوتنا الثانية بعد إبطال المخطط، هي إسقاط مستعمرة القمر، ولسوف تكونُ خطوتنا الثالثة بعد هاتين الخطوتين الكافيتينِ لإسقاط النظام المصري، هي السيطرة على الاجهزة الحيوية بالبلاد وإدارتها بعد استبعاد لجنة الحكماء.

بوجهٍ غير مصدقٍ :

- بهذه البساطة؟

أكمل كأنما لم يسمعني:

- والانضمام إلى تحالف القوى العظمى الجديدة، القوى الإسلامية الصاعدة.

- أن نركب الموجة العالية، بعد كل هذا؟

- بدأت تتذكر ما تعلمته منّي يا مازن. ولهذا أعتبرك أكثر تلاميذي نجابةً. لكنك في حاجةٍ لأن تؤمن بهِ، لازلتُ لا أرى الإيمان في عينيك.

ثم أخذ نفسًا عميقًا.

- لأسبابٍ كهذه أنشأنا الجاساك يا مازن، النظام الأمنّي الأول والوحيد في العالم الذي تم إنشاءه لهدم العلاقات بين الأفراد. حين يكون ارتباط الإنسان الوحيد هو بينه وبين قنواتنا الإعلامية، أو بينهُ وبين اشتراكهُ في أحد المشروعات التي يقيمها النظام، او بينهُ وبين مكان عملهُ الذي تسيطر عليهِ فكريًا شركات الأمن وتراقبهُ؛ لن نشغل أنفسنا بمراقبتهم، ولا للتجسس عليهم، ولا للسيطرةِ على تفكيرهم ومنعهم من إبداء رأيٍ مخالف.

الجاساك يقطع الطريق بينك وبين الآخر، ويأتي الإعلام ليؤكد لك جهلك وعدم معرفتك بهذا الآخر وتدريجيًا مع شعورك بالعجزِ تجاه ما يحدث بسبب جهلك بهِ وشعورك بالخوفِ بسبب البطش بهذا الآخر الذي لا تعرفهُ، يأتي دورٌ آخر للإعلام ليمدك بالأمل، ليمدّك بالأمان في ظل حُكم لجنة الحكماء التي تعرف كلَّ شيء وتديرُ كلَّ شيء وتسيطر على كلِّ شيء فيمنحها المواطن إيمانهُ الكامل، وهنا-هنا فقط – يقع أسيرًا في المنطقة صفر.

أنت تعرف عشرات الأمثلة على هذا. ثوار القمر مثلا؛ ضع فردًا أمام أي مواطن واقنعهُ بأنهُ من ثوار القمر، ولسوف يتكفّل لك بتمزيقهِ. إن تصرفهُ هذا لم يأتي من وطنيتهُ فقط، ولم يأتي من خوفهِ فقط من أن يتهم بالخيانة، بل من اتحاد الشعورين معًا، وبإيمانهِ الداخلي العميق بأنهُ يفعل التصرف الصحيح، والذي سيجزي عليهِ بالتأييد.

لهذا، فكسر هذه المنظومة يا مازن يأتي من اللحظة التي تقرر فيها أن تتواصل مع الآخر. الاتصالات والعلاقات والتشبيكات هي أهم سلاح. ولسوف يكون هذا السلاح هو سلاحنا الأول في حربنا المصيرية هذه. ولتدير العلاقات بنجاحٍ يجب أن تتخلى عن شعورك باستغلال الطرف الثاني لك وتتحلى ببعض الثقة والقدرة على تحليل تصرفات وكلام الطرف الآخر. وعندما ترى القوة الناشئة من الاتحاد سيبدأ إيمانك الحقيقيّ بما أقول. ولسوف ترى هذا واقعًا ولسوف تعيشهُ في مصر، حين نعودُ لها مجددًا لاستكمال خطتنا.

* * *

على أن مريمة لم ترد.

حين أعدتُ الاتصال بها مرارًا ردَّ عليّ شخصٌ يُدعى عيسى.

شاب متوترٌ قلقٌ، لا يعرف ماذا يفعل. سألتهُ عن مريمة فأخبرني أنها بخير، سألتهُ عن ماهيتهُ فأخبرني أنهُ يعرفني، ثم أدخل عدة أشخاصٍ أخرى في الحوار.

في النهاية عرفتُ ما حدث.

منجذبًا لشخصية هذه المرأة الطوارقية المختلفة، ظللتُ أفكرُ طويلاً في ما أخبروني به.

تركتها وحيدةً مطاردةٌ من أعتى جهاز أمني قمعي في تاريخ البشرية، لأعود إليها فأجدها مقاتلةٌ شرسة تجمعُ حولها مجموعةٌ من الثوار وتنطلق في مهامٍ ضد النظام.

ما شأن النساء التي أتركها فتصير أقوى مما كانت؟!

بدا أنهم يثقون فيّ لِما يبدوا أن مريمة حكتهُ عنّي، وهو شيءٌ نادر أن يتحدث أحدٌ عنّي بالخير.

ثم قررتُ أن أسلم للجنرال أدهم ملف ثوار القمر كاملاً لأرى كيف سيديرهُ، لكنه أخبرني أنه سيعلمني هذا.

تعجب من سرعتي في التأقلم مع الأوضاعِ الجديدة. ثم عقد عدة اتفاقاتٍ مع منسق الثوار، واسمهُ هارون تقريبًا، للوصول إلى الهدف الأسمى وهو إفشال المخطط "X" وقلب نظام حكم اللجنة بالثورةِ عليها.

كنتُ أسمعُ كل هذا، وأشعرُ بالرغمِ منّي بتفاهةِ ما يفعلون. وبعدم جدوى محاربة هذا النظام العملاق الذي لم يوجد مثلهُ في البلاد. تساءلتُ كثيرًا عن السبب الذي يجعلني أكملُ في هذا الطريق. تساءلتُ لماذا لا أترك كل هذا ورائي، وأبحثُ عن شيءٍ آخر، في مكانٍ آخر بعيد؟

أهي الرغبةُ في الثورة التي تعلمتها من سميح القدُّوسيّ؟ أم الرغبة في الانتصار التي كانت داخلي وأجج وجودها أحمد العطّار؟

إلا أن شيئانِ منعاني من هذا حينما أطلتُ التفكير. أولهما هو علمي بالمخطط "X" الذي أكدتهُ تسجيلات سمرة والتي ساعدتُ بشكلٍ ما في الحصول عليها.

بالتالي لن يوجد مهرب من هذا المصير. يمكن أن يحدث الإنفجار في المكان الذي أتواجد فيهِ في أي مكانٍ على مستوى العالم. وإن لم يحدث فسيعني أنني سأضيع في عالمٍ سيتراجع مئات السنين للوراء وحيدًا.

البقاء مع أدهم، ومع ثوار القمرِ يضمنُ الرفقة على الأقل، واحتمالية النجاح أو إيجاد المأوى المناسب حال الفشل.

أما السبب الثاني الذي اندهشتُ من وجودهِ، فهو مريمة.

لأسبابٍ كثيرةٍ أهمها ما اكتشفهُ تدريجيًا داخلي من تغيّرٍ وتبدل، أشعرُ بالواجبِ وبالذنبِ ناحيتها، بوجوب قيامي بحمايتها ورعايتها، برغبتي في البقاء جوارها، وفي نفسِ الوقت أشعرُ بصعوبةِ اعترافي بهذا حتى لنفسي.

ولهذا عدتُ مع الجنرال إلى مصر، وخاطرتُ بالتواجد في فندقٍ يخضعُ لرقابة (هرقل) ذات التقنية الفائقة. ثم ذهبتُ لأقذر مكانٍ كي أقابل مريمة.

ظننتها امرأةً أخرى، ودارت برأسي الظنون. لا بد أن الحزن والجزع ظهرا في صوتي وأنا أقول لهم أنها امرأةٌ أخرى زرعها العسكر بينكم.

لم أصدق إلا حينما أخبرني قائدهم أنهُ بنفسهِ الذي أجرى لها الجراحة التجميلية بالليزر، ثم تأكدتُ أكثر حينما سمعتُ صوتها.

في صوتها شيءٌ من العتابِ وهي ترحب بقدومي، ثم عاد لي شيءٌ من الأملِ وهي تقدم تقريرها عن إنجازاتها خلال أسبوع.

لم يكن ثوار القمر مجموعة من المجانين الذين يقومون بالرسمِ في الشوارعِ تعبيرًا عن الظلم والثورة، ولم يكونوا مجموعة من الحمقى الذين يلقون أوراقًا بها بعض الهجوم على النظام ويركضون، ولم يكونوا مجموعة من الاستشهاديين الذين يخرجون في مظاهراتٍ حاشدةٍ ليقتل منهم من يُقتل.

ما رأيتهُ في تجمعهم هذا هو تنظيم واضح المعالمِ واضح الأهداف، لدية خطط تنفيذية واضحة ومدير لكل خطة ومجموعة من المنفذين، تنظيم له علاقاتهُ الدولية، وذراعهُ العسكرية، وهيكله التنظيميّ، ويمكنه إذا امتلك القوة اللازمة أن يوجه ضربات فادحة لهذا النظام.

في نهاية الاجتماع خرجتُ مع مريمة إلى المنطقةِ القذرة، وطلبتُ منها أن نجلس معًا بعض الوقت.

ركبنا في سيّارتي متوجهين إلى المكان الذي تسكن فيهِ مع بلقيس لأنزلها قبل أن أتوجه للفندق الذي نزلتُ بهِ تمهيدًا لإيجاد سكنٍ مناسبٍ يجمع أعضاء الفريق بأكمله.

ولحظتُ أنها تنظرُ للناسِ في هذه المنطقة القذرة بكثيرٍ من الحب فحاولتُ أن أبحث عن أيِّ شيءٍ يمكن أن أحبهُ فيهم فلم أجد. حاولتُ أن أحدثها فكانت تردُّ باقتضابٍ. سألتني عن السبب الذي جئتُ من أجلهِ، ولماذا الآن تحديدًا!

ابتسمتُ في سري، وقد شعرتُ بشيءٍ من العتاب واللوم في صوتها. أخبرتها أنني عدتُ لمشاركتها في حُلم الثورةِ الذي أعرفُ أنها تحلم بهِ.

- لماذا الآن تحديدًا؟

قلتُ لأنني خرجتُ من المعتقل منذ أقل من شهر.

فزعت وهي تنظرُ لي، ورأيتُ في عينيها لهفةً لم تستطع إخفاءها. على أنها لم تتكلم حتى تمالكت نفسها ثم قالت ساخرة:

- لم أعرف أنكم تسجنون بعضكم البعض.

قلتُ لها أنني لم أعد واحدًا منهم منذ اكتشفت خيانتهم ومكيدتهم لي.

نازعني نفسي بين الشوقِ إليها، وبين اليأس من أن أجد أي شيءٍ في حوزتها تجاهي.

استمر الصمت طويلا بيننا. قبل أن تسأل وهي تنظر للناحيةِ الأخرى:

- لماذا اعتقلت إذن؟

حكيتُ لها الأسباب وبعض ما لاقيتهُ،واستخدام أساليب إيصال السجين إلى الجنون، ثم حين أخرجني أدهم الجبلي لأنه يريدني معه.

ثم ضحكتُ ساخرًا من كل هذا. نظرت لي بتمعُّنٍ ثم سألتني وهي تتفحصُّني:

- ما زلت كما أنت إذن، لم تصر أكثر جنونًا ؟

ضحكتُ بصدقٍ، وراقني قدرتها على رد السخرية منّي بهذه الطريقة. تساءلتُ في نفسي عما فعلتهُ بروحها الأيام. هل ظلّت كما هي؟ أم تغيرت أشياءٌ بأعماقها؟

ثم أخذتُ أفكرُ في الأمر على نحوٍ جاد. هل لا زلتُ كما أنا؟

- نعم! لا زلتُ ذات الشخص الذي خذلكِ

أطلقَتْ ضحكة ساخرة قصيرةً وقالت بلا مبالاة أنها لم تعد تذكر أنني خذلتها، وأن كل ما فات لم يعد يعني لها شيئًا وسط ما تشعرهُ من مسئولياتٍ تجاه إنسانيتها.

قلتُ لها فجأة أنني لازلتُ أشعرُ بصعوبةٍ في التعامل معها بملامحها الجديدة. ولا أعرف هل تغيرت ملامحها الداخلية كذلك أم لا. لا زلتُ أبحثُ عن ملامحها القديمة كي أستطيع فهمها أكثر.

قالت بقسوة:

- تبحثُ عن ملامحي القديمة لتتذكر المرأة التي حاولت الاعتداء عليها؟ وتعرف إن كان يمكنك تكرار هذا الآن؟

ابتلعتُ كلماتها بصعوبةٍ وصمتتُ.

قلتُ لها بعد أن طال صمتُها، أن معها كل الحق فلم تكن هذه هي سيئتي الوحيدة في حقها.

قالت بهدوءٍ أنها ليست ناكرةً للجميل، وأنها برغم كل شيءٍ تشكرني على مساعداتي المتعددة لها والتي لا تعرفُ لها سببًا.

لم أحتمل أن أستمر في دور الوغد أكثر من هذا، ولم أحتمل نظرة الشكر في عينيها تجاه ما نالها مني من سوءٍ.

وبروحٍ ملتهبٍ ونفسٍ تشعرُ بالضعةِ والندم، ورغبةٍ خفيةٍ في البحثِ عن صفحها، أردتُ أن أعترف لها بكل سيئاتي، وأطلب منها المغفرة.

عدتُ أقولُ لها أن سيئاتي معها كانت كثيرة.

أخبرتها أنني لم أساعدها، وإنما قمتُ باستغلالها. قلتُ لها انني استغللتها وقبيلتها كي يساعدونني في الاختباء من فريق المساعد أول سليم فخري قبل استغلالهم لمساعدتي في الخروج من البلاد. قلتُ لها أنني أوصلتها إلى مصر وإلى سمرة تحديدًا كي أحصل على تذكرةٍ آمنةٍ إلى قُدسليم .

أخبرتها أنني كنتُ على علمٍ بكل ما يمكن أن يحدث لها وبرغم هذا لم أحذرها، قلتُ لها أن سيئاتي لها كثيرة ولهذا لا يجبُ عليها أن تشكرني، بل يجب أن تقتلني.

وشعرتُ أنني ألقيتُ أحمالا ناءت بها روحي، فبدت كطلقاتِ الرصاصِ التي أزهقت بقايا الصمود داخلها.

ابتسمت بألمٍ.

أغمضت عيناها وبدا أنها ستستغرق إلى نومٍ طويلٍ، أو تستسلم إلى موتٍ سريع.

ثم قالت بصوتٍ مختنقٍ وهي على حالتها:

- وأي استغلالٍ قمت بهِ حين ساعدتني في الهروب من الجنرال عبد العظيم. ثم في إيجاد الدكتور على البريمي؟

قطبتُ حاجباي مندهشًا. لم يكن ثمة استغلالٍ قمتُ بهِ في مساعدتي لها هذه.

بقينا على حالة الصمت المتوتر الذي يطلقُ ألف اتهامٍ وألف تبريرٍ. وكنتُ أتعجب من وجودي في موقفٍ كهذا مع امرأةٍ كهذه.

لم أتخيل أن يحدث بيني وبين أي امرأة حديثٌ يفيضُ بالصمتِ المتكلم مثل حديثي هذا مع مريمة.

وصلنا إلى بيت بلقيس، فقالت وهي تخرج من السيارة:

- أخذت آخر ما تبقى داخلي.

خرجت وأنا لا أقوى على سؤالها عن ماهية ما تبقى، سارت بقدمينِ مهتزّتينِ حتى توارت خلف الأبواب.

لعنتُ نفسي لأنني لم أطلب منها الصفح، وإنما ألقيتُ عليها أحمالي ورحلتُ. لم تستطع نفسي أن تطلب العفو بهذه البساطة.

ثمة اختلافٍ ضخمٍ بين أن تدور الحوادث في عقلي وفي خيالي، وبين أن أواجهها فعلا في الحقيقة.

لكم لثمتُ يد مريمة في خيالي كي تصفح، ولم أقدر على مواجهة عينيها حين حان وقتُ طلب المغفرة الذي لم أجرؤ عليه.

تمددتُ على الفراشِ وحيدًا لا رغبة لي في طلبِ أي متعةٍ، غرقتُ في فراغٍ شاسعٍ ثم خلدتُ إلى نومٍ طويلٍ كأنني أمارس هروبًا لم أعتد عليهِ.

* * *

- أخذت آخر ما تبقى داخلي.

* * *

في الأيامِ التالية بدأتُ إعادة اكتشاف مريمة .

لم يعنها شيءٌ في كل ما يحدث سوى إبطال مفعول القنابل النووية وإحباط المخطط "X".

تأخذ من فجر التقارير اليومية؛ الخاصة بمن اكتشفهم برنامج الأمن - الخاص بشركة (هرقل)- ممن يحملون عداءًا داخليًا للنظام.

هذه معلومةٌ صادمةٌ بالنسبةِ لي، حين كنّا بالـ"IMS" عرفتُ من أدهم الجبلي أن (هرقل) تشارك في الكشف عن أعداء النظام، ولم أعرف أن ما يحدث هو العكس تمامًا؛ حتى عمالقة مثل أدهم الجبلي، يمكن خداعهم.

مريمة كوّنت فريقًا خاصًا للقيام بهذه المهمة، يساعدها أحيانًا عيسى بما له من قدرة غير عادية في اختراق قواعد البيانات، فيأتي بمعلوماتٍ كثيرة عن هؤلاء المنتقين.

تبدأ مريمة وفريقها في انتقاء من يعمل بأحد هذه المؤسسات الحيوية التي يتوقع تفجيرها. بعدها تبدأ في التخطيط لتجنيد الأفراد المنتقين.

عند هذا الحد تقف معلوماتي عما تفعلهُ بالضبط. للأسف لم تعد تحمل تجاهي الكثير من الثقة. لكني أعرفُ – من بلقيس- أن لديها خطوات محددة لكيفية تجنيد هؤلاء.

أعرضُ عليها مساعدتي لكنها تبتسم في صمتٍ وتغيّر الموضوع.

لم تفعل ضدي أي شيءٍ غاضب، ولا أهانتني بكلمة، برغم أني أرى في عينيها ألمها من اكتشافها الأخير لحقيقة ما فعلتهُ معها.

لا أعرفُ بماذا أردُّ على كبرياءها وشموخها. ولا يبقى لدي من أساليبٍ سوى أن أحاول أن أتجاهل كل شيءٍ، وأمضي في إصلاح نفسي.

هي – بالفعل- أكبر وأكثر من كل ما آمل أن أصل إليه. هي تكتفي بنظراتها القاسية حين تمشي في الشارع لتصد كل من يفكرُ فيها كفريسة، بينما لا أستطيع إلا أن أقتل أحدٌ كل عدة أمتر لأثبت للسائرين حقيقة من أكون.

محاولةٌ صغيرةٌ – مثل أن أكف عن قتل الناس- أحاولها بصعوبةٍ بالغةٍ، وأفشل في كف يدي عن الناس.

أعترفُ أن بحثي المستمر عن التميز، والشعور بالانتشاء من تفرُّد ما أقوم بهِ، يمنعني من رؤية أو فِعل شيئًا آخر.

كان علىّ – كي أُصلح نفسي- أن أبدأ في مراقبة كل فعلٍ ونفسٍ وكلمة تصدر منّي، كي أقيس إن كانت تناسب ما أريدهُ أم لا؛ مهمةٌ مرهقةٌ تحتاجُ ألا أفعل شيئًا آخر.

هارون ساعدني أيضًا. منحني بعض نصائحهِ، ويبدو أنهُ كان على علمٍ بما يدور داخلي. يقولُ أن تغيير الإنسان لنفسهِ هو أصعب وأقسى المهام التي يمكن أن يقررها، أو أن يقوم بها، هي مهمة العمر، التي ستسير ببطءٍ على مدار الأيام والشهور، وسأصارعُ نفسي لأجلها ألف مرّةٍ، وسأعاني معاناة آدم بعد خروجهِ من الجنّة. أخبرني أن نفسي ستهفو للراحة وستحدثني بأن فهمي القديم للعالم هو الحقيقة المطلقة، وأنه لا طائل وراء كل محاولاتي التي أفعلها. يقول أن الفيصل في كل هذا هو إصراري وإرادتي، ورغبتي العميقة التي ألمسها الآن في أعماقي.

ثم قال بعد طول نقاشٍ:

- ستبدأ الصراع الحقيقي حين تكتشف الصواب والخطأ في كل ما سيدعيه أو يطلبهُ الجنرال أدهم.

وكانت دهشتي عميقة، ولم أعرف كيف وصل إليهِ هارون، ولا كيف استنتجهُ.

أوضح لي أنهُ لا يثق في الجنرال أدهم.

- تخيل أنك، وأنت صغير السنِ قليل الخبرة بالنسبةِ لأدهم الجبلي، تحمل كل هذه المعاناة من أجل أن تصير أفضل، بعد أن اكتشفت زيف كل ما كنت تعيشه. أنت لا زال العمر أمامك كي تعترف بخطا ما فات، وتحاول إصلاح كل ما هو آتٍ. فهل تتصور أن يعترف أدهم الجبلي بخطأ كل حياتهِ التي صنع خلالها أسطورتهُ ليبدأ من جديد؟

بدا لي الكلام متجنيًا جدًا.

- أتصور أنه يستطيع هذا. بل سيكون معيني على الوصول لما أريدهُ.

- بل سيكون شيطانُكَ الذي سيهيئ لك الأكل من الشجرة المحرمة.

ثم أكّد لي محذرًا:

- هو لو عرف بما في أعماقكِ، فسيقوم بالتخلّص منك فورًا.

ترك هذا الحوار وسواسًا قهريًا في رأسي.

هارون لا يحب المؤامرات، ولا يجيد حبكها، وشعرتُ بأنه يختلف كثيرًا عن الجنرال أدهم؛ ذو نفسٍ طويلٍ وطويةٍ واضحة وسليمة. هؤلاء الثوار يمثلون شكلاً مختلفًا من الناس لم أعهدهُ من قبل.

* * *

قدر ما كان لقاء التعارف الأول بيننا – الجنرال أدهم وأنا –وبين ثوار القمر، هادئًا يكسوه التفهم والتقدير المتبادل، قدر ما كان الاجتماع الثاني صاخبًا.

بدأت تظهر لي بشائر خلافٍ بين هارون والجنرال، على أنني لم أجدهُ خلافًا كبيرًا؛ إلا أن الرجلين أعطياهُ حجمًا أكبر من حجمهِ.

في البداية كانا متفقين تمامًا على وجوب إبطال المخطط "X"، وهي المهمة التي تقومُ بها مريمة بكفاءةٍ وإخلاص. وكانا متفقين كذلك على وجوب إشعال الثورة؛ غير أنهما اختلفا على كيفية الوصول لها.

الجنرال أدهم – بخلفيتهِ العسكرية- يرغب في الهجوم على لجنة الحكماء وتصفيتها مباشرةً، وانتخاب مجلس آخر لإدارة البلاد، ثم السيطرة على مستعمرة القمر أو تفجيرها.

هارون كان يرى أن هذه خطوات واسعة، لم تصل إليها مرحلة الثورة، وأنه يجب العمل على توعية الشعب وإيصاله إلى مرحلة كافية من الغضب والوعي، حتى يبارك حركةً ضخمة وعنيفة كتصفية لجنة الحكماء.

هارون يميل كثيرًا إلى استراتيجية النفس الطويل. الهدوء والروية بينما الجنرال أدهم يعشق استراتيجية الردع التي كثيرًا ما شرحها لنا في المدرسة؛ مواجهة قوتان وترك أقواهما تفوز.

بطبيعتي كنتُ أميلُ إلى رأي الجنرال. لكنني في نفس الوقت حاولتُ إقناع نفسي بوجهة نظر هارون دون جدوى.

حين أخبرتهُ – بعد نهاية الاجتماع- عن رأيي بوضوح، أخبرني أنهُ واثق من أن هذا سيكون رأيي ثم دعاني إلى اجتماعٍ آخر جمعني بأعضاء الحركة وحدهم.

برغم عدم اقتناعي إلا أنني حضرتهُ.

هاجمت مريمة حضوري الاجتماع بشكلٍ مستتر. قالت أنها لا تعرف كيف تم الوثوق في شخصيةٍ مثل أدهم الجبلي كي يحضر اجتماعاتٍ مهمة لهم.

ردت فجر بأنهُ صار عدوًا للنظام الذي حاول اغتيالهِ وأن اتحاد أعداء النظام معًا يمكن أن يضعف اللجنة.

فقالت مريمة أن هذا ليس شرطًا، وأن تجمع الأيدلوجيات المختلفة يمكن أن يضعف هذا الاتحاد لا يقويهِ.

ثم وهي تلقي نظرة ناحيتي:

- ربما كانت هذه مكيدة من العسكر ضمن مكائدهم التي لا تنتهي لاستغلالنا لهدفٍ آخر لا علم لنا بهِ.

ابتسمتُ بتفهمٍ لاتهامها، وعرفتُ أن الأمور لن تعود بيننا كما كانت أبدًا. ثم تيقنتُ أنهُ لم يكن ثمة أمورٍ بيننا سوى ثقتها المضطرة فيّ، واستغلالي التلقائي لها.

عرفتُ أن مريمة كانت الوحيدة التي تعارض وجودي ووجود أدهم الجبلي. أما الباقون فيجدوا فيهِ خبرةٍ عسكريةٍ كانت تنقصهم لمجابهة قوةٍ عسكريةٍ باطشة.

قال هارون بإرهاقٍ:

-وماذا تظنون المقابل الذي سيطلبهُ أمام كل هذا؟

هارون هو أكبرهم سنًا وأكثرهم حكمة، برغم أنه ليس قائدهم الأعلى.

- هو ليس ساذجًا ولا ملاكًا كي يمنحنا كل هذا مقابل أن نصل لهدفنا، فيشعر أنه أدى ما عليهِ من مهام.

هارون قال كلامًا كثيرًا عن تاريخ الشعب، وعن مراحل الثورة التي يجب أن يتم اتباعها بالضبط وألا نسبق مرحلة قبل مرحلةٍ رغبةً في الحصول السريع على الحرية.

قال أن تغيّر الشعب يجب أن يتم حتى تنجح الثورة وتصل إلى أهدافها، لأن وعي الشعب لو لم يتم الآن فسيكون هو العائق الوحيد أمام التغيير الذي سيرفضهُ بنفسهِ، وسيسعى لإعادة جلّاده بيديهِ. التغير الذي سيحدث الآن ببعض الصبر والمجهود، سيتم في حالة إسقاط لجنة الحكماء، بكثيرٍ من الدماء والأرواح.

- إسقاط لجنة الحكماء الآن هو بمثابة بدء ثورة مضادة، ضد ثورتنا التي لم تبدأ بعد.

يتحدث بمفاهيمٍ صعبة، وعقليةٍ امتلأت بتجارب التاريخ وحكمة الفلاسفة.

- هذا هو ما يبحث عنهُ الجنرال أدهم، اسقاط لجنة الحكماء، واستبدالها بنفسهِ. لأنه يرى نفسه أجدر وأحق بإدارة البلاد من أي أحدٍ آخر.

أراهُ الوجه الآخر للمثقف الذي لم يستطع أبي أن يكونهُ. برغم أنهُ سُجن عامان – كما عرفت- إلا أن هذا لم يضعف من إرادتهِ، ولم يأخذ من نفسهِ.

برغم ظنّي الدفين أنهُ ربما يقول ما يقول لأنهُ يخشى المواجهه أو الفشل في القضاء على لجنة الحكماء؛ إلا أنني كنتُ أدرك في أعماقي أن ما قالهُ عن نوايا أدهم الجبلي قد أصاب بهِ كبد الحقيقة.

ثم توجه بكلامهِ ناحيتي:

- أنا أراهنُ على الخير في داخلك. وهو رهانٌ يمكن أن يكلّف هذه البلاد مستقبلها وحريتها.

أخبرني أنه يريد- بعد أن أتأكد من أنهُ الطرف الذي يجب أن أمنحهُ ولائي- أن يحصل منّي على تحركات أدهم الجبلي، واتصالاتهِ وعلاقاتهِ، وخططهُ.

قال أنه يتمنى أن أكون المعادلة الناجحة للثورة. المعادلة التي تستنفذ كل مزايا وجود أدهم الجبليّ، وتُسقط كل عيوبه.

كلامه يتردد في رأسي كثيرًا، ويرتبط بنظرة مريمة المتشككة اليائسة مما قد أفعله.

بعدما انتهى الاجتماعُ لم استطع أن أوقف أقدامي التي توجهت إلى مريمة.

سألتني عن أيِّ كارثةٍ سأكشفها لها هذه المرة ؟

ضحكتُ برغمي.

قلتُ لها أن الأمر صار يتعلق بهذه البلاد، وبمستقبلٍ أسودٍ يمكن أن يعيش فيهِ الجميع إذا فشلنا فيما نقوم بهِ.

فسألتني عن السبب الذي يجعلني أهتم بهذا.

هي صارت ترى أن كل ما أفعلهُ الآن هو محاولة منّي أن أجد مكانً مناسبًا بعد أن لفظتني المدرسة العسكرية الدولية، وصرتُ مطاردًا بعد هروبي من المعتقل على يد الجنرال.

- اثنان من المغضوب عليهم يحاولان أن يبحثا لهما عن مكانٍ في الجانب المختفى من الدولة.

سألتها ألا ترى أنني قد تغيّرتُ قليلاً ؟ أنا لم أكن كذلك من قبل.

- أنا لم أعرفُ ما الذي كنتهُ من قبل وما الذي لم تكنه. أنت كنت ذئبًا شرسًا حين قابلتُك، وحين ظننتُك تغيّرت فعلاً بعد ما حدث لك، وجدتُ أنك كنت تبحث عن مصلحتك فقط. لماذا تريد أن أثق في أنك تغيرت الآن أو تريد أن تتغير، وتعمل في مصلحة مبدأ أو من أجل أحدٍ آخر؟

هي لن تمنح الأمان بسهولةٍ. لدغت من جحري مرّةً فلن تثق في أن الثعبان يمكن أن يصير حملاً، لتمد يدها إليه.

تركتني وأنا أتساءل بدوري: هل حقًا تغيّرتُ ؟

ولماذا أريدُ أن تمنحني الأمان مرّة أخرى؟ أهي مجرّد رغبةً في إعادة تملّك شيئًا ما كان ملكي بالفعل؟

تذكّرتُ الكثير من الأشياء التي ساعدتها فيها بالفعل، ولم أعرف – حتى في حينها – سبب مساعدتي لها ؟

هل كنتُ أستبقيها نفقًا في الخلفيةِ يمكن أن أحتاجه ؟ أم كان ثمة شيء آخر لم أعرف كنهُ بعد.

اعترافها بتغيري سيمنحني أملا في أن أكون على الطريق الصحيح.

عدتُ إلى الفندق برأسٍ تشجهُ الحيرةُ نصفين.

دخلتُ المصعد، وضغطتُ رقم الطابق السابع والثلاثين.

يتسللُ الإرهاقُ إلى رأسي وحواسي. إرهاقٌ لم أشعرهُ حتى في أكثر تدريباتي ومهامي عنفًا وقسوة.

اكتشفتُ وأنا أخرجُ من باب المصعد أن ثمة شعور بالألمِ لم أعرفهُ من قبل. الألم أو الندم أو المعاناة.

عقلي يكادُ يصرعني من كثرة ما بهِ.

أفتحُ باب الحجرةِ لأجد جسدًا في الظلام يجلسُ أمامي على الكرسيّ.

أميّز معالم جسد الجنرال أدهم. فأتوتر للحظةٍ.

أتمالك نفسي وأخطو إلى الداخل.

- أين كنت يا مازن؟

أحاولُ أن أهدأ وأفكرُ سريعًا، أدخل بخطىً بطيئة وأنا أرحب بهِ،

أخلعُ معطفي، أبتسمُ لهُ وأنا أقرأ معالم الصرامةِ على وجههِ.

- تشكُّ في رجلك يا جنرال؟

يكرر سؤالهُ في صرامةٍ أكبر.

- أين كنت يا مازن؟

أجلسُ على الفراش قبالتهُ وأنا أكادُ لا أراه:

- جئتُ لتوى من اجتماعٍ سريٍّ للثوار مع هارون.

تهاجمني ذكرياتٌ كثيرة. تتردد في رأسي كأنها تحدث الآن.

- ولماذا ذهبت دون أن تخبرني؟

ضحكتُ في إرهاق.

* * *

هوت قبضاتهِ على جسدي.

"لماذا فتحت الباب دون ان تخبرني؟ لماذا فتحت الباب؟".

* * *

قلتُ له:

- أخبرك بماذا ؟ هل أذهب أم لا ؟ في كل الأحوال من المفيد أن أذهب لهم حين يحاولون استقطابي وحدي، لنعرف تحركاتهم وأسلوب تفكيرهم. ثم اقدم لك تقريري كاملا.

لم أكن أعرفُ من الذي يتحدث؟

أهو حقًا لساني؟ أم عقلي؟ أم مازن القديم؟

-وما تقريرك الكامل؟

* * *

وجمتُ لفترةٍ من الزمنِ بعد أن انتهت ليورة من حكيها، قدمت لي الرؤية البانوراميةٍ فشعرتها كصفعةٍ هائلةٍ في حياتي:

-وأنت كنت مجرد ناتجٍ آخر لكل ما فعلهُ الجنرالات.

* * *

قلتُ وأنا أتحاشى النظر في وجههِ وأقومُ بخلع جواربي وحذائي ومعطفي:

- موقفك بوجوب ضرب لجنة الحكماء والقضاء عليها أحدث شقًا بين صفوفِهم. لذا قام بدعوتهم لهذا الاجتماع السريّ ودعاني معهم، ثم سرد على مسامعنا مجلدات تاريخ الشعوب، ومراحل الثورات، وكيفية إنجاح ثورة ليقنعنا برأيهِ.

ضحكتُ وأنا أقول:

- هو عجوزٌ أكل التاريخ والكتب رأسهُ، ولا علم لهُ بما يحدث في أرض الواقع.

- ألا تجد أن معهُ حق في أيّ شيء؟

قلتُ وأنا أجلسُ قبالتهِ بعد أن أبدلتُ ملابسي.

- بمنتهى الصدق أنا لم أفهم نصف ما قالهُ عن مساوئ النظم الديكتاتورية الجديدة التي تقوم على فضلات النظم الديكتاتورية القديمة، ولا عن محاضرات إنجاح الثورات. لا أؤمن إلا بما تعلمتهُ منك؛ استراتيجية الردع، فلتتواجه القوتان ولنرى أيّنا سيكون أكثر قوةً وقدرة.

ضحك ملأ شدقيهِ، فمنحني فرصة أكبر في التفكير.

- ربما كان معهُ حقٌ من الناحية النظرية، لكن النظريات لا تطبق على أرض الواقع، بل تأتي نتيجة ما يحدث في أرض الواقع، وهو ما بإمكاننا تغييره.

عند هذا الحد صفّق لي أدهم بيديهِ مستحسنًا.

يشعرُ بالرضا عن نفسهِ، وبكثيرٍ من الزهو!

* * *

- ببغاءٌ لا بأس به..!

* * *

لم يغضبني شيءٌ أكثر من كوني كنتُ أجاهدُ كي لا أكون فريسةً، أو عبدًا لشيءٍ، ثم اكتشفتُ في النهاية أن كل محاولاتي وجهادي جعلتني أمعن في السقوط في الشرك الأكبر؛ الذي سعى لتوجيه فصيلاً من الشعبِ كي يُقصي ويصارع الفصيل الآخر ويقوم عنهُ بدورهِ في تلقيم أظافر الشعب.

وتبدت لي صورةُ أبي وآراؤه – كابوسي الأعظم – يقولُ لي أن ألزم البيت ولا أخرج، وأن أدع العالم يستعر بالخارج في سقر.

" لا شأن لنا بهم يا بنيّ، نحنُ لن نستطيع مجابهتهم، وآخرنا أن نكون عبيد إرادتهم ".

* * *

قالت وهي تخرجِ من السيارة:

- أخذت آخر ما تبقى داخلي.

* * *

سألني الجنرال أدهم وهو على حالتهِ:

-وما الذي طلبهُ منك في النهاية ؟

هززتُ كتفي في لا مبالاة.

* * *

أخبرني أنه يريد- بعد أن أتأكد من أنهُ الطرف الذي يجب أن أمنحهُ ولائي- أن يحصل منّي على تحركات أدهم الجبلي، واتصالاتهِ وعلاقاتهِ، وخططهُ.

قال أنه يتمنى أن أكوّن المعادلة الناجحة للثورة، المعادلة التي تستنفذ كل مزايا وجود أدهم الجبليّ، وتُسقط كل عيوبه.

* * *

قلتُ لهُ من بينِ إرهاقي:

- هو يؤمن كثيرًا بالديمقراطية، يريد أن يجمع أكثر الأصوات ضدك ليتم إقرار خطة الحركة دون أن تضمن تصفية لجنة الحكماء؛ لذلك يرى أن إقناعي برأيهِ يضمن إقناع آراء باقي أفراد

ابتسم وهو يقول أنهُ لم يتوقع أن يقف تفكير هارون عند هذا الحد. قلتُ بلا مبالاه:

- التفكير النظري لا يصل لشيء.

سألني عما قلتهُ له ردًا على طلبهِ.

- قلتُ أنني في حاجة للتفكير، والبحث فيما قالهُ لأن أكثر نظرياتهِ لا أعرفها. انتظارًا لرأيك فيما سأفعله.

-وماذا ترى أن نفعل.

ضحكتُ وأنا أقولُ:

- استراتيجية الردع.

قطب حاجبيهِ بدهشة

كنتُ أعرفُ أنه لن يتأثر برأيي، وأنه يبحثُ فقط عما أفكرُ فيهِ.

اكملتُ:

- نحنُ الآن على علم بكل ما يعرفوه وبكل مقرّاتهم السريّة بما تحملهُ من معلومات وبيانات، فلماذا لا نقتنصهم واحدًا وراء الآخر ثم نحتلُ بفريقنا مقرّاتهم وننفذ خططنا نحنُ دون نصدع رؤوسنا بمحاولة إقناعهم.

هدأ التوترُ في ملامحهِ كثيرًا، وحل محلهُ الاطمئنان. وبالرغم من هذا سألني عن السبب الذي أرفض من أجلهُ رأي هارون بتأجيل الثورة حتى إقناع الشعب بها؟

ضحكت:

- لأننا سنموت قبل أن يحدث هذا.

انفرجت أساريرهُ أكثر. ثم انفرجت عقدة لسانهُ كذلك.

قال أن من يترك مصيرهُ بين يدي الشعب سوف يلقى أسوأ مصير، لذلك فخيار توعية الشعب هو خيارٌ أحمق لا يتبعهُ سوى الحمقى وفاقدي الأهلية الفكرية، وعديمي الوعي والطموح.

ثم قال أن وجود ثوار القمر مهمٌ في المرحلة القادمة كما كان مهمًا في المرحلة السابقة.

- أتظنَّ أن اللجنة وكل شركات الأمن لا تستطيع أن تقضى على ثوار القمر في لحظة؟ إن وجودهم مهم كمبرر لأي تفجيرٍ يحدث أو خطأٍ يسقط احدٌ فيه. ولأنهُ لا بد من أحدٍ ما يسقط الشعب عليهِ غضبه وكراهيته التي لا منفذ لها. لا بد من ترك فتحات تهوية للشعب مثلهم مثل برنامج القنّاص.

سألتهُ وأنا غارقٌ في أفكاري:

- إذن، بماذا سأرد عليهِ.

- انك موافق بالتأكيد. ستجاريهِ لنعرف نواياهُ وخطواتهِ. وسيكون عليك إقناعهُ بأنك اقتنعت بما يقول.

- لماذا لا تقنعهُ أنت كذلك بأنك رجعت عن موقفك؟

- لأن هارون ليس ساذجًا لهذه الدرجة. سأظل معهم أحاول أن أقنعهم بما أرى. وإن كنتُ سأخفضُ صوتي قليلاً.

قام من جلستهِ وتوجّه ناحية الباب:

- بدأت تبهرني يا مازن.

ثم أخبرني عن مهمةٍ سأقومُ بها غدًا:

- شيري؛ هي سكرتيرة صفوت مشهور، قمتُ بمقابلتها وإقناعها بالعمل معنا. ستصير عيننا على كل تحركات فجر، وسيكون هذا الملف بالكامل معك، احتاج منك إقناعها كذلك لتكون عيننا في أمان، وربما لتجنيد عاصم عبد الفتاح، أنت تعرف العلاقة السرية بينهما. سنحتاج لأن نضمن ولاء شركات الأمن. ومعظم القطاعات الحيوية قبل أن نضرب ضربتنا الكبرى.

شرح لي ما سأفعلهُ بالضبط، ثم وقف على الباب، وقال:

- مرحبًا بعودتك يا مازن.

تعجبتُ من الترحيب الآن:

- عودتي.

- بالتأكيد، كنتُ أراهن أن حالة عدم التوازن التي كنت تعيشها هذه ستنتهي حين تعود لبيئتك الطبيعية التي نشأت فيها

* * *

- لا أظن أن أي شعوبٍ قادرة على إحداث تغيير من أي نوع.

قالت بملامحٍ عميقةِ الأسف:

- تظن هذا لأنك مصريّ. في بلادك؛ قام العسكر بتدجين الشعب إلى قطاعاتٍ وفرقٍ وتركوهم عقودًا طويلةٍ في أماكنهم حتى نشأ نوعٌ من الحميمية بين كل قطاع وبيئتهِ، إن خرج منها فهو إما يحوّل بيئتهِ الجديدة إلى صورةٍ مهترئةٍ من بيئته القديمة، أو يجاهد حتى يعود لبيئتهِ التي ترعرع فيها. لقد قتلوا الثورة في نفوسهم قبل أن توجد، وخلقوا رفضًا تلقائيًا ضد أي تغييرٍ يمكن أن يحدث.

* * *

أغلق الجنرال الباب.

بالرغمِ مني كنتُ أهتزُّ في داخلي، لا أعرف نشوةً أم غضبًا أم خوفًا.

بدا لي خداع ادهم الجبلي نفسهً والنيل منهُ خطرًا يُطربني نشوة. واكتشافاتي المتكررة لحمق ما كنتهُ يرجني من الغضب. ويعتريني قلقٌ من أن أكون على خطأٍ آخر.

إقناعُ نفسي بخطأ كل ما كان يشعرني بالتعرّي.

على أنني في اليوم التالي قابلتُ شيري.

امرأةٌ أربعينية جميلة القد والملامح، غدّارة العينين.

أعرف العيون التي لا يمكن الثقة بها حين أراها، شيري تملك هاتين العينين بجدارةٍ.

الأمر –كما فهمتهُ- هو أن الجنرال استغل هاتين العينين وفهم ما تبحثان عنهُ؛ إقامةٌ دائمة في المستعمرة.

شيري هي امرأة صفوت مشهور القديمة قبل أن تتحول شركتهُ إلى (هرقل) العملاقة، وقبل أن يتزوج فجر سالم ابنة وزير الطيران نفسه؛ الذي يتحكم في سماء مصر بأكملها ويقرر للناسِ أين يذهبوا وما هي الدول المحرمة التي لن يذهب إليها أحد.

شيري ساعدتهُ في تقوية شركتهُ بعلاقاتها وجسدها وعقلها. هو لم يكن أكثر من أحد البلطجية الذين لا يقرأون ولا يكتبون ويسيطرون على أحياء ومحافظات بأكملها خاصّة بعد ثورة الجياع في ٢٠٢٠، وشيري المثقفة والمتعلمة آنذاك التي تموج نفسها بالرغبة في السيطرة والتمكن سقطت معهُ في اتفاقٍ أخل به الاثنان.

فلا هو تزوجها ولا هي أخلصت له.

حين قابل الجنرال محمود سالم استطاع صفوت أن يقنعهُ بأن تتحول (هرقل) إلى إقطاعيتهُ الخاصة إذا تزوج فجر ابنتهُ، وهي نقلةٌ فلكية بالنسبةِ له أن يتخطى (أمان) التي كانت تتربع على عرض قطاع الأمن والحراسة، بسبب علاقة مأمون عاكف مع مجموعة من الجنرالات أهمهم مدير الجاساك، ووزير الطيران نفسه.

هنا قامت فجر (وشيري كذلك) بتنفيذ خطتهما الخاصة، شيري كانت أقصى أمانيها أن تسقط صفوت فقط، وتحظى بمكانةٍ اجتماعيةٍ مناسبة لهذا سقطت في شرك عاصم عبد الفتاح، أما فجر بعقليتها المتقدمة، ومعاناتها التي لم تستطع تجاوزها مع الصعلوك صفوت مشهور؛ فعملت على إسقاطهِ، وإسقاط والدها، وكل دولة الجنرالات كذلك. فانضمت بكل ثقلها إلى الحركة الوطنية للإصلاح.

لهذا؛ أعتقد أنه كان سهلا على الجنرال أدهم أن يقوم باقناع شيري أن تعمل من أجلهِ إذا رغبت في إقامةٍ دائمةٍ بالمستعمرة.

أعرفُ أن لديّ مهمةٌ أخرى أقوم بها غير التي تلقيتها من الجنرال أدهم. عليّ أن أحتفظ بعلاقةٍ جيدةٍ ومكشوفةٍ المصالح بيني وبين شيري.

أخبرتني أن عاصم – الذي صار مدير أمان- سيقع بين شقيّ الرحى ولن يكون أمامهُ إلا أن يتبع طريقنا. سقوط صفوت، وفجر- كما يخطط الجنرال- سيجعلها هي المدير الفعلي لـ (هرقل) التي صارت تمتلك أكثر من نصف أسهم (أمان) التي أصدرها عاصم بعد أن قتل مأمون عاكف.

شيري لم تعد تثق في الرجال بعد ما فعلهُ صفوت، هي بدأت بعد اتفاقها مع الجنرال أدهم في تجنيد كثير من المديرين في (أمان) لحسابها باعتبارها المرأة الثانية في (هرقل) التي تستحوذ على (أمان).

كثيرٌ من المديرين يرغبون في رضائها، لتأثيرها الواضح على مدير (هرقل) باعتبار ما كان بينهما.

شيري ستصير هي المرأة القوية في قطاع الأمن والتي سيعتمد الجنرال أدهم عليها في السيطرة على هذا الجانب.

الجانب الآخر الذي تعجبتُ من اهتمام الجنرال بهِ، هو ضمان عمل (رابطة الجيل الأسود) معنا. وكانت هذه هي مهمّتي الثانية.

رابطة (الجيل الأسود) هم مجموعات ضخمة لشباب ما تحت العشرين. يمثلون صداعًا في رأس النظام ولجنة الحكماء بسبب كثرتهم وعدم التناسق في إدارتهم لأنفسهم. جماعاتٌ من الصبية يربطون حبالاً سوداء حول رؤوسِهم ويحملون الأسلحة البيضاء ويهاجمون الجميع، البنوك والشركات والأفراد في الشارع، وحتى مؤسسات الجاساك، يقتلون منهم الكثيرون لكن الأكثر يبقون. هم كالجراد الذي ينطلق ليأكل كل شيءٍ ومهما حاولوا تفجيره أو قتلهُ بكل الوسائل يتوالدون دون أن يعرفوا مصدرًا هذا.

اللجنة، وجهاز الجاساك بأكمله، لم يدخر جهدًا في القضاء على رابطة (الجيل الأسود) لسببٍ بسيط؛ أنها تحلّق خارج السِرب. بلا وعيٍ ولا تفكير، ودون خوف من شيء. يتفاخرون بأن شيئًا لا يخيفهم، وأن أحدٌ لا يقدر عليهم. وكل آمال المنتمين لها هو الانتماء إلى المدرسة العسكرية الدولية.

وهذا بالضبط ما قدمهُ لهم الجنرال حين طلب منّي الذهاب إليهم.

محتميًا بهالة الطاقة التي أخذتها من شيري؛ ذهبتُ إليهم في أكبر المناطق التي يتجمعون فيها.

صخبٌ لم يتحمله حتى واحدٌ مثلي اعتاد كل أنواع الصخب والمخدرات. قذارةٍ تنتشرُ في كل مكان. الفتيات عارياتٌ يتضاجعن معًا على الطريقِ في جماعاتٍ، والشباب يشم ويدخن كل أنواع المخدرات. ألتفوا حولي يحاولن مهاجمتي ويتصايحن ويتجمعون؛ لكن هالة الطاقة حمتني من كلِّ شيءٍ. في النهاية رفعتُ صوتي عاليًا عبر مكبر الصوت بالهالة فرجّ المكان وأحدث التأثير المطلوب.

انتبهوا لي فعرضتُ لهم فيديو أخذتهُ من شيري أيضًا. فيديو زائفًا بالطبع يظهرني وأنا أصارع مجموعة من المتظاهرين وأفض مظاهراتهم، وأقتل الكثير منهم، ثم يعرضني وأنا في المدرسة العسكرية أنالُ شرف الانضمام لها.

صرختُ فيهم بعد انتهاء الفيديو أن هذا ما تعرضه المدرسة العسكرية الدولية عليهم، رفعت شارة المدرسة عاليًا وأنا أصرخ فيهم؛ أنهم إذا تجمعّوا ووجهوا مجهوداتهم إلى تفريق أي مظاهراتٍ فإن المدرسة العسكرية الدولية سوف تأخذ كل من يشارك في الفض لينضم لها.

ثم تركتُ لهم إعلانًا أعدته شيري يقدم لهم الكثير من الحماس والأصوات الصاخبة ليتشجعوا ويصدقوا الأمر.

حين انسحبتُ من المكان كان الأثر المطلوب قد حدث. الصراخ والحماس والتصديق التام لهذا العرض الذي لم يقدم لهم إجراءات الانضمام.

حين عدتُ وشرحتُ كل ما حدث لهارون وفريق الثوار؛ أوضح لي أن هذه هي الطريقة التي يحرك بها القطيع.

قال أن الجنرال أدهم يعرف تمامًا كيف يقود الدهْماء بدقةٍ تامّة. هو سيقدم لهم بعد ذلك إجراءات الإنضام حين يتفشى بينهم عدم التصديق. سيتصارعون بين مُصدقٍ دليلهُ الوحيد أنه يريد هذا بشدة وبين غير مُصدقٍ دليلهُ الوحيد هو عدم وجود إجراءات واضحة للإنضمام.

ستأتي ضربتهُ الثانية، حين يقدم لهم إجراءات الإنضمام للـ"IMS". ستحدث الفرقة الحقيقية بينهم. لأنهُ إذا ظهر أي خلافٍ بعد ذلك سيتكفل المنساقين منهم والراغبين في التصديق بتدمير كل صوتٍ معارضٍ آخر بينهم. وسيكون قد زرع الفتنة التي ستأكلهم جميعًا فيما بعد.

هكذا يتحول الأمل الكاذب إلى آلةِ تدميرٍ لجماعاتٍ وشعوبٍ كاملة غير ناضجةٍ. وهكذا يتم استخدام الأمل الكاذب من قبل السلطات الديكتاتورية في فرض سلطانها على الجميع.

لم يكن همَّ أدهم – في رأي هارون- هو فض التظاهرات المحتملة بعد قتل اللجنة الحاكمة؛ وإنما هدفهُ القضاء على قوةٍ عمياء، لا تخضع لسيطرتهِ، حتى يدير مرحلة ما بعد اللجنة بسيطرةٍ كاملة.

طلب مني في النهاية أن أحتفظ بعلاقةٍ قوية مع شيري، وأن أفصلها تدريجيًا عن أدهم الجبلي، وأكّد أن دورنا مع أدهم سينحصر في هدم تشبيكاتهِ التي يصنعها.

أما المهمة الأكبر هي أن أحتفظ بثقة أدهم الجبلي. وأنميها لأصير رجلهُ الأفضل. وهو ما كنتُ اعرفُ بالضبط كيف أصل إليه.

قدمتُ لفجر كذلك تفصيلاً لكل ما تفعلهُ شيري للتجسس عليها ونقل خطواتها للأطراف الأخرى، سواء كان عاصم أو الجنرال. وكان عليها أن تنشئ نظامًا دفاعيًا مناسبًا.

أما مريمة فقد اختفت تدريجيًا نظرتها المتشككة المتهمة التي تطفو إلى عينيها كلما رأتني.

سألتها في نهاية اللقاء مع فريق الثورة، إذا كانت تحتاجُ مساعدتي فيما تقوم بهِ، فأخبرتني بابتسامةٍ أنها ستطلبني إذا احتاجت شيئًا. وبدا لي أن الأمور تطورت كثيرًا.

الصراع كذلك بدأ يحتدم ويصيرُ أكثر خطورةٍ وقوّة.

المهمة التالية التي تلقيتها من أدهم كانت صادمة بالنسبةِ لي: مقابلة سمرة.

لقد قام بضمّ سمرة إلى فريقهُ الأكبر، هي شخصيةٌ مهمة لها اتصالاتها ولا يمكن إغفالها بالتأكيد.

لاحظتُ السمة الغالبة على الشخصيات التي يختارها: الطمع والخيانة. وبدا لي أن هذا أكبر دليل على أنهم مجرد مرحلة في الخطة الكبرى التي يُعدها والتي – للأسف – لا أعلم كل تفاصيلها.

قابلتني سمرة بابتسامةٍ مشتاقة. أخبرتني أنها اشترطت على الجنرال – حين علمت بوجودي في الفريق- أن أكون ضابط الاتصال معها بحسب تعبيرها المتدلل المائع.

جلست في شرفة المنزل، وبدأت تفتحُ لي جانبًا من صندوقِ أسرارها. حكت عن علاقاتها المتعددة التي أوصلتها في النهاية إلى مستعمرة القمر، الحلم الذي تتمنى الوصول إليه.

أخرجت تذكرةً لرحلةٍ للمستعمرة وقالت:

- لم يكن الحصول عليها سهلاً، بل كلّفني من عمري الكثير.

وضعتها أمامي وقالت:

- لا أجد شخصًا له مكانةً ويستحقها إلا أنت.

صمتت للحظةٍ ثم قالت:

- دعنا ننسى كل ما عشناهُ هنا. سنعيشُ هناك في مملكةٍ مستقلةٍ بعيدًا عن كل الجحيم الذي نراهُ هنا.

ابتسمت، وكنتُ أعرفُ أنها تصارع نفسها كي تبوح بما تقول:

- هناك ثلاث رحلات باقية قبل لحظة الصفر التي تحددت لتكون مع اليوم الأول من العام الجديد.

قلتُ مبتسمًا محاولا السيطرة على نفسي مع هذه المعلومة الخطيرة التي أعرفها للمرة الأولى:

- يوم كسوف الشمس؟

قالت باستهتارٍ:

- يريدون أن يكون كسوفًا للأرض كذلك. أو يريدون أن يبدأوا تقويمًا جديدًا للأرض. لم يعد يعنيني شيئًا في كل هذا.

ثم أكملت مغالبة نفسها:

- اخترتُ لك الرحلة الأخيرة ليكون لديك وقت كافٍ للتفكير في الأمر. ستقوم الرحلة قبل ساعاتٍ قليلة من بدء تفجيرات المرحلة الأولى.

- المرحلة الأولى؟

- نعم؛ هناك ثلاثة مراحل للتفجيرات بحسب تعديل اللجنة الأخير.

- متى تحددت هذه المراحل؟

- منذ أقل من أسبوعين، إنهم يغيرونها كل فترة.

صمتتُ مذهولاً ومحاولاً السيطرة على غضبي:

- هل لديكِ معلومات عن أماكن التفجيرات؟

ضحكت بسخريةٍ:

- بالتأكيد لا. هذا هو سرهم الأعظم. لن أحفظ أكثر من مائة موقع حتى لو سمعت بعض المواقع بالصدفة.

كنتُ أجاهد نفسي للسيطرة على بركان الغضب الكامن بداخلي.

إن مجهودات مريمة طيلة عامين فائتين لم تعد ذات جدوى.

ثم انتبهتُ إلى ما أفكرُ فيهِ.

أمرٌ كهذا سيؤدي إلى قتل آلاف البشر، وسيسقط البلاد في عصور الظلام من جديد، وسيمنح السلطة المطلقة لمن يملك العلم والتكنولوجيا؛ وأنا أفكّرُ في مريمة وحدها !!

قالت سمرة:

- هل تعرف ماذا سيحدث بعد تنفيذ المخطط"X" ؟

نظرتُ لها وأنا أتخيل الوضع:

- لن تكون الحياة على الأرض ممكنة. سينطلق الناسُ -الذين تعلموا طيلة عقودٍ طويلة كل أساليب القتال- لمهاجمة كل شيءٍ، وربما أكلوا بعضهم البعض. الأرض سيتم حكمها من القمر..

تصمت ثوانٍ:

- لا أستطيع تخيل الأمر كلما فكرتُ فيهِ. ولا أصدق أن الأمور ستصير إلى كل هذا.

ثم مدت لي ملفًا ضخمًا مليئًا بالأوراق وقالت:

- هذه هي كل ملفّاتي الخاصة التي يمكن أن يحتاجها الجنرال، دليلاً على ولائي له.

تلقيتُ الأوراق بدهشةٍ وهي تُكمل:

- منسّقة بالطريقة التي طلبها، على أوراقٍ وليست على اسطواناتٍ رقمية، ومسلّمة لك يدًا بيدٍ حتى لا يعرف الجاساك طريقًا إليها.

سألتها وأنا أتصفح الأوراق عن السبب الذي تفعل من أجلهُ شيئًا كهذا. ردت بابتسامةٍ:

- باقي أقل من شهرٍ على ساعة الصفر. لن يكتشف أحدٌ من اللجنة شيئًا خلال هذه المدة، ولا أظن أن علاقاتي هذه ستفيد الجنرال كثيرًا، ولم أعد في حاجةٍ إليها، أنا سأسافر خلال أسبوعٍ إلى القمر في الرحلة الأولى من الرحلات الثلاث. وفي نفسِ الوقت إذا نجح الجنرال في تنفيذ مخططهُ فلسوف أجد لي مكانًا مناسبًا في النظام الجديد، وإن لم ينجح لن يهتم أحدٌ إلا بالوضع البائس الجديد، أنا في كل الأحوال رابحة.

كانت تختلفُ كثيرًا عن سمرة التي أعرفها. تتحدث بكثيرٍ من الحكمة والألم والهدوء. هل تحملُ شيئًا من الحزن تجاه ما تعرفُ انه سيحدث.

قالت وهي تودعني أن مفارقتها لهذه الحياة التي اعتادت عليها يهزّها من الأعماق. فتذكرتُ كلمات ليورة عن تدجين الشعوب.

عانقتني على مدخلِ شقتها قبل أن أرحل ومكثت وقتًا تضمّني إليها مما سمح لي أن أضع جهاز RX٨٥٦ على الحائط بجوار المدخل.

هو جهازٌ صغيرٌ لا يكاد يُرى يقوم بعمل مسح كامل للمبني بالأشعة الصوتية لينقل تفاصيل المبني وكل ما يحدث بداخله إلى الجنرال أدهم الذي طلب مني الذهاب خصيصًا لها من أجل هذا.

عدتُ له بعد أن أخذت نسخةً كاملةً من أوراق سمرة، أخبرهُ بالفاجعة. إن المخطط "X" سيحدث على مراحلٍ ثلاثة.

إن كل ما نقوم بهِ لم يعد لهُ قيمة. وأننا في النهاية سننتهي جميعًا.

قال لي بأنه يعرف هذا، ثم طلب منّي ألا أقلق.

وعرفتُ أنهُ يتحرك بسرعةٍ وعلى كل الأوجه، بالداخلِ والخارجِ يهيئ الأرض لاستقبالهِ ويفرض سيطرتهُ على كل الأصعدة.

* * *

أكد لي أن أسلوبي في الشطرنج يشبههُ كثيرًا؛ التسرع في فرض القوةِ بحثًا عن انتصارٍ سريعٍ.

جلسنا على أحد المقاعد وأنا أسألهُ بهدوءٍ أن يوضح أكثر، قال:

- أنت مثلاً تنشر أدواتك القوية أولاً للسيطرة على ساحة المعركة قبل أن تبني خطة الهجوم.

* * *

ما الذي ذكّرني بالعجوز شامير السامريّ؟

شيءٌ ما في أسلوب أدهم الساعي للسيطرة بطريقةٍ مزلزلةٍ بالتأكيد هو ما ذكّرني.

لم يكن قلقًا من شيء. وكأنه على علمٍ بكل الأمور.

* * *

قال وهو يبتسم أن هذا الأسلوب هو ذاتهُ أسلوب أدهم الجبلي، غير أن أدهم كان أكثر حنكةً في تطبيقهِ وكان يستهويهِ ترك شراكٍ خادعةٍ في الطريق.

* * *

طوال طريق ذهابي إلى مقر الحركة على أطراف الصحراء كنتُ أفكرُ في ما يمكن أن يكون أدهم تركهُ كشركٍ في طريقنا أو طريق الثوار.

غرقتُ مع العجوز شامير - الذي قابلتهُ في فندق "الفرات" أثناء بحثي عن أدهم الجبلي- في تفكيرٍ عميقٍ محاولا التفكير بطريقتهِ المزعجة في تحليل الأشياء.

حين وصلتُ إلى مقر الحركة، وجدتُ أنهم على علمٍ بكل شيءٍ. فتذكرتُ جهاز الـ١ SPY الذي ينقل لهم كل شيءٍ.

مريمة كانت أكثرهم حزنًا. لم تتكلم كثيرًا. أما هارون فقد كان واثقًا أن ثمة أمرٍ خطأ.

عيسى – المسئول عن ملف سمرة- يؤكد أن معلومةٍ مثل تغيير المخطط أو أماكن التفجيرات لم تصل إلى سمرة أبدًا.

أخبرتهُ أنني أرغب أن أرى لقاءها مع أدهم الجبليّ. فقال أن هذا اللقاء لم يتم تسجيلهُ كذلك.

هارون قال:

- معرفة أدهم بأمر تجسسنا على سمرة أفقدنا نقطة تفوقنا بها كثيرًا. بل يجعلني شخصيًا لا أثق في المعلومات التي تأتينا عبرها. منذ عدة أيامٍ انقطع الإرسال القادم لنا منها، لمدة ثلاث ساعات، أثق في أن هذه الفترة هي التي تقابل خلالها أدهم مع سمرة في غرفة من الرصاص تمنع اختراق أي نوعٍ من الأشعة.

أكمل عيسى:

- كذلك التجسس عليها غير كاملٍ، فكل مراسلاتها عبر الهاتف أو أجهزة الكمبيوتر لا تصل إلينا ولا نراها عبر الـ١ SPY.

قضينا كثيرًا من الوقت والمجهود في محاولة لتحليل الأمر وإيجاد سبب منطقي يجعل اللجنة تغير من مخطط انتهوا من الإعداد له قبل عامين.

في نهاية اللقاءِ كالعادة، تحدثتُ مع مريمة.

قدمتُ لها التذكرة التي أخذتها من سمرة.

في البداية رفضت.

حاولتُ إقناعها، قلتُ لها أنها الرحلة الأخيرة قبل ساعة الصفر، لهذا يمكنها أن تشارك في كل أعمال الحركة.

- ثم إن سفركِ للقمر يمكن أن يكون فيهِ خير كذلك، أنتِ جئتِ إلى هنا وجميعُ ما حولكِ يحاولُ استغلالكِ. انظري ما صرتِ لهُ الآن؟ تشاركين في إحداث ثورة يمكن أن تنقذ العالم بأكملهِ.

تنظرُ لي غير مصدقةٍ.

- أنتِ تملكين قوةً لا تعرفين حجمها وإنما تكتشفينها تدريجيًا. أنا أثقُ فيكِ كثيرًا.

يتهاوى رفضها قليلاً.

- إن الناس التي تعيش في القمر أقل قسوةٍ وأكثر سذاجةٍ ممن يعيشون هنا. ربما سيكون عليكِ أن تقاومي الفساد الذي سيحدث في الأرض من مكانٍ قريبٍ لصناع القرار.

- على الأقل يكون ثمة أملٍ في أن هناك من يحاولُ من أجل الإصلاح.

كنتُ أبحثُ عن أيّ شيءٍ أقوله لها ليقنعها. ولم أعرف سبب محاولاتي.

وافقت بعد أسبابي الأخيرة. لم توافق من أجل نفسها أو لتهرب من مصيرٍ صار واضحًا.

عرفتُ فيما بعد أن لقائي بمريمة هذا كان هو لقائي الأخير.

الجنرال أدهم قرر أن أصير في صحبتهِ لأكون مساعده الأول. لم اعرف أنني حصلتُ على ثقتهِ إلى هذا الحد. ولم أكن اتفقتُ مع هارون على ما سأفعلهُ.

كنتُ اعرفُ أمرًا وحيدًا.

لا يمكنني ان أسمح لأدهم الجبلي أن يفوز في النهاية.

* * *

هارون..!

(١)

بإمكاني دومًا أن أعرف كيف يفكّر الحكّام، وخاصة الطغاة منهم..

لم يمثل لي فهم الحاكم أي مشكلةٍ من قبل.. مهما كثر فساده، وعظم فحشه وإثمه، فهو في النهاية يبحث عن متعٍ مختلفةٍ يهيؤها له الشيطان بأزهى الصور.

سيقتل ملايين الأرواح، سيغتصب ويبقر بطون الحوامل، وينصب نفسه إلهًا على الكوكب. سيدمر دولاً كاملةً ويغرق الحضارة الإنسانية في الظلام، ويعود إلى عصور الجهلِ من أجل أن يحظى وحده بالقوةِ المطلقة، وسيظل بإمكاني فهم هذا، وفهم كيف حدث، وكيف وصل الغرور الإنساني / الشيطاني، والاستهانة بالحياة الإنسانية إلى درجاتٍ لا يمكن تصورها.

سنحلل هذا ببساطةٍ ونتكلم عن الطمع والغباء والتدني لمراتب الحيوان غير المفكر والباحث عن متعتهِ فقط، وستظل لدي القدرة على فهمهِ والتألم لحدوثهِ.

أما ما لا أفهمه، ولا أعرفُ كيفية حدوثه هو: كيف يقبل الشعب كل هذا. كيف يصمت ويرضى، بل وأحيانًا يؤيدهُ ويدافع عنهُ ؟

* * *

متلازمة هتلر: هي ظهور أفكار معينة تستحوذ على عقل الشخص بالكامل، وترتبط بأوهام أو ضلالات معينة، مثل التي تظهر عند سماع خطب السياسيين.

* * *

متلازمة المُحتال: شخصٌ يشعر شعور عميق بالذنب لعد استحقاقهِ ما وصل إليهِ من نجاحات وإنجازات، برغم أنها تمت بكملها بمجهوده، غير أنه يظن انه حصل عليها بخداع الآخرين.

* * *

متلازمة ديوجن: تظهر مع الإهمال الشديد للذات مع ميلٍ للعزلة، والرغبة العارمة في الامتلاك أو فعل أمر يدل على الإمتلاك. ترتبط عادة بانهيارٍ عقلي أو عصبي أو الإصابة بحالة خرف.

* * *

متلازمة ستندال: تحدث عندما يفرط الشخص في القيام بأمرٍ ما، أو التعرض لأمرٍ ما. يتعرض للهلوسة والارتباك والدوار.

* * *

متلازمة ستكهولم: تُطلق على الحالة النفسية التي تصيب الفرد عندما يتعاطف أو يتعاون مع عدوه ويشعر تجاهه بالولاء، ويساعدهُ فيما يقوم به.

* * *

متلازمة المتلازمات: هو ما أطلقهُ على حالة الشعب الآن بعد كل ما أصابهُ طيلة عقودٍ من تغييرٍ لطبيعتهِ البشرية.

* * *

(إبراهيم خليل) هو أحد الشباب المتحمس الذي عاش عمرًا بالخارجِ، ثم جاء عن طريق بعض المعارف لينضم للحركة.

إبراهيم صُدم حين رأى الحاجة (أمُّ جابر) تبحثُ في الفضلات والقمامة لتأكل، كلّمها – وسط اندهاشها- عن أنّه سيحضرُ لها كل أسبوعٍ طعام يكفيها طوال الأسبوع، وبدأ تنفيذ هذا فعليًا.

في الأسبوع الثاني وهو يحضر لها طعام الأسبوع، وجد بانتظارهِ رجال الجاساك يأخذونهُ بعد أن أبلغتهم الحاجة (أمُّ جابر).

أوقفوهُ في وسط الشارع وسط صراخ الحاجة التي تتهمهُ بأقذع الشتائم، وتسبهُ بأنهُ ثائر ضد النظام، وخائن للوطن، بعد أن أخذت مخزون الأسبوع وخبأتهُ في دارها.

إبراهيم أُعدم رميًا بالرصاص أمام عينيها في وسط الشارع، فبصقت عليهِ وهي تواصل سبابها، ثم دخلت لتأكل من الطعام الذي أحضرهُ لها.

ولم تكن هذه هي الحادثة الوحيدة

* * *

في بدايات عملنا بالحركة اكتشفنا أن تحركاتنا كانت مكشوفة.

عمليات نشر المعلومات، أو التجمعات الفرعية لبعض الأعضاء كانت معروفة من قبل الجاساك. وتم القبض على عديدٍ منّا، وأعدامهم علنًا، أو بمحاكمات إعلامية صورية.

عرفنا في النهاية أن أمّ أحد الأعضاء لدينا وهو (خالد أبو سمرة) تقوم بالتجسس عليهِ وإبلاغ كل تحركاتنا التي يعرفها أو يسجلها عبر أجهزتهُ الخاصة إلى رجال الجاساك.

حينما واجهها بهذا أبلغت عنهُ شخصيًا الجاساك، وتم إعدامهُ أمامها رميًا بالرصاص وهي تسبهُ، وتطالبهم بأن يعذبوه قليلاً قبل قتلهِ.

* * *

(صفاء المهندس) أبلغ عنها زوجها لانضمامها للحركة، فأغتصبوها في منزلها وعلى فراشها أمام زوجها الذي كان يسبها ويشجعهم على النيل منها أثناء اغتصابها، ثم طلب أن يقتلها هو بيديهِ جزاءًا لها على خيانتها للجنة الحكماء.

* * *

ربما كانت البداية مع استيراد مفاهيم الديمقراطية والليبرالية والعلمانية والتحرر كبديلٍ عن الحرية، والشكل العام للدولة المدنية الغربية بكل ثقافاتها وأوضاعها الأخلاقية.

ربما لأننا قمنا باستيراد هذه المفاهيم، دون أن نأخذ في اعتبارنا كذلك نوع الشعب المثقف، المتعلم، القارئ، الواعي الذي يراقب تطبيقات الحكومة، والذي يوجد في البلاد التي تطبق هذه المفاهيم.

لم أؤمن أبدًا بترك حرية إقرار المصير الشعوب إلا للشعوب التي لديها الوعي الكافي لإقرار هذا المصير.

* * *

من هنا، بدأت العُقَد التي ظلّت تنمو في وجداننا الجمعيّ، من إبخاسنا لقيمة أي شيءٍ ينتمي لنا، لقد ظلّت هذه الفكرة المؤرقة خامدةٌ في أعماقنا طيلة عشرة سنواتٍ حدثت فيها الصحوة الرهيبة في بلادنا منذ ثورة ٢٠١١ والتي صارت بعد أقل من ثلاثة أعوام تحمل الإسم الرسمي (انتفاضة الخونة)

حين شاركتُ في هذه الثورة/الانتفاضة، كنتُ في أوائل العشرينات آنذاك. بقيتُ؛ بالرغمِ من الدولة التي صارت تظنُّ أنها قضت على كل فردٍ في أحداثٍ داميةٍ كثيرةٍ كانت الطائرات تقصفُ فيها مدنًا ومناطق بأكملها، خاصةً في ثورة التصحيح الثانية.

قضى العسكر على أكبر رأسينِ يمكن أن يمثلا بديلاً عنهم - وهما جماعة الإسلام السياسي، ومنظمات الطابور الخامس - تدريجيًا بعد أن منحوا كل طرفٍ منهم حكم مصر لمدة عامٍ أو أقل، قبل أن يقلبوا العالم والشعب والإعلام ضدهما، ويقوموا بعمل المجازر فيهما الواحد تلو الآخر، في ثورات تصحيح – كما أسموها آنذاك – قبل أن يستقر لهم الوضع وقتًا قليلاً ويقوم الشعب كلهُ ضدهم في أكبر مظاهراتٍ للجوعِ حدثت في تاريخ العالم.

ومن هنا تأتي ممارسات النظام الجديد الذي قام على أنقاض النظام القديم قبل ٢٠١١.

نظام ما قبل ٢٠١١ (أو: التجلّي الأول لدولة العسكر)، أخرج – نتيجة فساده المترع بالغباءِ- أسوأ أطياف المجتمع من الفقراء المعدومين والبلطجية والعاهرات والراقصات، وعديمي الكرامة والعقل.

وحين أتى نظام ما بعد ٢٠١١ (أو: التجلّي الثاني لدولة العسكر)، وحاول فرض سيطرته على مجتمع ما بعد الثورة كانت وسائله الوحيدة، هي الإفرازات السيئة التي أخرجها التجلي الأول له عبر عقودٍ طويلة من الظلم والفساد.

في البداية استخدم البلطجية المأجورين في فض المظاهرات المناهضة لوجودهِ، فكوّن حالة من اللا أمن، والرعب، والتشريد لكل أطياف الشعب. ثم بعد ذلك استخدم الراقصات والعاهرات في توفير الدعاية المناسبة له مستخدماتٍ أجسادهن، فاستطاع أن يحشد في صفّهِ الفقراء والجهلة الذين ينظرون تحت أقدامهم فقط ليطالبوا بعودة النظام القمعي كما كان، فخرجوا يحملون بيادات العسكر فوق رؤوسِهم مطالبينهم بالعودة للحكم.

على أن المأجورين لم يكونوا وحدهم البلطجية والعاهرات، بل انضم لطائفة المأجورين المثقفون الراغبون في قطعةٍ من الكعكة، أو فاسدي الأخلاق الذين يخشون من فضح أخلاقهم .

هنا تكونت جماعاتٌ مختلفة من المرتزقة، التي تمثّل في مجموعها إفرازات التجلّي الأول لدولة العسكر، والذي دخل كعاملٍ أساسيٍّ ومؤثرٍ في تكوين دولة العسكر في تجليها الثاني.

نلحظُ هنا أن ما ساعد على تأسيس الدولة الثانية هم المقموعين والمظلومين من الدولةِ الأولى، والذين هرولوا – في سلوكٍ أفشلُ في فهمه أو تحليله- لتأييد ومساعدة ظالميهم في تأسيس دولتهم مرّة أخرى.

تلقاهم النظام في تجليهِ الثاني ليحارب بهم أمنيًا وسياسيًا كل معارضيهِ والثائرين عليهِ.

رفع البلطجية والمأجورين والمرتزقةِ عاليًا، قام بتنظيفِهم إعلاميًا فصاروا مواطنين شرفاء همهم مصلحة البلاد واستقرارها.

نال بعدها من كل معارضيهِ في كل التيارات الفكرية والسياسية، وبخاصة تيار الإسلام السياسي، الذي اتهمهُ باستغلال الدين لتحقيق مصالح خاصة، وتيار المجتمع المدني الذي اتهمهُ بأنه طابور خامس يسعى لبيع مصالح البلاد العليا من أجل حفنة دولارات.

المأجورين ومرتزقة الفكر والعاهرات تم رفعهم ليسدوا فراغ الحياة الفكرية والثقافية. ثم تم بعد ذلك منحهم جلدًا جديدًا عبر إكسابهم مكانةٍ مجتمعيةٍ متميزة: كسيدات أعمال تهتم العلاقات العامّة.

أما البلطجية فقد صعدوا على أنهم رجال أعمال بأسماءٍ وأشكالٍ جديدة لينشئوا عددًا من شركات الأمن والحراسة، تتولى مهمة الأمن عن وزارة الداخلية التي بدأت تسحب يدها تدريجيًا.

يتحوّل الأمن هنا من مهمّةٍ تقوم بها الدولة، إلى تجارةٍ يدفعُ الناس مقابل الحصول عليها.

ويصيرُ طلبها ضرورة ملحّة خاصةً مع برنامجٍ كالقنّاص يشكك كل مواطن في زوجتهِ وأبنائهِ، ويمنحهم الدافع والسبب والغطاء المجتمعي الكامل لقتلهِ بدافع أن المواطن الشريف اكتشف فيهِ صفةً من صفات أعداء الدولة. وحين تسيطر منظومات المنطقة صفر على عقول المواطنين لا يكون ثمة فرارٍ من المصير.

إنشاء شركات الأمن والحراسة- التي تصارعت واتحدت عبر سنواتٍ طويلة لتبقى الشركات الثلاثة الكبرى- قام بدورٍ بشعٍ في شرعنة البلطجة، وتجميع البلطجية والمرتزقة وتكوين هيكل سلطوي لهم بدلا من انتثارهم في فوضى بين أطياف المجتمع مما منح لهم قوة وتأثيرًا غير عاديّ، وقام بتدشين وجودهم وتنظيمهم الداخلي ومنحهم التأييد والقوة من السلطة الحاكمة.

قامت كذلك شركات الأمن بشرعنة عمليات القتل والاغتصاب والممارسات الفاسدة التي تصب في مصلحة العسكر وقاموا بها نيابةً عنهم.

هنا تحولت الشرعية المنتهكة مرتين في ٢٠١٣ ثم في ٢٠١٨، إلى شرعيةٍ مغتصبةً جبرًا، استخدمت في منح شرعيةٍ مزيفةٍ لشركات الأمن، التي قامت بمنح عملياتها شرعية أخرى.

على أن وجود رجل مثل أدهم الجبلي، وإنشائه للمدرسة العسكرية الدولية قام بنقل الأمور إلى أبعادٍ اخرى. فتحولت البلاد من دولةٍ تعتمد على المرتزقة إلى دولة مرتزقة فعلية.

إنشاء الـ"IMS" أدى إلى منهجة كل هذه الممارسات وتحويلها إلى نظام قائم بذاتهِ بدلا من أن تكون ممارسات فردية كما كانت.

ارتبط إنشاء المدرسة العسكرية الدولية بالطبع، بعدة ممارساتٍ غريبةٍ للإرهاب على مستوى العالم وفي مصر كذلك وحتى في إسرائيل، أو قدسليم كما يطلقون عليها بمنتهى السخافة الآن.

فقامت المدرسة بقيادة الجنرال أدهم بتولى عمليات حفظ الأمن مدفوعة الأجر لكثيرٍ من الشركات الخاصّة على مستوى العالم.

هكذا أصاب برنامج مثل القناص، بالإضافة إلى غياب الشرطة، ومنظومات الخوف والتخوين ؛ قطاعات كبيرة من الشعب بمرض من الرعب والعنف، مع توفير الدولة جانبًا من شرعنة العنف. ثم تقديم الدواء والعلاج الآمن عبر شركات الأمن.

صعود البلطجية والمرتزقة إلى قمّة الهرم الإجتماعي، أدى إلى صعود قيمهم وأخلاقهم وحالة اللا مبادئ معهم. وصارت هذه العوامل هي المكوِّن الثقافي الجديد في المجتمع والمحرك السلوكي له.

صار من الطبيعيّ أن يسود العنف والسب وتأجيج حالة الذكورة المجتمعية، ويزكي كل هذا الإعلام بأدواتهِ المختلفة من برامج، وأفلام.

اختفت كلمات مثل العدل، والمؤاخاة، والحرية، وتغيرت مدلولات كلمات أخرى مثل العلم الذي صار معبرًا عن الجنس فقط، أو التاريخ الذي يرمي إلى سلوكيات راقصةٍ ما.

تحوّل المجتمع إلى درجاتٍ ورتبٍ في الإدارة، وصارت كل رتبةٍ أعلى تتولى كامل شئون الرتبة الأقل، هذا أدى إلى التدخل المستمر في شئون الآخرين، وإلى تأجيج حالات العنف والغضب.

تحول تدريجيًا المجتمع إلى الصورة التي نحنُ عليها الآن، قنبلةٌ موقوتةٌ شديدة الانفجار، والتي يرغب الجنرال أدهم، ببساطةٍ متناهيةٍ أن يشدّ فتيلها، وينزع الغطاء القمعيّ – لجنة الحكماء- الذي يبقى تواجده في هذه المرحلة ضرورةً مُلحة، سينفجر كل شيءٍ إذا انتُزع.

* * *

أدهم ..

(١)

أنا البدءُ والمنتهى..

أستمرُّ منذ بداية الخلقِ إلى الزوال..

والآخرون

حمقى..

قطرةٌ تتهاوى عن رداءِ مهابتي..

فكيف يظنون تجاوزي..

إلا انحدارًا للمنتهى،

وسقوط من متنِ التاريخ

* * *

يقيني التام منذ وعيي على العالم، إنني خلقتُ قبل أن يُقدَّر لي بعدة قرونٍ على الأقل. وأن العالم لم يستعد بعد لمجيئي إليه، تلك كانت مهمّتي الأولى، أن أعدُّه بنفسي لأداءِ مراسم استقبالي.

* * *

صرتُ على درجاتِ القلعة..

لم يعد يفصِلني إلا خطواتٍ قليلةٍ على تمام الوصول.

تجاوزتُ كل العثرات التي تركها الحمقى في طريقي ثم نسوا أو تناسوا أمري.

لا أعرف كيف نسوا أنني من علّمتهم أصول التفكير، وعلم وضع الاستراتيجيات.

هل نسوا أو تناسوا كيف علّمتهم كيف تكون الضربة مزدوجة، أو ثلاثية التأثير ؟

* * *

البدايةُ كانت مع اقتراحٍ صغيرٍ قلتهُ في اجتماعٍ للمجلس العسكري في ٢٠٢٢ حين واجهوا مشكلة تطبيق شكل الديمقراطية لانتخاب (أو تعيين) رئيسًا للبلاد، ثم بدء الانتخابات التشريعية وسط شعبٍ يصارع بعضهُ بعضًا من أجل تذاكر الطعام.

قلتُ ساخرًا أننا يمكن أن ندمج كل هذه المفاهيم والمؤسسات في مفهومٍ جديدٍ واحد هو مفهوم (لجنة الحكماء) نجعلها انعكاسًا لآخر ما وصلت لهُ العقلية التنظيمية في دولتنا من إنجازاتٍ.

قلتُ أننا سندمج فيها السلطتين التنفيذية والتشريعية، ثم نمنحها طابعًا دينيًا – باعتبار أن إدارة البلاد يجب أن تكون شورى بين أعضاء اللجنة –وطابعًا ثوريًا في المفهوم والتطبيق، ونعلن أنها تضم كل الطوائف الفكرية.

لم أتخيل أن يكون رد فعلهم بهذه الطريقة. احتفاءً لا يصدق بأكثر أفكاري سخافة. فماذا لو عرفوا حقيقة ما أُعدُّ له ؟

عرفتُ في هذه الأثناء أن أحدًا لن يستطيع أن يفهم عقليتي فضلاً عن أن يُدركُها. وكانت تلك هي اللحظة التي أعدتُ فيها هيكلة طموحي، وأسستُ خطتي الكبري.

قدمتها لهم ببساطةٍ لم يستوعبوها: إنشاء المدرسة العسكرية الدولية.

لم يستطيعوا استيعاب عبقرية الفكرة. تحويل كل الشباب الغاضب في الشارعِ إلى تروسٍ في آلةٍ ضخمةٍ لفرض السيطرة على الجميع في الداخلِ والخارج.

وكان بدهي جدًا ألا يفهموا الضربة الأخرى تحت الحزام التي أقومُ بتسديدها لهم أنفسهم.

تكوين جيش من الموالين لي على مدار سنواتٍ كثيرة يمنحني القوة الكافية للإطاحةِ بهم؛ الأميرُ المتغلِّب يحكم.

* * *

في المدرسةِ العسكرية الدولية بدأتُ في تأسيس علمٍ جديدٍ ؛ هو علم صناعة الولاء.

كنتُ أمارس أكثر أعمالي إمتاعًا ونشوة: فرض السيطرة على الجميع. على مدار التاريخ لم يقم إنسانٌ بفرض سيطرتهِ على الجميع وعلى أفكارهم وعلى أنفاسِهم وتمتع بولائهِم الشديد وحماسهم له.

ربما فعل هتلر بعض من هذا، لكنه لم يصل إلى المرحلة التي حققتها في الـ"IMS"، واهتم أكثر بالسياسة وبالشكل الديمقراطي المفروض عليهِ من الماضي.

ما فعلتهُ في مِصر هو أن غيرت نظرية الدولةِ وأسستُ فلسفة جديدة لها. وأعدتُ هيكلة البلاد بأكملها.

نظّرتُ لقيام لجنة الحكماء كبديلٍ عن أي سلطةٍ اخرى. أنشأتُ المدرسة. ثم وضعتُ أساسيات علم (المنطقة صفر).

مع التجليات الثلاثة للمنطقة صفر: كنتُ قد انتهيتُ من تنفيذ مراسم استقبالي، وبقيت فقط خطوات قليلة.

* * *

عندما تم إنشاء لجنة الحكماء كان تعداد الشعب المصري يتجاوز الأربعين مليون بقليل؛ هم كل من تبقوا بعد إزالة رءوس الفساد والثقافة وأصحاب موجات التغريب والباحثين عن الهويات الأخرى.

كل من تبقوا هم الصامتون، المؤيدون، المقدرون لجهودنا والمستعدون تمام الاستعداد لتنفيذ نظرية المنطقة صفر.

السببية هي التي تحرك الإنسان. لأي تصرفٍ لا بد لهُ من سببٍ تختلف قوتهُ باختلاف ثقافة الفرد. والسببية هي تلك المنطقة في عقولنا التي توجهنا للإيمان برؤية معينة أو رفضها، ويمكن خلطها في أغلب الأوقات بجانبٍ شعوريّ موجه. ومن هنا خُلقت نظرية (المنطقة صفر).

فالمنطقة صفر هي مساحةٌ مجهولةٌ من الوعي الإنساني، مساحةٌ من الخطر يقودها الخوف، تمثل لوحة القيادة في العقل الجمعي للجماعات والتجمعات البشرية.

قدمتُ الورقة التعريفية الأولى عن النظرية في ذات العام الذي تكونت فيهِ لجنة الحكماء.

الأوضاع وقتها كانت مهيئة للخوف ذي البعد الأوحد، وهو الخوف من التدخل في السياسة. فقدمت نظرية الخوف كمنظومة متكاملة تتحكم في المصير.

تتكون النظرية من تجمع خمس دوائر يجب إدارتها بشكلٍ قوي.

الدائرة الأولى هي دائرة الجهل: تتكوّن من التعتيم الإعلامي والدفع بسريّة كل المعلومات والاحداث.

الدائرة الثانية هي دائرة العجز: تأتي من اليد الأمنية الحازمة التي تمنع القيام بأي أفعالٍ في الجانب المدني أو السياسي. (نتيجة عدم وضوح الرؤية-الدائرة الأولى-)

الدائرة الثالثة هي دائرة الخوف: نتاج طبيعي لمنظومتي الجهل والعجز.

الدائرة الرابعة هي دائرة البحث عن الأمان: ويدفع بها الإعلام ليكون الإيمان بالحاكم والتصديق بهِ هو مصدر الأمان المجتمعي.

الدائرة الخامسة هي دائرة الإيمان بالحاكم: وهي تتكون تلقائيًا نتيجة الهروب من المنظومات السابقة. ،،

حينما انتشر مفهوم المنطقة صفر بين الإعلام الغربي؛ بعد تسريبٍ حصل عليهِ ثوار القمر. قاموا بأكبر عملية تسريب المعلومات السرية إلى الملأ العام.

تحدثوا عن الإعلام المضلل الذي يوهم الناس بخرافاتٍ، وعن اليد القمعية التي تسوق الناس إلى منطقةٍ يصبح وجودهم فيها يساوي صفر.

هنا كان يجب تقديم مفهوم مخالف أو تجلٍ آخر، موجهٌ للعوام.

فجاء التجلي الأول : الرسالة الإعلامية الموجهة.

و قمتُ بتقديم المنطقة صفر على أنها المساحة المضللة التي يرغب أعداء الدولة في سحب الرأي العام إليها عبر إطلاق الكثير من القضايا الوهمية والمضللة لفك النسيج الوطني، وإغراق الشعب في قضايا فرعية بلا قيمة.

وتم نشر هذا المفهوم على الملأ ليصير نقيضًا للتجلي الثاني الذي ساهم في تكوين الخطط الإعلامية والأمنية لإدارة البلاد.

على أن مشكلة أخرى تجلت في الأفق بعد علو صوت شعب القمر.

* *

مستعمرة القمر؛ هي أكبر وأعظم بناء إنساني حققهُ الإنسان على مر العصور.

العيش خارج كوكب الأرض، وإدارتهُ من فوق القمر.

نقلنا حياتنا كلها، وكل عائلاتنا وأبناؤنا وأحفادنا للعيش في المستعمرة، ما يقرب من خمسة ملايين إنسانٍ يعيشون في جنةٍ وصفها الشيخ عطية الله بأجمل الصفات البديعة.

لكن تجمع البشر دومًا كلهُ شر.

الفرقةُ نشأت بينهم، والاهتمام بالشأن الأرضيّ بدأ بعد عشرة أعوامٍ أو أكثر من العيش في النعيم. وكان لا بد من منظومةٍ أخرى لأدارتهم نفسيًا وفكريًا. وكالعادة لجأت لجنة الحكماء لي؛ لأنقذهم من الانقلاب الذي أوشك الشعب على القيام بهِ.

* *

التجلي الثالث لنظرية المنطقة صفر أسميتهُ: إدارة دولة الرفاهية.

لا بد من توجيه الشعب فكريًا للدوائر العكسية لمنظومة دولة القهر.

الشعور بالقدرة على فعل كل شيء، والعلم بكل شيء هما الدائرتان التي لا يجوز إغفالهما في دولة الرفاهية.

لكن دائرتي العلم والقدرة يحدُّ من تفحشهما دائرةٌ ثالثة؛ هي دائرة الخوف. وهي المنظومة التي قدمها ثوار القمر لنا على طبقٍ من ذهبٍ حين بدأوا في نشر معلوماتٍ عن المستعمرة وطالبوا بأن يتم الكشف عنها.

دائرة الخوفِ هنا هي زوال جنتهم إذا علم أحدٌ بوجودهم، أو على أقل تقدير مشاركة الرعاع لهم.

على أن شعب دولة الرفاهية لا يجب حصاره بالخوف فقط، من هنا جاءت الدائرة الرابعة وهي دائرة الأمل؛ المشروع القومي الضخم الذي يداعب أخيلتهم ويثير فضولهم وطمعهم؛ وكان هذا المشروع هو "ماس الكوكب الأحمر".

* *

في أواخر عام ٢٠١٣ اكتشفت الولايات المتحدة أن أمطارًا من الكربون في شكلهِ الكريستالي تتساقط على كوكبيّ زحل والمشترى، وأن العواصف الرعدية تحوّل

غاز الميثان إلى الكربون الذي يزداد صلابة أثناء سقوطهِ على سطح الكوكب بحيث يصبح في صورة كتل من الجرافيت تتحول بعد ذلك إلى الماس.

كان لهذا الخبر وقعه الكبير في كل دول العالم: إن ألف طنٍ من الماس يسقط فوق كوكب المشترى كل عام.

بعد ذلك بسنواتٍ كثيرة، بدأت الرحلات الفضائية الأمريكية ترتحل إلى المشترى لإحضار كمياتٍ من الماس، ثم أحاطوا الأمر بسريةٍ تامة ولم يعلنوا النتائج.

حاولنا أن نرسل رحلاتنا الخاصة إلى هناك، إلا أن الأمر فشل فشلاً ذريعًا.

قدمتُ للجنةِ الحكماء مقترح المشروع القومي لشعب القمر. هو رحلة إلى المشترى لإحضار طنًا واحدًا من الأطنان الألف التي تسقط فوق الكوكب الأحمر سنويًا، على أن يساق للأمرِ إعلاميًا فقط، ويتم إعداد دعاية مناسبة، متتاليةٍ بمنطقٍ يراعي توقيت الرحلات الفضائية.

* *

أشبَعَت الدائرة الرابعة- الأمل- الحاجة الإنسانية للتجمعات البشرية المرفّهة: وهي الحاجة إلى التطور وتحقيق الذات. وأكدت على تجميع الناس في الدائرة الخامسة للمنطقة صفر: دائرة الإيمان بالحاكم الذي بيدهِ كل شيء.

* *

في البدءِ كنتُ..

وكان العالم من حولي

نثرًا يطوفُ بي

طوف اشتياقٍ واشتهاءِ غامضٍ.

في البدءِ كنتُ ،،

وفي المنتهى أبقى

والكونُ من تحتى

عرشًا؛ تلفُّه حرملتي.

*** ***

هل وجد قبلي بدءٌ أو من بعدي مختتمٌ ؟

*** ***

" من الأوراق السرّية للجنرال أدهم الجبلي"

***   *   ***

هارون ..!

(٢)

تقول فجر:

- ولماذا لا نقوم بثورتنا الآن؟

ويتساءل عيسى:

- ولماذا لا نثق بأدهم الجبليّ ؟

ويعلو صوتهم مجددًا:

- فلنأخذ تصويتًا على الأمر.

* * *

لهذا أكرهُ الأنظمة الديمقراطية.

الديمقراطية لا تعني على الدوام صلاح الشعوب، بل تعني أن القرار سيكون – باختصارٍ شديد- في يد من يمتلك الأدوات الإعلامية بحرفيةٍ أكثر فيسوق لرأيهِ جماعات من الدهماء التي ستصوت على الأمر وهي تحمل رأس جحشٍ مكان عقلها، فيعلوا صوت الجماعات الأكثر غباءً.

الديمقراطية لا تُطبق إلا مع الشعوب التي تمتلك درجةً من الوعي تؤهلها لدراسة البدائل المختلفة واختيار البديل الأكثر تحقيقًا لمصالحها، بالتالي فثمة شرطٍ شديد الأهمية لتطبيقها هو أن يوجد المواطن الرشيد.

لهذا كان عملنا في الحركة الوطنية للإصلاح يعتمد في الأساس على تكوين الأرضية المناسبة من المواطنين العاقلين ذوى درجات الوعي المقبولة، والتي إذا انتشرت على مستوى القاعدة ستسقط قمة هرم الفساد تلقائيًا.

يسأل عيسى بدهشةٍ:

- ولماذا لا نثق في أدهم الجبليّ، أنه صار ضد لجنة الحكماء الآن، بالتالي مصالحنا صارت واحدة.

أقولُ بصبرٍ شديد:

- أدهم الجبلي عسكري، ولا يمكن الثقة أبدًا برجلٍ عسكريّ في موضعٍ مدنيّ. لأن عقولهم رتبت على التدرج والرتب. الناسُ تصير في عينيهِ درجات من الأهمية يرتبها وفق مصالحهِ. وليس معنى أننا ضد شيءٍ واحدٍ أن مصالحنا صارت واحدة، هو هدفهُ الأساسي أن يصير بديلاً عن مجلس الحكماء، بينما هدفنا نحنُ يختلف تمامًا.

فتقول فجر بضيقٍ:

- إذن لماذا لا نقوم بثورتنا الآن، كما قال الجنرال أدهم، سنسيطر على الإعلام ونقوم بتصدير الشعور بالأمان وبأن كل شيءٍ تحت السيطرة فلن تعمّ الفوضى التي نخشاها.

ضحكتُ حتى دمعت عينايّ:

- اقتراح أدهم بهذا أكبر دليل على سوء نواياه، لأنه أكثر من يعرف أنهُ من المستحيل السيطرة على الفوضى التي ستتم أو على بحور الدم التي ستسيل.

سقوط لجنة الحكماء وحدها على هذا النحو يعني أن يتصارع الجياع من أجل الوصول لمكانها. مؤسسات مثل الجاساك والمدرسة العسكرية الدولية سيتطاحنان أمنيًا وسياسيًا من أجل السيطرة على مقاعد لجنة الحكماء. وإذا تم القضاء على جميع قادة هذه المؤسسات فستعم الفوضى لعقودٍ طويلةٍ ما لم يسيطر أحدٌ على الأوضاع سريعًا ويتحوّل إلى أكبر دكتاتور عرفتهُ البشرية.

قالت مريمة وهي تفكّر:

- إذن لماذا لا نعرض كل ما لدينا من معلومات على الرأي العام العالمي والمحلّي؟

وكان هذا الرأي هو أقل الآراء سخافةً، ابتسمتُ لها:

- ما نتيجة أن يعرف الناس أن مواقعًا في بلادهم ستتفجّر وستملأ الإشعاعات النووية سماءهم؟ لا شيء غير الفوضى والذعر والتخبط، هذا بفرض تصديقهم لنا. أما إذا كذّبونا فسيلقى الأمر في الحلقة المفرغة للمنطقة صفر التي نشد الناس لها. وفي أفضل الاحتمالات إذا انقسموا بين مؤيدين ومكذبين فسيتحول الأمر إلى صراع سياسي. والصراع السياسي نتيجتهُ صفر على الدوام. لن يحدث شيء أكثر من تبادل الاتهامات دون أن يستفيد أحد. بالإضافة إلى أننا في حالة أن أذعنا ما لدينا من معلومات سينبههم ويجعلهم ينفذون الأمر بحيطةٍ أكبر.

قال مازن أخيرًا:

- إذن فلماذا لا تكون ثورة الآن ولتعم الفوضي وتتقابل الجهات القوية لنجد من سيربح في النهاية، وليحكم الأقوى والأقدر على قيادة البلاد.

قلتُ محاولاً كبح جماح حماسهِ وتوجيهها للطريق السليم:

-وهل نرفض اللجنة الآن لأنها ضعيفة مثلاً وغير قادرة على قيادة البلاد؟

تراجع في جلستهِ فأكملتُ:

- سياسة الردع التي تتحدث عنها ربما تكون صالحة في الحروب، أو بين القوى الدولية، لكنها لا تصلح أبدًا في قيادة شعب واحد. تلاقي القوى سيؤدي إلى العنف والدماء والفوضي والفتن والاضطرابات بين طوائف الشعب، ناهيك عن استعداد الشعب للقتل وتدريبه على هذا طيلة عقودٍ مضت. سيتحول الأمر إلى مجزرةٍ ربما تنهي الشعب بأكملهِ وتسقطنا في احتلالٍ أمنيّ حقيقيّ. في نفس الوقت البديل الذي تقدمهُ حركتنا وتسعى إلى تطبيقهِ هو إحداث التغيير تدريجيًا ابتداءً من توعية الشعب وأفرادهِ ومنحهم الأمل والثقة في

وجود جبهة معارضة قوية، وأكبر نجاح وصلنا له هو ما قامت مريمة بتنفيذهِ من تجنيد كثير من الأفراد الذين ساعدونا في إبطال مفعول القنابل، لو استمررنا على نفس النهج لفترةٍ طويلة يمكن أن ننشر أفكارنا في كل قطاعات ومؤسسات الدولة، تدريجيًا حتى يسقط النظام من تلقاءِ نفسهِ دون قطرة دماءٍ، ويكون الوعي المجتمعي قد تمّ بشكلٍ يسمح بقيام دولة كاملة عليه. أما ما تقدمّه من سياسة القوة فلا يؤدي إلا إلى دمار الدولة.

صمتوا طويلاً، كنتُ أعرف أنهم مخلصين في نواياهم، لكن الطريق إلى الفناء مفروش دومًا بالنوايا الحسنة.

بعد فترةٍ طويلة، قلتُ:

- إن قطع رأس الأفعى في هذه المرحلة من عدم الوعي وعدم الاستعداد هو بداية الثورة المضادة التي ستقوم قبل بدء ثورتنا الحقيقية نفسها، بالتالي هي خيانةٌ لنا، ولن نواجه فيها الجنرال أدهم الجبليّ فقط، بل سنواجه نظامًا كاملاً بمؤسساتهِ وأفرادهِ، والأدهى أننا سنواجه الشعب نفسه غير الراغب في التغيير.

سألتني فجر:

- وماذا لو نجح الجنرال في مخططهِ وأطاح بلجنة الحكماء؟

قلتُ بشكلٍ حازم:

- يجب منع هذا بأي شكلٍ.

- وإذا فشلنا ؟ ماذا سيكون رد فعلنا؟ ما النموذج المثالي الذي نقدمهُ في موقفٍ كهذا.

قلتُ:

- لا يوجد في -هذه الحالة- نموذجًا مثاليًا، مهما كانت أفعالنا مثالية سيتم مهاجمتنا ومحاولة إثبات خطأنا. الصراع يعتمد في النهاية على القوة التنظيمية، والقدرة على الحشد، والقدرة على الإقناع، والنظام له اليد العليا

في هذا. كل قادة الجاساك وشركات الأمن والمدرسة سيتحدون مع الإعلام والقضاء ضدنا وستكون فرصنا قليلة جدًا، وستعتمد كل تحركاتنا على البيئة المتواجدة آنذاك.

عدتُ إلى داخل حجرة الاجتماعات بعد فترةٍ، فوجدتهم يتناقشون عن مدى مصداقية أدهم الجبلي.

عدتُ أؤكد لهم بثقةٍ تنبعُ من عمق تجاربي:

- لا يمكن الثقة بأدهم الجبلي بأي شكل.

* * *

أدهم

(٢)

القدرة على تحويل كل المتغيرات التي تحدث إلى نقاطِ قوةٍ في المنظومة المستهدفة هو التفرّد الذي لا يستطيع إدراكهُ أحد.

حين عرضت الولايات على اللجنة المخطط "X" لتغيير المنظومة العالمية وطلبت اشتراكنا فيها وتسليمهم المدرسة العسكرية الدولية مقابل تنفيذ مشروع لؤلؤة القمر؛ رفضتُ تمامًا المقترح لأننا يمكن أن نحصل على عرضٍ أفضل من هذا.

أداروا الأمر بغباءٍ، وأحبطوني كثيرًا لأنهم لم يتعلّموا شيئًا منّي طوال أكثر من عشرين عام.

* * *

انتقلتُ إلى قُدسليم وقد أدركتُ نيتهم في تصفيتي.

في قُدسليم بدأت خطواتي التي استمرّت طوال عامين تاليين، ابتداءًا من التعاون مع البروفيسور داود عزت؛ ثم ليورة من بعدهِ، لزرع الفكرة التي ستنخر في العلاقات الدولية؛ إن بعض المنظمات الدولية الداعمة لمصر وأمريكا هي في الأساس منظمات فاسدة. وقد أتت النتيجة بأسرع مما كنتُ أتوقّع.

انتقلتُ سريعًا إلى الخطوة التالية: فضح المخطط "X" في الأوساط الدولية التى يستهدفها المخطط. بدأت تشبيكات المصالح في الانعقاد واستطعتُ إقناعهم بنفسي كبديلٍ إسلاميّ عن اللجنة التي تبحث عن إفنائهم.

بدأتُ- في ذات الوقت- في تكوين فريقٍ كاملٍ من طلبة الـ"IMS" الذين انتشروا في مختلف الشركات والمؤسسات. منهم من يعمل في الجاساك، وفي شركات الأمن، بالإضافة للفريق"أ" بأكمله الذي كان يعمل تحت إدارتي في المدرسة.

مازن إبراهيم على صالح، المقاتل القنّاص، أو قائد الصف في منجم زاريا؛ لم يكن الوحيد الذي أتى إلى قدسليم بحثًا عن حقيقة ما حدث لي. لهذا لم يكن الفريق ليكتمل بدونهم.

ولمازن مزية إضافية – بخلاف إخلاصِهِ الشديد- هي قدرته الخطابية العالية، وعلاقاتهِ النسائية المتعددة التي يفرض سيطرتهُ فيها.

لهذا ضممتهُ إلى فريقي لعدة أسباب منها قدرتهُ على استلام السيطرة على قطاع الأمن، عبر سيطرتهِ الذكورية على امرأةٍ مثل شيري، الصف الثاني في قطاع الأمن.

كذلك – وهذا الأهم- تأكدي من مصداقية سمرة الراسي.

أعرفُ علاقتهما الحميمية قبل وبعد التحاقه بالمدرسة، وأعرفُ بسيطرتهِ القوية على نفسها المتمردة التي لم يستطع غيرهُ ترويضها. طلبي لكل ملفاتها وشبكات علاقاتها داخل مصر وخارجه وتفاصيل ما حدث كان يمكن أن يقبل بالقبول ثم التلاعب من جانبها، هنا جاءت ضربتي المزدوجة حين طلبتُ منها أن تخبرهُ أن أماكن المخطط "X" تم تغييرها وتعديلها عدة مرّات، هي تعرف أن هذا لم يحدث، تحالفها معي ضدّه، يؤكد جانبًا كبيرًا من مصداقيتها معي، بالإضافة إلى توصيل هذا الخبر رأسًا إلى هارون وحركته عبر جهاز التجسس الذي يعرفون عبره كل تحركاتها.

خبرٌ كهذا سيمثل ضربة قوية تصيب معنوياتهم في مقتلٍ وتدخلهم في صراعٍ وهميّ للبحث عن الأماكن الجديدة ومحاولة السيطرة عليها. فتنةٌ صغيرةٌ من فتن أدهم الجبليّ.

إضافة مازن للفريق، أوصلتني إلى عمق ثوار القمر، الذين كان بإمكاني السيطرة عليهم جميعًا لولا وجود شخص مثل الدكتور على البريمي أستاذ التاريخ، أو هارون كما يدعونهُ.

لم أتصور أن يوجد رجل يحمل رؤية حقيقيةٍ لهذا البلد، ويبحث عن مصلحة أفرادها ومحاولة توعيتهم، والنخرُ في عمق النظام حتى يتهاوى ويتكون الوعي المجتمعي فتقوم ثورةٌ بيضاء دون قطرة دمٍ واحدة.

كل من حول هارون هم لا شيء. وبدون هارون لا يمثلوا أي خطر حقيقي. ولهذا قامت امرأةٌ مثل فجر – رغم ذكائها – بدعوتي ومازن باعتبارنا ضد النظام، وأن تحالف مناهضي النظام يمكن أن يُضعف النظام.

بحثي عن إحداث ثورة مفاجئة الآن، هو التصور الوحيد الذي يجب أن يحدث الآن. فلا يمكن الانتظار عقودًا أخرى كما يرى هارون.

ومن هنا أتت أهمية وجود مازن من جديد داخل الفريق الذي أقوده، قدرتهُ الخطابية، مفيدةٌ في السيطرة على الصداع المزمن الذي تعاني منهُ اللجنة " الجيل الأسود".

ببساطةٍ متناهية سيقوم –دون أن يعرف- بضربهم بعضًا ببعضٍ، وضربهم معًا بأي مظاهراتٍ يمكن أن تحدث من قِبَل من أفاقوا قليلاً بسبب مجهودات ثوار القمر التوعوية.

سيمرّ الجيل الأسود بعد ذلك بمرحلتين: المرحلة الأولى هي مرحلة تنفيذ المطالب والانصياع لهم فيقومون بذبح كل من يخرج للتظاهر. ثم المرحلة الثانية بالانقلاب على أنفسِهم حين لا ينضم منهم أحدٌ للمدرسة متهمين بعضهم البعض بالخيانة والعمالة. هكذا يتصرف اللاعقل في الجماعات التي يحكمها الشعور بالقهرِ والغضب.

باقي الفريق يضم أفرادًا مهمة في قطاعات مهمة، مثل العقيد جاسر وكيل مكتب الجاساك، الذي سيقوم بالسيطرة على الجهاز بأكملهِ في الخطوة التالية.

حين تقوم الثورات، تتم الإطاحة بكل رجال الصف الأول في الدولة، لهذا تمثل السيطرة على رجال الصف الثاني؛ سيطرة على كل نتائج الثورة.

وهذا ما بدأتُ في تطبيقه.

الصف الثاني في أهم قطاع في الدولة وهو قطاع الأمن، يتمثل في كل من شيري؛ في القطاع الخاص، والعقيد جاسر؛ في القطاع العام، والفريق "أ"؛ في القطاع الدولي، بالإضافة إلى السيطرة على الصف الثاني في الإعلام والقضاء متمثلاً في التنظيم الطليعي الذي بدأ مبكرًا جدًا في الاصطدام باللجنة بإيعازٍ منّي.

بالإضافة إلى تحضير بعض الخطط الدفاعية لما يمكن أن يحدث، مثل تدمير "الجيل الأسود".

كذلك العلم بأهم التحركات وتربيطات المصالح التي تمت في البلاد خلال فترةٍ طويلةٍ فائتة؛ يمثّل نقطة تفوق ستؤتي ثمارها على الأجل الطويل.

بعد ذلك، وربما كعادة الثورات، ستهب موجةٌ ثورية تلقائيةٍ ثانية، تطيح برؤوس الصف الثاني، ليأتي رجال الصف الثالث الذين لم يتصورون أن يصعدوا للصف الأول أبدًا، مما يجعلهم أكثر شراسة وعنفًا في الحفاظِ على مواقعهم، بعد تجربتين تمت أمامهم أطيح خلالها بكل قادتهم، لكن هذه مرحلةٌ متقدمةٌ من الخطة.

الآن؛ بعد السيطرة على الجبهة الداخلية تمامًا. تبدأ مرحلة الإطاحة برءوس النظام. وقد حددتُ لها لحظة الصفر لتكون ذات اللحظة التي حددتها اللجنة.

آخر الرحلات السرية للقمر، والتي لم يعرف بها غير المسافرين عليها فقط؛ ستتم قبل ساعة الصفر بساعةٍ تقريبًا، وسيتجمّع فيها – بغباءٍ محكم – كل أعضاء لجنة الحكماء، ومساعديهم ومستشاريهم، وقادة الجاساك وشركات الأمن، باختصار كل رجال الصف الأول الذين يريدون أن يشاهدوا الانفجارات النووية عن قربٍ كلحظةٍ أخيرةٍ قبل فناء البشرية، بدلاً من متابعتها من القمر، غير أنهم لن يكونوا عالمين أن الانفجار سيتم على صاروخهم الخارج من الأرض.

سأجلسُ في مقر قيادتي، أتابع انفجارهم – بعد خروجهم من نطاق الجاذبية الأرضية- كنقطةٍ مضيئةٍ هائمةٍ بلا قيمة في عمق الفضاء.

* * *

- هذا ما زرعناهُ يا مازن، ولا يجب أن تسقط في هذا الشرك، لكنَّ رجلاً وحيدًا يمكن أن يغير العالم.

- وكيف يحدث هذا يا جنرال؟

- بأن يتحول الرجل الواحد إلى فكرةٍ تحتلُّ النفوس وتنخرُ في النظامِ فتهدمه، وأن يتحول الرجل الواحد إلى نظامٍ بديلٍ يقدم اختياراتٍ أفضل ويرتكز على دعائم أقوى، أن يتحول الرجل الواحد إلى أسلوب حياةٍ لا تستقيمُ الحياة بدونهِ.

* * *

الجبهة الخارجية أو العلاقات مع الخارج قمتُ بإدارتها عبر عامين كاملين بعد اختفائي إثر محاولة الاغتيال الفاشلة.

المخطط "X" استخدمتهُ ببساطةٍ كدعمٍ للحصول على تأييد دولي ضد اللجنة وضد النظام، بل وضد الولايات نفسها، ثم صار الأمر أسهل بعد تقديم بعض مواقع التفجيرات في تلك الدول.

لم أقدم كل أماكن التفجيرات، كنوع من الهدايا لهذه الدول، فضعفها سيصب في مصلحتي مباشرةً بعد أن تنبسط لي الأمور والمصائر.

* * *

هل وجد قبلي بدءٌ أو من بعدي مختتمٌ ؟

ما لا قته مريَمَة كاريدجو

في رحلتها الأخيرة...

(٢)

لم تشعر بتوقف الكبسولة..

صوتٌ يخترق موسيقاها التي غرقت فيها بينما تضع سماعتيها.

- السادة المسافرين، مرحبًا بكم في المركز المصري لأبحاث الفضاء.

يمسُّ الركب بجوارها كتفها ليخرج، تتلفت حولها، تبتسم لهُ معتذرةً، تقومُ وتتوجه ناحية أحد الأبواب المفتوحة التي دخلت عبرها رياحٌ باردة.

يقتربُ منها الشاب.

- رحلتُكِ الأولى؟

تنظر له بدهشةٍ غير معتادةٍ على هذا التودد. تهزُّ رأسها إيجابًا.

- اسمحي لي أن أكون مرشدكِ في الرحلة إذن.

لا ترد.

تترك عيناها تتفحصة للحظةٍ قبل أن تتركهُ وراءها، شابٌ صغير في أوائل العشرينات.

تقترب ناحية الباب وتلحظُ مساحةُ الأرضِ الواسعةِ، تنظرُ ناحية السماء التي يظهرُ طرفها عبر الباب، تفكرُ في مول ميامي – آخر المناطق الحيوية الباقية في المخطط "X" –الذي سينفجر بعد ساعةٍ، والذي تركت مهمّته لبيبرس.

تشعرُ بكثيرٍ من الألم.

- الآن سنتوجه إلى قاعة التجوّل الافتراضي. ستشاهدين فيها رحلة افتراضيةٍ كاملةٍ؛ للرحلة التي سنقومُ بها للقمر. وستتعلمين إجراءات السلامة والأمن.

تقتربُ من الباب وتلفحها الريح الباردة.

- نحن مُجْبَرون على حضورها حتى لو لم تكن مرّتنا الأولى في السفر.

يضحك:

- إجراءات سلامة وأمان.

لم يعنها للحظةٍ كلمةً مما يقول.

الناسُ حولها كانت تضحكُ وتنظرُ لأعلى بلهفةٍ، هي الوحيدة التي تنظرُ وراءها وتشعرُ بالألم لما سيحدث وستهرب منهُ بخسةٍ. تشعرُ بتأنيبٍ لا تحتملهُ لضميرها.

يقولُ لها الشاب بعينين متسعتين.

- هل تعرفين أن هذه هي الرحلة الأخيرة للقمر.

يحرك يديهِ على اتساعهما.

- ستنفجرُ الأرض بعد ذلك.

يضحكُ بانتشاءٍ.

تلتفتُ إليهِ غاضبةً.

- أنت سعيد لذلك ؟

يضيءُ مصباحٌ أحمر فوق الباب. صوتٌ معدنيٌّ لفتاةٍ.

- حالة غضب تصل إلى ١٠%. برجاء الالتزام بالهدوء لسلامة الجميع.

تتجمدُ للحظة.

يبتسم الشاب.

- تخيلي أن تشاهدي الكرة الزرقاء تنبثقُ منها البقع البرتقالية لتسيطر على السطح بعد ذلك. أنتِ لم تشاهدي الصورة على برامج المعايشة.

يتحولُ الغضب بداخلها إلى حزنٍ وندم. هي ساعدت على حدوث هذا بطريقةٍ ما، والآن سترحل عن كل هذا من أجل كلمة قالها مازن، عن أن تزرع بذرة الخير في المستعمرة وتحاول إنمائها. لا تعرف حرفًا عن كيفية تطبيق هذا.

تعبر الباب إلى مساحةٍ شديدة الاتساع من الأرض الزجاجية المصقولة. تحت الأرض تبدو مياه البحرِ فائرة ومتلاطمة.

تنظرُ حولها. على امتداد البصر تلحظُ البحر يلفُّ المكان من كل جانب.

الأبراجُ الشاهقة غريبة الشكل.

يشيرُ الشاب بيدهِ.

-وراء مركز التجوّل الافتراضي توجد منصّة الإنطلاق.

يلفّ ليقف أمامها ليمنعها عن الحركة.

- لماذا أنتِ مكتئبة.

ثم يهز كتفيهِ باستهتارٍ، وتلمعُ في عينيهِ نظرةٌ.

- يمكنني أن أفعل أي شيءٍ من أجل إسعادكِ، جرّبيني.

توشكُ ان تهبط بيدها على وجههِ الكريه، لكنها تتذكر المراقب الإليكتروني الذي يوجد في مكانٍ ما.

تدور حولهُ دون كلمة، تكمل سيرها.

الناسُ تتوجهُ ناحية مركز التجوّل، في جماعاتٍ، تضحكُ وتتسامر.

امرأةٌ تقول لرفيقاتها.

- أخيرًا ستكون هذه هي الرحلة الأخيرة.

يُفتح الباب الزجاجي الضخم بعد انقسامهِ لأربعة أرباعٍ يذهبُ كل ربعٍ في اتجاه.

- لقد مللتُ من إصرار سامح على نزولي كل فترة. لن تتصوري سعادتي بنهاية عصر العيش على الأرض.

تضحكُ رفيقتها.

- أنا أيضًا مللتُ من هذه الجاذبية التي تشدنا باستمرارٍ إلى أسفل. اشتقتُ لرحلات الطيران في سماء القمر.

يعتريها شعورٌ غريب بالتعري وسط هذه الأرض ومساحاتها الفارغة الباردة، وأناسِها الغرباء الذين تعرف أنها لن تستطيع العيش معهم يومًا.

أناسٌ جمعوا الشر والفساد الخام في نفوسِهم، وتجمعوا في هذه الرحلة خارجين من الكوكب بعد أن قاموا بتدنيس كل بقعةٍ على الأرض.

تتالى أمام عينيها الموشكتينِ على الانفجارِ حزنًا؛ وجوهٌ منفّرةٌ رغم جمالها وأناقتها، كريهةٌ رغم روائحها العطرة النفّاذة، مليئةٌ بالكذبِ والرياءِ.

تدخل إلى قاعةٍ كرويةٍ تتراص مقاعدها على أرضٍ زجاجيةٍ لم تشعر بوجودها إلا حينما وقفتُ فوقها. تبدو مقاعدًا متعلقة بالفراغِ، ومع صورة الفضاء على الشاشةِ الكروية المحيطة بكل شيء شعرت أنها في عمق الفضاء.

جلست على المقعد المخصص لها، يفصلها عمن جوارها مساحةٌ كافية للخصوصية.

تشعرُ أنها في عمقِ الفضاء.

يتحرك المقعد في نفس الوقت الذي يبدأ عرض الأجواء بالخارجِ على الشاشةِ الكروية.

يعلو صوت معدنيّ لفتاةٍ.

- مرحبًا بكم في رحلة الفضاء الأخيرة إلى القمر. سنتدرّب خلال هذه الرحلة على المراحل التي ستواجهنا بالتفصيل، والآن؛ برجاء ربط أحزمة الأمان.

انطلقت الصورة فجأة، مع حركةٍ مفاجئةٍ من المقعد، شعرت بانطلاقةٍ مباغتةٍ لأعلى كأنها على قمة صارخٍ منطلقٍ للفضاء.

صوتُ محركات الصاروخ عاليًا مدويٍ. تشعر بابتعاد الأرض لأسفل من تحتها. تتقلصُ المساحات الشاسعة لمركز الفضاء ويبدأ الماء يحيطها من كل جانب. تقترب السحبُ تدريجيًا حينما تنظرُ لأعلى، أنفاسها تتلاحق. تشعرُ بفقدانِ الأرض من تحتها.

السحب حولها من كل جانب. تشعرُ بهوائها وضبابها تحت أنفها، تتمسّك بمقعدها بقوةٍ أكبر.

الوجود يتحرّك بأكملهِ هابطًا لأسفل، بينما تنطلقُ هي بسرعةٍ لا تصدقها لأعلى.

- يستغرق السفر من سبعة ساعات إلى ثمانية ساعات على أقصى تقدير للوصول إلى سطح القمر، لكن تدريبنا سيستغرق أقل من عشرة دقائق.

السحبُ صارت أرضيةً بعيدةً من الأسفل.

- الخروج من الجاذبية الأرضية سيتم الآن، لهذا نرجو منكم الإلتزام بمقاعدكم وبشروط السلامة.

تشعرُ فجأة بفقدها لوزنها، ترتفعُ لأعلى فلا يردها إلا حزامُ الأمانِ في المقعد. شعورٌ غريبٌ بالرهبةِ يكتسح روحها.

أسفل يسارها يبدو كوكب الأرض، أزرقًا، ضخمًا، مهيبًا.

ترى بعينِ خيالها البقع البرتقالية التي حدثها عنها الشاب الذي اختفى ونسيت وجوده، تتمدد فوق السطح المهيب، تغمضُ عيناها بألمٍ وتشعرُ بألمٍ شديدٍ.

- الآن سنخبركم ببعض المعلومات التثقيفية عن الحياة في القمر.

تتذكر وعدها للأمنوكال بأن تبذل كل ما تستطيعهُ من جهدٍ من أجل أزواغ الكبرى.

- يتم الحصول على الأوكسجين عبر نظام كهربة المياه التي تم اكتشاف وجودها على القمر، لهذا نرجو الحفاظ على كل قطرة مياهٍ أثناء الاستخدام اليومي. الطاقة التي نعتمدُ عليها هي الطاقة الشمسية التي يتم استخلاصها عبر القبة الهائلة التي تضم المستعمرة وتقيها من الموجات الإشعاعية والحرارية للشمس، لهذا برجاء الاحتفاظ بخيم الإيواء الكروية في رحالات الاستكشاف خارج المستعمرة وعدم البقاء خارجًا لأكثر من يوم واحد، وتذكّر ..الابتعاد التام عن المنطقة C التي تضم الألواح الشمسية، ومنطقة توليد الطاقة النووية.

تقترب صورة القمر أعلى اليمين، ويبدو أكبر من المعتاد بكثيرٍ. تمتلئ أرضه بالكثير من الفجوات والوديان. غريبٌ جدًا بالنسبةِ لها أن ترى القمر على هذه المسافة.

- إذا نظرنا إلى مقبض المقعد الأيمن سنجدُ غطاءً أحمر اللون، إذا رفعناهُ سنجد أسفله زرًا كبيرًا نوعًا. الضغط عليهِ سيقوم بفصل مقعدك بكابينتك بالكامل عن المكوك الفضائيّ في حالة من يرغب في السقوط الحر على سطح القمر. ذراعي المقعد يمكن استخدامهما في توجيه كابينته يمنةً ويسرة بحسب الرغبة، وسنقوم بتشغيل السائق الآلي بعد السقوط لضمان عودتكم إلى المستعمرة.

تخفت صورة الفضاء تدريجيًا حتى تظلم، وتهدأ حركة المقعد والتأثيرات الإضافية، ثم تضيء القاعة.

- شكرًا لكم على حسن تعاونكم. ونوجه عنايتكم إلى أن الرحلة الحقيقية ستبدأ خلال ربع الساعة من الآن، برجاء التفضل بالخروج من القاعة والتوجه إلى منصة الإطلاق حسب التعليمات.

تقوم من مقعدها.

تتوجه ناحية باب الخروج.

* * *

المقر الرئيس للحركة الوطنية للإصلاح.

تجلس فجر أمام عدة شاشات ضخمة تتابع الأحداث. بيبرس منشغلٌ بعمل عدة اتصالاتٍ تليفونية. عيسى يعمل بجهدٍ أمام أجهزة الكمبيوتر. يدخل هارون.

- فجر، ما الأخبار؟

تلتفتُ له نصف التفاتةٍ قبل أن تواصل ما تتابعهُ على الشاشات التي تشير ناحيتها.

- انتهى تجهيز مركز القيادة التكنولوجي، لن تتصور ما كلّفني هذا من مجهود. تجميع أحدث الأجهزة التكنولوجية، وأحدث الأسلحة، ومركز الاتصالات بالأقمار الصناعية. باختصار استطعنا في وقت قياسيّ جدًا أن نكون قلعة عسكرية نصفها تحمل أجهزة ومعدات شركة (هرقل).

يقفُ جوارها يتابع إحدى الشاشات التي تنقل الإعدادت المختلفة داخل " مركز القيادة التكنولوجي".

يسألها وهو يشير ناحية شاشةٍ تعرض ما يحدث في مول ميامي.

- وماذا عن خبراء الطاقة النووية ؟

تقولُ مشيرةً لشاشةٍ أخرى.

- تم السماح لبعضهم أخيرًا بدخول مول ميامي تحت حراسةٍ مشددة. هذه هي المرة الوحيدة التي يتم فيها إبطال عمل إحدى القنابل بكل هذا الصخب وسط الناس.

- لا وقت لدينا لمداراة الأمر كما كانت تفعل مريّمة.

- تم تنصيب هالات كهرومغناطيسية عملاقةٍ أخرى حول الأماكن المتوقع حدوث إنفجاراتٍ بها، لم يكن لدينا وقت كافي لتنفيذ الأمر كما كانت تفعل مريمة بتجنيد البعض داخل المكان.

يقولُ هارون بغضبٍ:

- معلومة صغيرة أشكُّ كثيرًا فيها تأتينا من سمرة في اللحظة الأخيرة تجعلنا نغيّر كل خططنا.

يقول بيبرس بعد أن انتهى من هاتفهِ:

- جميع اتصالاتنا التي كنّا نجريها خارج البلاد توقفت تمامًا الآن، لا نستطيع أن نتواصل مع أحد خارج القطر.

هارون بنفس الغضب.

- هذا من فعل أدهم.

تقول فجر.

- لم يعد لدينا إلا الثقة في مازن لإفشال مخطط أدهم التدميري.

- لو أن أدهم على علم بأن المخطط "X" لا زال ساريًا فسيعرف أن هدفهُ الأكبر هو القضاء على اللجنة والسفر للقمر، ستذهب كل أطماعه في حكم البلاد، يسألهُ عيسى وهو يعمل على جهازهِ بذات السرعة.

-وهل القضاء على اللجنة يظل خطرًا حتى الآن؟

- لا بالتأكيد، قبل ذلك كنّا نعمل في ظل يقيننا بعدم نجاح المخطط، أي في الظروف الطبيعية، الآن الأمر تغيّر كثيرًا، الفوضى والقتل والتدمير سيحدث في كل الأحوال، بالتالي القضاء على اللجنة سيصير مكسبًا مهمًا.

- بالتالي لن يعنينا أدهم في شيء.

- بل سيعنينا لأنه يعرفنا، ويعرف الكثير عن أسرارنا، وضمان سكوته وابتعادهِ عن طريقنا، سيضمنُ لنا أن نعمل بتركيزٍ أكبر.

تأتي بلقيس، تقول:

- انتهى تنفيذ الجامعة العلمية، ضممنا موسوعات كاملة في مختلف العلوم، من مختلف شبكات الإنترنت في كبسولاتٍ رقمية لحفظها مع الاحتفاظ بالعديد من أجهزة التشغيل، ومصادر الطاقة المخزّنة.

يعلو شهيق بيبرس وهو يقول.

- نحنُ نستعد لمواجهة نهاية العالم والتاريخ.

تظهر ملامح الحزن على وجه هارون.

- بل نستعد لمعركةٍ غير متكافئة الفرص مع الشر الخام.

بلقيس تقفُ أمام الشاشاتِ المختلفة.

- لقد فعلنا كل ما بمقدورنا فعله، لم يعد أمامنا إلا انتظار ما سيحدث، والدعاء بأن يخفف الله الكرب.

تراصوا أمام الشاشات.

* * *

منصّة الإطلاقِ.

تتوجهُ الأعداد الضخمة للمسافرين نحو قاعدة الصاروخ الذي بدا أمامها كبنايةٍ عملاقةٍ ترتفع إلى عمق السماء، تخطو إلى الداخل، تصعد عبر المصعد إلى المكوك الفضائي الكائن برأس الصاروخ، تخطو بأقدامٍ متثاقلةٍ نحو المقعد المخصص لها، تشعرُ أن قوة مجهولة تشدها للأرض، وأن جزءًا من روحها تركتهُ بالخارج، تجلسُ في المكان المخصص لها، مقعدٌ ضخم أمامهُ شاشة عرضٍ كريستالية، ذراعيّ المقعد يمكن تحريكهما يمنةً ويسرة، يبدو المقعد وجسد المكوك حوله ككابينةٍ ملتصقة به، تنظرُ ناحية الغطاء الأحمر على ذراع المقعد الأيمن والذي يفصلها عن المكوك.

تجلسُ، وتتابع بعينيها من حولها، الوجوه مبتسمةٌ ومنفّرة، لا تشعر أنها تستطيع أن تتعايش مع هذه الشخصيات التي بدأت في كراهيتها بشكلٍ لم تفهمهُ. صوت المضيفة:

- نستعد للإنطلاق الآن، برجاء ربط أحزمة الأمان.

جدران المكوك عبارة عن شاشةٍ كريستاليةٍ تعرض ما يحدث بالخارجِ مباشرةً، ينطلقُ الصاروخ فجأةً فتشعرُ بانسحابةِ روحها لأسفل، هي لا تريد أن ترحل عن الأرض.

- يمكنكم الآن متابعة كل ما يحدث بالخارجِ، تبتعد الأرض، تقترب السحب، يكملُ صوت المضيفة.

- باقي نصف الساعة على الخروج من الجاذبية الأرضية.

خلفها صوتُ فتاتين تتضاحكان، تُكمل المضيفة.

- يمكننا أن نشاهد الانفجارات التي ستحدث على طول الكوكب وعرضهِ في أبهى وأروع مشهدٍ يمكن ان يراهُ بشر، بمجرد الخروج من نطاق الجاذبية الأرضية، تسقطُ دمعةٌ مفاجئةٌ من عينيها، هل ستشارك لحظةً كارثيةٍ كهذه مع أناسٌ كهؤلاء، صوت الفتاتين يعلو بضحكاتٍ عابثة.

- هل تعرفين أن أمي ستكون معهم؟

صوتُ زميلتها بانبهارٍ.

- هي لم تأتي معنا على هذه الرحلة.

تضحكُ الفتاة.

- هل تتصورين أن أعيش معها كذلك على المستعمرة، لقد مللتُ غيرتها منّي، ومحاولات أخذ أصدقائي، هذه امرأةٌ، مريضة.

صوتُ زميلتها يختلطُ مع صوت المضيفة في ذات اللحظة.

- ماذا فعلتِ يا مجنونة؟

- خمسةُ عشر دقيقة على الخروج من نطاق الجاذبية.

- أغلقتُ عليها حجرة نومها، وباب الطابق، ثم أغلقتُ جميع أبواب القصر بعد أن طردتُ الخدم.

يعلو صوتُ ضحكاتهما معًا، تتسعُ عيناها ذهولاً غير مصدّقة، يدها تمتدُّ لا إراديًا إلى الغطاءِ الأحمر الذي يخفي زر الإنفصال عن المكوك، تفكرُ في أن قومٍ كهؤلاءِ ربما لا يستحقون أن ينبت فيهم خيرًا.

- عشرةُ دقائقٍ على الخروج من نطاق الجاذبية الأرضية، تفتحُ الغطاء الأحمر، لتجد الزر الكبير مستقرًا أمامها.

* * *

مقر القيادة العسكري الذي أسسه الجنرال أدهم.

غرفةٌ واسعةٌ مستديرة، تلتفُّ في محيطها عدة شاشاتٍ، يجلسُ في الوسط الجنرال أدهم الجبليّ يرفعُ قدميهِ فوق المكتب، ويتابع بانتباهٍ ما يدور عليها، عن يمينهِ يقفُ مازن مستندًا على طرفِ المكتبِ ويتابع بدورهِ ما تنقلهُ الشاشات، بعض الشاشات تنقل صورة بعض الميادين الكبرى في مختلف المحافظات، يشير أدهم باستهتارٍ إلى إحدى الشاشات التي تعرض مول ميامي.

- هذه الحركة تملكُ غباءً لا يستهان بهِ، يضيعون جهودهم لإنقاذ هذا الشعب الأحمقز

يرد مازن.

- أحيانًا أشعرُ بالاحترامِ تجاههم.

يلتفتُ له الجنرال، فتبدو صورتهُ في عينِ مازن مع خلفية ما يعرضهُ التليفزيون وقنواتهِ الرسمية في شاشاتٍ أخرى.

- هل تعرف لماذا اخترتك لتكون رفيقي الوحيد في ساعة الصفر؟

يظهر التساؤل على عينيّ مازن.

- لأنك صادق، تقول ما في نفسك دون مواربةٍ ودون خوف.

يلتفتُ مرةً أخرى ليتابع انطلاق المكوك الذي يتجسس عليهِ بأدق الكاميرات وأبعدها مدىً.

- لو كان أحدٌ سواك، لخشى ان يقول كلمةٍ كهذه خوفًا من أن أشكّ فيهِ.

يقولُ مازن:

- عقليةٌ مثلك يا جنرال لن تحتاج لكلمةٍ كهذه كي تقرر أن تشكّ فيّ.

ابتسم الجنرال وهو يشير بإصبعهِ تجاههِ بمعني" معك الحق"، يشيرُ نحو المكوك المنطلق.

- هل تعرف ما هذا يا مازن.

ينظرُ مازن نحو الشاشةِ ويقول:

- لم تخبرني بالأمر بعد.

يتابع الجنرال رحلة المكوك وهو يقول:

- هذه هي آخر الرحلات الذاهبة إلى القمر أثناء ساعة الصفر.

ينتبه مازن بشدةٍ، ويفكرُ في مريّمة.

- يودون أن يتابعون انفجارات الأرض من خارج الكوكب.

يلتفتُ فجأة إلى مازن الذي يحاولُ أن يضبط ملامح ووجههِ إلى الوضع الصارم.

- الآن سيبدأُ بالفعلِ عهدٌ جديد، ستبدأُ على الأرضِ امبراطورية متكاملةٍ يؤسسها أدهم الجبلي، حضارة كاملة سيدعوها التاريخ بالحضارة الجبلية، بعد فرض السيطرة على مصر، ستتساقط دولٌ أخرى في الجوارِ، الدول

الكبرى كأمريكا وروسيا ستختفى من الوجود، والدول الصاعدة التي تحملُ الفلسفة الإسلامية ستتعاون معها مؤقتًا قبل أن نسيطر عليهم، سأبدأُ تاريخًا جديدًا يا مازن، وكل ما يحدث الآن هو لا شيء بالنسبةِ له.

يعود إلى متابعة المكوك.

-أنا عالقٌ الآن فقط في هذه المرحلة من الخطة الكبرى، لا بد من السيطرة على مصر بالكامل، ودحض أي مظاهراتٍ أو وجودٍ لثوار القمر هؤلاء، لقد أدّوا دورهم بالكامل أفضل من أي شيءٍ آخر، سيتنحون جانبًا، لن تبقى لجنة الحكماء، ولا كل رجال الصف الأول في الدولة، حتى لؤلؤة القمر التي تمثل أكبر الأخطار.

يشيرُ إلى شاشةٍ أخرى تعرضُ بناءًا مهيبًا فوق سطح القمر.

- كل هذا سينتهي، لن يبقى سواي، وسوى بعض القوى الدولية التي سيمثل اللعب معها نوعًا من فترات الاستراحة قبل بداية المرحلة الثانية من المخطط الأكبر.

يتغيّر وجهُ مازن، تتعالى أنفاسهُ، تغزوه دهشة كبرى، تتردد في خيالهِ كلمةُ هارون بألا يسمح للجنرال بأن يفوز أبدًا، ينظرُ الجنرال نحو الساعةِ في ركن الشاشات العلويّ.

- باقي خمس دقائق على ساعة الصفر، انظر كيف سيتغير شكل العالم بعد هذه الدقائق الخمس، يحاولُ مازن أن يضبط نبرات صوتهِ.

- ما الذي سيحدث،

يلتفت لهُ مبتسمًا،

- أعرفُ كل النشوة والحماس التي تدور في صدرك الآن، أنت ستكون معاوني الأول في كل شيء، لأنني لن أثق في شخصٍ غيرك.

تمرُّ الدقائق بطيئةٌ جدًا.

يشير بيدهِ إلى شاشة المكوك الذي لم يعد يبدو منهُ سوى نقطةٌ مضيئةٌ تمثل وهج الذيل.

- انظر ما الذي سيحدث هنا الآن

ينظر مازن، فيشير أدهم بيدهِ إلى الصورة التي تعرض لؤلؤة القمر، بحماسٍ زائدٍ يقوم الجنرال من جلستهِ ويقترب من الشاشات.

- أنت الآن تشاهد لحظة تحوّل التاريخ.

تنفجر لؤلؤة القمر فجأة، انفجارٌ ضخمٌ مهيبٌ ينطلق في شكل عيش الغراب الشهير، ينقبض لهُ قلب مازن وتنقطع انفاسه، لم يتصور أن يشعر بهذا الشعور الآن بعد كل ما قتل وعذّب.

تتناثر الشظيات عن الانفجار ثم ينقطعُ الإرسال فجأة، وتظلم الشاشة، الجنرال غاضبًا.

- الأغبياء أخبرتهم أن يبعدوا الكاميرا عن مجال الانفجار حتى تنقل كل شيءٍ باستمرار.

النقطة المضيئة في السماء والتي تمثّل المكوك تتوهج في شدةٍ، يضحك الجنرالُ فجأة.

- وداعًا لجنة الأغبياء، ينقطع نفس مازن تمامًا، لم يتصور أن هذا سيحدث، يسأل بنفسٍ ضائع.

- ما الذي حدث؟

يرد عليهِ الجنرال وهو يوليهِ ظهرهِ ويعد الكاميرا التي ستنقل صورتهُ إلى شاشات التليفزيون.

- المكوك الذي ينقل لجنة الحكماء ليشاهدوا انفجارات الكوكب، لم يعرفوا أنهم هم الذين سينفجرون.

يتجمّد مازن في مكانه، يفكرُ في مريمة، هو الذي أرسلها إلى هناك.

- يبدو لي في الأمرِ عدالة شعريةٍ طريفة، لم أتخيّل أنني شاعريّ إلى هذه الدرجة.

مازن يبدو متجمدًا كأنما مات في وقفتهِ.

الجنرال يضغط على بعض أزرار الكاميرا، تنتقل صورتهُ إلى الشاشات التي تعرض ما يدور على التليفزيون الرسمي، الجنرال يخطب.

- أيها المواطنون في كل مكانٍ يصل إليهِ بثّنا، أيها المواطنون في ساحات الميادين، وفي المنازل وقطاعات العمل المختلفة، في هذه اللحظة التاريخية نعلمكم بأن خارطة الحياةِ في بلدنا الحبيب قد تغيّرت إلى الأبد، لقد تم القضاء على لجنة الحكماء، ستشاهدون الآن لحظة انفجار المكوك الفضائيّ الذي كان ينقل لجنة الحكماء إلى مستعمرة القمر.

تختفي صورة الجنرال لتعرض المشهد الذي رآهُ مازن منذ لحظات.

- لقد كذبوا عليكم طوال سنوات حكمهم، والآن بعد انتهاء عصور ظلمهم السوداء، أنتم أحرارٌ، سنبدأُ معًا عصرًا جديدًا من الـ...

يختنق صوت الجنرال، مع الرصاصةِ التي اخترقت ظهرهُ، يلتفت ببطءٍ بعيونٍ جاحظةٍ من الدهشة.

رصاصة أخرى تخترق رقبتهُ، يشيرُ الجنرال بيدهِ نحوه بعينٍ جاحظةٍ من الذهول والدهشة.

تتساقط الدموع من عينيّ مازن وهو يركل الجنرال الذي سقط غارقًا في الدماء،

- أنت مجرّد حيوانٌ لا يرى سوى نفسهٌ ويقهر الناس لمجرد أنه يملك القدرة على هذا

تخترق المزيد من الرصاصات جسد الجنرال الذي فارق الحياة.

يسقط مازن على قدميهِ يبكي.

* * *

خاتمة

الشهرُ الثالث يمرُّ وسط توسلات هارون لي بأن أبقى.

الشهرُ الثالثُ بعد الحظة الفارقة التي حددتها لجنة الحكماء كي يبدءوا عصرًا جديدًا كزعماءٍ على العالم فشاء الله أن تكون فيها نهايتهم.

كنا نعرف أن معركتنا الأكبر هي مع الناس، وليست مع النظام، لكن أوان المعركةِ آن قبل أن نستعد استعدادًا كاملا لها، لم يعد لبقائي معنىً.

في السابقِ كنتُ أعرفُ حدود ما أفعل ومدى تأثيرهُ، أفهم كل ما يجري حتى لو لم أُلم بكل تفاصيلهُ، كنا ندرك مسرح الجريمةِ ونبحثُ في تفاصيله وسط مجتمعٍ ساكنٍ برغمِ صخبهِ وجنونهِ.

أما الآن فقد تحولت الساحةُ إلى هذيانٍ لم يعد لهُ معنىً، ولا لإدراكه حدود.

هارون لا زال يحاولُ أن يلم شتات الحركةِ التي سقطت في التيه، يحاولُ أن يفهم ويدرك أبعاد ما يحدث وآثارهُ، ينعزل في غرف المراقبةِ يتابع أحوال الشارعِ، يبحث في اتصالاتهِ الدوليةِ عن معونةٍ أو يدٌ تمتدُّ بالمساعدةِ والتأييد، ولم أكن في حاجةٍ لتصريحهِ لأعرف أن جميع الدول – حتى المتعاونة معنا- تقف على مسافةٍ تنتظر ما ستؤول إليهِ الأحداث لتحدد اتجاهاتها، ربما لا يقفُ معنا معنويًا إلا المنظمات والحركات الإسلامية برغم صراعها المستميت كي تؤكد على نقاءِ يدها من كل التفجيرات النووية التي حدثت في كثيرٍ من بلدان العالمِ؛ أكثرها الولايات المتحدة.

لم أتخيل أن رجلاً كارثيّ مثل أدهم الجبلي يمكن أن يفعل كل هذا.

الآن صار جليًا أن مستعمرة القمر حقيقة واضحةٌ كالشمسِ في أعين جميع الناسِ ممن شككوا، وسبّوا وضللوا، والغريب أن الناس لم تندهش، ولم تفكر، ولم ترجع لرشدها؛ بل هاجموا فضح الأمر، واستنكروه في البداية، ثم بدأوا يتصارعون في البحثِ عن وسيلةٍ لبلوغ المستعمرة، دون أن يعلموا بتفجير المركز الأساسي للطاقةِ بها.

عشتُ عدة أيامٍ مشتتةٍ لا أعرفُ ما الذي سنفعلهُ، وما الذي سيحدث هارون وضع كل خططهُ في البدايةِ على الوصول بالشعبِ لدرجةٍ من الوعي كي يعرف فجائع ما ألم بهِ، ثم لما علمنا بخطة الجنرال وضعنا كل خططنا على إفشالهِ، واعتمدنا على مازن، دون أن نضع خططًا بديلة.

هارون يعلمُ – وأعلمُ كذلك – بأن الوضع سيكون مفجعًا إذا أتم الجنرال خططهِ ونال من لجنة الحكماء ورجال الصف الأول كما يسميهم هارون، الوضع كان مفجعًا لدرجةٍ جعلتنا نضعُ كل الخطط لتلافي هذه الصورة دون أن نضع خطةً واحدةً لمواجهتها.

نفكرُ الآن ونمارس الحكمة بأثرٍ رجعيّ، وقت لا تنفع التأملات في الماضي، وسط عواصفٍ نواجهها دون أي قدرةٍ أو أدواتٍ لهذه المواجهة.

فجر سقطت في صراعٍ وجوديّ مع سكرتيرتها شيري، الأفعى الأخرى التي تشبهُ سمرة الراسي في بدايات حياتها.

شيري تحظى بتأييدٍ كبيرٍ من كثيرٍ من مراكز القوى بشركة (هرقل) وتسعى للحصول على تأييدٍ مماثلٍ في (أمان) خاصة بعد أن قتلت عاصم عبد الفتاح.

مازن لم يخبرها بموت الجنرال، بل ظلّ مقتلهِ حبيس حركتنا لا يعرفهُ سوانا، وحين رفض عاصم الانضمام لها ليكونوا معًا جبهةً مسيطرةً على قطاع الأمن، اشتمت منهُ رائحة الخيانةِ، فلم تمهلهُ كثيرًا.

فيما بعد بدأت فجر تضيق الخناق عليها، فسرت بينهما حربًا غير معلنةٍ، حاولت خلالها أن تضيّق الخناق عليها، لكن الخناق ضاق فعلا حول عنق شيري حين قرر مازن أن يخرج من عزلتهِ وحزنهِ مقررًا الانتقام من الجميع.

بدأ مازن علاقة فجةً ومبتذلة وصريحة مع شيري استطاع – باتفاقاتٍ سرية مع فجر- أن يقنعها بوجودهِ في جانبها، وبتأييد الجنرال – المقتول الذي لا تعلم بمقتلهِ- لها.

مارس الدور الذي كان مفترضًا أن يمارسهُ في وجود الجنرال، وتحرك خلالهُ بسليقتهِ القتالية المكائدية.

أراهُ يتحرك بلا شعورٍ، وتكثر تنقلاتهِ ما بين مقر الحركةِ، ومقر (هرقل) ومقر الجاساك حيث يحاولُ أن يعقد تحالفًا مع العقيد جاسر، الرجل الذي صار الأول في الجهاز.

لم أتخيل أنهُ هو نفسه الذي انكفأ على وحدتهِ عدة أسابيعٍ حزنًا على مريمة التي أرسلها بنفسهِ إلى إلى حتفها في عمق الفضاء.

لم أسمح لنفسي بالحزنِ على مريمة، ففي أعماقي أشعرُ أنها لا تزالُ بعالمنا.

أنا أشعرُ بمن يموت، خاصةً إذا كان قريبًا منّي، ولم أقابل في حياتي من اقترب منّي ولمسني كما فعلت مريمة.

أعرفُ كيف سأفقد تواصلي الروحي معها حين تموت، وخبرتُ هذا الشعور قبلاً حين انتحرت أمي وأنا مراهقة لم ينتصف عقدها الثاني من العمر.

كان شعورًا بالتعرّي، كأنني فقدتُ اتصالي بيدٍ أو قدمٍ، وصرتُ أحركها في أعماقي دون أن تتحرك فعليًا، ودون أن توجد، كنتُ أبحثُ عن أمي لكن عصبًا ما كان متصلًا بها في أعماقي قد انقطع، وصارت تتواجد في داخلي فقط دون أي انعكاسٍ على الواقع.

تكرر هذا كثيرًا عبر حياتي، كل من اقتربنّ منّي كان يصلني بهن أعصابًا مستترةٍ لا يعرفُ سواي بوجودها، وهذه العصب الذي يربطني بمريمة لا زال متواجدًا.

مريمة لم تمت، وليس هذا ناتجٌ عن تخريفٍ أو رومانسيةٍ متطرفة، فكل ما عانيتهُ في حياتي قتل أي احتمالٍ لرومانسيةٍ داخلي.

يخبرني مازن أنه يتمنى أن يَصْدق توقعي، برغم أنه نظر لي كمن ينظر لمجنونٍ حين أخبرتهُ بهذا في بادئ الأمر؛ في محاولةٍ بائسةٍ لمواساتهِ.

في أيام اختفائها الأولى، زرع هذا فيهِ فكرةً مهووسة باحتمالية أن مريمة لم تركب المكوك الفضائي، لم يكن في كلامهِ وظنونهِ منطقٌ يغنيهِ عن حدسي، لكن يبدو أنه آثر المنطق المهترئ هذا على اللا منطق في كلامي، كأنه يبحثُ عن أي قشةٍ يتعلّقُ بها، ولمستُ صدق شعورهِ تجاه مريمة في هذه الأثناء.

كل هذا جعلهُ يتتبع حركتها في رحلتها الأخيرة إلى مركز الفضاء المصري، ويحاولُ التأكد من وصولها للمكوك، على أنه لم يصل إلى شيءٍ أكيدٍ حتى الآن.

لم ينتبه أحدٌ من رجال الأمن أو رجال الجاساك لشيءٍ غير مظاهرات الثوار، بل مثّل الوصول إلى هؤلاء الذين تواجدوا في أماكن تواجدها صعوبة لم يستطع مازن أن يجاوزها، حتى الشوارع صار السيرُ فيها يمثلُ مستحيلاً أكثر مما مثلهُ من قبل.

لم أعد أجدُ مسمىً لما يحدثُ في الشوارع الآن، أشياءٌ أكثر من الفوضى والجنون والهمجية، حتى صار التوحش والقتل والقنص والاغتصاب فيما سبق يمثلُ أيامًا هادئةً نتمنى أن تعود من جديد.

لم يعد يوقف الناس شيء، البحث عن طريقٍ يوصل الناس بمستعمرةِ القمر أصابهم بجنونٍ وتغول لا يمكن مجابهتهِ، الهجوم صار يحدثُ في جماعاتٍ تستهدف أماكن السلطة والقوة، قصور وفلل رجال الدولة، منطقة التجمع العاشر بالعاصمة حيث يسكن أعضاء لجنة الحكماء، وحتى أفرع الجاساك تتم مهاجمتها يوميًا في جميع المحافظاتِ والمدن، وكذلك مراكز شركات الأمن.

المذابحُ صارت يوميةً مئاتٌ من الضحايا وآلاف المصابين الذين لا يعتني بهم أحدٌ فيموتون أو يعيشون بعاهاتٍ مستديمةٍ بخلاف ما يحملونهُ في نفوسهم من تشوهٍ وقصور.

الشعب الذي تم تدجينهُ وتدريبهُ بأكثر الأساليب وحشيةٍ وإطلاقهُ في ساحاتٍ للألعاب الدمويةِ ليقضي بعضهُ على بعضٍ ينقلب على الجميع ويحولُ الواقع

إلى هذيانٍ لا منطق لهُ ولا معنىً، حتى رجلٌ بعقليةِ هارون يفشل في تفسير كل شيءٍ؛ بالكادِ يفسر حدثينِ أو ثلاثة لكنه يفشل في فهم الصورة الإجمالية.

أسألهُ إن كان ما أوقف الشعب سابقًا عن فعل هذا هو وجود لجنة الحكماءِ فقط، فيتردد في الإجابةِ.

يقول أن انكسار لجنة الحكماء ربما جعلهم يظنون أن النظام ليس قويًا منيعًا بما يكفي، ربما منحهم بعض الأمل في أن ينكسر النظام بأكملهِ.

لكنهم على مدار ثلاثة أشهرٍ من الصراع والحرب المسلحةِ يرون أن النظام لا ينكسر، وأنهم يسقطون قتلى بالمئاتِ والآلاف، لم يحملوا عقيدةً يدافعون عنها، فلقد فُرّغوا من العقائد عبر سنواتِ احتلالهم الطويلة، ولم يكن لهم من عزيزٍ يزودون عنه، فهم يحتمون بأولادهِم وأموالهم وذويهم، لم يحملوا غير الطمع في التملك، والرغبة في الوصول إلى كل الممنوعاتِ والمحجوباتِ والجنانُ المستترةُ التي خبأها النظام بعيدًا عن أعينهم.

يقولُ بيبرس أحيانًا: إن هذا الشعب يتحرك بفعل القصور الذاتي، هؤلاء المتدربين طويلاً على القتالِ والصراعِ لم يعرفوا لوجودهم سببٌ آخر، ولا نشاطًا آخر غير التطاحن.

غير أني لا أقتنع بأيٍ من هذه التبريرات، وأعجزُ عن تقديم تفسيرٍ مناسبٍ لما يحدث.

لم يعد من بيتٍ لم يُقتحم، ولا من امرأةٍ لم تغتصب، حتى شركاتِ الأمن تفرغت لحماية نفسها وفروعها الكثيرة وتركت كل عقودها وعملائها، الذين سحبهم الموجُ المتلاطمِ للتطاحن فصاروا فريقًا من الفرق المتناثرةِ التي تهاجم كل شيء.

جهاز الجاساك تفرغ هو الآخر بكل قوّتهِ إلى عصبة (الجيل الأسود) التي أعلنت تمردها وغضبها حين لم يبدو أي بصيصٍ من الأمل في انضمامها إلى المدرسة العسكرية الدولية، هذا الغضب تجمع واحتشد وانصب على المدرسة التي حاولوا اقتحامها مرارًا وفشلوا، المدرسة تستخدم تكنولوجيا أكبر منهم

بكثيرٍ، حينما تحوّلوا إلى ثاني أكبر الأجهزة الأمنية، لا أعرف السبب في الحقيقة وراء هذا التحول؛ أهو محاولة للبحث عن وسيلةٍ لدخول المدرسة ؟ أم مجرد شغب، أم رغبة في فرض السيطرة وتأكيد الوجود، لكنهم ظلّوا متحدين معًا يضربون ضربات هوجاءٍ، ويبرر هارون ذلك بأن أدهم لم يستكمل استراتيجيتهُ معهم.

لم يعد للتظاهرِ معنى في هذه الأحداث والمجازر، ولم أعد أفهم لبقائي سببًا، ولا أجد لنفسي مهمةً ولا وظيفة.

أشعرُ برغبةٍ فائقةٍ في الابتعاد، والاختلاءِ العميقِ بالنفس، أشعرُ بالفوضى في أعماقي، وأشعرُ بالعجزِ في هذا المكان، العجز والشلل الذي أسكت كل واحدٍ منّا عما يفعلهُ.

أعترف أن الوحيد الذي تمالك نفسهُ سريعًا، والذي تحرّك هو مازن، أخبرني ذات مرّةٍ أنني سأكونُ ثاني من يتحرك، وأن هارون سيكون آخرنا.

وحين سألتهُ عن السبب قال لأنني لا أنظِّر للأمورِ كثيرًا مثلما يصر هارون أن يفعل، مازن يؤمن أن النظرية لا تأتي إلا من الواقع، ويؤمن أنه هو الذي يصنع الواقع لهذا فهو فوق النظريات.

ربما أختلفُ معهُ لأنني أوقنُ أنه لم يعد من جديدٍ تحت الشمس، وأن كل أفعالنا وأقوالنا حدثت من قبل آلاف المرات، نحنُ نعيش في آخر الزمانِ، فلم يعد لدينا جديدٍ لنأتي بهِ، وفهمنا للنظرياتِ يعمّقُ فهمنا للواقع، ويكسبنا خبراتٍ لا تقارن.

يهزأ من كلامي ويقول أن لهذا السبب سأتأخرُ كثيرًا في التحرك، سألني أن أقارن وضعي المهتّك فكريًا وشعوريًا بوضعهِ، هو تحرك سريعًا، ضم شيري تحت جناحهِ بعد أن سيطر على جسدها، ويحاولُ الآن أن يضم العقيد جاسر للوائهِ مستخدمًا خيال أدهم الجبلي.

يقولُ مازن: أنه فرد سيطرتهِ على ساحة المعركةِ سريعًا، وصار يدير فعليًا قطاع الأمن، ويعرف بكل ما يدور في البلاد عبر جهاز الاتصالات الأكثر رعبًا في

التاريخ؛ الجاساك، لهذا سيكون هو الوحيد القادر على التصرف حين يبدأ أي من الأطراف الأخرى التحرك.

أعترفُ أنني أحملُ قلقًا تجاه مازن، ثمةُ هاجسٍ بأنهُ سيتحوّل تدريجيًا إلى نسخةٍ مشوهةٍ من جنرالِهِ المعلم الذي قتلهُ، أنفضُ كل هذا عن رأسي المتعب، وأنا أؤكد لنفسي باحتياجي الشديد لتجاوز كل هذا والخروج منه.

أعدُّ نفسي للرحيلِ إلى "قُدسليم"؛ المكان الوحيد الذي يهنأ بالأمن، ولم تحدث بهِ تفجيراتٌ إثر مخطط "X"، ستأخذني طائرةٌ خاصة تابعةٌ للحركة إلى مترو الأنفاق الدولي الذي تسيطر عليه المدرسة وتديرهُ بيدٍ شديدةِ الصرامة.

أقفُ لأودع رفاقي، وأودع كل ما جمعني بهم من حلمٍ وحماسٍ وتخطيطٍ وثورة، أودعُ سنواتٍ كثيرةٍ من عمري كنتُ أعرفُ فيها أنني ألمسُ عمق روحي، وأن مكاني الأوحد هو هنا بين هؤلاء الأكثر من أصدقاء، قال هارون بصوتٍ متهدجٍ:

- ستعودين يا بلقيس، لا بد أن تعودي.

أمنعُ عبراتي من الانفلاتِ وأنا أخبرهُ أن ربما، فيقولُ بحزنٍ لم أراهُ قبلاً:

- لن يحل مكانكِ أحدٌ في نفوسنا ولا في هذه الحركة التي بنيناها بأعمارنا، ودمائنا وأحلامنا، سأجد الخيط الذي ندخلُ بهِ الحلبة كي نوقف الصراع، أنا أعملُ على هذا، وقد أوشكتُ على الوصول.

تسقطُ عبراتٌ ثائرةٌ وأنا أدور حاملة حقائبي.

أعرفُ – في جانبٍ خفيٍّ من روحي – أنني سأعودُ إلى هنا مجددًا، وأني لن استطيع أن أمحو أحلامي التي بدأت هنا، ولا سنوات عمري التي قضيتها بينهم، ولن استطيع أن أتجاهل الصوت الخفيض الذي يناديني – منذ الآن - بأن أبقى والذي سيعلو تدريجيًا مع كل خبرٍ جديدٍ أسمعهُ عن هذه الأرض الحبيبة.

أعرفُ أنني سأتلصصُ الأخبار فيما بعد كلما ساقني الحنينُ وقادتني الذكرياتُ لهذا المكان، أعرفُ أن وقتًا سيأتي لن أستطيع معهُ أن أبتعد أكثر، وأعرفُ أن

جولةً جديدة من الصراع الذي بدأناهُ سيحينُ وقتها، وستدور بأدواتٍ مختلفةٍ وفي أجواءٍ تبتعد كل البعد عن كل ما شهدناهُ سابقًا.

لكنني أعرفُ كذلك أن هذا الوقت ليس الآن.

تمَّت بحمدِ الله وتوفيقه

مصطفى يحيى

٣١ / ٠٣ / ٢٠١٤

* * *

صفحة الرواية على الـfacebook:

https://www.facebook.com/twabeeralkhawf

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

Noon_publishing@yahoo.com

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧